

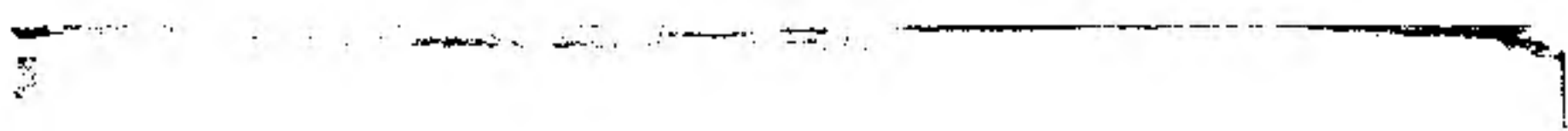
# اللغة بين القومية والعالمية

تأليف

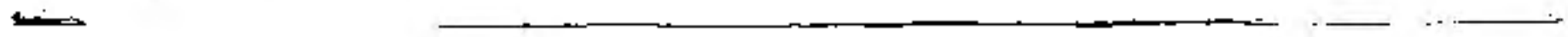
الدكتور إبراهيم أنيس



دارالمحارف بمصر



1



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

حين خطر إلى منذ بضع سنوات أن أكتب في موضوع دور اللغة على المستوى القومى والمستوى العالمى ، راعى ذلك الحاضر ، وهالى أمره ، وكدت أنصرف عنه .

فقد تبين لى وعورة الطريق إلى مثل هذا البحث ، وما قد يكتنفه من الحساسية لدى بعض الشعوب ، مع ما أخذت به نفسى من الحيدة والموضوعية فى كل ما أكتب . إذ يتطلب الموضوع دراسات فى السياسة الدولية وقوانينها ومعاهداتها واتفاقياتها . وأخرى فى النظم الاجتماعية وتطوراتها . ويتطلب كذلك جولات فى تاريخ الأمم قديمه وحديثه . وغير ذلك من دراسات ليست من صميم تخصصى الذى يقتصر على اللغة وأصواتها ورسيقها وصيغها وتراكيبها ودلالات ألفاظها .

ومع كل ما تقدم استخرت الله . وشرعت فى البحث ووجدتني منذ البدء غارقاً فى خضم عشرات من المراجع الأجنبية . فلا أدري بأيها آخذ ، أو أيها أترك ، وكلها تعرض عرضاً سريعاً فى بعض فصولها لدور اللغة فى المجتمع الإنسانى .

ولعل من أهم ما حفزنى إلى تناول هذا الموضوع الذى تتصارع حوله الآراء ، أنى وجدت اللغويين العرب يقنعون ببحث اللغة من حيث كنهها وخصائصها وتطوراتها . بحثاً جذرياً متعمقاً لا يدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المسائل اللغوية إلا عرضوا لها بالتفصيل والإسهاب . ثم تبقى تلك الجهود مقصورة أو محصورة فى مجال ضيق من المدارس المتخصصة فى اللغات بالكلية والمعاهد .

وتركوا دور اللغة في الشعوب والأمم لأصحاب الدراسات الأخرى ، السياسية منها والاجتماعية ، بل الجغرافية أيضاً ، من أولئك الذين لمسوا الموضوع لمسا خفيفاً في ثنايا كتبهم وبحوثهم ، اعتقاداً منهم في غالب الظن أن اللغة ، بوصفها ظاهرة اجتماعية ، أمر مألوف معروف يجري على كل لسان ، وليس له كل ذلك الأثر الذي نعتقد أنه يُعزى إلى اللغة وحدها .

في حين أن اللغويين الغربيين قد أسهموا في هذا المجال بجهود موفورة مشكورة ، وإن لم يكن لها صدى عملي كبير بين ساسة العالم حتى الآن . فأولئك الذين نادوا منذ نصف قرن بما أسموه حق تقرير المصير قد ضلوا الطريق في الاهتداء إلى الأساس الحقيقي في هذا الحق ، وتجاهلوه عن عمد حيناً ، وعن جهل بملى أثره حيناً آخر . وتلمسوا في تقرير مصائر الأمم أموراً طارئة أو وليدة المصادفة البحتة ، كالحجود الجغرافية مثلاً تلك التي لم تعد في العصر الحديث ذات بال في التخطيط للشعوب .

وغفل هؤلاء الساسة ، أو كادوا ، عن مدى الأثر العميق للغة في عقول الناس ونفوسهم ، وعن مدى استمساك الشعوب بلغاتهم . واستعدادهم للتضحية في سبيلها بالأنفس والأرواح . وكانت لذلك تلك المشاكل التي لا تنهى بين شعوب الأرض ، والتي عرضنا لطرف منها في هذا الكتاب تحت عنوان ( فتش عن اللغة ) .

باء ، إذن : التخطيط للشعوب بالفشل الذريع في إثر الحروب وبمقتضى تلك المعاهدات الدولية ، لأن النوايا لم تكن صادقة مخلصه لدى أولئك الذين قاموا به ، وعملوا له . فقد غلبت عليهم الأثرة . وجنحوا إلى طموح دنيوى يتمثل في توسيع مجال النفوذ الاستعماري أو الاقتصادي على حساب بعض الشعوب الضعيفة المهينة الجانب . فكانت بذلك تلك المآسى الدامية التي يشهدها العالم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وأما أثر اللغة في الهوض بشعب ما ، فأمره أعظم وأخطر ، وإن لم يفتن إلى هذا بعض زعماء الشعوب وقادتها ، أو ربما فطنوا إليه في حالات . ثم

لم يولوه ما يستحق من عناية وتقدير ، لأن العمل له يتطلب جيلاً أو جيلين ولا يؤتي ثماره خلال سني حياتهم ، مهما امتد أجل سلطانهم وحكمهم . ولذلك يركزون عادة كل جهودهم على النفع العاجل ليحظى الشعب ثماره خلال فترة تاريخية وجيزة ، كمشروع عمراني ، أو خطة تتحقق بعد خمس سنوات ، ونحو ذلك .

والإصلاح اللغوي هو أحد تلك الأهداف الآجلة التي لا يتوقع لها النجاح إلا مع التخطيط لأجيال قادمة ، ومع المتابعة والمثابرة ، وبذلك الجهود مهما شقت . أو استفحل أمرها على أبناء هذه اللغة .

وليست تم الوحدة السياسية ، وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة اللغوية التي تصبح للشعب بمثابة رباط سحري يجذب أفرادهم بعضهم إلى بعض ، ويوثق الصلة بينهم ، فيفكرون في عقل واحد ، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة ، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً ، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرخاء .

ولا تكون تلك الوحدة اللغوية إلا في لغة مشتركة للشعب ، تنتظم الناس كافة . وينطلع كل منهم إلى إتقانها والسيطرة عليها . نطقاً وأداءً . كما هو الشأن في بعض الشعوب الحديثة الناهضة التي لكل منها لغة مشتركة تسود بها جنباً إلى جنب مع ما قد يكون لها من لهجات ، ولكنها تسمو على تلك اللهجات . فلا تشوبها صبغة منها ، بل هي التي إذا تكلم بها المرء لا يكاد السامع يستشف من كلامه شيئاً عن بيئته المحلية .

وتقنع بعض الشعوب بأن تكون لغتها المشتركة في صورة مكتوبة فحسب ، أو قد يهمل في بعضها الآخر أمر الكلام لتنازعه في بيئاتها لهجات متباينة ، فلا يكون لدى الشعب ما يلم شتات أبنائه ، ويوجد بين صفوفهم . ولا يرجى للشعب مع مثل هذه الحال نهضة أو ازدهار .

فالعامل على نشأة اللغة المشتركة للشعب ، وتنميتها ، ونشرها في كل الأوساط والبيئات خير ضمان لكل قومية ، ولتماسكها وقوتها .

وقد أصبحنا بعد معاناة اللغة سنين طويلة ، في معظم صورها ، وكل ظواهرها نؤمن إيماناً قوياً بأنها أسّ الأساس في كل قومية ، وأن ما عداها مما قد يسميه بعض الدارسين بمقومات للقومية ليس في الحقيقة إلا أموراً عارضة تختلف باختلاف الشعوب في كثير من الحالات . وينسب لها هؤلاء الدارسون أكثر من واقعها ، مع حسن النية من جانب بعضهم ، أو التزييف والتضليل من جانب البعض الآخر .

وإذا كانت القومية في دلالتها المجردة هي تلك الرابطة الوثيقة التي تقوم بين جماعة من الناس ، وتجذب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم ، وتشعرهم بكيانهم وتميزهم عن غيرهم ، وتخفّضهم إلى التعاون والتآزر على ما فيه خيرهم جميعاً ، فإن مثل هذه الحال قد تحققت فيما بدأت به الإنسانية مما يسمى بنظام الأسرة ، ثم تحققت في النظام القبلي ، ثم تحققت في القرية أو المدينة ، وأخيراً تحققت في الدولة الحديثة ، وسميت حينئذ بالقومية .

وتتمثل هذه الرابطة مع كل الأنظمة السابقة في اللغة أو الكلام الذي هو وسيلة التفاهم بين الناس . يعبر عن رغباتهم وعواطفهم وخواجات نفوسهم وما يدور بخلدكم .

فاللغة هي القومية ، أو القومية هي اللغة ، بدأت في المجتمع الإنساني دائرة صغيرة في صورة الأسرة ، ثم اتسعت فشملت القبيلة ، ثم زاد اتساعها فضمت القرية أو المدينة . . . وهكذا حتى تكوّن منها في العصر الحديث ما يسمى باللغة المشتركة في شعب من الشعوب . فاتساع رقعة اللغة عملية حتمية يؤكدونها لنا ما نشهده الآن من سعة انتشار بعض اللغات حتى لتكاد تطيق بمعظم أنحاء العالم .

وليس ينقض من صحة هذا الرأي أو ينفيه ، تلك الأمثلة التاريخية التي فيها اندثرت بعض اللغات ، أو تفتتت إلى لهجات انعزل بعضها عن بعض ثم أصبحت لغات مستقلة ، بفعل ما يعرف بلعنة بابل .

فلم يعد في العصر الحديث مجال لانعزال الشعوب أو انطوائها على نفسها ولا لانعزال بيئات الشعب الواحد بعضها عن بعض . ذلك لأن أوضح ما يتسم به العصر الحديث شدة الاتصال وسرعته : والحاجة الملحة إليه . وتزداد هذه الحاجة إلحاحاً كلما مرت السنين ، بل كلما مرت الأيام . أي أن المستقبل لتوحد اللهجات في لغة مشتركة ، ولن يشهد العالم ثانية تفتت لغة مشتركة إلى لهجات محلية متباينة .

فمع نهضة الشعب ، وأخذ به أسباب المدنية الحديثة ، ودون تدخل من قوى استعمارية ، نتصور حتمية النشأة للغة المشتركة التي توحد بين أبناء هذا الشعب في الأفكار والعواطف ، وتشعرهم بكيانهم المتميز .

غير أن هذه النتيجة الحتمية قد تستغرق أجيالاً قبل تحقيقها ، ولذلك كان من واجب الزعماء والقادة العمل على الإسراع بها ، والتخطيط الدقيق للوصول إليها في زمن أقل ، وذلك هي أجل خدمة يمكن أن يقدموها لشعوبهم .  
ونتصور كذلك مع دعم اللغات المشتركة في العالم ازدياداً في سعة انتشار بعضها فوق ما لها الآن . واندثار معظم اللهجات المحلية واللغات المغمورة بنشأة الشأن .

فإذا شاء القدر أن يقتنع الإنسان بفكرة الحكومة العالمية التي تسوس الناس جميعاً ، فلن يكون ذلك إلا امتداداً لنظام الدولة ليصبح نظام العالم ، كما امتد النظام القبلي من قبل فأصبح نظام الدولة الحديثة .

وحينئذ يتحقق للبشرية ذلك الحلم السعيد بأن تصبح للإنسان لغة عالمية ، أو قومية إنسانية للناس كافة وفي جميع بقاع الأرض .

أما بعد : فقد أدليت بدلوى في اللدلاء ، وأسهمت بنصيب في موضوع دور اللغة في القومية والعالمية : راجياً أن أكون قد بصّرت بخطورته وعظم شأنه .

وبالله التوفيق .

إبراهيم أنيس

\_\_\_\_\_

1

\_\_\_\_\_

1



## الفصل الأول

### اللغة

اللغة مع وضوح أمرها وجريانها على كل لسان ، وجد الدارسون في تعريفها تعريفاً دقيقاً بعض المشقة والعنت ، وانقسموا بهذا الصدد إلى فرق وطوائف ؛ ولعل خير تعريف للغة كما نألفها الآن ، ذلك الذي ارتضاه وقبله معظم الدارسين ، وهو أن يقال : ( إن اللغة نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس في الاتصال بعضهم ببعض ) .

ويتضمن هذا التعريف مع إيجازه أموراً أربعة يتناولها الدارس في إفاضة وإسهاب ، ولكننا نؤثر هنا أن نتعرض لها في رفق ، وأن نشير إلى مضمونها في إيجاز .

### أولاً - النظام :

للغة نظام تخضع له . وقواعد مقررة : فليست فوضى . وليست تتألف من أشياء لا رابط بينها . فلها نظام معين في توزيع أصواتها ، ونماذج محددة في بناء كلماتها وجملتها . ولولا هذا النظام لما تحقق لها هدف ، ولما استحققت أن تكون مجالاً لدراسة . وقد اتضح هذا النظام اللغوي حتى في أكثر اللغات بدائية وفي البيئات التي لم يتح لها أي نصيب من الحضارة . وظهر هذا جلياً لبعض الرواد المغامرين من اللغويين الذين قضوا شطراً من حياتهم في بعض جهات أفريقيا ، وحاولوا تفهيم القواعد لكلام الناس هناك ، فأذهلهم تلك الدقة العجيبة في نظام كلامهم ، والتماثل بين أفرادهم في كيفية إصدار الأصوات وتكوين العبارات ، برغم أنهم لا يكادون يشعرون أو يدركون خصائص كلامهم ، وإنما يصدر كل هذا منهم في شكل آلي دون عمد أو قصد أو تأنيق ، وبرغم أن لغتهم لم تعرف التدوين أو الكتابة في أية صورة من صورها .

ومع أن لكل لغة نظامها الخاص ، تبين للدارسين أن هناك وجوه شبه بين نظم اللغات في العالم ، مصدرها القطرة الإنسانية . فيحدثنا « جسرسن » في خاتمة كتابه « موقف الجنس البشري ، والشعب ، والفرد من اللغة » (١) حديثاً ممتعاً نأخذه هنا بقدر ما يتسع المجال .

لما ظهر للمحدثين من اللغويين أن هناك عناصر مشتركة بين لغات البشر حاولوا تعليل هذه الظاهرة ، ففهم من كان يؤمن بوحدة النشأة الإنسانية ، وأن الناس جميعاً أبناء آدم وحواء ، ولا غرابة لهذا أن يكونوا قد بدءوا الحياة فوق الأرض ولم لغة واحدة ، وأن وجوه الشبه التي نلاحظها الآن بين اللغات ليست إلا انحداً عن تلك الوحدة اللغوية في النشأة الأولى للإنسان . وأشهر أصحاب هذا الرأي في العصر الحديث العالم الإيطالي « ترومبتي Trombetti » .

وليس من الضروري في تعليل تلك العناصر المشتركة بين لغات البشر أن نفهم أنفسنا في مسائل شائكة تتصل بأصل الإنسان وأصل اللغات البشرية ؛ فتساءل هل نشأت الأجناس البشرية المختلفة نشأة مستقلة لكل جنس منها ، أو كانت موحدة النشأة فوق الأرض ؟ وهل كانت لغات البشر في البدء لغة واحدة أو عدة لغات ؟ فقد يعرضنا هذا إلى أمور عقائدية تعبدية . أو التصدي لنصوص وردت في الكتب المقدسة .

ولا داعي إلى أن نسلك مسلك بعض علماء الحضارات الإنسانية . - من المحدثين حين يقرر بعضهم أن الحضارات البشرية كما نألفها الآن نشأت نشأة موحدة في بيئة أصلية ، ثم تشعبت أو انتشرت في بيئات متعددة . وكان بهذا حضارات متباينة . ولكن هذه الحضارات المتباينة قد استعار بعضها من بعض ، وقلد بعضها بعضاً . فإذا وجد هؤلاء العلماء في حضارة وسط أمريكا صورة الفيل ، وهو حيران لا تعرفه هذه البيئة : وليس هناك ما يدل على أنه كان موجوداً بها ، قالوا إن صورة الفيل في حضارة وسط أمريكا ليست إلا مظهراً من مظاهر تقليد الحضارة الآسيوية . فوجوه الشبه بين الحضارات المختلفة

في العصر الحديث في رأيهم ، ولبنده اقتراس الحصادات بعضها من بعض  
وتقليد بعضها لبعض ويرى فريق آخر من العلماء أن وجوه الشبه التي نلاحظها  
الآن بين الحصادات المختلفة إنما ترجع إلى الطبيعة البشرية ، وتأثر بهذا الرأي  
الأخر بعض اللغويين في تحليل العناصر المشتركة بين لغات البشر في العصر  
الحديث . وأشهر هؤلاء اللغويين العالم الألماني « شوارت Schauchart » إذ  
يقرر أن الاشتراك بين اللغات يرجع إلى مصدرين أولهما وأوضحهما أن هناك  
مصائل لغوية ، تسمى أفراد كل فصيلة من هذه المصائل إلى أصل لغوي  
موحد . افترضوه وحاولوا إعادة تكوين بعض عناصره والمصطلح الهندية  
الأوربية أصل قديم هو الذي أطلقوا عليه اللغة الهندية - الأوربية الأم . تلك  
اللغة الموحدة التي كانت سائدة منذ نحو خمسة آلاف سنة ومن هذه اللغة  
الأم تفرعت كل اللغات الهندية - الأوربية . انعدم منها واخذت . ولا غرامة  
إذن أن نلاحظ وجوه شبه بين هذه اللغويات وكذلك الشأن مع اللغات السامية  
بني بغير قصد لها الباحثون أصلاً لغوياً واحداً بطريق عينه اللغة السامية لأما

فكأن وجوه الشبه بين لغات لا تنحصر عن ، بين أفراد فصيلة واحدة .  
فبذلك مصدر شتى . وقد أشار محمد بن عبد الله بن جهم . ويذكر  
في رده إلى ابن خلدون . ولا حرج . . . . .  
سأش في العالم . في طرق إصدار الأصوات اللغوية . والاعتماد على ما يسمى  
بها . سطور لدى كل منهم . ذلك الخبر الذي سنده الإنسان في كشف  
الأصوات وجعلها على صور محسوسة فهو يستعمل شتى في أصوات والمسا  
مع مراعات أهم في أصوات أخرى . ثم اختلف ودود في أصوات بعض اللغات .  
باحسرة وما تقوم به في كل عمليات الصوتية . من شتى المصطلحات الخواصة .  
ورئيس . ومع أننا نلاحظ في دراسة للأصوات أن منها ما صدر عن طريق  
ماء الشهيق كحد من الكثرة أعاليه من الأصوات الإنسانية . أنها تصدر مع  
هذه الأصوات من رئيس ما أن أحرار هذا حيز الشهيق حتى خارج أهم  
ولكن بيت الأصوات التي يصاحب هواء الشهيق بادرة حدة . ولا تكاد يراها

إلا في لغة معمورة بدائية كـ « الكاخ » الهوتنتوت « في جنوب أفريقيا . أي أن الإنسان في العالم يتخذ طريقاً موحداً من الناحية الفسيولوجية في إصدار أصوات اللغة . ولا عبرة باختلاف حجم الشفافة ، أو أشكال الأنوف ، أو غير ذلك من النواحي التشرحيه التي قد يقع الخلاف فيها بين الشعوب . فقد برهنت التجارب الحديثه أن الإنسان من حيث اللغة وليد بيئته وحدها ، بحيث إذا ربي الطفل المصري مثلاً منذ ولادته في بيئة صيبية . أو بين زنوج أفريقيا نشأ من حيث اللغة كأى فرد في هذه البيئة

فإذا شئنا أن نسوق أمثلة محدده لتلك العناصر المشتركة بين لغات البشر وجدنا أن منها ما يتصل بالأصوات ، ومنها ما يتصل بالكلمات ، ومنها ما يتصل بالأجرومية أو النحو . فمن ملاحظات اللغويين في العصر الحديث ، تلك التي تكاد تطرد في كل اللغات .

١ أن الحرف بين حركتين أى « صوتى لين » يميل إلى الجهر . فالتاء في فعل مثل « عتب » قد يجعلها الناطق « دالا » . أيضاً كانت لغته

٢ وأن الكاف إذا وليها صوت لين أمامى أى حركة كالكسرة أو الفتحة المرفقة مات إلى أن يصحح « شش » ثم « شيب » .

٣ وأن السر في أحد المقاطع قد يترتب عليه سقوط الحركة في المقطع غير لمبور من نفس الكلمة . أو ضعف هذه الحركة . فسر المقطع الأخير من الفعل « شرب » في نطق أهل المغرب هو الذى أسقط فتحة الشين ، وجعلهم يطقون بها ساكنة أى « شرب »

٤ - كثيراً ما يؤثر السر في جهر الصوت المهموس . كذلك اللهجة التي نروى في كلمة « صفر » حين يطقها « رفر » ومثل « ol » من « off » .

٥ اشترك الكلمات « ماما » ، « بابا » . « دادا » في معظم اللغات ، وكذلك صلة بعض الأصوات بالدلالة مثل الكسرة « ى » التي تعبر في الكثير من

احالات عن صعر الححم وضيق الوقت ومحو ذلك .

٦ - الميل العام إلى تكرار الكلمات أو مقاطع منها ، وهو ما يعرف في الدراسات العربية بالإلتئاع والمزاوغة

٧ فكرة الكم في كل اللغات من مفرد ومثنى وجمع . وفكرة التذكير والتأنيث ، والحي والحماد ، والماضي والحاضر والمستقبل . والمتكلم والغائب والمحاط ، وغير ذلك من وجوه شبه في نحو اللغة وأحروميتها . والكلمة في الكثرة الغالبة من لغات البشر تختلف صورتها وسلوكها تبعاً لكل هذا ولا سبيل إلى تفسير مثل هذه الظاهرة إلا بالرجوع إلى الفطرة الإنسانية . تلك الظاهرة التي جعلت لعربياً ناسها مثل « ديلكروا » نقرر أن اللغات جميعاً في كل لعالم كيبساط واحد فوقه نقوش مختلفة

ولكننا لا نستطيع دعم كل ما تقدم أن نقول إن مثل هذه الملاحظات يؤلف قانوناً ثابتاً كقانون الحادية مثلاً . ذلك لأن اللغة منذ نشأتها سلوك إنساني في مجتمع إنساني ، أي أن للإنسان دخلاً في تطورها وتغيراتها . بمثل قوتها مثل كل التوائس الاجتماعية التي لا تعرف لأصراً . هذه الخدع عن

نوع من التصعيد

### ثانياً - عرقية اللغة :

في حديثنا هذا عن عرقية اللغة لن نحول أن نسهم بمحاولات الشأه الأولى بلغة الإنسانية . فقد انصرف الآن معظم العربيين عن مثل هذه البحث . وأصبحوا يرونه أشبه بالبحث فيما وراء الطبيعة ، كذلك لن نعرض إلى ذلك الصراع الفكري الذي كان بين فلاسفة اليونان ومفكرى العرب حول اصطلاحية بلغة أو توقيفها ، فقد عالجنا كل هذا في تفصيل وإسهاب في مواضع أخرى من دراستنا<sup>(١)</sup>

(١) نظر الفصل الأول من كتاب دلائل اللغة للمؤلف . والنقص شيء من د. أ.

لغة اللغة كدلائل

فليس يتسع المجال هنا إلا إلى تذكير يسير بما يجمع عليه اللغويون الآن من أن اللغة يحكمها العرف الاجتماعي لا المنطق العقلي ، هكنا تبدولنا على كل حال في العصور الحديثة . ذلك لأننا حين نشاءل عن السر في ذلك النظام الخاص الذي نخضع له كل لغة لا نكاد نظهر بإجابة مقنعة إلا حين نقول إن الأمر كله مرجعه إلى العرف والاصطلاح . فمثلا لماذا اختصت دلالة الكلمة في كل لغة بمجموعة معينة من الأصوات في ترتيب خاص ؟ بل لماذا اختصت الدلالة الواحدة وفي اللغة الواحدة في معظم الحالات بمجموعة خاصة من هذه الأصوات ؟ في العربية مثلا لماذا سميت الشجرة بالشجرة ، والوردة بالوردة ، والماء بالماء ونحو ذلك ؟ لا يريد أن ننساق هنا مع أولئك الاشتقائيين الذين يحلو لهم أن يلتمسوا أسباباً لمثل هذا . كالذي كان من ابن دريد في كتابه الاشتقاق . حين يرغم أن « قصاعة » من انقضع الرجل أي بعد عن أهله . وأن إبليس من « ألس » بمعنى تحير ، وغير ذلك مما يراه في كتبهم فقد أصبح الآن من الأمور المقررة التي لا تحتمل جدلاً أو مناقشة أنه ليس هناك صفة دائمة أو طبيعية بين الكلمة ومدلولها في أي لغة من اللغات

كذلك حين نساءل لماذا تتحد كل لغة نظاماً خاصاً في ترتيب الكلمات من الجملة . بل لماذا في اللغة الواحدة تتغير دلالة الجملة بتغير الترتيب بين الكلمات ؟ ولماذا يسلك الفعل مع الاسم المؤنث سلوكاً يختلف عن سلوكه مع المذكر ، ومع المفرد غير سلوكه مع الجمع أو المثني ؟ ولماذا عاملت بعض اللغات أسماء معينة على أنها مما يسمى بانحاييد أي ليست مذكورة ولا مؤنثة ؟ في حين أن لغات أخرى نظرت إليها على أنها مذكورة أو مؤنثة . بل إن الدلالة المحسوسة الواحدة قد تعامل كلمتها في لغة معاملة المؤنث ، وفي أخرى معاملة المذكر ، فالشمس في اللغة العربية تعامل معاملة المؤنث ، وفي الفرنسية تعامل معاملة المذكر . ولماذا احصت اللغة الأرمينية المختلفة من ماض وحاضر ومستقبل بصيغ وأساليب خاصة تختلف عن اللغات الأخرى ؟ لماذا ، لماذا ، وبطل

نتساءل لماذا دون أن نجد جواباً منطقياً عقلياً، ثم نقنع في آخر الأمر بالقول: إن كل ذلك مرجعه إلى العرف والاصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح.

ومع أننا أشرنا آنفاً إلى أن هناك عناصر مشتركة بين كل اللغات لعلها ترجع إلى الفطرة الإنسانية، فالذي لا شك فيه أن مسائل اللغة كما نشهدها الآن لا يمكن أن تعزى إلا إلى العرف الاجتماعي، وليس من الضروري هنا أن نفترض شيئاً كالذي افترضه «روسو» في نظرية العقد الاجتماعي، أو أن نحاول ما حاوله «دي سوسير» من النظر إلى اللغة على أنها أمر مجرد ينتظم كل أفراد السمة اللغوية، وحين فرق بين اللغة والكلام<sup>(١)</sup> فجعل الكلام العمل الفردي الواقعي الذي يقوم به المرء حين يشاء التعبير عما يحول في ذهنه.

ومع أن اللغة ككل سلوك اجتماعي يحكمها العرف، يجب أن نفرق بين عرف وعرف، فهذهك عرف متأصل الجذور مر عليه زمن طويل قد يحسب بالهرون، وآخر حديث نسبياً لا يكاد يحاور عشرات من السنين. فليس عرف في الأفراح والمآتم، أو في المأكل والملبس والمشرب، أو في الأعياد والمناسبات الاجتماعية كالعرف في اللغة، من حيث تأصل الحدود وحرص سموت عنه وعرف للعوى قد اكتسب مع من ما يشبه القداسة. لا سمح بعد أن تربت «دعوى الإنسانية» كتب مقدمة، وكتبها رونغ الأدب في العلم ويعتمد كل شعب إلى الحفاظ على عادات لغة بكن الوسائل فينجير من تدرجه فترة بعدة المرحله الذهنيه من تاريخ هذه اللغة، ونجد مما ساد فيها من أساليب ومعايير عمادح يحرص على تقليدها وتشبث فواعدها، فيعقد هذا المجتمع الدعوى، ويصف المعاصم والكتب، ويعمل على تدريسها أو نسخها في معاهد العلم، وكل ذلك لعله يطمئ بذلك تنعز اختوم في تاريخ كل لغة

ومن اليسير على المرء أن يدرك فكرة العرف في كثير من المظاهر الاجتماعية، فهو حين يحالط قوماً غير قومه ويخذلهم تقديده وعادات تخالف تقاليد قومه

وعاداتهم في الطعام والشراب واللباس يدرك في سهولة ويسر أن الأمر مرجعه إلى العرف بين هؤلاء وهؤلاء ، وكذلك الشأن مع الأفراح والمآتم والأعياد والمناسبات . ولكنه مع اللغة لا يكاد يتصور أن السلوك اللغوي مسألة عرف أيضاً إلا بعد دراسة في علم اللغة ، وتجارب لا تتوفر إلا لطائفة من الذين يعنون بهذه الدراسة . لذلك كانت عرقية اللغة موضع ذلك الجدل الكبير بين القداماء من المفكرين . وليس بعجيب لهذا أن نجد بعض القدماء من علماء العربية يربطون بين اللغة والوراثة والجنس ، ولا يتصورون أن غير العربي جنساً يمكن أن يتفهم العربية ، أو يسيطر عليها .

فالمرء قبل أن تتاح له فرصة لدراسة اللغة يتصور أنه ورث لغته عن أبويه كما ورث عهما بعض الملامح والصفات البيولوجية . فالعربي مثلاً يتكلم العربية لأنه ولد لأبوين عربيين ، والإنجليزي يتكلم الإنجليزية لأنه ولد لأبوين إنجليزيين وهكذا . فليس يدرك المرء العادي أن تعلم أى لغة ، بل وإتقانها ، عملية مكتسبة لا أثر للوراثة أو الجنس فيها . فإذا رعى طفل مصري من أبوين مصريين في بيئه صينية مثلاً نشأ من حيث اللغة كأبناء الصن .

ومرجع هذا التصور أو اللوهم من جمهور الناس هو أن عروبة اللغة نصلب في إدراكها والافتتاح بحقيقتها تمكبيراً ومخناً لا يتأني عادة إلا للدارسين المتخصصين .

ومن هنا تصوق العرف اللغوي على كل عرف آخر . فكثيراً ما تغير الشعوب من بعض عاداتها الاجتماعية خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً ، وقد يكون هذا التعبير عن عمد أو قصد ، ولكن من النادر أو قل من المستحيل أن يقع مثل هذا في لغتهم . فالتطورات اللغوية بطيئة وتدرجية وتلحق اللغة دور عمد أو قصد ، وسبق اللغة معها محافظة على جوهرها وأصولها ما شاء الله لها البقاء .

وقد حدثنا المحارب التاريخية عن كثير من تلك الأحداث التي أسمرت عن تغير في عادة تتصل بسوء الطعام والشراب لدى شعب من الشعوب إثر انصاله بشعب آخر واختلاطه به . كما حدثنا عن تلك الآثار المدمرة التي كانت



نتيجة الحروب والغزو ، وترتب عليها أن عهد الشعب المغزو في أكثر الحالات كل أو حلّ عاداته الاجتماعية ، دون صراع طويل أو مرير ، إلا حين يكون مع اللغة . تلك التي بأصلت حنورها ، وأصبح لها معنى فناء الشعب المغزو واندثاره باندثار لغته . فقد تقرأ في تاريخ الشعوب عن تلك الحالات النادرة التي اندثرت فيها لغة من اللغات بعد صراع مرير مع لغة أخرى خلال عدد من القرون تخرج اللغة الغارية بعدها مشخنة بالحراج ، أو متأثرة ببعض صفات اللغة المغزوة ، فإذا أسلمت اللغة المغزوة قيادها ، واستسلمت في نهاية الأمر لقدرها المحتوم . قيل حينئذ إن أصحابها هم الذين انقرضوا أو اندثروا ، فلا تقوم لهم قائمة بعدها ، بل يصر في غيرهم ، ويفقدون كياناتهم المتميز ، رغم أنهم قد يحتفظون بعد هذا بصفات بيولوجية أو تشريفية معينة

وقد تظل اللغة المغزوة وبعد فروع من القهر والسيطرة قابضة كامنة في أدهان أصحابها . لا تكاد نطلقها إلا في محالات محدودة . ودون أن يكون لها نصيب يذكر من الحياة العامة فكأنما قد نوارب أو نروت أو كمت نرى نص حتى نبتك للحظة التي فيها تسعث من مرقدها . وعود سمرتها الأولى ومن هذا نبتت ألبية اللغة في الحفاد على كبد شعبهم منسكة وعدم سماح له بالصماء في غيره من الشعوب

### ثالثاً - الأصوات :

أوضح مظاهر اللغة أو مقوماتها الأصوات . تلك التي نطمر فتتألف منها الكلمات . ثم الحمل والعمارت . وقد أصبحت الآن أصوات اللغة محل دراسات مستمصة وتجارب معملية كثيرة . تؤلف فيها الكتب الضخمة ، ولا يتسع المجال هنا إلا لعرض موجز

وقد اتحد الإنسان هذه الأصوات مد آلاف من السنين بمثابة وسط تنتقل خلاله الأفكار والأحاسيس وكل ما يحول في الدهر وهي وإن كانت في

أسامها ككل أصوات الطبيعة أى موجات تنتقل خلال الهواء عادة ، وتلقفها الآذان ، غير أن الأصوات فى النطق الإنسانى ذات موجات مركبة أو معقدة ، منها الرئيسى ومنها الفرعى .

وليس هذه الأصوات التى تؤلف منها الكلمات والجمل إلا رموزاً أحلها الإنسان عموهته الخلاقة محل الخواطر والأفكار . ذلك لأن الرمزية هى العمل الأساسى فى الفكر الإنسانى ، فتستطيع عقولنا أن تحول كل تحاربنا فى الحياة إلى رموز . وليس بين هذه التجارب ما لا يمكن للعقل أن يحوله إلى رموز ، وتلك هى إحدى الصفات التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان . وإذا أمكن للأنواع الراقية من الحيوان أن تدرك مدلول العلامات والإشارات ، فإن الرمزية إحدى خصائص الإنسان وحده ، وهى التى سمت بالإنسان فوق عالم الحيوان . بل إن قدرة الإنسان على استعمال الرمز هى التى جعلت منه سيداً لعالم الطبيعة . وشتان بين الرمز والعلامة ، فالرمز علامة تحل محل شىء آخر ، أى أنه عوض عن علامة أخرى مرادفة له . ولعل أهم ما يميز الرمز عن العلامة أنه غير مقيد بزم . فحين أن العلامة قد تشير إلى الماضى أو الحاضر أو المستقبل من الأحداث . فالأرض اسلة علامة عن أن السماء أمطرت . وفوس ورح علامة عن أن نمطر الآن فى مكان ريب . ودكة السماء فى اصباح علامة على احتمال سقوط طر فى أثناء اليوم . هذا إلى أن العلامة تميد معلومات فى صورة مباشرة ، فالعلامة الحمراء فى إشارات المرور تميد أنه على السائق الوقوف . فمثل هذه علامات قد يدركها الحيوان الذكى بعد تدريب قليل ، ولكن لا سبل إلى الرمزية فى عالم الحيوان .

ومع أن هذه الأصوات ليست فى حقيقة أمرها إلا رموزاً للأفكار والخواطر ، قد اكتسبت مع الزمن ما يشبه القدسية ، وأصبحت فى بعض مجالات الأدب هدفاً نقصد لذاته ، ويستمنع به المرء سواء نطق بها أو اسنمع إليها . ولعل فيما سمبه بموسيقى الشعر خير شاهد على هذا .

وقد ارتبط الإنسان بهذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً على مر العصور . حتى

أصبح الآن غير قادر على التفكير أو التعبير عن حواطره إلا عن طريقها،  
 مما جعل كثيراً من الفلاسفة يقررون أنه لا سبيل إلى التفكير بغير هذه الأصوات  
 ممثلة في كلمات وحمل . فإذا قيل لنا إن الإنسان حيوان ناطق فمعناه أنه قادر  
 على التفكير لأنه قادر على النطق

ويعلم أن الأصوات . ممثلة في الكلمات ، رموز للأشياء والأفكار ، فليس  
 هناك صلة مباشرة أو طبيعية بين الكلمة وما تعبر عنه إلا عن طريق الصورة  
 الذهنية . ومع أن لكل كلمة دلالة ذهنية معينة في اللغات عدد من الكلمات  
 تقتصر وظيفتها على الربط في الحمل ولعبارات ، كالحروف والأدوات التي  
 لا تعيد معنى في ذاتها وفي اللغات أيضاً بعض الكلمات التي تعبر عن الدهشة  
 أو المرح أو التألم ، ولكنها في حقيقة أمرها بعدة مجرد أصوات عاطفية ليست  
 ذات دلالات محددة .

ولكننا نلاحظ أنه في الكثير من الحالات من كلمات كل لغة تعبر كل كلمة  
 عن شيء معين . وأنه لا صلة طبيعية أو مباشرة بين النمط ووظيفته ولا يقص  
 هذا الحقيقة أو يشيخ ما راد في لغات من عدد قليل من الكلمات التي  
 هي دلالات غشقة صـ د لأصـ هـ . . . . . لأصـ و . . . . . من الأصـ هـ  
 بنسب والفرق بمار وأحرير باماء وكو هـ . . . . . فلهذا النوع من الكلمات قليل  
 العدد . ويختلف اختلاف اللغات في كثير من الأحوال هذا إلى أن كثيراً  
 من هذه الكلمات قد تطورت أصوبها أو تعبرت . ولم تعد الصلة بين هذه  
 لأصوات وما تعبر عنه واضحة أو ملحوظة

والأصوات الالة جهار في جسم الإنسان صائق عنه من قبل النحور  
 جهار النطق . ونحن نحاول تصويره بوجه الدهس فوراً إلى لك المصغرة أي  
 تبد من الحجرة إلى الشفـ . ولا نكد تصور أن كل الحرة العلوى من  
 جسم نقوم بدور ما في عملية الكلام . فالحفزة لأور الكلام معث من الحجاب  
 خاخرحين نفص عضلاته فتتلى الرثان بالوء . ثم يسط هذه العضلات

فيندفع الهواء إلى الخارج ، من الرئتين وشعابها إلى القصبة الهوائية ثم إلى الفم ، ثم إلى خارج الفم .

وتشارك عضلات التحوييف الصدرى إلى حد ما فى حركة دفع الهواء إلى الخارج . وفى أثناء التنفس تتم عملية الزفير عادة أسرع من عملية الشهيق ، وإن كان الفرق بينهما فى الأحوال العادية ضئيلاً جداً لا يكاد يجاوز الخمس . أما فى أثناء الكلام فنلاحظ أن عملية الشهيق هى الأسرع ، فقد تصبح النسبة بين سرعة الزفير والشهيق فى أثناء الكلام ١ : ١٠ ، بل قد تصبح فى بعض حالات الانفعال ١ : ٣٠ ، أى أن المتكلم فى مثل هذه الحالات يحاول أن يقول الكثير فى زمن قليل . ولا يكاد يلتقط أنفاسه .

وبين أعضاء النطق أربعة أعضاء قابلة للحركة هى . الوتران الصوتيان . والحنك الرخو . واللسان ، والشفتان . فالوتران الصوتيان يشبهان حلين أو شفتين بينهما قد تتسع المسافة فلا يهتزان أو لا يتذبذبان . أما حين يقرب أحدهما من الآخر ويدفع الهواء من بينهما فى قوة وعنف فنلاحظ أنهما يتذبذبان ذبذبات منتظمة وتسمى الأصوات التى تصدر مع عدم ديدة الوترين الصوتيين بالأصوات المهموسة . وفى حين أن نرى تصحبها تلك المذبذبات تسمى بالمجهورة

وجميع أصوات اللين أو ما يمكن تسميته بالحركات طوياً وقصيراً أصوات مجهوره . أما الأصوات الساكة أو ما يسمى عادة بالحروف فمعصها محهور والبعض الآخر مهموس فحين ننطق بما يسمى بألف المد مثلاً نلاحظ اهتزازات الوترين الصوتيين . وكذلك الشأن حين نطق بحرف كالزاي أما حين ننطق بالسين فلا نشعر بتلك الدبذبات الوترية<sup>(١)</sup>

وحركة الحنك الرخو هى التى تحدد ما إذا كان الصوت مموياً أو أنهياً ، فإذا نظر الناطق إلى المرآة فى أثناء نطقه بألف المد مثلاً ، لاحظ أن الحنك الرخو يصعد ومعه اللهاة فيسد مجرى الأنف ، فيتسرب هواء التنفس كله من الفم .

(١) نظر « كتاب لأصوات العوية » للمؤلف .

وهذا هو ما يحدث مع كل الأصوات القموية . ولذلك تقسم الأصوات اللغوية إلى شموية وهي التي تسرب معها الهواء كله من الفم وحده ، وأنمية وهي التي تسرب معها الهواء من الأنف كالنون والميم .

وقد يصاب الحنك الرخو بالتهاب فلا يؤدي وطبيعته ندفة ، وتشعر حينئذ أن بعض الأصوات التي مجراها أصلاً الفم وحده قد تسرب معها بعض الهواء من الأنف أيضاً . وهذا يمكن أن يسمى الصوت أنيمياً ، أي محراه من الفم والأنف معاً . وليس من المحتم أن تكون هذه الظاهرة وليدة الالتهاب في الحنك الرخو ، فقد نكون في بعض الشعوب عثاة عادة نطقية ، كاليهود مثلاً ، والفرنسيين في بعض أصواتهم . وبعض الأمريكيين في حالات معينة من النطق

أما اللسان فما يكون أوضح أعضاء النطق وأهمها . وهو في الوقت نفسه أكثرها مرونة في حركاته . ولا عرابة أن تسمى اللغة في كثير من الشعوب باللسان ، بل هو الاستعمال القرآني الوحيد في معنى اللغة . ويستطيع الناطق أن يحرك لسانه في كل الاتجاهات . وذلك لما يتميز به لسان من مرونة وليونة .

وحيث قسم علماء اللغة لأصوات إلى أصوات لسان وأصوات ساكنة . وكما سمي أحدهما ندى بعض بالآخرين بالأسوات . والآخرين بالأسوات الساكنة . وقد نصحوا إلى حاصبه الأولى فوجدوا أن هو اللسان في أثناء النطق بها لا يصادف في طريقه حوائل أو موانع ، أو عبارة أخرى لا يقابل انغلاقاً كبيراً ولا تعلقاً حرثياً كما يحدث مع الأخرى . أي أن الأصوات الساكنة قد يحدث معها الانهجار به بسبب الانعلاق لكني ، وقد يحدث معها الاحتكاكية بسبب الانعلاق الحرفي . فحين عاون انطق بالسين وري مثلاً ، مع نطق بالباء والمدال . فلاحظ أن ظاهرة الاحتكاكية وهي التي سماها القدماء من علماء العربية بالرخوة تكرر مع السين وأرى . في حين أن ظاهرة الانهجارية وهي التي تسمى عند علماء جرمة بالشد تكرر مع التاء والمدال .

وحركة الشفتين تولد لما يسمى بالأصوات الأسدية . شمويه مثل القاء لسان في صوت يصدر عادة عن طرفي اللسان لشفاه الأسان العليا ،

كما تولد لنا الأصوات الشفوية المحضة كالباء والميم وتقوم الشفتان مع هذا بدور ملحوظ في أثناء النطق بأصوات اللين المختلفة ، فهما معها إما منفرجتان ، أو مستويتان ، مستديرتان .

وعدد الأصوات التي يمكن تكوينها بوساطة أعضاء النطق لا حصر له من الناحية النظرية . غير أن الأذن الإنسانية لا تستطيع أن تميز إلا القليل منها ، ولاختبار الثابت الساكن أو ما يسمى عادة بالحرف ، علينا أن نبين أموراً ثلاثة

- ١ - موقف لوثرين الصوتيين في أثناء النطق به .
  - ٢ - المخرج أو نقطة التقاء العنصوين المكونين للصوت .
  - ٣ - كيف يلتقاء ، وهل هو التقاء تام يحدث انغلاقاً كاملاً ، أو التقاء ناقص يحدث اندفاعاً جزئياً . لتمييز الصوت الانفجاري من الاحتكاكي
- حد مثلاً كدب الذي نجد أن هواء النفس معها يحس اندفاعاً تاماً لحظة قصيرة جداً . أثناء أقصى السداد نحلل لرحو التقاء محكم أي ، علقاً كاملاً . ثم يمثل العنصوان فجأة صدفع دواء ونحدث تحركاً واسعاً ما يسمى بالكاف . كذلك ملحظ أن الوترين الصوتيين في أثناء النطق بالكاف لا يتذبذبان . كذا يقال عن الكاف إنها صوت انفجاري مهموس مخرج من أقصى الحنجرة .

ولكن الحس المرهف لعالم الأصوات يدر أشكالاً ثلاثة من الكاف يمكن أن يمثل لها بالكلمات الإنجليزية Cool ، Calm ، Keep ويسمى مجموع هذه الأشكال الثلاثة بالمصطلح الصوتي « فويم » . فقد يتألف « الفويم » من عدد من الأصوات التي ليس بينها اثنان يحل أحدهما محل الآخر في نفس الموضع أو الموقع . فهي مروع لشيء واحد أو متووعات موقعية للفويم الواحد و ربط الفويم في الحكم عليه أو تحديده بصفة معينة ، أي أنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى الفويم أعام أو العالمى . فلكل لغة فويمانها الخاصة بها . وقد يمكن

أن يعدّ فونيماً مستقلاً في لغة من اللغات قد يكون فرعاً لفونيم في لغة أخرى؛ فالفونيم هو الوحدة الطبقية الأساسية في لغة ما ، وأى انحراف صوتي في هذه الوحدة يترتب عليه تغيير في الدلالة أو الوظيفة لكلمة من الكلمات .

لهذا نلاحظ فرقاً بين شعور الإنجليز اتجاه أنواع الكاف وشعور العرب نحو هذه الأنواع . فبينما يرى الإنجليزي لا يكاد يشعر بفرق بين الكاف في الكلمتين Keep ، Calm نجد أن العربي في لغته يتخذ الكاف في الكلمة Calm فونياً مستقلاً هو الذي يسميه بالقاف ، ويرمز له برمز كتابي مستقل في الكتابة العربية .

ولازيد من الإيضاح نصرب مثلاً بالمعلين العربيين ( صبر ، سبر ) اللذين يبدأان بصوتين متماثلين ولا فرق بينهما إلا في أن الأول مفتوح والثاني نظيره المرفق . ومع هذا ينظر إلى كل منهما في العربية على أنه فونيم مستقل ويرمز لكل منهما برمز مستقل ، فقد ترتب على التفخيم والترقيق اختلاف الدلالة بين الفعلين . بهذا اشممت الأبجدية العربية على ما يسمى بالصاد ، وما يسمى بالسير . في حين أن الإنجليزي قد يفهم في نطقه هذا الصوت في كلمة مثل Ask دون تعذر في مرد الكاف برغم أنه سمع كصاد العربية ، وأن الأمر يركى يرفع عده هذا الصوت من نفس الكلمة وينفس الزر "كاف برغم أنه سمع في نطقه كالسين . وهكذا يرى أن اللغة الإنجليزية تعدّ الصاد والسين فرعين لفونيم واحد . أما العربية فعدها كلا منهما فونياً مستقلاً فلكل لغة نظام أو بيان فونيمى خاص يدرس فيما يسمى بالتشكيل الصوتي بلغة Phonology ، وقد نشأ هذا البيان واستقر مع استعمال اللغة رمزاً طويلاً . وليس هذا البيان مجموعة غير مترابطة من النماذج ، بل هو نظام على درجه عالية من التكامل والترابط حتى لو فيما يسمى باللغة البدائية . ففي تلك اللغات البدائية التي لم تتح لها فرصة الكتابة والتدوين ولم توضع لها رموز كتابية قد يرى في بيانيها مثلاً شيئاً يعكس على الدهشة من حيث المستويات الثلاثة ، الأصوات والصنع والبراكيب . أى أنه ليس هناك أى دليل على صحة ذلك انصرص السادج الذي

يقال فيه إن البدائيين أقل قدرة منا على تشكيل نماذج من الكلام دقيقة البناء .  
ومع هذا فلا بد لنا من الاعتراف أن بين اللغات ما هو أكثر تطوراً من اللغات  
الأخرى من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب ، أو أن منها ما أتحت له  
فرص أكثر من التطور في هذه النواحي ، ومنها ما لا يزال يمثل مرحلة قديمة  
من مراحل تطور اللغة الإنسانية .

وتعبر الصوت من الترقيق إلى التفتيح ، أو من الهمس إلى الجهر ، أو  
العكس في الحالين ، بسبب عامل داخلي في بنية الكلمة ودون تعبير في دلالتها  
أو وظيفتها ، لا يصح أن يعبر من البيان الفونيمى لهذه الكلمة . ومثال الحالة  
الأولى في اللغة العربية ( يساقون ، يصاقون ) . ومثال الحالة الثانية في الإنجليزية  
Dogs ، Books . وكان من الواجب في الكتابة العربية أن يرمز لمثل ( يساقون ،  
يصاقون ) ومثل ( هطل ، هتل ) برمز كتابي واحد ، فالصوتان في كل من  
الكلمتين فونيم واحد ، إذ لم يترتب على التفتيح والترقيق تعبير في الدلالة .

وكما تختلف اللغات في البيان الفونيمى تختلف أيضاً في النظام المقطعى .  
ففي اليابانية واللغة السواحيلية نجد أن معظم المقاطع مفتوحة أى ينتهى المقطع بصوت  
لين أو ما يسمى بالحركة طويلة أو قصيرة . في حين أن لغة العربية تؤثر  
المقاطع المغلقة أى تلك التى تنتهى بصوت ساكن أو ما يسمى بحرف

نكتفى بهذا العرض الموجز لأصوات اللغة من حيث النطق بها . لنعرض  
لموقف السامع من هذه الأصوات . إذ لا نتم عملة الاتصال اللغوى إلا بين  
طرفين متكلم و سامع ، أو إرسال واستقبال .

والذبذبات التى يحركها الصوت الإنسانى قد نعر عن الحديث الداعى  
للناطق ، وفي هذه الحالة تكون مهمتها مقصورة على مجرد تنظيم فكر هذا الناطق  
أو تجربته . غير أن هذه الذبذبات في أكثر الحالات الأخرى تحمل رسالة  
إلى سامع ما .

فذبذبات الوترين الصوتيين تتحرك حركة منتظمة في موجه صوتية . وتتصل  
هذه الحركة إلى الهواء القريب ، وتظل هذه الحركة في اتجاها بين حزبات



هذا الهواء متحدة شكل الموحة الضاعطة وممتشرة في جميع الجهات . ويبلغ متوسط سرعة الصوت في الهواء حوالي ١١٢٠ قدما في الثانية

وكلما زاد عدد الذبذبات عبر النغمة الموسيقية وارتفعت . ويتراوح عدد الذبذبات لدى أشهر المعين في العالم بين حوالي ٥٠ ذبذبة في الثانية ، ويكون صوته في هذه الحالة مع وضوحه وتميزه أنخص ما يمكن أن يصل إليه ، إلى ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية ويكون صوته في هذه الحالة مع وضوحه وتميزه أيضاً أعلى ما يمكن أن يصل إليه . وصاحب السمع العادي يستطيع أن يسمع النغمات العالية خيراً من سماعه النغمات المنخفضة . فإذا رادت النغمة عن أقصى درجاتها في الارتفاع أو الانخفاض لا تكاد الأذن الإنسانية تدركها بوضوح .

ونستطيع الكلاب عادة سماع النغمات ذات الترددات العالية جداً ، ولذلك نستعين بها الشرطي في تتبع اللصوص عن طريق صفارات ذات نغمات عالية جداً تحاور الحد السمعى هؤلاء اللصوص . ويقدر الحد السمعى للإنسان نحو عشرين ألف ذبذبة في الثانية . فإذا رادت الذبذبات أو الترددات على هذا حرج يصعب حركته عن المجال السمعى للإنسان

وهذه هي نوع الصوت سمعاً أو صوت يد . يستطيع سماع النغمة أي عدد من ذبذبات في حدود سبين ألف ذبذبة في الثانية

وإذا أمكن للمعنى أن يرفع نغمته إلى حدود ألفين ذبذبة في الثانية . وأن يخصص لها إلى حدود خمسين ذبذبة في الثانية . فإن الأمر يختلف في حالة الكلام . ذلك لأن الفرق بين ارتفاع النغمة وانخفاضها في أثناء الكلام قليل نسبياً . والكلام يؤدي في نغمات متدرجة لا يبعد بعضها عن بعض بعداً كبيراً ، في حين أن الغناء يؤدي في مراحل مسعدة النغمات . ومع فترة زمنية ملحوظة تستمر خلالها كل نغمة

والنغمات التي تصدر عن الوتر من الصوتيين ، أحد ألواناً متعددة في شكل بحث على الدهشة . فليس هناك شخصان يحدان في نبرات الصوت انحداداً تاماً . وذلك لأنك الغناء الخاصة التي تمر بها صوت كل منا ومع أن

بعض الأصوات قد تتشابه في نبراتهما ، غير أن هذا التشابه لا يصل أبداً إلى حد التماثل التام .

وحين يتكلم المرء تصدر عنه سلاسل من الموجات الهوائية التي تفرع طنة الأذن لدى السامع . وقرع اللبذبات لطيلة الأذن يترتب عليه تحريك العظيمة في الأذن الوسطى حركات منتظمة كالتى في اللبذبات ثم تنتقل هذه الحركات إلى الأذن الداخلية التي بها أعصاب السمع . وتحمل هذه الأعصاب ذلك الأثر السمعى إلى المخ لتفسيره .

وتؤكد لنا الدراسة الصوتية الحديثة أن بعض أصوات اللغة أوضح في السمع من البعض الآخر . وتبين من تجارب الدارس أن صوت اللين Vowel في كلمة مثل Born يعد أوضح أصوات اللين ولا يعادله أو يقترب منه في الوضوح إلا ذلك الذى فى الكلمة Barn

وإذا شئنا ترتيب الأصوات الساكنة أو ما تسمى بحروف برتساً تصاعداً من حيث الوضوح السمعى ظهر لنا أنها كما تلى

- ١ - المهموسة الالتهجارية مثل ب . ك . ج
- ٢ - المهموسة الالتهجارية مثل ش . س . ث . ف
- ٣ - المهموسة المزجية مثل نش
- ٤ - المحجورة الالتهجارية مثل ب . د . جيم ثمه
- ٥ - المحجورة الالتهجارية مثل ف . د . ر . ح ( حاء الشامية ) .
- ٦ - المحجورة المرجية كاللحم المصيبة .
- ٧ - الأصوات الأنفية مثل م . ن .
- ٨ - الراء . اللام .
- ٩ - أصوات اللين الصيعة مثل - الصمغ والكس - ومعهم - و . والياء .
- ١٠ - وأخيراً أوضح الأصوات حمعاً هى أصوات من شدة كالفتحة المنحمة وألف مد

ففي الحديث التليفوني وفي التسجيل الإذاعي لا يكاد المرء يميز الأصوات المهموسة الانفجارية كالتاء والكاف ، ولكنه عن طريق السياق أو المعنى العام يقرر وجودها ، ويتم هذا الفرض دون شعور متعمد منه ، أي أنه يعوض فقدانها في الحقيقة بوجودها في خياله .

ولهذا يحذر بالمغنيين ومؤلفي الأغاني أن يتحاشوا مثل هذه الأصوات في أغانيهم كلما أمكن ذلك . فهي أصوات لا تكاد تصلح للعناء ، وهي في نفس الوقت معرضة للسقوط أو الاختفاء في التسجيل الصوتي .

#### رابعاً - المجتمع الإنساني :

وأخيراً وليس آخراً المفهوم الرابع للغة هو المجتمع الإنساني . وهو بالنسبة للغة كالترية بالنسبة لأهله أو الحية . فاحية تكمن فيها جرثومة الحياة ولكنها لا تست إلا في التربة . وكذلك اللغة في الإنسان ، إذ يولد المرء مسعداً للطق والكلام . ولديه أحقره وأعصاه . ولكنه وحده معزلاً عن ناس لا ينصون ولا يسمعون ولا ينشأ به لغة . ونحن نعلم من مظاهر هذا الاستعداد نظري لدى الإنسان صاحب صوت . حيث هي جرثومة معه أو انفردت عن الكلام ، ولكنها لا تنمو إلا حين توفر بيئة اجتماعية ولم يكن هناك من يملأه بالمعكرين فيما مضى مطعون إلى هذه الحقيقة . فقد تصور صاحب فصاحة حتى من غطاه أن المرء حين يولد في جزيرة غير آهلة بالسكان يتوفر له حاجات الحياة من مأككل ومشرب وكساء . ويحت بعيش في أمن من قيط الطبيعة أو دمهريها ، ومن دواام الأبرص ووحوشها ، يمكن أن يحب وحده وأن يشكر وحده . وأن يمولده تلك الموهبة العقلية التي يوجد كل إنسان معها مسعداً . فإذا مرّ بمرحلة الطفولة وأصبح صبياً ثم فتي ثم رجلاً تمت معه تلك الموهبة العنسة ونا مكره . واستطاع في نهاية الشوط أن يصل إلى ربه . وأن يعرف على عضه وقدره وأن يحده في دمه . فلهذا نرى أنه

ليس بصور أن تم به كل هذه دون نطق أو دون كلام . وليس هذا

نتجنى على صاحب حى بن يقظان حين نفترض أنه كان يرى أن المرء وحده  
يستطيع أن يؤلف لنفسه لغة كالتى نألفها بن الناس ، ذات أصوات وذات  
كلمات وذات تراكيب

ولكن اللغوى الحديث يأبى الاعتراف بإمكان حدوث هذا أو ما يشبهه ،  
وينظر إليه على أنه كتلك الخواطر التى كانت تداعب بعض الملوك فى التاريخ  
القديم . فيروى لنا أن أحد الفراعنة « أسمتيك » أراد البرهنة على أن اللغة  
المصرية القديمة هى لغة الإنسان الأول ، ومنها تفرعت اللغات الأخرى ، فعزل  
طفلاً أو طفلين زمناً ما ليتعرف على أول كلمة يُنطق بها . ثم حاب ظن فرعون  
فى هذه التجربة .

وقد حدث أن سمعتُ منذ سنوات عن قصة غلام عُثر عليه فى صحراء  
حطوان بين قطيع من الغزلان ، وأن دورية من رجال الأمن أخذت تطارده  
حتى أمسكت به . وقيل لنا حينئذ إنه كان يجرى على رجله مع الغزلان ،  
وأنه بعد أن أصبح بين يدي رجال الشرطة أخذ يصيح بأصوات غير معهومة ،  
ويردد ما يشبه الكلام المنطوق . وساء لنا يومئذ هل أمكن لذلك الغلام أن  
يكون لنفسه لغة أو كلاماً إسائياً ؟ وقد ررره فى أحد الملاحى الجماعة  
بعد شهور من العثور عليه ظهر لى أنه يتكلم بكلمات منقطعة استمدتها ولا شئ  
ممن حوله . وكان يتعثر فى النطق بها . ويلتغى أصواتها كأنه طفل فى سن الثانية  
من عمره . ولم يبق لدينا أى دليل على أن ما كان يصوت به حين عُثر عليه  
كان كلاماً أو ما يشبه الكلام . وكل الذى تأكد لنا من هذه التجربة العجيبة  
أن الإنسان مستعد بمطرته للكلام . ولكن هذا الاستعداد لا يظهر له أى أثر  
إلا فى المجتمع الإنسانى .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن تلك القصص التى يقال فيها إن القردة أو  
الغزلان أو الدثاب قد قامت ببرمه طفل إنسانى . وأنه شب بينها وشاركها فى  
طعامها وشرابها . غير أننا لا نعرف أحداً من كتاب هذه الروايات والقصص  
قد شطح به خياله فافترض مثل هؤلاء الأطفال كلاماً إنسانياً .

بل حتى في الحادثين اللذين كانا مثاراً للجدل والنقاش بين اللعويين في القرن التاسع عشر حين عثر في كل منهما على طفلين يتكلمان كلاماً غير مفهوم لمن حولهما ورغم فوم أن الطفلين قد اخترعا لغة بينهما هما . فقد ثبت بعد دراسة أن ما كان يتمط به الطفلان مستمد كله من لغة البيئة .

وبلخص الحادث الأول في أن فتاة ولدت بمزرعة في « حريبلد » ، وأبها كانت تتكلم مع أحبا التوأم كلاماً غير مفهوم لمن حولهما . وقد شق ذلك على والديهما فصمم على عزل الأخ عن أخيه ، مما أدى إلى وفاة الصبي ونماء انماها وحدها تصرفت في عماد على التكلم بتلك اللغة المجهولة الغامضة . ولما شاع أمرها وبدأ العلماء يبحثون كلامها حيل إليهم في أول الأمر أن كلامها لا يمت إلى لغة ( حريبلد ) بصفة ما . غير أن أحد العلماء قد استطاع فيما بعد أن يكشف العطاء عما حاطت كلماتها من غموض . وبرهن على أنه لا يعدو أن يكون مستمداً من لغة « حريبلد » في صورة مسحوة أو مسورة ، فلا يؤلف عنه مستفهم ولا ما تقر من اللغة .

وأما الحادث الثاني فهو « جيسرس » قانلاً إن طفلين نشأ في « كوسهاجن » من أصل مع أم دد روميه . وقد أهملتهما الأم بشكل شاذ . فثبت وحدهما معزولين عن الناس بما فيهم . ثم كان أن مرضت تلك الأم ودخلت مستشفى بعلاج نازكة الطفلين رماً طويلاً في كنف عمه فلما صماء بكاء ويهول « جيسرس » إنه رار الطفلين وتودد إليهما حتى استطاع أن يدون كلمات وعبارات كثيرة من تلك اللغة الغامضة التي كانا يتكلمان بها في طلاقة ثم أخرى بحثه على تلك الكلمات والعبارات فوجدتها تتصل اتصالاً وثيقاً بلغة البيئة عبر أنها مسحوة مسورة . حذف منها بعض الأصوات وعوض عنها بأصوات أخرى . كما وجد أن بعض الكلمات مما يمكن أن يعدّ صدى لأصوات الطبيعة .

لا عرابه بعد الذي تقدم أن يرى اللعويين المحدثين يجمعون على أنه لا وجود لغة إلا في مجتمع إنساني .

أما ما نسمع عنه في بعض الأحيان من أن للحيوان لغة فليس في الحقيقة

إلا من قبيل التجويز . فلا تؤلف تلك الأصوات الفطرية المحدودة العدد والتي نسمعها من أذكى أنواع الحيوان وأرقاها ، لغة أو ما يشبه اللغة . فقد يستمتع بعض الباحثين بالإصغاء لمواء الهرّ في ظروف مختلفة . ثم يحدثنا عن كيف يعزّ الهرّ عن خوفه . أو عن حنينه إلى أليفه ، أو عن طلبه الطعام والشراب ، أو عن فرحه بقاء صاحبه ، وغير ذلك من صياح فطري محدود التنوع ، ومن الإسراف أن يقارن بلغة الإنسان في نظامها وسموها وتعلّقها . بل قد يحلو لهؤلاء الباحثين أن يسجلوا لنا تسجيلاً صوتياً فوق أسطوانات أو أشرطة تلك الأصوات الفطرية التي نسمعها من الحيوان زاعماً أن للحيوان لغة كما للإنسان لغة . وأنه لا فرق بين اللغتين إلا في الكمّ .

يجب إذن أن نرقى بلغة الإنسان عن مثل هذا المستوى ، وأن نبحث صلة اللغة بالمجتمع الإنساني في ضوء ما نراه الآن في المجتمع الحديث ، لنترك إلى أي مدى ترتبط اللغة بالمجتمع الإنساني ، أو يبحث أن نكون مقصورة عليه .

فالأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع الإنساني سواء كان مجتمعاً مثقفاً أو بدائياً . وقد دلت بحارنا الكثيرة على أن النمو المعنوي لدى الطفل سوف يحدد على ما تشتمل عليه حياة الأسرة التي هو عضو فيها .

فالنشأة السليمة والتربية الطيبة تساهم في نمو لغة الطفل أكثر مما يمكن أن يساهم به التعليم الملمّم في المدارس . فالصبي الذي يكثّر استماعه إلى حديث أمّه أو نقاش حيّ من أناس مختلفي الأعمار في محيط الأسرة خلال فترة طويلة من السنين يتمتع بمزايا لغوية لا حصر لها .

واللغة في المجتمع الإنساني الراقى لها عدة مستويات : مستوى بلاعي . ومستوى شعري ، ومستوى أدبي ، ومستوى في الطقوس ، وأخيراً المستوى العام ومنه الحديث أو الخطاب العادي . ويعتمد اللغة في صحتها وقوتها على المستوى العام للغة . لأن الحديث الدومي حين يحسه أفراد المجتمع يشطّ اللغة ويعيد إليها الشباب . فليس الكلام الإنساني من خلق العلماء أو اللغويين ، بل هو من

خلق العامة من الناس ممن ربما لم تتح لهم فرصة التعلم في مدرسه - وممن لا يكادون يحسبون كتابة أو قراءة .

حقاً إن العظماء والأدباء قد يعملون على تسمية اللغة وجمعها عمه حتى زهر ذلك الجمال الرائع في النصوص الأدبية . ولكننا نلاحظ أن أندر الأورث وأروعها هي تلك التي تظهر طبيعية ودون رعاية أو تعهد

ولا تعمق جذور اللغة إلا في التربة العادة التي منها يستمد اللغة عصيرها وعذائها . هذا إذا قدر للغة ألا تموت وتندثر كما تندثر تلك اللغات القديمة التي انقطعت صلتها بكلام الناس وخطابهم . يحس لهذا ألا نكون هناك فجوة عميقة بين ألفاظ الأدب والحديث اليومي . فقد تتطور تلك المعجزة إلى عزل لغة الأدب ، وتصبح أشبه باللغة المصنوعة التي تتقرر صيغها وأشكالها ، وبساطة سلطة عليها كما هو الشأن في المحامع اللغوية بأوروبا . فقد يصدر الجميع للغة قواعد محددة لتنظيم الاستعمال الأدبي ، وقد يحرص النصوص التي يجب أن تعلم في المدارس ، ولكنه لن يستطيع السيطرة على ذلك الحديث ' راجح في الأسواق . ولا على الخطابات العادية في السوق ومن أفراد الأسره

فإذا فصلت لغة الشعر مثلاً عن لغة الحديث وحصلت فصلاً تاماً . أصبح الشعر غير قابل للفهم ، ولم يعد شاعر في حده يخدم المجتمع بل يجد نفسه مخاطباً قريباً محدوداً من الناس وفي محال صيف من مجتمعه . من أجل هذا اكتسب كل من « تشوسر » في القرن الرابع عشر و « دريدل » في القرن السابع عشر شهرة عظيمة بين شعراء اللغة الإنجليزية . لأن كلا منهما كان يرمي في شعره تقاليد لغة الخطابات الذي كان سائداً في عصره . وبعد هذان الشعراء من أوضح شعراء الإنجليزية . وقد كان أثرهما في هذه اللغة حالداً وبحل الإعجاب والتقدير في مختلف العصور

ومن المسم به بين اللغويين الآن أن المرء يتعلم الكلام لا عن طريق العزلة أو الإحساس الداخلي كما هو الشأن في عذبات الشمس أو الأكل والشرب أو المشي ونحو ذلك ، بل يتعلمه من المجتمع الذي يسكن فيه . في محيط الأسره

أولاً ، ثم في القرية أو الحى من المدينة ، وأخيراً في المدرسة والحقل والمصنع ومحل العمل ، أو من زملائه في المهنة ، ومن النوادي والمجتمعات العامة .  
وحسن الكلام يتطلب توارفاً بين أمرين : النظام . والحرية .

أما النظام فمراعاة ما تجرى عليه التقاليد اللغوية للمجتمع ، وأما الحرية فتتمثل في محاولة المتكلم أو الكاتب التعبير عن نفسه في صراحة وصدق وقوة تأثير . فالكاتب الذى يسحر من العرف اللغوي السائد في مجتمعه ويختار عن عمد أسلوباً آخر ، لا يلبث أن يجد نفسه يكتب في فراخ . لانصراف الناس عن أدبه . أما الذى يلتزم التوازن بين النظام والحرية . بين التقليد والتجديد ، بين سلطة المجتمع وشخصيته الفردية ، فهو صاحب الإنتاج المحسوب المأنوس الذى يتطلب دائماً أن نشطه ، وأن نعث فيه الحياة عن طريق تلك اليابيع المتفجرة من الاستعمالات العامة في صورها التى لا حصر لها . فحق الآن في أمس الحاجة لإيصال الأفكار والأحاسيس في دقة ودون لس أو إبهام ، لأننا في عصر التقدم السريع للعلم والتكنولوجيا . فإن الوعي اللغوي لم يكمل نضجه ، ولم يصح أثره إلا في العصور الحديثة . وقد عبر عن هذا « لويس » في بدء كتابه بلغة والمجتمع بمواهبه ( نحن في وسط ثورة لغوية . هي أسس الحمير الأخيرة تأثر كل تحول كبير في حياة الناس في المجتمع بسمو المواصفات المادية . ولم يكر تأثره بسمو الاتصال اللغوي أقل من ذلك أو منخلفاً عنه . ولعلنا في مدينة ما لا بد أن يكون غيراً شاملاً في وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية )<sup>(١)</sup>.

وقد أسهب « لويس » وأفاص في كتابه حين حدثنا عن أن اللغة وسيلة لصنع المرء بالصيغة الاجتماعية . وكان مما قرره أنه كلما ازداد الفرد بوغلاً في عضويته للمجتمع ، ووثوقاً في صلته به ، زاد دور اللغة ، لا في حياته الاجتماعية فحسب ، بل في سلوكه وإحساسه وتفكيره أيضاً .

وقد بدا دور اللغة في المجتمع الإنسانى الحديث . في صورة حلية ، وظهر





فقد استغلّ الاتصال القوي للخدمة كل من هذه النظم السياسية المتباينة ،  
 ووجد الساسة والقادة في هذه الدول أن من الضروري توجيه المواطنين نحو  
 أهداف الدولة ، وتدريب كل منهم على أداء دوره السياسي . إذ يتحتم أن  
 يصبح أكثر عدد ممكن من أفراد الشعب يعون بالشاغل السياسي ، ويتدبرون  
 على المواجه السياسية ، التي تكفل الحفاظ على كل من هذه النظم السياسية  
 فتوضع أمامهم غايات محددة لأهداف الدولة . ويصرون بها ويشجعون على  
 الرغبة في الوصول إليها . واستخدم في هذا السيل . وعلى نطاق واسع . الصحافة  
 والإذاعة ، وهما من أهم أدوات الثورة الدعوية .

وبرغم أن موجات الإذاعة تتجاهل عادة حدود الدولة . وأن العدو يستطيع  
 أن يفتح تلك الحدود بإذاعاته المسمومة ، لم يحاول القادة في أي من هذه الدول  
 مصادرة أجهزة الراديو لدى أفراد الشعب . لأن مثل هذا التصرف ، فوق  
 استحالة نجاحه حتى مع فرض أردع القواص . سيؤدي في نهاية الأمر إلى  
 حرمان الدعائه المحلية من أقوى أسلحتها وأفضلها .

في ألمانيا نازية أسست هيئة ثنائية حزب بمرز - رولر - وسيصب  
 هذه هيئة على الأدب والصحافة والإذاعة والمسرح والسينما .  
 ووجهت كل ذلك للخدمة الدولة . وتطلب ذلك مختارات معينة من التعبيرات الكلامية  
 دار الأثر القوي في نفوس الناس وعقودهم . واتسمت هذه التعبيرات الريف حياء ،  
 والصدق حياء آخر ، ولكنها في الخليل تعدّ مطهراً من مظاهر الثورة الدعوية .

فما في روسيا الشيوعية فوق ما كان لدى النازيين من السيطرة على دواحي  
 الاتصال القوي ونواحيه . يقضي دستورهم بادعيات مجلس السوفييت الأعلى  
 عن طريق اللجان المحلية لنواب العمال فندبيهم انتخابات ذات صور متدرجة  
 من أسفل إلى أعلى . أي تبدأ من القاعدة الشعبية وينتهي بمجلس الأعلى ومن  
 المفروض أن تتم عمليات الانتخابات وسط المناقشات التي شور عدد الترشيح  
 لكل طبقة من طبقات النظام السوفييتي . وفي تلك المناقشات ولا شك نوعه



وللاتصال اللغوي وجهان أو ناحيتان هما : الكلام والإصغاء. وليس يقل الإصغاء أهمية عن الكلام في أى مجتمع عام . فالليبيب الخاذق حين يكون في موقف المعارضة يدرك تمام الإدراك قدر الحكمة الماثورة التي تقول : « استمع جيداً إلى خصمك » . فالإصغاء الجيد مثل الكلام الجيد ، ولكه ربما يكون أشق وأصعب . ذلك لأن الاستماع الجيد أو حسن الإصغاء يتطلب تركيزاً في كل المواهب الذهنية . وليس من السير على كثير من الناس أن يصغوا إلى حديث يستغرق فترة طويلة دون أن يشط الدهن في أى لحظة من لحظاته .

ومع أن الناس عادة يحسنون الحديث حرصاً من الإصغاء ، لا تزال ندعو في مجتمعاتنا إلى التنافس بين المتكلمين ، وشجعهم على التعبير عن حواظهم ، حتى حين لا يكون لديهم ما يستحق التعبير عنه . وقد نشجع على حسن الإصغاء أيضاً إذا تذكرنا أن بعض أولئك الذين يبدوون في المجتمعات وكأنهم مجرد مستمعين للمناقشة . يستطيعون خلال هذا الصمت إعداد قدر من العابر في أذهانهم . يدخل لما فيما بعد كل المجتمع . وتكمل في العلة والنصر على معارضيهم

## الفصل الثاني

### القومية

قومية مصطلح اجتماعي سياسي حديث بدأ الدارسون للاجتماع والسياسة يرونه بالبحث منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الآن . وهو كمعظم مصطلحات الاجتماع السياسية يعسر أن يعرف تعريفاً جامعاً مانعاً . ولذلك ترى في بحث من عرصوا للقومية تعريفات عدة متباينة إلى حد ما<sup>(١)</sup> .

ولعل مما أدى إلى عسر تعريف القومية في شكل حاسم عدم وضوح التفرق بين مصطلحي « الأمة » و « الدولة » في كثير من الأدهان ، والخلط بينهما في عصر الحديث .

فما في العصور التاريخية القديمة فلم يكد الباحثون يعنون بالتعبير عن فكرة « الأمة » وفكره « الدولة » . وكل الذي تصوروه عن « الدولة »<sup>(٢)</sup> السلطة الحاكمة محبة في بيت من الملوك ، أو في إمبراطور أو في عدة أو في عدة أمم . ففهم حاسم يطلق عليه . و صفت معه ربما كان وصفاً أن له لعه واحده .

وبعد شك لخصه في أن التقدماء كانوا يدركون عبر الأمة عبرة مثلاً عن الأمة المدرسية أو عن الأمة الحديثة . ولكنهم لا يكادون يربطون بين فكره « الأمة » وبين صام حكم أو القائمين به ذلك الربط الوثيق الذي ملحظه في دراسة حديثة . ذلك لأن الناس قاموا بالحكم . أو دونوا تمياده في العهود القديمة . كانوا يسمون إلى أسر معينة وبنواؤوا الحكم بعضهم عن بعض . أو كانوا من برحاء والمواد المعامرين الظموحين الذين تصبوا أنفسهم حكم شعب أو أكثر من شعب . و إنما كان كل من هؤلاء هؤلاء أحسب عن الأمة

(١) « الأمة » هي القومية « ٩ » ، ساطع الحصري ، ص ٩٠ .

المحكومة لا يشرك أهلها في نسب أو لغة أو نحو ذلك . فلم يكن المحكومون فيها مضي يرون غربة أو عضاضة في أن يتولى أمورهم أجنبي متى توفرت له أسباب الحكم . واستطاع بوسيلة ما الوصول إلى مركز السلطان . أي أن ما تنصوره الآن من وجود صلة أساسية بين انتماء الفرد إلى « أمة » و إلى « دولة » معاً وفي نفس الوقت ، بعد في الحقيقة فكرة جديدة نشأت في القرون الثلاثة الأخيرة . فقد أصبحنا الآن ندرك أن معنى الجماعة القومية وهي التي يعبر عنها الأمة ، يتضمن الحق في أن تبال أو تكتسب صفة الدولة .

وهكذا نرى أن عصور التاريخ قد عرفت الأمم كما عرفت الدول ، وإن لم تميز بين هذه وتلك التمييز الدقيق على النحو الذي يقوم به المحدثون من دارسي الاجتماع والسياسة .

فإذا تساءلنا كيف ومعنى نشأت فكرة « الدولة » تبين لنا أن نشأتها ترجع إلى آلاف من السنين . وأنها أسست على النظام القبلي ذلك النظام الاجتماعي الأصلي للإنسانية الذي لا يزال سائداً في بعض جهات أفريقيا وآسيا حتى الآن فهو النظام الذي كان يستظم كل أنحاء العالم في وقت من الأوقات .

ويمكن أن ينحصر هذا المقصد المبني . دون حوص في منه صلب الدراسة لاجتماعيه بأنه بدأ في صورة بمرحلة أو لانتماء إلى أسرة واحدة . وفي وثق صلة المرء بقريب من الناس أكثر من صلته بالآخرين ، وفي خصوصه السلطة موحدة في هذا المحيط الضيق .

وقد قويت هذه الوحدة بين الأقارب . ووثقت عراها عن طريق الاشتراك في اللغة أولاً وبالذات . ثم عن طريق الاشتراك في العقاليد والعادات والأساطير وهذا ملحوظ في الأساطير الإنسانية القديمة صلة القرابة والانتماء إلى الأسرة واحدة في وصوح وحلاء . كما نلاحظ فيها التعبير عن الأعراق الذين لا يتسبون في هذه الأسرة . والذين كانوا يعدون من وجهة نظر أورادها أعداء في كثير من الحالات .

وإنه لمؤسف وانحطت حقاً أن كل أسباب التوتر التي تشهدا في

نمصر الحديث، وكل أنواع الخلاف والنزاع الذي يقوم الآن بين الدول ويؤدي إلى تعداوة والبعضاء وويلات الحروب، لها ما يماظرها في المجتمع القبلى البدائى. فقد صهر بالمشترس في أقربها مثلاً حين اكتشفت مدحورون أو زبد أن كل حروب القبلية هناك ترجع إما إلى ضغط اقتصادى من مجاعة وعور، أو إلى ضغط سياسى رعية في التوسع القبلى. فاعتداء قبيلة على أرض أخرى. أو على مكان صيدها لا يكاد يختلف إلا في الكم عن رعية «هتلر» حين كان يبنى اسمه بالاسنيلاء على مصادر النصح العظيمة في «أوكرانيا». أى أن أولئك المعتدين البدائين من زعماء القبائل في منهل تاريخ الإنسابة معدون في الحقيقة نمذة الأسلاف لأمثال «الإسكندر». وتيمور لالك، وحكيروان، وبابليون». أما كيف انتهى ذلك النظام القبلى من معظم العالم. وكف حل محله بصر الدولة فيرجع ذلك إلى عوامل ثلاثة.

ولما الحاجة الملحة إلى التعاون بين القبائل لخلق حالة من الاستقرار بعد انتهاء التقدم الزراعى وندت هذه الحاجة واضحة حلية في حوص النيل ونداء وانمرت فلم يكن من اليه اعطى على كوارث الفيضان في هذه الحالة. ولا عمل جماعى مضطرب يشهد به من أساسه وبسبب ذلك ما لا يلبس به في حوص هذه الأبر. وأدى التعاون من قبائل في هذه المصالح إلى حاق نظام سياسى وإدارى حتى تتحقق أهدافه أو أعراضه هي في حقيقة الأمر أهداف اقتصادية. وحتى يحى الجميع ثماره ويكمل لهم حده مسعره في رجاء وأمن من المخاطر. عن طريق ذلك التقدم الزراعى ثم العمل على في نشأة الدولة. وهو هجرة جماعات كبيرة من الناس واستقرارها في سلام مطلقه معيه قبائل السلافيين الذين تشربوا في شرق أور هم أساس سوية الاتحاد السوفييتى. وكذلك الشأن في اتحادات كبيرة في أمريكا الشمالية.

وحدثت تاريخ عن عدد من مثل هذه المجتمعات السامية جماعة «أى» بـ «عند شراء بعض المدن القديمة»

أما العامل الثالث: فهو الغزو ، وأمثله كثيرة في التاريخ . وترتب على هذا الغزو أن عظمى رقعة الدولة ، وأصبح الحكم فيها خلال فترات تاريخية طويلة ، واتخذ السلطان السياسي فيها شكل أسرة حاكمة لدولة عظيمة أو إمبراطورية .

ومع ظهور تلك الدول العظيمة في عصور التاريخ . ثم اختفاؤها أو اندثارها بقيت هناك قوة كامنة تربط بين جماعة من الناس ربطاً وثيقاً ، وتشد بعضهم إلى بعض في تجاذب عجيب . ومشاركة في الشعور . وإحساس بما يحترقهم على التواد والتراحم فيما بينهم فكأنهم أسرة واحدة . مما يجعل هذه الجماعة شبه كيان مستقل عن الجماعات الأخرى في تلك الدولة العظيمة . وتلك القوة الكامنة هي التي تلورت في العصر الحديث إلى ما يسمى بالقومية .

أى أن التاريخ القديم قد عرف القومية . ولكنها كانت خلال عصوره المختلفة بمثابة القوة الكامنة التي لا تكاد تظهر حتى تختفى أو تكفى . وإلا فكيف نفسر أن إحدى الأسر الحاكمة في الصين قبل ظهور المسيحية قد صمت إلى ممتلكاتها ما يعرف بدولة « أنام » شرق الهند الصينية . بل لأدمايين قد حصصوا للحكم الصيني والثقافة الصينية أكثر من ألف عام . ثم مع هذا انفصلت « أنام » عن حدود الصين في القرن السادس عشر . وبعد ذلك بسنين وبعدها رسم ما اشتهرت به الثقافة الصينية من المقدرات على مصص شعوب لأخرى وهضمها . أى أن الإمبراطورية الصينية العظيمة لم تستطع خلال ألف سنة أن تقصى عن تلك القوة الكامنة التي يمكن أن يصير سبب نموها . ودولة « أنام » هي التي تعرف الآن بفيتنام الشمالية والجنوبية . والتي شهدت صراعاً مريراً مع أمريكا .

ويبدو أن تلك القوة الكامنة التي صير عليها الآن اسم القومية كان لها شأن ما في كل عصور التاريخ . وإن صب في أكثر الأحيان في حالة انزواء أو رخص . تنزع في صورة عاطفة على إثر انهيار الإمبراطوريات أو الدول العظيمة . وفوق أنفاص المآسي والمذابح التي تليها من انهيار دولة من تلك الدول الكبيرة لا حظ المؤرخين في هذه الدولة . منب إلى جماعات ، كل جماعة منها يتحدث أفرادها عنصراً من عنصر سحري . متحدثين



لأنفسهم وطناً صغيراً يجمع شملهم ، وفيه ترعى مصالحهم . ثم لم تكف تمضي فترة تاريخية قصيرة حتى عادت الحال سريتها الأولى ، وتكونت دولة كبيرة أخرى . بصوى تحت يدها تلك الأوطان الصغيرة .

وتساءل في كل حدث من تلك الأحداث التاريخية عن كنه ذلك الرباط السحري الذي يعمل على انجذاب أفراد كل جماعة بعضهم إلى بعض ، وعن الحاضر على وحدة الشعور بينهم ، وعلى أن يسود التواد والتراحم بعضهم مع بعض : هل هو الاشتراك في لغة واحدة ؟ هل هو الاشتراك في منطقة من الأرض يعيشون فيها ؟ هل هو الاشتراك في العفائد والأديان ؟ إلخ . وبطل تساؤل عن هذا السر . ثم لا تكاد تتفق أو تجمع على رأى حاسم ، لأننا نجهل الكثير من الظروف والملاسات التي صاحبت تلك الأحداث التاريخية

لذلك نعرض شحيص القومية في ضوء الأحداث التاريخية القديمة ، ونضع المسألة الآن بالنسبة في التاريخ الحديث ، لأن حوادثه أقرب إلينا ، وعلمنا بتفاصيلها أكثر وأدق . ولأن مصطلح القومية فوق هذا مصطلح حديث ، فهو يكس في العهود القديمة موضع مدرسة بالتحديد والتفسير وسر العصور .

أما في عصرنا الحديث فمما لا شك فيه أن القومية قد أخذت في النمو . ففي عصرنا الحديث قد ولدت في مهد بحر الأبيض المتوسط وعرب أور : بعد سقوط الدولة الرومانية كان عرب أوربا مستعزاً لجماعات عربية من حوض البحر في بعض نسخها على عرواب . وانتهى أمرها إلى أن اتخذت شكل الممالك أو الإمارات الإقطاعية وفي أواخر المرون الوسطى بدأت ثلاث من هذه الجماعات بأخذ شكلاً قومياً واضح المعالم واسمات فالجماعة الأولى هي تلك من قبائل « لعل » وكانت تتكلم لغة منحدره من اللاتينية ، ولكنها تسمى بطابع محلي متأثرة بما كان سائداً في تلك المنطقة من لغة المنذر على إثر لغو الروماني وهي اللغة « الكلتية » . لذلك أصبحت اللاتينية الحديثة في الأندلس « لعل » تسمى حصصه . وأصبحت فيما بعد تعرف باللغة « غوسية » . وما يعرف بمصطلح باسم « غوسية » ولغتها حدود طبعية مميزة . إذ تكون

معظم حدودها من جبال البرانس والمحيط الأطلنطي وجبال الألب . أما حدودها من جهة الأكراس واللورين فليست حدوداً طبيعية ، ولذلك كانت سبباً في عدة عروات ، وفي إثارة المشاكل السياسية بين فرنسا وألمانيا في العصر الحديث . ولم يكفد ينقضي القرن الرابع عشر الميلادي حتى كانت فرنسا مجتمعاً قومياً يشعر بكيانه المستقل ويتكلم ما يعرفه الآن باللغة الفرنسية التي أصبحت المهاد النفسى والفكرى لهذا الشعب . وهكذا تكونت القومية الفرنسية . وأصبح الفرنسيون منذ ذلك الحين يشعرون شعوراً قوياً بكيانهم وبقوميتهم التي عماها وقواها ، وأشعل أجيئجها . ما كان بين فرنسا وإنجلترا من حروب . فليس هناك ما يعمق الشعور بالقومية مثل وقوف الجماعة ضد أقوام آخرين ، واعسارهم أعداء أو خصوماً .

وأما القومية الثانية التي نشأت في غرب أوروبا فقد كانت القومية الإنجليزية وقد مرت عما يشبه التحارب التي مرت بها القومية الفرنسية . إذ بعد الغزو النورماندى امتزجت اللغة الفرنسية لغة العراه بلغة السكسويين . وتمحص ذلك الصراع اللغوى عما يعرفه الآن باللغة الإنجليزية . اى سادت في معظم الحرر البريطانية . وأصبح أيضاً لهذا النفسى والفكرى لشعب إنجليزى وقد أحب الشعور بالقومية الإنجليزية وعادى حدوده ما حصه لإنجليز من حروب في ذلك الحين ضد الفرنسيين والأسبان . كما عمل على تدميرها واستغلالها انعزال الإنجليز في حرر مقطوعة الصلة بالقارة الأوروبية . وقد استمد « شكسبير » في رواياته التاريخية نماذج الشعور بالهوية الإنجليزية من حروب إنجليزية مع فرنسا وأسبانيا . ذلك لأن التهام الجماعة القومية بأعدائها يعزى دائماً من شعورها بكيانها ودانيتها .

ثم كانت القومية الثالثة في غرب أوروبا . وهى القومية الأسابية التي نشأت على إثر صراع الأسبان مع العرب ، ونحاحهم في إحلاء العرب عن شبه الجزيرة ذات الحدود الطبيعية من المحيط والحدال . ولعل مما ساعد على مير القومية الأسابية ، تلك الحدود الطبيعية التي عزتها عن سائر أوروبا . ونلك الحروب

التي ثارت بينهم وبين العرب ، ثم التي خاصها الأسبان ضد إنجلترا . وهكذا نشأت القومية الأسبانية واللغة الأسبانية التي انحدرت أيضاً عن اللاتينية . غير أنها تتميز بطابع محلي قوى من شعور الأسبان بقوميتهم ذلك لأن الرومان حين عروا أسبانيا ومعهم لغتهم اللاتينية عملوا حاهدين على أن تحل اللاتينية محل اللغة التي كانت سائدة في أسبانيا حينئذ . وانتهى ذلك الصراع اللغوي بمرور اللاتينية وحلها محل اللغة الأخرى ، ولكن بعد أن أثبتتها الجراح . واندرثت اللغة الأخرى تدريجياً بعد أن حلقت في لاتينية أسبانيا آثاراً مبرتها عن الفرنسية . وأصبحت اللغة الأسبانية في ثوبها الحديد المهاد العسقي والفكري للشعب الأسباني أيضاً .

وهكذا نرى أن أئمة القوميات الأوروبية هي التي تكونت في غرب أوروبا ، ولكن تلك القوميات التي نشأت قبل القرن التاسع عشر قد انخرقت عن فكرة « القومية » كما حددتها المدارس في العصر الحديث ، وتطلعت إلى ما هو أبعد من القومية . وأصبحت فيما بعد ما يمكن أن ندعى بعقيدة التفوق ، نشأت الحروب معه لتوسع في أراضيها وتكون دونه كمبرة أو إمبرصورية . كما نشأت بحكم تمرير من دول ، وحدود ، وحدود ، وحدود ، فاصبحت هذه الدول كمبرة . وبعد ذلك ، وبعد ذلك ، وبعد ذلك ، ثم في حكومات بعد ذلك وما زاد صوحها وكثرت أطمعها وأصبحت لها مستعمرات بدأت تنظر إلى « القومية » في الملاد الأخرى بصر خاصة . كرها حبا ونسحر منها حبا آخر

ولست تقوّم في مثل هذه الدول الكبيرة « القومية » التي يعدها المدارس حديث للاحتجاج والسياسة فهو يرى أن القومية كمفهومها انحدرت لم تظهر في أوروبا إلا خلال القرن التاسع عشر على إثر حافزين أساسيين هما : قوة روحى السياسى ، من الأفراد في اجتماع . والثورة الاقتصادية الصناعية

وغير عن هذا روفر « و. ب. » فصف نمو القومية وقوتها في القرن التاسع عشر قوياً . وبما قبل هذا امرت كانت تحكمها في اورد ثلاث ممكنة مثل أسره « هنسبر ح » في ألمانيا . فلما كان القرن التاسع عشر انتهم

هذه الدول قوتان: إحداهما الديمقراطية ، أى الرغبة الملحة لدى كل فرد فى أن يكون له دور ما فى المجتمع ، وأن المجتمع لذلك يجب أن يمثل مصالح المواطنين . أما القوة الأخرى فهى الاقتصاد القومى ، واعتقاد الناس أن الثورة الصناعية التى سادت فى بعض نواحي أوروبا قد جعلت حياة الفرد فى خطر ، وختمت على كل دولة أن تعمل حاهدة على حماية الاقتصاد القومى . وهذا الحماس المفاجئ فى الإحساس بالمصلحة لدى كل أفراد الشعب هو الذى نبى قدرة الشعب ونشاطه وإمكاناته فى القيام بالجهود العامة . ولكنه من ناحية أخرى ولسوء الحظ دعا إلى ما يشبه العداوة والبغضاء . فلم نلبث أن شهدنا أنه حين أصبحت مصلحة المجموع مهددة من الخارج هب المجتمع كله وهو يحس أن حياته كلها فى خطر . وهكذا على أساس من هذه المخاوف شجعت قومية القرن التاسع عشر بالعداوة والبغضاء وفقدان الثقة ، وأصبحت النظرية التجارية التى نادى بها « تينسون » فى إنجلترا من توحيد الشعوب فى نسيج واحد مشترك المصالح . ومن تكوين اتحاد بين شعوب العالم عن طريق التجارة الحرة ، أصبحت هذه النظرية فى حيز كان ، ولم يعد يؤمن بها أحد بعد منتصف القرن . مع عشر .

وشبه النمودى الحديثة فى غرب أوروبا عملية تاريخية تمت فى دول معده . وفى ظروف خاصة . وبوسائل مختلفة ، غير أن سهوة المواصلات فى العصر الحديث جعلت المعركة الاجتماعية السياسية التى تشع فى شعب من الشعوب تنتقل إلى الشعوب الأخرى . إن شئت فقل عن طريق العدوى . أو قلت عن طريق التقليد وتبادل الثقافات . أى أن ذلك الاتجاه الاجتماعى السياسى الذى دعوه بالقومية أصبح ملكاً للإنسانية جمعاء . ومن المؤكد أن القومية فى غرب أوروبا التى هى فى الحقيقة نتاج ظروف وعوامل خاصة بهذه المنطقة من حيث النواحي السياسية والجغرافية والاقتصادية ، قد انتقلت إلى العالم كله وساعدت على ذلك النمو السريع الذى نلاحظه الآن فى عدد الدول المشتركة فى الأمم المتحدة

فلم يحدث في تاريخ الإنسانية أن استقل مثل هذا العدد الكبير من الدول على أساس القومية . فقد أحدثت فكرة القومية تتعلقل أيضاً في الشعوب الآسيوية ثم في الشعوب الأفريقية وهكذا يمكن أن يقال إنه إذا كان اقرن التاسع عشر عصر القوميات في أوروبا ، فإن القرن العشرين عصر القوميات في سائر العالم . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً موقف الدول الكبيرة في أوروبا من القوميات التي نشأت بها خلال القرن التاسع عشر . فقد كانت إمبراطورية النمسا وروسيا القيصرية من أشد الدول مقاومة لمكره القومية . وأسأها ضراوة في محاربها . فكانوا يقومون بالحركات القومية التي تقوم في بقاعهم انشاسعة . بل كانوا أيضاً يستكروا أشد الاستككار ما يقوم من القوميات في سائر المناطق الأوربية الأخرى في غير بلادهم ، ومما لا يحصع لنفوذهم . فحين قام الشاعر اليوناني « ريماس » يدعو قومه إلى الاستقلال ويشيد بالقومية اليونانية في أثناء إقامته سلاسل النمسا بادرت الحكومة النمساوية إلى اعتقاله وسليمه إلى الدواة العثمانية التي قامت بشقه في بلغراد . وحين قام « بيسلاني » بثوره في رومانيا . وشدته القومية الرومودة ضد ستعمار الدواة العثمانية . تطوع في مصر روس « صدر » : أ سكره هذه لتورد أصرح « رب ومسه

وفي جمع روس القيصريه بكل علف وفسوه بوره « بولندا » سنة ١٨٣٠ . وكذلك الشأن عندما ثار المحريون على إمبراطورية النمسا سنة ١٨٤٩ سارعت روس القيصريه إلى تحده النمسا لإخماد هذه الثوره

على أن هذه الدول الكبيرة في أوروبا لم تلتزم موقفاً محدداً إزاء القوميات الناشئة . فقد هنت روس القيصريه لمساعدته ثورة اليوا . وجاهدت فرنسا جهاداً طويلاً ضد الوحدة الألمانية أو القومية الألمانية . أما إنجلترا فكانت ساسها إزاء القوميات الناشئة تتدب على حسب ما تفصي به مصالحها الخاصة ، فلم تكن تعترف عمداً حقوق القوميات اعترافاً صريحاً ، ولم تكن تعارضه معارضة واضحة حلية . وكذلك الشأن في فرنسا . فقد كانت تتأرجح صدد فصا القوميات بين التأييد والمعارضة . فقد أبدت الحركات القومية في بلاد

اليونان وبلجيكا . ولكنها وقفت موقف التردد والتخاذل إزاء حركات الاتحاد الإيطالي . وذلك برغم مبادئ الثورة الفرنسية ، وبرغم ما كان ينادى به بعض المفكرين في فرنسا من أمثال « ريمان » الذي كان يقول ( إن كل قومية نولد وتنشأ يجب أن تلقى من فرنسا التشجيع والعون ) ، وقول لامرتين وهو وزير الخارجية سنة ١٨٤٨ مشيراً إلى حركات الاتحاد الإيطالي والاتحاد الألماني : ( إن فرنسا لن تعارض هذه الحركات ، ولن تسمح لساير الدول بمعارضتها )<sup>(١)</sup> .

ومن الغريب حقاً أن نجد بعض الساسة والمفكرين في هذه الدول الكبيرة ينتمون من الحركات القومية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر موقف الاستحقاف لها والسحرية منها ، ويرونها وليد الوهم والخيال . فيقول السياسي النمساوي الشهير « مترنيخ » هازئاً ساخراً من فكرة الرحدة الإيطالية : ( لا رابطة تربط مختلف الأقطار في إيطاليا غير التسمية الجغرافية ) . ويقول السياسي الإنجليزي المعروف « دبر راثيلي » واصفاً فكرة القومية : ( إنها من خلق جماعة من الطلاب المحرومين من المنح . ومن الأساتذة الموعلين في التعصب ) . ويقول السياسي الفرنسي المشهور « تشر » عن مبدأ حقوق القوميات ( أنا لا أعرف مبدأ أشد سحافة من هذا المبدأ . وأغار منه على أعمدة ونحرم )

بل إن جماعة من رجال الدين الكاثوليكى قد سعى بهم الصلال إلى أن يصمموا فكرة القومية الكافر والإلحاد زاعمين أن اختلاف اللهات الذي يستند عليه مبدأ القوميات دليل صريح على غضب الخالق الأعلى . لأنه في أصل نشأته نباح للمعصية والربيع عن طاعة الله . ولعلمهم بهذا بشيرون إلى قصة التوراة في مله الألسنة

وأما المشكرون في الأمم البامية خلال القرن التاسع عشر فقد أشدوا القوميات ودافعوا عنها . فكان في ألمانيا « فيخته » . و « ماكس بورداو » و « مكيكا » أميل لا بولاي . ولكن مما يؤسف له أن هؤلاء المؤيدين لفكرة القومية في القرن التاسع عشر قد هصروها على أوروبا . فلم يكونوا يرون أن

شعوب آسيا وأفريقيا أهلاً لذلك الحكم القومى فيقول « ما كس نورداه مثلاً .  
( إن شمال أفريقيا يجب أن يكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوروبية ، وأما سكانه  
الحاليون فيجب أن يدعوا نحو الجنوب وفي محافل الصحراء إلى أن يعمروها هناك ) .  
يحدث بنا بعد هذا أن نستعرض في إنجاز نشأة القوميات الحديثة خلال  
النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في  
اتقارات الثلاث : أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا .

### ١ القوميات في أوروبا

شهد القرن التاسع عشر بعد مؤتمر فيينا صراعاً مريعاً بين الدول الكبرى  
في أوروبا ممثلة في روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والمملكة العثمانية ، وبين  
الشعوب التي هبت تنادى بوحدة واستقلالها على أساس ما عرف حينئذ بالقومية .  
وكانت الحركات القومية خلال هذا القرن بمثابة نبعث للشعوب من مرقدها .  
ذلك لأن القومية الواحدة كان يسميها أكثر من دولة من تلك الدول الكبيرة ،  
كما أن دولة الواحدة كانت تضم عدة قوميات . فهم كل الحدود في دور  
تاريخي منصوص صصوص معاهدات التي عمت بعد حروب ووحدة . في كانت  
معبر تلك حدود نصاً دون حرب أو قتال بسبب رواج اسولاء أو وفائهم  
فقد عبرت حروب نابليون خريطة أوروبا السياسية . كما سبقتها الدول بالتحالف  
الى فتهرت بالمليون حين فكرت في إعادة تنظيم أوروبا . وفردت العمل  
مبدأ ما سمي حينئذ بحقوق الملوك الشرعية . متعاضدة مع الأسف الحقوق  
الشرعية للشعوب والقوميات

وهكذا طلب خريطة أوروبا بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بعيدة كل البعد عن  
لاعنة ذات القومية . فقد ظل الألمان مورعين بين عشرات من الإمارات المستقلة ،  
وصل اطليل كذلك لا تجمع بينهم وحدة سياسية ، وأمولندون مورعين بين ثلاث  
دول هوية هي روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا وروسيا العثمانية . وظل  
السلطان حاصص لحكم دواتين كبيرتين هما دولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية .

في حين ظلت الإمبراطورية النمساوية تحكم قوميات مختلفة من ألمانيا وطلان ومجريين ورومان وتشيكين وبولنديين ويوغسلافين . وظلت السلطنة العثمانية تضم في قسمها الأوربي وحده قوميات متباينة : يونانيين ، وبلغاريين ، وألبان ، ويوغسلافين .

فإذا قورنت خريطة أوروبا بعد مؤتمر فيينا بما صارت إليه بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت لنا قوميات أوروبية متعددة : فقد توحدت ألمانيا ، وتوحدت إيطاليا . واستقلت بولندا ، وتكونت يوغسلافيا ، وانفصلت فنلندا عن روسيا ، كما انفصلت النرويج عن السويد ، وبلجيكا عن هولندا ، وتم بجانب هذا أن تكونت دول جديدة أهمها : اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وتشيكوسلوفاكيا .

### القومية اليونانية :

هت اليونان بعد مؤتمر فيينا نشد استقلالها ، ثائرة على حكم الدولة العثمانية . وظهر فيها جماعة من المفكرين المصاحدين على رأسهم « كوريس » Corais الذي كان ينادى بأن الشعور القومي لا يكتمل إلا بإحياء اللغة الإغريقية والأدب الإغريقي . مع أن اليونانيين حسد لم يكونوا في الحقيقة سلافاً مباشراً بالإغريق القدماء . وهكذا تطلع اليونانيون إلى لغتهم التي تجمع شملهم ويتميزون بها وحدها عن سواهم . وساعدت الدول الكبرى الحركة اليونانية فهرمت أساطيل إنجلترا وروسيا وفرنسا أسطول محمد علي في نفارين ، وهرمت روسيا تركيا في معارك أرضية . وأدى هذا إلى استقلال اليونان وبعث القومية اليونانية . فلم يكن العام ١٨٣٠ ينهي حتى كان لليونانيين كيانهم المستقل في أوروبا وقوميتهم المتمصرة . وكانت بهذا أسبق القوميات الأوروبية في الظهور والاكتمال بعد مؤتمر فيينا . وتم ذلك برغم ما كان يمتنع به اليونانيون تحت حكم الأتراك من مرايا هامة كوظيفة سكرتير الباب العالي وترجمانه وفائد الأسطول العثماني . وبرغم الرواح التجاري الذي تمتعوا به ، والرخاء الذي عاش فيه الفلاحون منهم ،



ولكنها القومية ، والعت القومى ، الذى يدعو الناس فلا يملكون إلا الاستجابة له

### القومية الإيطالية

ترك مؤنم قيسا القومية الإيطالية مورعة مشتة من ولايات صغيرة زرع  
لنفسها الاستقلال ، وأخرى تروح تحت حكم الدول الكبرى ثم برع محر  
القومية الإيطالية ، وبدأ الإيطاليون يحسون بكيانهم المنمذ . متلا في تلك لغة  
الى تسحر انحداراً ماشرأ من اللاتينية ، وتربط بينهم ربطاً وثيقاً . فيها يتنعمون  
بمعهم مع بعض ، وسها يعبرون عن أفكارهم وأحاسيسهم وآمالهم وظهر بينهم  
جمعية الكاردونارى . ثم جمعية إيطاليا الفتاة التى أنشأها « مرسى » سى  
لفب تشى الحرية والوطنية . وبعد ثورات وحروب استعرق نحو نصف قرن .  
اشترك فيها السياسى المختك ذو العقل الراجع والنظر البعيد « كافور » الذى آمن  
بالوحدة الإيطالية إيماناً قوياً ، كما اشترك فيها القائد المظل المقدام « غريماندى »  
تحت لإيطاليا وحدتها واكتملت قوميتها . وتخلصت من نديد الإمبرورية  
انتصارية سنة ١٨٧٠ ومع هذا طهر من رعماء إيطاليا وفقدت من كادر برور  
ت هذه حدة غير كاملة ولا شاملة . وتطلعوا إلى مناطق في شرق إفريقيا .  
طلب تحت سطره تم « كتريسو » و « كترين » و « كترين » .  
سرى أن معظم سكك هذه المناطق ينكلمون اللغة الإيطالية وعمر في يصب  
بعد الوحدة حرب قوى يطالب هذه المقاطعات ، ولم تك تكتسب ثمة إلا في  
بابه الحرب العالمية الأولى

### القومية الألمانية :

كانت حروب نابليون بمثابة المطلق للقومية الألمانية . فقد أحس الألمان  
في أنشأها وبعد هزمه نابليون بكيانهم وتغيرهم عن غيرهم . و... و...  
بعضهم إلى بعض ، ويتطلع بعضهم إلى بعض . مع ما كدوا عنه من تشب  
وانعصال في صوره إمارات وولايات يحارب كل من حكاهم أن يستن  
عصا له وشموه وسلطاه . وكان أعواها بروسيا الألمانية ووجد الألمان بعد

تطلعهم إلى الوحدة أن أوضح ما يتميزون به عن الشعوب الأخرى أن لهم لغة واحدة تجمع شملهم وتلم شتاتهم . ولذلك كان يقول فيلسوفهم « فيخته Fichte » في حوارهم مع رجل من أهالي بروسيا :  
أنت ، ألسأ ألمانيًا ؟

فيجيبه الرجل في شكل حاسم :

كلا ، أنا لست ألمانيًا ، بل أنا روسي .. ولكن « فيخته » يرد عليه قائلا :  
أصغ إلى جيداً ، إن الفرق بين أهالي بروسيا وسائر الألمان ليس إلا فرقاً عارضاً وليد المصادفة . أما الذي يتميز به الألمان عن سائر الشعوب الأوروبية فهو اللغة التي يشترك فيها جميع الألمان ، والتي تميزهم تمييزاً جوهرياً عن جميع الشعوب الأخرى .

ولذلك تطلع الألمان منذ شعورهم بقوميتهم إلى إحدى زعامتين : بروسيا والنمسا ، ففي كل منهما تسود الألمانية . غير أن « النمسا » خذلتهم وانفصلت عنهم حاضعة لأطماع حكامها من الأباطرة الذين كانوا يؤثرون إمبراطورية شاسعة تضم قوميات متباينة . وهذا أسلموا رماة الوحدة الألمانية إلى بروسيا . وتمت الوحدة الألمانية فيما بين ١٨٤٨ - ١٨٧١ بمصل النخبود المعصم الذي بدله ملك بروسيا يعاونه « سمارك » منشور الدولة الذي كان يؤمن إيماناً قوياً أنه لا سبيل إلى وحدة ألمانيا بغير حرب . ويعان في صراحة أن الوحدة الألمانية لا يمكن أن تقوم على شر المادى والشعارات القومية وحدها . بل لى تحقق إلا على أسس السيوف والرماح . فعمل أولاً على أن يصمم حياد روسيا . كما هادن « فرنسا » . وذلك ليتفرع لدمسا التي حاربها وهرمها في موقعة « سادوا » سنة ١٨٦٦ واكتفى بإدلال هذه الإمبراطورية الكبيرة . وصمم بعض المقاطعات التي يتكلم سكانها الألمانية . إلى الوحدة الألمانية مثل « شلسويج » و « هلستين » ومملكة « هوفر » ، ومقاطعة « هس » و « فرانكفورت » . فانتصت أحرار ألمانيا وأصبحت تؤلف وحده جغرافية وسياسية تمتد من حدود روسيا إلى حدود فرنسا . وأخيراً نجح سمارك في إثارة فرنسا وحاربها وانصر عليها . وكان ذلك

لبعض اعتراف العالم بهذه الوحدة الألمانية من ناحية ، والعمل على دعم الشعور القومي بين الألمان من ناحية أخرى . فليس أقوى على إشعال القومية وتوطيد أركانها من أن يشعر أساؤها أنهم يواجهون عدواً لهم يترصد لهم ويكيد لها . وعلى إثر هزيمة فرنسا عقدت معاهدة بين المتحاربين ، وكان أهم نصوصها ضم الألزاس واللورين إلى ألمانيا . لا شيء سوى أن اللغة الألمانية لغة معظم سكان هاتين المقاطعتين . وأقمت ظروف الحرب والانتصارات التي أسكرت الألمان كلهم تلك الولايات الحسوية . التي كانت تتردد في الانضمام نهائياً إلى الوحدة الألمانية مثل « بافاريا » و « ورتمبرج » و « دوقية بادن » ، بأن من الخير لهم الانضمام تحت راية القومية الألمانية ، برعاية سيمارك . وفي سنة ١٨٧١ توج الملك « وليم » إمبراطوراً على ألمانيا في قصر فرساي . ولكننا نتساءل برغم هذا النصر المسجل هل بلغت القومية الألمانية بعد هزيمة فرنسا كل ما كانت تصبو إليه ؟ هل في سدوك « هيلر » فصل الحرب العالمية الثانية ما يجيب عن هذا السؤال . إذ كان دائم المطالبة بحسرة الملايين من الألمان المقيمين على حدود ألمانيا الغربية . وكان يعني بهذا المكلمين بالألمانية في النمسا وشيكوسلوفاكيا . وعلى الرغم من ذلك على الرغم من أن هذه دول حرب أم لا ، فإنه لا يمكن أن يكون ذلك كسوف لا يطفئ الشمس .

#### القومية البولندية :

صب القومية البولندية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى نفاً طويلاً بحكم « روسي من ناحية والحكم الروسي من ناحية أخرى . وكان أهم ما تنهت إليه روسيا القومية للتصدي على قومية « بولندية » نحو كل أثر لثقافة البولندية ممثلة في تاريخها وفي لغتها . وحرمت على سكانها اصطلاح اللغة البولندية في الأعراس الرسمية ، وفرضت عليهم اللغة الروسية ، وتاريخ لإمبراطورية الروسية في المدارس ودور العلم وحسباً . معلمة المشهورة « مدام كوري » في مذكراتها عما صادفها في « بولندا » وهي مقيمة صغيرة بإحدى مدارس حيث تخرأت مدرسة شائعة من البولنديات .

وأخذت تتلو على تلاميذها شطراً من تاريخ بولندا القومى باللغة البولندية . فلما دقت الأجراس منذرة بزيارة المفتش الروسى تطوعت بعض التلميذات وأخفين فى ملح البصر الكتب البولندية فى مكان قريب . فلما أقبل المفتش يتهادى فى غطرسة وكرياء وجد أمامه عشرين من التلميذات يستمعن إلى درس فى الخياطة والتطريز . وبعد أن قام بتفتيش الأدراج واطمأن إلى أنها خالية مما يمكن أن يثير أزمة أولوماً ، سأل المدرسة أن تختار له إحدى التلميذات ليوجه إليها بعض الأسئلة . وكان أن اختارت له تلك التلميذة النابغة التى عرفت فيما بعد عدام كورى . فسألها المفتش أن تتلو الصلوات والأدعية ، فتلتها فى لباقة وسون تعثر باللغة الروسية . ثم سألها عن قدر من تاريخ القياصرة الروس فأجابت الروسية أيضاً ودون تردد أو تلثم . فلما انصرف المفتش انسجرت التلميذة تبكى حزناً على القومية البولندية والتاريخ البولندى ، بل قل حزناً على لعنها القومية<sup>(١)</sup> .

ولم تكن بولندا تحت حكم الألمان بأبعد حظاً ، فقد حُرمت اللغة البولندية فى الأمور الرسمية ، بل فرضت الصلاة على صغار الأطفال باللغة الألمانية وتعرض بعضهم للجلد بالسياط كلما رفضوا ذلك .

ومع ما عانت القومية البولندية تحت حكم الروس والألمان . ثارت بولندا مرتين إحداهما سنة ١٨٣٠ والأخرى سنة ١٨٦٣ . وأقمعت الثورة فى قسوة وعنف ، ولكن القومية البولندية ظلت تتأجج إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى .

### قوميات أخرى فى أوروبا :

ظلت الحركات القومية فى أوروبا فى صراع مع الدول الكبرى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى أن انتهت الحرب العالمية بمعاهدة فرساي التى اعترفت بهذه القوميات ، وأعادت توزيع أوروبا على أساسها . فى الشمال من شبه جزيرة اسكندنباهو ظهرت قوميتان متميزتان عرفتا هما بعد بدولتى السويد والنرويج ، كما اسلحت القومية النمساوية عن روسيا . وكذلك دول البلطيق ( استونيا ، لتفيا ، لىوانيا )

وفي الغرب انفصلت بلجيكا عن هولندا ، وهما مما وحد بينهما مؤتمر فيينا ،  
ولكن التجربة أثبتت فشلها ، فثارت بلجيكا وطالبت بالاستقلال الذاتي  
سنة ١٨٣٠ وحصلت عليه بعد حرب مع هولندا . وكان أوضح ما ثارت له  
بلجيكا سوء سياسة هولندا ، فقد جعلت اللغة الهولندية اللغة الرسمية ، وجعلت  
العاصمة « لاهاي » . ومعظم الوراثة هولندية ، إلى غير ذلك مما ألهم القومية  
البلجيكية ، وأثارها ضد الوحدة مع هولندا . ولكننا مع هذا نتساءل هل  
الأساس الذي بني عليه تكوين بلجيكا أساس قوي ؟ ولعلنا نجد الجواب عن هذا  
السؤال فيما لا يزال نشهده الآن من صراع في بلجيكا بين اللغتين الفلامنكية والفرنسية .  
وفي مناطق البلقان ظهرت قوميات ثلاث هي التي عرفت فيما بعد بقومية  
رومانيا ، والقومية البلغارية ، والقومية اليوغوسلافية . وأساس هذه القوميات كما  
سرى لغيري ، فكل منها لعبها المتميزة التي جذبت أفرادها بعضهم إلى بعض  
وعبرت عن أفكارهم وأحاسيسهم . وميزتهم عن حركتهم من شعوب واكمل  
شده القوميات كسماها ، ويرهت على تميزها واستحقاقها الاستقلال بعد حركات  
ثورية عسمة . بل بعض الحروب أيضاً ، مما حمل المؤتمرات في فرنسا بعد  
حرب عامه الأولى على الاعتراف بها كقومية

أما في وسط أوروبا فقد طلت الإمبراطورية النمساوية ، أو « نابل أباطره »  
النمسا يستمكنون بتلك الدولة الكبيرة التي كانت تضم عدة قوميات ، ويحاولون  
بالعنف والعسف حيا . وبالقيادة حياً آخر . الاحتياط محدودها الشاسعة .  
عبر أن لشعور القومي في بعض مناطقهم كان أقوى من سلطانهم وجبروتهم ،  
وقد تسربت مبادئ القومية إلى النمسا على إثر الانقلاب الصناعي في أوروبا ،  
وبعد إنشاء السكك الحديدية ، التي ربطت بين بلاد الإمبراطورية ، وساعدت  
على إشعال الشعور القومي . وكانت دولة النمسا تتألف من أربع قوميات :

١ القومية السلافية في الشمال وبنكهم أهلها لغة منميرة في مقاطعه  
« بوهيميا » - و « مورافيا » وجزء من شمال المجر . والسلافية في الجنوب وتمثل  
« في كروات والصرب »

- ٢ - القومية المغولية في معظم أنحاء « المجر » .  
 ٣ - القومية الألمانية على صفى نهر الطونة .  
 ٤ - القومية اللاتينية في مقاطعه « ترسلقانيا » و « بكرقيا » و « التيرول »  
 و « تريستا » .

وكان لكل من هذه القوميات لغتها المتميزة التي ربطت بين جماعاتها ،  
 وجذبت بعضهم إلى بعض . وظهر بين السلافيين زعماء يدعون إلى إحياء التاريخ  
 القوي واللغة القومية . وإلى الوحدة بين كل من ينتمون إلى العنصر السلافي ،  
 أمثال « يلاكي » في بوهيميا ، و « كولار » الذي دعا إلى وحدة السلافيين .  
 كما ظهر في « المجر » زعيم قوي وجه نشاطه إلى إحياء اللغة المجرية . فأصدر  
 أول صحيفة بهذه اللغة و هو « كشوط » .

وكانت سياسة الحكام من الأباطرة تعتمد إلى استغلال الفركة بين هذه  
 القوميات ، وتؤلب بعضها على بعض . أملا في القضاء عليها جميعاً . فلما قامت  
 الحركات القومية في مقاطعات الإمبراطورية النموية قابلها هؤلاء الأباطرة  
 العنف والقمع . أو منح بعضهم ما سموه بالاستقلال الذاتي وطلب هذه  
 قوميات في صراع مع الأباطرة ، فبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى .  
 وعقدت معاهدة فرساي التي اعترفت بالقوميات . وقد اشتعلت الثورات القومية  
 في الإمبراطورية سنة ١٨٤٨ . فقامت « المجر » تطالب بالاستقلال الذاتي .  
 وثار « بوهيميا » مطالبة باعتبار كل اللغات على قدم المساواة . وفي لحظة  
 مهادنة منح الإمبراطور « المجر » حكومة مستقلة . وسمح لها بوضع دستور  
 خاص بها . ثم نقص عهده حين رأى اختلاف القوميات في إمبراطوريته .  
 وقيام بعضهم ضد بعض . فالذين من العنصر السلافي دعوا إلى الوحدة بينهم  
 ضد الألمان . وأساء المجرين معاملة من ينتمون إلى العنصر السلافي فانضمت  
 الصرب إلى الكروات وهم من عنصر سلافي . وثاروا المجرين . فانهز الإمبراطور  
 هذه الفرصة وسحب كل لامتيازات التي منحها « للمجر » ، وقضى نهائياً  
 على الثورات والحركات القومية . إلى أن كانت معاهدة فرساي سنة ١٩١٨ التي

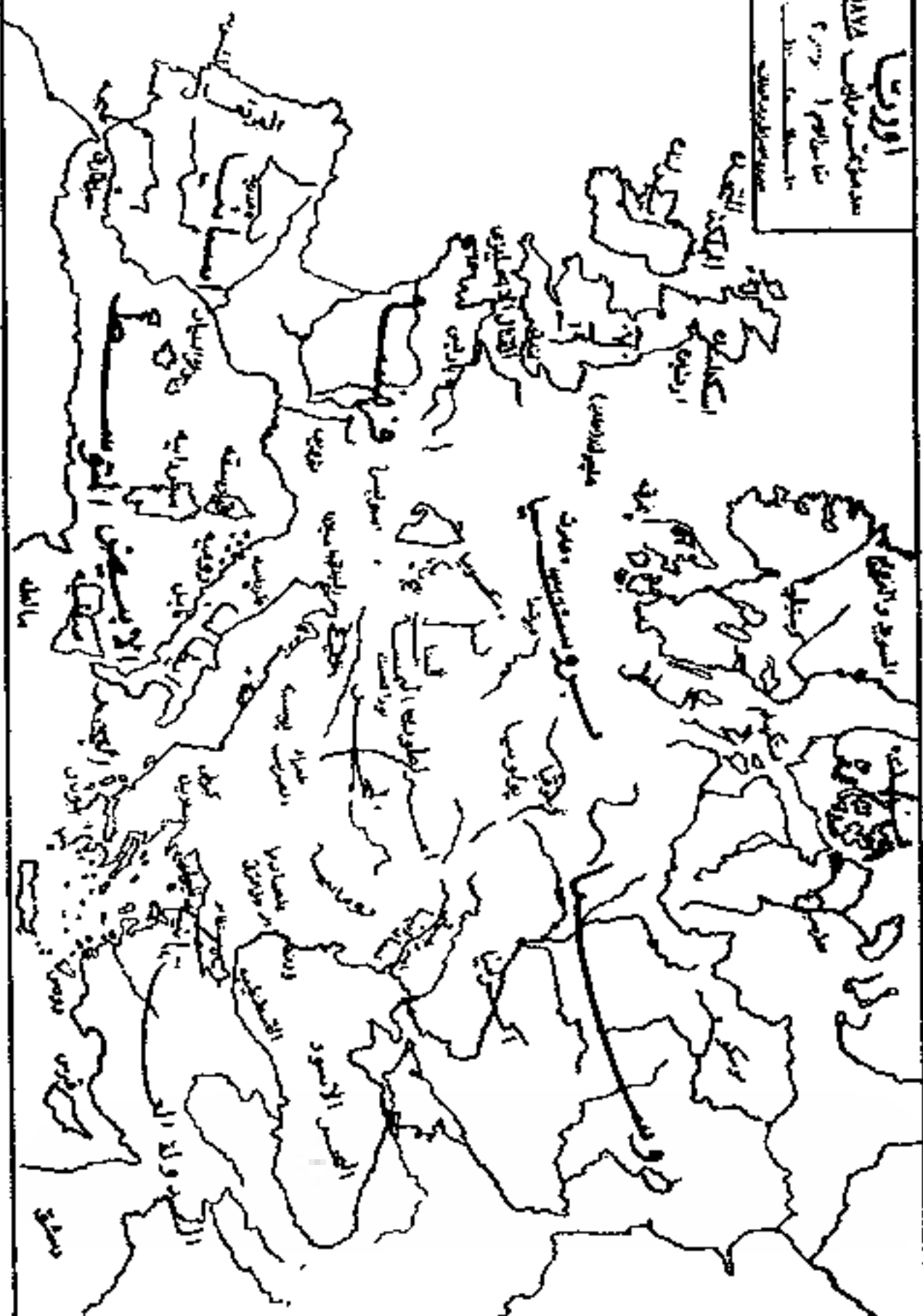
كان من نتائجها أن مُنحت « بولندا » ما يسمى بالممر إلى بحر البلطيق لأن معظم سكانه كانوا يتكلمون اللغة البولندية . أما مدينة « درخ » وبرغم أن أهلها من الألمان وتكلمون الألمانية فقد وضعت بمحض دمه المعاهدة تحت وصاية عصبة الأمم . كما كان من نتائج هذه المعاهدة فصل « النمسا » عن « المجر » على أن يسود في النمسا قومية ألمانية وفي « المجر » قومية مجرية . أو إن شئت قلت : إن النمسا تكونت من يتكلمون الألمانية ، وإن « المجر » تكونت من يتكلمون المجرية . ولكن كان من أوضح ما أخذ على معاهدة فرساي أنها سمحت بصمم بعض المجرين أو من يتكلمون باللغة المجرية إلى رومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا . فقد صممت « ترانسلفانيا » وسكانها من المجر إلى رومانيا ، وضمت « كرواتيا » إلى يوغوسلافيا ، وصمم الجزء الشمالي من المجر إلى شيكوسلوفاكيا ، وضمت مقاطعات التيرول في الجنوب إلى إيطاليا . أي أن التقسيم الجغرافي في هذه المعاهدة لم يكن كله على أساس القوميات ، بل ترك جديراً للنزاع والشماع القوي ، مما طلب معه أوروبا بين الحربين العالميتين تقاسي وثقل ، ومما كان من الأسباب المباشرة للحرب العالمية الثانية . وفي تشيكوسلوفاكيا أقبره كثير من الألمان فرصت بحرية اللغة شكك . فعصوا فلدا وأصبحوا غير خائفين دئم مع الأكتة « اسلاف » وفي يوم من الأيام يطاعون إلى ألمانيا الكبرى ، كذلك اقتطعت مقاطعة « ب. ر. ا. » من شمال رومانيا وضمت إلى روسيا برغم أن أهلها لا يتكلمون إلا لغة رومانيا .

5

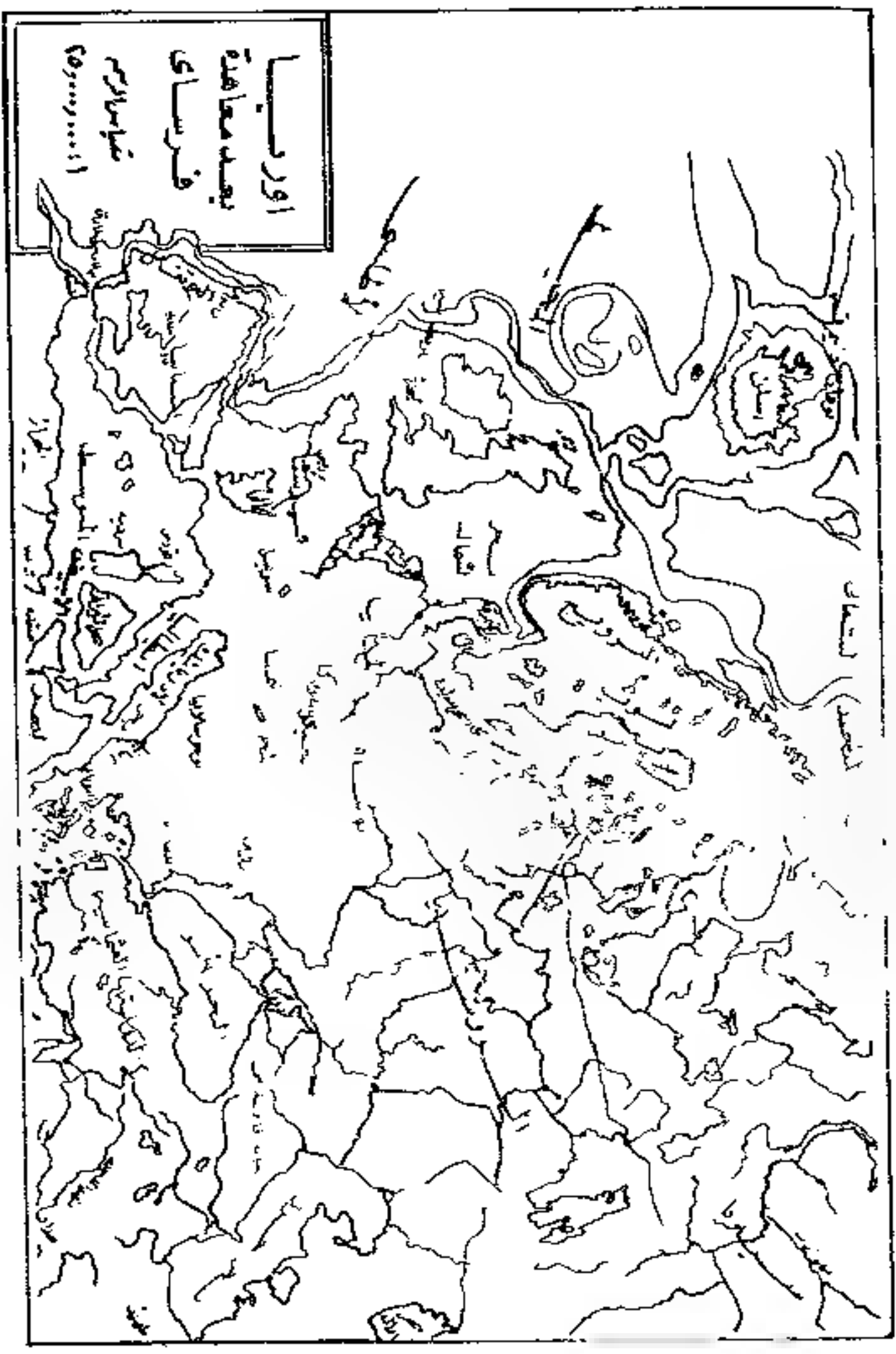
11/11/11

مجلس القضاء الاعلى

— The *Journal of the American Medical Association*, 1913, 16, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100, 101, 102, 103, 104, 105, 106, 107, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 120, 121, 122, 123, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130, 131, 132, 133, 134, 135, 136, 137, 138, 139, 140, 141, 142, 143, 144, 145, 146, 147, 148, 149, 150, 151, 152, 153, 154, 155, 156, 157, 158, 159, 160, 161, 162, 163, 164, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 173, 174, 175, 176, 177, 178, 179, 180, 181, 182, 183, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 194, 195, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 203, 204, 205, 206, 207, 208, 209, 210, 211, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 223, 224, 225, 226, 227, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 235, 236, 237, 238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 249, 250, 251, 252, 253, 254, 255, 256, 257, 258, 259, 260, 261, 262, 263, 264, 265, 266, 267, 268, 269, 270, 271, 272, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 291, 292, 293, 294, 295, 296, 297, 298, 299, 300, 301, 302, 303, 304, 305, 306, 307, 308, 309, 310, 311, 312, 313, 314, 315, 316, 317, 318, 319, 320, 321, 322, 323, 324, 325, 326, 327, 328, 329, 330, 331, 332, 333, 334, 335, 336, 337, 338, 339, 340, 341, 342, 343, 344, 345, 346, 347, 348, 349, 350, 351, 352, 353, 354, 355, 356, 357, 358, 359, 360, 361, 362, 363, 364, 365, 366, 367, 368, 369, 370, 371, 372, 373, 374, 375, 376, 377, 378, 379, 380, 381, 382, 383, 384, 385, 386, 387, 388, 389, 390, 391, 392, 393, 394, 395, 396, 397, 398, 399, 400, 401, 402, 403, 404, 405, 406, 407, 408, 409, 410, 411, 412, 413, 414, 415, 416, 417, 418, 419, 420, 421, 422, 423, 424, 425, 426, 427, 428, 429, 430, 431, 432, 433, 434, 435, 436, 437, 438, 439, 440, 441, 442, 443, 444, 445, 446, 447, 448, 449, 450, 451, 452, 453, 454, 455, 456, 457, 458, 459, 460, 461, 462, 463, 464, 465, 466, 467, 468, 469, 470, 471, 472, 473, 474, 475, 476, 477, 478, 479, 480, 481, 482, 483, 484, 485, 486, 487, 488, 489, 490, 491, 492, 493, 494, 495, 496, 497, 498, 499, 500, 501, 502, 503, 504, 505, 506, 507, 508, 509, 510, 511, 512, 513, 514, 515, 516, 517, 518, 519, 520, 521, 522, 523, 524, 525, 526, 527, 528, 529, 530, 531, 532, 533, 534, 535, 536, 537, 538, 539, 540, 541, 542, 543, 544, 545, 546, 547, 548, 549, 550, 551, 552, 553, 554, 555, 556, 557, 558, 559, 560, 561, 562, 563, 564, 565, 566, 567, 568, 569, 570, 571, 572, 573, 574, 575, 576, 577, 578, 579, 580, 581, 582, 583, 584, 585, 586, 587, 588, 589, 590, 591, 592, 593, 594, 595, 596, 597, 598, 599, 600, 601, 602, 603, 604, 605, 606, 607, 608, 609, 610, 611, 612, 613, 614, 615, 616, 617, 618, 619, 620, 621, 622, 623, 624, 625, 626, 627, 628, 629, 630, 631, 632, 633, 634, 635, 636, 637, 638, 639, 640, 641, 642, 643, 644, 645, 646, 647, 648, 649, 650, 651, 652, 653, 654, 655, 656, 657, 658, 659, 660, 661, 662, 663, 664, 665, 666, 667, 668, 669, 670, 671, 672, 673, 674, 675, 676, 677, 678, 679, 680, 681, 682, 683, 684, 685, 686, 687, 688, 689, 690, 691, 692, 693, 694, 695, 696, 697, 698, 699, 700, 701, 702, 703, 704, 705, 706, 707, 708, 709, 710, 711, 712, 713, 714, 715, 716, 717, 718, 719, 720, 721, 722, 723, 724, 725, 726, 727, 728, 729, 730, 731, 732, 733, 734, 735, 736, 737, 738, 739, 740, 741, 742, 743, 744, 745, 746, 747, 748, 749, 750, 751, 752, 753, 754, 755, 756, 757, 758, 759, 760, 761, 762, 763, 764, 765, 766, 767, 768, 769, 770, 771, 772, 773, 774, 775, 776, 777, 778, 779, 780, 781, 782, 783, 784, 785, 786, 787, 788, 789, 790, 791, 792, 793, 794, 795, 796, 797, 798, 799, 800, 801, 802, 803, 804, 805, 806, 807, 808, 809, 810, 811, 812, 813, 814, 815, 816, 817, 818, 819, 820, 821, 822, 823, 824, 825, 826, 827, 828, 829, 830, 831, 832, 833, 834, 835, 836, 837, 838, 839, 840, 841, 842, 84







## ٢ القوميات في أفريقيا

ذكرنا آنفاً أن القومية بوصفها فكرة سياسية واجتماعية تعدّ من الشعارات التي أمدتنا بها أوروبا في العصور الحديثة . ذلك لأن القبائل التي شهدت سقوط الدولة الرومانية قد استقرت في مناطق من أوروبا ، وامترجت بمن بقي فيها من سكانها الأصليين . وتكون من هؤلاء وهؤلاء ما نسميه في الوقت الحاضر بالقوميات الأوروبية .

ولما اندثر النظام القبلي في أوروبا حل محله ذلك النظام الذي يدعوه المؤرخون بالنظام الإقطاعي . ومع أن هذا النظام الإقطاعي قد اختلفت خصائصه باختلاف المناطق ، لكنه كان في أساسه يتألف من قرية أو عدة قرى يسيطر عليها أحد اللوردات ، ويعد من الناحية العملية مالكا للأرض فيها . ويدين هذا اللورد بالولاء لمن هو أكبر منه وأقوى مثل « الكونت » أو « الإيرل » أو « الدبوك » . ثم الملك . فكما يدين « اللورد » بالولاء للكونت أو الدبوك وبخوفاهما دين هؤلاء بالولاء للملك أو كما حدثنا رجال الفنون ممن وصو هذا النظام الإقطاعي . كان القروي يدين بالولاء « للورد » . وكل « لورد » دين بالولاء « الكونت » أو « إيرل » ، وهذا الأخير دين بالولاء « لدبوك » . وأخيراً يدين الدبوك بالولاء للملك . ولكن هذا النظام لم يطبق على هذه الصورة في كل الحالات

ولما اندثر هذا النظام أو كاد ، لم يخلف من صور الولاء إلا الولاء للملك . وبعد ولاء الرعية نحو مليكها الأساس الذي نبى عليه ما يسمى بالواجب الوطني أو الوطنية . ثم كان من اليسر أن امتد هذا الولاء من شخص الملك إلى الدولة أو المملكة . فنظر إلى الدولة على أنها بمثابة شخص يدين له كل مواطن بالإخلاص والحب ، وتطلب هذا الحب وذلك الإخلاص من المواطنين واحبات وخدمات . فإذا كان من حق المرء أن يكون مواطناً فإن عليه واحداً هو أن يكون مواطناً صالحاً أميناً مخلصاً . وهكذا تكونت الدولة القومية الحديثة في أوروبا من الناحية التاريخية .

و برغم هذا فإن في القومية الحديثة مضموناً عاطفياً قوياً هو الذي حار الدارسون في تفسيره وبيان كنهه كما سنرى فيما بعد على أنه مما سترعى الانتباه أن الكلمة التي تعبر عن الوطنية في معظم اللغات الأوروبية قد انحدرت من أصل لاتيني معناه « الأب » ، ويطلق على الوطن في بعض اللغات « أرض الأب » ، وفي البعض الآخر من اللغات قد تعلب العاطفة والحنين فيطلق على الوطن « أرض الأم » كما في الإنجليزية مثلاً . وكذلك الشأن في اللغة التي يشأ المرء عليها في وطنه يطلق عليها عادة « لغة الأم » . ويعبر المرء أحياناً عن الوطن « بأرض الأسرة » كما هو الشأن في بعض تعابير اللغتين الإنجليزية والألمانية .

ونسوحي مما تقدم أن المحبة والإثارة ، وهما مما يسود في الأسرة السعيدة ، يرتبطان أيضاً بالوطن أو بما يسمى بالقومية . فالمرء في مرحلة الرجولة وقد أعياه مشاكل الحياة وأرهقته قد يحن إلى عهد الطفولة يوم كان حلياً من تلك المشاكل ولذلك يحس كل منا بالعاطفة والولاء تجاه وطنه كما يحس بها تجاه أسرته تسعة . وكذلك الشأن في إحساسه نحو لفته التي تعلمها بين أحضان أمه . وطل بعد ذلك بتأثر برانها الذي دعى عاطفته وإحساسه نحو هذه اللغة ' .

في نظرنا من سوء هذا إلى حدود الدول لأفريقيا الحديثة وهذه المصداقة و لأحداث الاستعمارية فقد أسس كل من البرتغال واسبانيا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا مراكز لها في أفريقيا . وخطت الحدود بعد ذلك على أساس سلسلة من الاتفاقيات بين هذه القوى الاستعمارية ، بل في بعض الأحيان كانت إحدى هذه الدول الاستعمارية تقسم الحدود في ماصف على أساس إداري تحت كما كان الشأن في أفريقيا الفرنسية في غرب افريقيا فلو قد خطت الحدود على أساس جغرافي أو أساس قبلي ، لما وجدت تلك الدول الحديثة في غرب أفريقيا ذلك لأنها تتألف من خليط عجيب من السكان . وليس لحدودها معالم واضحة مميزة أي أن القوميات في أفريقيا م مكوّن على نفس الأسس التاريخية التي تكونت عليها القوميات في أوروبا الحديثة .

وليس من الضروري في الحديث عن القوميات في أفريقيا التوغل في تاريخ هذه القارة ، بل ربما يكفي في الهدف الذي رسمناه لهذا الكتاب أن ننظر إلى أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية ، فترى أن بريطانيا قد استأثرت بمناطق شاسعة في الشرق وبعض المناطق في العرب ، في حين أن فرنسا قد احتلت معظم المناطق في الغرب وبعض المناطق في الوسط . وقد شاركت البرتغال وبلجيكا في احتلال مناطق واسعة من وسط القارة .

وتعد الثورة القومية في أفريقيا خلال العشرين سنة التي تلت الحرب العالمية الثانية من أهم الطواهر السياسية المتناهية التعقيد التي ظهرت في منتصف القرن العشرين . فلم يكبد العام ١٩٦٣ ينقضي حتى شهدت أفريقيا أكثر من ثلاثين دولة مستقلة كانت منذ سنوات قليلة أقاليم مستعمرة تشرف عليها القوى الاستعمارية الكبرى .

على أنه إذا كان للاستعمار من فصل فإن نشر التعليم في هذه المناطق ومدها بكثير من مظاهر الحضارة الحديثة بعد فضلًا لذلك الاستعمار البعوض . ولم تقم تلك الدول المستعمرة بإصلاحاتها وتنظيماتها وستثماراتها ونواير وسائل الرخاء ومظاهر الحضارة في هذه المناطق حثًا في أهلها . أو رغبة في إيهوس  
 ٣٣ . عند . كانت ليوهر الحية . نرجه . محسوطان . لأورين أو كور  
 أحيرة إدار . حدة . السواء . مستعدة . ومع هذا قرب صريح دفعه . فقد علم  
 الأفريقيون ونهضوا . وقوى الوعي بعموميتهم وكنانهم . وشأ بينهم زعماء وفادة  
 تطبعوا إلى الحياة الكريمة لقومهم وأوطانهم . وأسمعوا أصواتهم محلحلة مدوية  
 للعالم أجمع في مؤتمر مشستر سنة ١٩٤٥ وكان أبرزهم حينذاك « نكروما »  
 و « حوموكيبينا » .

ويزعم بعض الاضطرابات العرصيه التي ثارت في أثناء الدعوة إلى القومية  
الأفريقية بين العامين ١٩٤٥ ، ١٩٦٠ . فقد انتهى الصراع باحصول على  
استقلال ذلك العدد الكبير من الدول . دون الالتجاء إلى استخدام العنف  
في أكثر الأحوال . وإذا استشيما ما حدث للجزائر وكسما « والكاميرون » يرى أن  
مواد استقلال الدول الأخرى لم يصححه عنف يؤدي إلى خسائر حسيمة في الأرواح .

ونظرتنا فإذا بأكثر من ثلاثين دولة مستقلة تنشأ في أفريقيا خلال بضع سنوات ، وأصبحت كلها أعضاء في الأمم المتحدة . وتساءل هل كان الأساس الذي تكونت عليه هذه الدول أساساً قومياً حقيقياً بالمعنى الذي شهدناه في قوميات أوروبا ، أم أنها في الحقيقة وليدة التنظيم الإداري في عهد الاستعمار ؟ ولا فلا ندري لماذا يقوم براع أو صراع بعد الاستقلال في بيجيريا والكونغو وجهات أخرى من القارة .

وكيف تمّ في مثل هذه الفترة القصيرة استقلال هذا العدد الكبير من الدول الأفريقية التي من بينها القزم الذي لا يكاد عدد سكانه يتجاوز نصف مليون كدولة « جامبيا » في الغرب ، والعماق الذي يبلغ عدد سكانه أكثر من أربعين مليوناً كدولة « بيجيريا » التي تكاد تساوي كل بريطانيا في المساحة وعدد السكان . . . فما هي الأسس أو المقومات التي بُنيت عليها دولة « جامبيا » ، وما الذي سوغ أن يشأ في مثل هذه المنطقة الضيقة ومع ذلك العدد الضئيل من السكان . دولة مستقلة ذات كيان متميز ؟

أحسني أن السماح غير المتوقعة التي ظهرت لنا من الدول الاستعمارية الكبرى ولا سيما بريطانيا وفرنسا في سياستها تجاه الحركة الاستقلالية في أفريقيا . لم تكن إلا حذعه أرادوا بها تفتيت القارة إلى وحدات معزلة غير متماسكة . وهكذا لم يكفد يبدأ العام ١٩٦٣ حتى شهدنا في غرب أفريقيا دويلات صغيرة الحجم قبيلة السكان أمثال « داهومي » ، « توجو » ، « لبريا » ، « سيراليون » ، « جامبيا » ، وغيرها من الدول التي أسكرتها فكرة الاستقلال ، والتي سمحت لبريقه رائف أن يشتها أو يفتتها . أي أن تلك الدول الاستعمارية ، بتشجيعها على مثل هذا التفتت أو التفتت قبل الاستقلال . وبتحمله بعده . كانت بمثابة أراعي غير الأمين على السائمة ، فركها تصل في مناهات التجارة الأفريقية لديها تعود إليه ندعة آسفة حين تعاني من المشاكل الاقتصادية والإدارية . ما ينوء به كل منها في انعزالها الذي سموه استقلالاً .

وتسأ المصلحون من زعماء أفريقيا مثل هذا المصير المروع ، فأخذوا يبادون

حتى قبل الاستقلال بالدعوة إلى لم الشمل في صورة أو أخرى .

وظهرت أول خطوة إيجابية بذلك الاتحاد الذي تم بين غانا وغينيا سنة ١٩٥٨ ، ثم انضمت إليه « مالي » سنة ١٩٦٠ . ولكن ، هذا الاتحاد لم يحقق أهدافه الطموحة ، ولم تلبث خطته أن انقلبت رأساً على عقب . فقد أدى الانفصال الجغرافي بين الوحدات المكونة لهذا الاتحاد ، والمفارقات الأساسية في النظم الدستورية والإدارية والقضائية ، وفوق هذا كله أدى اختلاف اللغة إلى فشل التجربة . فلما كان العام ١٩٦١ اجتمع في الدار البيضاء ممثلون للدول : غانا ، غينيا ، مالي ، المغرب ، ليبيا ، الجزائر ، والجمهورية العربية المتحدة ، وحاولوا تأليف جهة قوية تواجه ذلك الاتحاد الذي تم بين اثني عشرة دولة ، وعرف بمجموعة برازفيل ، وهي الدول التي تسود فيها اللغة الفرنسية . وهنا يبرز دور اللغة في عزل بعض دول أفريقيا عن البعض الآخر . فقد بدا التحلل واضحاً في مجموعة الدار البيضاء التي لا يكاد يجمع بينها ثقافة واحدة ، أو عبارة أخرى لغة واحدة . في حين أن الروابط الثقافية بين الدول التي تتكلم الفرنسية في مجموعة برازفيل قد شجعتها على تحديد سياسة مشتركة ، وعلى مواجهة مشاكل الاقتصادية المشتركة . أي أن مجموعة برازفيل بدت سبب لاشترك في نبرة أكثر تماسكاً . واتسمت قراراتها بطابع عملي يتميز بوضوح على تلك العبرة العاطفية التي بدت في اجتماعات الدار البيضاء التي لم تتمخض عن نتيجة ذات نال .

وظهر مع هذين الاتحادين ، بل ربما قبلهما ، ميل عام في شرق أفريقيا يؤلف من دوله الممثلة في « تنجانيقا » ، « أوغندا » ، « زنبار » ، « كينيا » . اتحاداً عُرِف باتحاد شرق أفريقيا الذي كان من أقوى دعايمه أن دوله قد أحدثت بالثقافة الإنجليزية ، أي أن اللغة الإنجليزية تسود بينها .

ثم كانت نهاية المطاف بأن دعا المصلحون من رعماء أفريقيا إلى وحدة تلم شتاتها وتؤلف بين دولها المعثرة المتنافرة ، وأخذوا يتلمسون لذلك أساساً أو شعاراً يجمع بينهم ويلتصون حوله . فنتت فكرة الشخصية الأديبية التي تماها ، وكان من أكثر المتحمسين لها « نكروما » . فكان يتطلع إلى أفريقيا التي تتجاهل



استقرت على أمر معين محدد<sup>٥</sup> يبدو أن القومية في أفريقيا ، باستثناء إثيوبيا ودول الشمال ، لا تزال تتلمس طريقها في طلام هذه القارة ، وأن المفكرين فيها قد تجاهلوا حقيقة هامة ، أو لم يولوها ما يستحق من عناية . وتلك الحقيقة هي دور اللغة في دعم القومية بين مناطق أفريقيا .

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ما نشر بالأهرام ( مارس سنة ١٩٦٩ ) تحت عنوان « أفريقيا والفرنكفونية » على لسان الزعيم الأفريقي ليوبولد سيجور رئيس جمهورية السنغال وأحد مفكرى الوحدة الأفريقية . فهو فيما يبدو يؤمن إيماناً قوياً بدور اللغة لا في دعم القومية وحسب ، بل أيضاً في تجميع شعوب تعيش في مناطق متباعدة . ونحن هنا نفس طرفاً من هذا المقال : ( ونحدث الرئيس سيجور عن الفرنكفونية وهي تلك الحركة التي ترمى إلى الجمع بين اللاد التي تتكلم الفرنسية في ظل رابطة ثقافية سياسية عابتها تدعم الثقافة الفرنسية ونشر إشعاعها في العالم . وقد سبق أن عرف الرئيس السنغالي هذه الحركة في تصريحات سابقة فقال : الفرنكفونية هي إسانية شاملة تسح حيويتها حول المعمورة لتربط بين جميع الأجناس في مختلف القارات ومن الحدير ، لذلك هنا أن لغة الفرنسية كانت حتى أوائل هذا القرن هي لغة المعاملات الدولية . والمحافل الدبلوماسية والمؤتمرات حتى قامت لغة الإجليزية بمناستها فيما بين الحرس العالميين . وحتى استطاعت أن تطغى عليها وتصبح لغة المعاملات الدولية وخاصة بعد أن أتيح للدبلوماسية الأمريكية أن تسيطر على العالم عقب الحرب العالمية الثانية . ولكن لم نكد نمضي على هذه السيطرة ومن طويل حتى استطاعت الفرنسية أن تستعيد بعض مكانها ونعود لتعرض نفسها في المحافل الدولية وفي الأمم المتحدة . ويرجع ذلك فيما يرجع إلى استقلال مجموعة من الدول الناطقة بالفرنسية ، وإلى سياسة الرئيس دييجول الرامية إلى بحث الوجود الفرنسي في المجتمع الثقافي الدولي

واليوم يوحد ثلاث وثلاثون دولة تكلم الفرنسية . إما لأنها تعتبرها لغتها الرسمية . وإما لأنها لغة التدريس فيها . وإما لأنها تعتبرها اللغة الثانية بعد لغتها



الأصلية . وسواء من هذه الدول ما كان في القارة الأمريكية مثل كندا ، هايتي أو في آسيا مثل لاوس ، كمبوديا ، أو في العالم العربي مثل لبنان وتونس والمغرب والجزائر ، أو في أفريقيا مثل الكونغو كينشاسا ، مدغشقر ، أو في أوروبا مثل سويسرا وبلجيكا ولوكسمبورج . . فإن هذه الدول في مجموعها تتألف من نحو أكثر من مائتي مليون نسمة ، وإن كان من يجادل الفرنسية من هذا المجموع ويتكلمونها فعلاً لا يتجاوزون خمسة وسبعين مليون نسمة . وهذه الدول قد قررت أن تربط في ظل «كومونولث ثقافي فرنسي» بدافع عن اللغة الفرنسية والعمل على نشرها . وهذا «الكومنولث» هو الذي أطلق عليه اسم «الفرنكفونية» . وكانت السنغال برئاسة الرئيس ليوبولد سيجور من أول المدافعين عن هذه الفكرة والمتحمسين لها . وبدأ الرئيس سيجور نشاطه لهذه الدعوة داخل منظمة «الأوكام» . وفي أحد اجتماعات مجلس رؤساء هذه المنظمة بمدينة «تاتاريف» عاصمة مدغشقر في يولية سنة ١٩٦٦ كلف المجلس الرئيس ليوبولد سيجور والرئيس «ديوري هاماتي» رئيس جمهورية «البحر» بالقاء بإجراء الاتصالات اللازمة لوضع مشروع لإقامة منظمة دولية بدون حصة بالصفة . وبعد سفر الرئيس سيجور في سبتمبر سنة ١٩٦٦ كلف من سبتمبر من مشروع وكان من نتائج مساعده إنشاء مجلس الدول الفرنسية في ١٠ يوليوس سنة ١٩٦٧ والجمعية الدولية للبرلمانات الدول الناطقة بالفرنسية . وفي نوفمبر سنة ١٩٦٧ قررت منظمة «الأوكام» الأفرقية إنشاء منظمة دولية لتعاون الفني بين الدول الناطقة بالفرنسية . بل كان موضوع «الفرنكفونية» محل مناقشات رؤساء الدول الأفرقية في أثناء اجتماعهم في الشهر الماضي بمدينة كينشاسا وفي ٢٠ شهر فبراير جمع بمدينة «ناني» مؤتمر جديد يجمع بين ممثلي ثلاث وثلاثين دولة لوضع التماسات الأخيرة للمؤتمر عام المقرر أن يعقد سنة ١٩٧٠ لوضع النظام النهائي للفرنكفونية (

# أفريقية



مقياس المساحة  
أفريقيا بعد معاهدة فرساي

أفريقيّة سائنة ٤٧



أفريقيا الحديثة

### ٣ . القوميات في آسيا

هذه هي القارة العظيمة التي شهدت الحضارة الإنسانية منذ بدئها وفي مهدها، والتي قامت بها حضارات عريقة ذات تراث فكري وفلسفي رائع ، والتي يحدثنا تاريخها القديم عن دول وإمبراطوريات أسست بها ، ومع هذا كله ظلت القوميات في بعض مناطقها تنتظر كل هذه القرون قبل أن تتبلور إلى ما نشهده الآن في الجنوب الشرقي منها .

فإذا بدأنا بغربي آسيا وجدنا به بعض القوميات العريقة الأصلية ممثلة في القومية الإيرانية والقومية التركية والقومية العربية في العراق ولاد الشام . ولعل من حسن التنظيم هنا أن ترك الحديث عن القومية العربية في آسيا إلى حديث أكثر إسهابا وإفاضة حين نعرض إلى القومية العربية في كل مناطقها ونخصها بسبحث أشمل وأكمل .

أما القومية الإيرانية فتلك التي عرفت في التاريخ القديم بدولة فارس التي دافست اليونان والرومان ، وكان لها في التاريخ شأن عظيم . نشأت هذه القومية في المنطقة التي بها الآن دولة إيران الحديثة . وطلب خلال معظم العصور التاريخية مسخرة ذات كان مستقل برغم ما أصاب البلاد من اضطرابات وخراب في بعض المنزلات التاريخية . وسرى فيما بعد أن عرو العرب لبلاد فارس ونشر الدين الإسلامي بها ، بل اصطناع الفرس للحظ العربي واقتباسهم مئات من الكلمات العربية . كل هذا لم يؤثر في القومية الفارسية ولم يمتص على تحيرها واستقلالها . وهكذا خرجت القومية الفارسية من تاريخها الطويل متماسكة قوية السياب . فلما كان العصر الحديث وتعرض العالم لحربين عالميين شهدنا القومية الإيرانية تظهر من الدول الكبرى بالاعتراف بكيانها واستقلالها ، فلا يصبها من تلك الدول إلا ضغوط مؤقتة لفترة قصيرة . لا تلبث بعدها أن تتركها وشأها . ويمكن أن نذكر هنا أن بريطانيا وأمريكا قد انسحبتا من إيران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ثم انسحبت روسيا بعد مصي عام واحد على الانسحاب البريطاني الأمر يكفي لأن هذه الدول الكبرى كانت تنظر إلى احتلال إيران

في أثناء الحرب على أنه إجراء مؤقت تطلبت ظروف استراتيجية . وذلك لما تنسم به  
القومية الإيرانية من عراق في تاريخها وأصالة في تكوين . ولا تلك قوة إزاء  
هذا إلا الاعتراف بكيانها وتميزها واستقلالها .

ومع كل ذلك لا تزال إيران تشهد نزاعاً حول عنصر حسيد ؛ ففي الجنوب  
تثور إحدى مناطقها مطالبة بالانفصال . لأن سكانها يتكلمون العربية وحدها  
وتدعى هذه المنطقة عربستان ، وفي حدود أخرى في إيران - سور قوه من الأكراد  
مطالبين بالانفصال لأنهم يتكلمون اللغة الكردية . وفي منطقة أذربيجان تقوم  
دعوة للانفصال على أساس اللغة كذلك .

أما القومية التركية فقد نشأت حيث هي الآن في آسيا الصغرى . ومنها  
امتدت واتسعت فتوحاتها حتى كوفت إمبراطورية ضخمة ضمت عدة قوميات ،  
ثم انكمشت بعد الحرب العالمية الأولى إلى القومية التركية في حدود في كل  
أنحاء اللغة العثمانية . فتجعل من قومها جماعة متحدة ثم كيان مستقل ،  
رغم اعتناق الأتراك للدين الإسلامي . ولما أراد كمال أتاتورك - رحمه الله - القومية التركية  
ولم يفتأ ما نفروا من أساليبها . لم يجد حرجاً من أن يدعو إلى وحدة المسلمين في  
في دعوة وإصلاحاته . فمعرض «كتابه الانسية» . . . . . من مئات  
الكتابات العربية التي اقترحتها اللغة التركية . ذلك لأنه . . . . . اللغة التركية  
تميزها واستقلالها . إيماناً منه بأن القومية التركية لا يجب أن تكون لغة أصيلة  
حالة من كل العناصر الأحسن عنها .

فإذا تساءلنا بعد الذي تقدم عما يجمع إيران وباكستان من اندماج في بلاد  
القومية العربية إلى على حدودها ، والتي تشتركها في عبء إسلامية . لم نجد  
لمثل هذا التساؤل جواباً أوضح من أن اللغات هي في بعض بين هذه الدول  
الإسلامية . وجعلت منها قوميات متميزة مستقلة

وفي غرب آسيا من القوميات المتميزة . القومية الكردية . في على أساسها  
قامت دولة أفغانستان ، وهي دولة إسلامية على حجة . بين إسلاميتان  
هما إيران وباكستان . ومع هذا تستغل عهما لأن اسم «كسوف» «الموشتو»

ويتميزون بها وحدها . ويقوم الآن نزاع بين أفغانستان وباكستان حول منطقة تقع شرقي باكستان ، وتطالب بها أفغانستان لأن سكانها البالغ تعدادهم خمسة ملايين يتكلمون اللغة المسماة « بالبوشتو » وهي اللغة القومية لأفغانستان . وبرغم أن أفغانستان قد شهدت خلال تاريخها الطويل قوى أجنبية تحكمها وتخصمها لتفوذها ، من فرس وإغريق وعرب وأتراك ومغول ، ظلت قوميتها متماسكة متميزة بفضل لغتها القومية « البوشتو » . فلما كان القرن التاسع عشر عانت أفغانستان من ضغوط سياسية واقتصادية ، فرصتها بريطانيا وروسيا ولكنها اكتملت استقلالها ، وتميزت قوميتها . بعد الحرب العالمية الأولى ، وانضمت إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ ، ثم إلى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ ، ولزمت الحياد خلال الحرب العالمية الثانية .

فإذا انتقلنا إلى شرقي آسيا وجدنا قوميتين متميزتين هما القومية اليابانية والقومية الصينية .

### القومية اليابانية :

طلت اليابان منعزلة عن العالم العربي على القرن التاسع عشر خلال كل عهد الذي لا يعرف عن تصديده إلا القليل ولم يكن لها قبل هذا القرن اتصال بالأمم الأخرى . إلا ما كان من اتصالها بالصين بعد لا ثقافياً وحديثاً . ثم كانت تلك الرحلة التاريخية للأدميرال « ميري » الأمريكي حين رحل في منتصف القرن التاسع عشر إلى شواطئ الحرر اليابانية . وأرغمهم على الاتصال لتجارى بالعالم العربي وأحست اليابان بقوة العالم العربي وعصاوته ونفوه في الصناعة ، فعمدت إلى الأخذ بهذه الأساليب الحديثة . وعطاهم الحصاره العربيه . ثم أصبحت بفضل ما اتصف به أبنائها من حد ومثابرة تشكل مافساً قوياً لذلك الحصاره العربيه في محاربتها وصناعتها ، وعظم شأنها من دول العالم لا سيما بعد أن هزمت الأسطول الروسي سنة ١٩٠٤ وهكذا عاشت اليابان في « ترويج الحديث محل الاحترام والهيبة من العالم العربي . وفي مسجده من الاستعمار لأورنى . عريرة كرمه في حررها يطلب الجميع ودّها . وسهات قوسها . ويحشى

من تفوقها البحري والصناعي . ثم كانت الحرب العالمية الثانية واستسلمت اليابان للقوة النووية اترهية واحتلتها الجيوش الأمريكية حتى العام ١٩٥٢ .

ومع هذا صبب القومية اليابانية متميزة الكيان مستقلة عما عداها من الشعوب التي تحيط بجريده . فبرغم أن اليابان قد استمدت من الصين ديانتها وثقافتها وفلسفتها . بل عطنعت أيضاً الزى الصينى والنخط الصينى وطرق الطهى ، والموسيقى ونظم الإدارة ، برغم هذا كله ظلت اليابان على تميزها واستقلالها<sup>(١)</sup> القومى . فلم يكن ما اقترضته من الصين إلا بمثابة المظهر الخارجى ، وظلت القومية اليابانية فى حقيقة أمرها وفى أعماقها على ما كانت عليه من تطلع إلى آفاق أبعاد . من الحضارة أو الثقافة الصينية . ومرت القومية اليابانية فى أطوار تشبه إلى حد كبير تلك التى مرت بها القوميات الأوروبية ، من انتقال من النظام الإقصاعى إلى النظام الرأسمالى فى البنيان الاقتصادى .

وتساءل هنا عن الذى عزل القومية اليابانية . وجعلها تحتفظ بكيانها وتميزها ، برغم عدم كمال مظاهر الحياة فى الصين ، ثم لا تكاد نظفر بحواب أوضح من أن لا أن لغة مبنية مبنية لا تحت إلى اللغة الصينية بصلة إلا من حيث إنهما كتبتا على حد واحد . ولكنهما نقرأن وعطقان وتسمعان فى أصوات مختلفة متباينة .

### القومية الصينية :

هى من أعرق القوميات فى لقارة الآسيوية . فتاريخها حافل بالثقافة والفلسفة والمكر منذ قرون كثيرة قبل ظهور المسيحية . ومع ما تعرضت له الصين فى العصر الحديث من تدهور اقتصادى وتخلف فى مظاهر الحضارة وصعوبة استعمارها رهيبه ، هبت الصين من كدونها وبعثت من مرفدها . وأصبحت الآن من أقوى دول العالم ، وأعظمها خطراً . وقد ظلت القومية الصينية خلال كل تاريخها الطويل العريق وبرغم ما تعرضت له فى بعض فترات ، مباسكة متميزة . دون أن يكون لطامها الاقتصادى ، الحديث منه والقديم ،

أثر واضح في تلك القومية الصينية . فالصين الحديثة التي تأخذ الآن بالنظام الشيوعي أو الاشتراكي قد مرت فيما يشبه هذه التجربة الاشتراكية مرتين من قبل إحداهما قبيل ظهور المسيحية على يد الزعيم « ونج منج » الذي أقنع الإمبراطور بالنظام الاشتراكي من ملكية الدولة للموارد الطبيعية . واحتكارها للسلع ، وتنظيمها للأسعار ، وإصلاح للأراضي ، وتأسيس الوحدات الجماعية التي تسمى الآن « كميونات » . ثم انتهت هذه الإمبراطورية الاشتراكية بسبب انتشار الفساد فيها ولم تعمر طويلا . أما التجربة الاشتراكية الثانية في تاريخ الصين فكانت بعد هذا بسحو ألف من السنين ، أي خلال القرون الوسطى لأوروبا . وفي هذه التجربة أتمت التجارة ونظمت الأحرار والأسعار ، وسيطرت الدولة على البنوك . ثم فشلت هذه التجربة أيضاً<sup>(١)</sup> .

نشأت إذن القومية الصينية على أساس تاريخها العريق في الثقافة والفلسفة ممثلاً في لغتها القومية التي وجدت بين أفكار الصينيين وأحاسيسهم وميولهم عن غيرهم من الأمم والشعوب .

#### القوميات في الجنوب الشرقى لآسيا :

كانت كتب الجغرافيا في عهد فرانسيس طولى سمي هذه المنطقة اسم الهند الصينية . لأنها تقع جنوب الصين واهند . ولأنها فوق هذا قد تأثرت خلال تاريخها الطويل بالخصائص الصينية والهندية . فالمسافر من الصين إلى ما يجاورها من هذه المنطقة لا يكاد يشعر بأنه انتقل إلى أرض عربية ، أو بين قوم يتميرون في معظم المظاهر العامة عن الصينيين . بل حتى في الملامح الجسدية قد يرى المسافر وجوه شبه واضحة بين أهل الصين ومن يجاورهم من أهالي هذه المنطقة . فالمعادات متشابهة ، والملامح متقاربة ، ومعظم مظاهر الحياة يمتد بعضها إلى بعض . وكذلك الشأن بين الهند وما يجاورها من أراضي ما كان يسمى بالهند الصينية . وهذه المنطقة تاريخ قديم يتصل بتاريخ الصين من ناحية وتاريخ الهند من ناحية أخرى . فثينام مثلاً التي بحري شأنها الآن على كل



لسان كانت إلى عهد قريب تسمى « مملكة أنام » . ويحدثنا التاريخ أن أرض « أنام » قد خضعت للسيطرة الصينية قبل القرون الوسطى نحو ألف سنة ، وتأثرت بالثقافة الصينية والفلسفة الصينية والعادات والفنون التي سادت في بلاد الصين ، ثم برعم هذا طبع القومية الأدمية متمازجة متميزة ، واستقلت « أنام » عن الصين في القرن الخامس عشر ، مع ما اشتهرت به الثقافة الصينية من القدرة على امتصاص الشعوب الأخرى وهضمها .

ونظرنا بعد الحرب العالمية الأولى فإذا بهذه المنطقة التي كانت تسمى حينئذ بالهند الصينية مقسمة تقسيماً مصنوعاً اقتضته النظم الإدارية للاستعمار الغربي ؛ فيها « فيتنام » و « كمبوديا » و « لاوس » و « تيلاند » التي كانت تعرف باسم سام . وخضعت هذه الأراضي فيما عدا « تيلاند » للنفوذ الفرنسي أو الاستعمار الفرنسي . ونحت « تيلاند » أو « سيام » من الاستعمار الأوربي ، وتميزت شخصيتها في المجال الدولي الحديث . وهي الآن على علاقة طيبة بالعالم الغربي ، فلا تعترف بالجمهورية الصينية . برعم أن لها حاله صينية قوية بلغ تعدادها نحو : سكان « تيلاند » . أما فيتنام فقسمتها مع الاستعمار الفرنسي لا تزال ماثلة في أذهان بعد صراع دموي مررنا بسحت حوش فرنسا من قديم ثم كانت المهارة حول قيسام بين النظامين الشرقي ممثلاً في « وسب » و « نص » . والغربي ممثلاً في أمريكا . وتقسم فيتنام الآن إلى شمالية وعاصمتها هانوي . وجنوبية وعاصمتها سييجون . أما « كمبوديا » فيسمى معظم سكانها إلى الساميين أو أهالي « تيلاند » ، فهم حيط من النسل المغولي والآري . والديانة السائدة بها هي البوذية . وقد تأثرت « كمبوديا » بالثقافة الهندية فيما مضى . كما تأثرت لغتها باللغة السنسكريتية وهي اللغة الهندية القديمة . وفي العصر الحديث حصلت « كمبوديا » على استقلالها منذ سنة ١٩٥٣

ثم مملكة « لاوس » التي يسمى معظم سكانها إلى أهالي « دورما » . ويعرف من تاريخها القديم أنها أصبحت مملكة مستقلة في القرن الثامن الميلادي . ولما كان القرن الثامن عشر تارعت أرضها دولتان من دول المنطقة فسيطرت

« نيلاند » أو سيام على معظم أراضيها ، وسيطرت « أنام » أو فيتنام على الباقي من أرضها . ثم كان الاحتلال الفرنسي وظلت « لاوس » خاضعة للنفوذ الفرنسي إلى أن استقلت سنة ١٩٥٤ .

أما مناطق النفوذ البريطاني فيما كان يسمى بالهند الصينية فهي « بورما » و « الملايو » و « سغافورة » و « سراواك » في شمال جزيرة « بورنيو » .

وتشمل « بورما » أقواماً من أجناس مختلفة غير أن معظمهم من الجنس المنعولى وتسود فيها الديانة البوذية . ولكنها من حيث اللغة مورعه المقاطعات بين لغات متباينة . ومع هذه الفروق التي تباعد بين سكانها جعلت منها بريطانيا منطقة محددة ، وفصلت بينها وبين الهند ، ثم استقلت بورما سنة ١٩٤٩ .

وأما « الملايو » وسغافورة و « سراواك » فقد تألف منها في السنين الأخيرة ما يعرف الآن « بماليزيا » التي يقوم الصراع بينها وبين « أندونيسيا » حول « سراواك » التي هي جزء من إحدى الجزر الأندونيسية . هذا إلى أن معظم سكان سغافورة من الصينيين . ويقوم الصراع الآن بين أبناء اللغتين الملاوية والنصية . مما اضطر حكومة ماليزيا إلى إعلان الأحكام العرفية في ١٥/٥/١٩٦٩ .

دعنا نحدد من دونه « ماسيا » من بين دول آسيا . مثلاً : نغرا لدو : دعه في تشكيل تقويمه ودعها . إذ شهد الـ صراعاً دموياً في « مالدربا » وتساءل عن السر في نشوب هذا الصراع ، ثم لا يكاد نجد تفسيراً واضحاً سوى أن دونه ماليزيا سودها ثلاث لغات مختلفة لا تمت إحداها إلى الأخرى بصلة . وهي اللغة الملاوية . واللغة الصينية ، واللغة الهندوستانية .

بعد شاء الاستعمار البريطاني منذ ست سنوات أن يؤلف من هذه المناطق المسماة دولية اتحادية أطلق عليها اسم « ماليزيا » . وكان أبناء هذه المناطق ، قبل أن يحسّر ظل الاستعمار ، قانعين بأن نظمهم لغة المسعمر أي اللغة الإنجليزية . أو على الأقل تسطيم الطبقة المثقفة التي نطلعت إلى معاليد الحكم بعد الاستقلال . وطلب الإنجليزية لغة الثقافة والتعليم والسياسة والإدارة ونظم الحكم في هذه البلاد زمناً ليس بالقصير قبل الاستقلال ، وقد نشأ رعاء

ماليزيا الحاليون ومعهم الطليقة المستنيرة في ظل الثقافة الإنجليزية ، بل قل في أحضانها ، ولم يكن أحد منهم يرى غرابة أو عصاضة في أن تسود بينهم اللغة الإنجليزية تجمع بينهم وينماهون بها رغم لغاتهم المحلية . فليس للملاوي إزاء اللغة الإنجليزية فصل على الصيني أو الهندي . بل هي بالنسبة لهم جميعاً لغة المستعمر القوى ، فلا يدعيها لنفسه أى فريق منهم ، وهكذا قضوا سنوات الاحتلال .

ثم تطلع الرعماء إلى الاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم في إثر تلك الحركات الاستقلالية التي سادت كل مناطق آسيا وأفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية . فلما تم لهم ذلك بدأت القوميات المحلية تطل برأسها ممثلة على الأقل في أقوى لغتين تلك المناطق ، وأكثرها شيوعاً ، وهما اللغتان الملاوية والصينية . فدواة ماليزيا الاتحادية تتألف من ثلاث قوميات أو ثلاث لغات . ونحو نصف السكان يتكلمون اللغة الملاوية ، ونحو ٣٥٪ يتكلمون اللغة الصينية ، ويتكلم ما بقى من السكان لغات أهمها شأناً اللغة الهندستانية التي تمثل نسبة ١٠٪ من عدد السكان . وقعت كل الأطراف المعبة في ماليزيا بذلك النظام الاتحادى الذى أفعهم به الاستعمار البريطانى أو فرضه عليهم وساد الهدوء في أوائل عهد تأسيس ذلك النظام الاتحادى . عبر أن المجتمع الصينى أو إن شئت قلب إن المتكلمين بالصينية سادوا خلال السنوات الست الماضية ، وأنهم من أنفسهم مجتمعاً معزلاً معلقاً على "الأسمار والعموص" . فلا يسمحون لأنفسهم ولا لغيرهم أن يحد معهم علاقات من أى نوع . فلا تراوح مع غيرهم . بل حتى الصداقات العادية الرقيقة لم يسمحوا بها لأنفسهم مع المتكلمين باللغة الملاوية .

ثم كان أن ورعت المناصب الكبرى بين رعماء الشعوب الثلاثة بعد قيام الاتحاد الماليزى ، فحدد أن الملك ورئيس الوزراء ونائيه ووزراء التعليم والثقافة والإعلام والعدل من المتكلمين بالملاوية ، وأن وزراء التجارة والصناعة والاقتصاد والمالية من الصينيين أو المتكلمين بالصينية . وليس بين الهود سوى وزير العمل . وأصبح الأهالى في ماليزيا بعد تأسيس الاتحاد ينظر بعضهم إلى بعض على أنهم أبناء شعوب مختلفة متباينة . فلا تكاد تسع أحداً منهم يقول إنه ماليزى

الجنسية ، بل يعبر في صراحة واعتزاز بأنه ملاوي أو صيني أو هندي . أى أن دور اللغة في تشكيل هذه القوميات الثلاث بدأ بعد الاستقلال ، وترك أثراً قوياً في مجتمعات ماليزيا . فاعتز كل فريق بلغته واستمسك بها و زاد عنها . ولا عربة لذلك أن نشهد أن صحف العاصمة « كوالا لمبور » تصدر باللغات الثلاث الملاوية والصينية والهندستانية ومعها اللغة الإنجليزية ، وأن الإذاعة والتلفزيون تديع نشراتها وأحاديثها بكل هذه اللغات .

ولعل أهم ما أثار تلك النزعات القومية في « ماليزيا » وأدى إلى ذلك الصراع الدموي الذي نشهده الآن أن الحكومة قد اتخذت مجموعة من الخطوات تهدف بها إلى اتساع المجال أمام الملاويين ، ونجد من نشاط الصينيين بصفة خاصة . وأبرر تلك الخطوات عقد امتحان في اللغة الملاوية لكل المتقدمين إلى الجامعة وجعل اجتياز هذا الامتحان بشجاح شرطاً أساسياً لدخول الجامعة .

ولذلك لا ندهش حين تتركز الاضطرابات في ثلاث مقاطعات هي : « سيلانجور ، بيرا ، بينانج » . وهي المقاطعات التي تسود فيها اللغة الصينية فأساء هذه المقاطعات يبادون الآن في صراحة بأن لعهم الصينية في خطر ، ويخشون عليها أن تسدر .

وأخيراً نجد « أندونيسيا » التي تكون من عدد كبير من الجزر أشهرها جاوة وسومطرة وبورنيو . والتي حصعت للاستعمار الهندي إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ، فحلت اليابان محل هولندا خلال هذه الحرب . ولما انتهت الحرب هزمت اليابان حاولت هولندا العودة إلى أندونيسيا فوجدت الدنيا غير التي ألفتها من قبل ، ووجدت القومية الأندونيسية . أو إن شئت قلت الوعي السياسي بأندونيسيا على أشده . ثم بعد نزاع وصراع ومفاوضات طويلة . تم استقلال أندونيسيا سنة ١٩٤٩ ، وأصبحت جمهورية ذات سيادة

وأهالي أندونيسيا ينحدرون من الجنس « الملايو بولينيزيا » مختلطين بأجناس أخرى . ونعرف من تاريخهم أنهم تأثروا بالثقافة الهندية والديانة البوذية إلى أن دخلها الإسلام في القرن الثاني عشر (١) .

وهكذا نرى أن الجنوب الشرقى لآسيا قد شهد بعد الحرب العالمية الثانية عدداً من الدول المستقلة التي تتباين في اتساع أراضيها وفي تعداد سكانها. فسكان أندونيسيا نحو ٩٠ مليوناً ، وسكان « بورما » نحو ٢١ مليوناً ، وسكان « تيلاند » نحو ٢١ مليوناً كذلك . وسكان الملايو مع سنغافورة نحو ٨ ملايين ، وسكان « فيتنام » نحو ٢٩ مليوناً ، وسكان « لاوس » نحو مليونين ، وسكان « كمبوديا » نحو خمسة ملايين .

فإذا تساءلنا عن أسس القومية في كل دولة من هذه الدول نجد أنها في حرة . ذلك لأن حدود الدول الآسيوية التي استقلت حديثاً ليست في الحقيقة إلا تركة خلفها الاستعمار والاحتلال ، ولم يطرأ عليها من التغيير بعد الحرب العالمية الثانية . إلا تقسيم الهند إلى دولتين الهند وباكستان ، وتقسيم فيتنام إلى شمال وجنوب . وفيما عدا هذا ظلت التقسيمات التي صنعها الاستعمار أيام الاحتلال . وهي تلك التقسيمات التي لا مسوغ لها من أساس جغرافي أو جنسي واضح . بل هي وليدة التقسيم الإداري للاستعمار حياً ، وتوسعات الاحتلال حياً آخر ، أو السيطرة على الأماكن الاستراتيجية في بعض الأحيان . هي إذن حدود مصطنعة لا مسوغ لها من حيث الطر إلى القوميات . ونلاحظ أن كل دولة من دول الاحتلال قد اتخذت مركزاً يهدف حوله المنطقة الخاصة بقوميتها رغبة في أن تظهر هذه المنطقة في شكل موحد . أو صوره قومية رائقة وكان ذلك دون نظر أو أحد في الاعتبار ما تقوم في أنحاء هذه المنطقة من خلاف حسي أو لغوي أو عرقي . ولم تلتفت دول الاستعمار إلى مثل هذه الفروق إلا حين كانت سياستها تهدف إلى التفرقة بين الأقوام والجماعات في إحدى المناطق . وهي سياسة فرق تسد ، رغبة في القضاء على كل معارضة ، وفي حكم المنطقة كلها حكماً دكتاتورياً .

وترتب على تلك السلطة المركزية في المنطقة ، مختلفة أن تولد في أذهان الناس ما يشبه القومية . ولكنها قومية رائقة لا مسوغ لها ولا أساس تقوم عليه . ولهذا لم يكف الاحتلال بحسر عن هذه المناطق حتى شهدنا الصراع والخلاف يشتد بين أقوام المنطقة الواحد . وأوشكت تلك الوحدة المصطنعة أو المصنوعة على

الانقسام إلى أجزاء متنافرة . وقد ظهر أثر ذلك في النزاع اللغوي الناشب الآن بين بعض مقاطعات الهند، كما ظهر أيضاً في ضعف السلطة المركزية باندونيسيا، لولا أن تسه زعماءها واتحدوا لأندونيسيا لغة قومية هي التي يسمونها Bahasa Indonesia، كما ظهر أثر ذلك في الثورة التي قامت بها قبائل « كرين » Karen في « بورما » .

فإذا نظرنا في ضوء ما تقدم إلى الهند الحديثة رأينا أمر الحدود المصطنعة أوضح . فحدود الهند الحديثة من صنع الإدارة البريطانية، أو الاحتلال البريطاني قرابة قرن من الزمان . فبريطانيا هي التي خلقت من تلك المنطقة الشاسعة في آسيا ما يسمى بالهند، التي اتخذ لها الاستعمار مركزاً لتدبير منه كل المقاطعات، وتجتمع حوله كل النواحي، ويتطلع إليه السكان الذين يختلفون عقيدة ولغة وجسداً على أنه موضع وحدتهم والجامع لشمولهم . فرسخ في نفوسهم أو كاد، أنهم أبناء وطن واحد متميز الحدود، تدبير شؤونهم سلطة موحدة هي سلطة الاستعمار، ويتأثرون بثقافة واحدة صدرتها لهم بريطانيا، بل فوق هذا كله أصبح المثقفون منهم وفي كل أنحاء يتكلمون ويتفاهمون بلسان واحد هو اللغة الإنجليزية، وهذا أمر ما توصل إليه الاستعمار من خداع هؤلاء القوم الذين يعيشون في الهند الحديثة . أما الهند العريقة التي حدثنا التاريخ عن فلسفتها وحكمتها وتموقعها في الأرض، فلا يكاد تنطبق حدودها على حدود الهند الحديثة . فمن يعرف الهند الحديثة في ذلك، كاستان كان قبل الاحتلال البريطاني وحدة مناسكة إلى حد كبير . لها ثقافتها ولعائتها وعاداتها المستغلة تمام الاستقلال عما كان سائداً في الجنوب . فقد حصص شمال الهند فيما مضى لعروات متعددة . وهجرات وفدت إليه من أواسط آسيا، وأمدته بثقافات وعادات تباينت بعد ذلك وأصبحت تشكل كياناً متميزاً لأهالي الشمال . أما جنوب الهند فلم يعرض لمثل هذه الهجرات أو العزوات، ولذلك بقيت له لعائته القديمة وعاداته الأصيلة . وبرغم هذا التباين بين الشمال والجنوب استطاعت بريطانيا خلال الاحتلال أن تؤلف منهما وحدة إدارية ذات مركز هام تتطلع إليه كل البلاد في الشمال والجنوب (١) .

وشاء الاستعمار البريطاني فوق هذا أن يجعل من بعض المناطق الوثيقة الاتصال بالهند وحدات مستقلة . فخلق لأسباب إدارية أو استراتيجية دولة في جزيرة « سيلان » صبغها بالصبغة البريطانية في نظام الحكم . ومعظم مظاهر الحياة ، وفرض على أهلها اللغة الإنجليزية بوصفها اللغة الرسمية . فلما انتهت الحرب العالمية الثانية استقلت سيلان وانضمت إلى الكومنولث سنة ١٩٤٨ . ولكن لم يكفد يستتب أمر الاستقلال في هذه الجزيرة حتى شهدنا الخلاف يشب بين أبنائها حول اللغة الرسمية ، وكانوا في عهد الاحتلال فانهين بأن تكون اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية للجزيرة كلها ، حتى إذا استقلت بدأ النزاع بين اللغتين المحليتين هناك وهما اللغة « السنهالية » التي يتكلم بها معظم السكان ، واللغة « التاميلية » التي يتكلم بها نحو ٢٠ ٪ من السكان . ذلك لأن الدولة قد اتجهت بعد الاستقلال إلى جعل اللغة السنهالية اللغة الرسمية ، فاحتج أبناء « التامل » وثاروا لعدم المساواة بين اللغتين . ويرغم السماح لأبناء « التامل » أن يعلموا بلغتهم المحلية قامت الخلافات . بل الصراع الدموي الذي أدى إلى قتل كثيرين بين التاميليين وإلى تشرذم عدة آلاف من المتكلمين باللغة « التاميلية » .

وإلى من ردت لاستعداد أن خلق في شمالي هند مملكة صغيرة هي التي عرف الآن بمملكة « نيبال » التي لا يجوز تعداد سكانها على حسب آخر الإحصاءات ثمانية ملايين . والتي تقع على حدود حلال الهمالايا . فقبل موجة الاستقلال التي سادت الهند في إثر الحرب العالمية الثانية . كان الاستعمار ينظر إلى « نيبال » على أنها وحدة متميزة ، ويعامها على هذا الأساس طلباً لود « المهرابجا » حاكمها الذي ورث حكم هذه المنطقة عن أجداده . فلما استقلت الهند سنة ١٩٤٧ سع هذا استقلال « نيبال » ، ولكن بعض الدول الكبرى طلت تنظر إلى « نيبال » على أنها لم تستكمل كيان الدولة المستقلة ، ولهذا عارضت رسمياً في مجلس الأمن عن طريق « الثبوتو » في قبول « نيبال » عضواً في الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ .

نحن بعد لدى تقدم أمام مجموعة من الدول الصغيرة التي استقلت خلال صغ سنوات بعد الحرب العالمية الثانية . والتي تقع مناطقها فيما كان يسمى

بالهند الصينية ، ومع هذه الدول الصغيرة دولة كبيرة المساحة عزيزة السكان هي الهند . وقد رأينا آنفاً أن حدود هذه الدول مصطنعة أو مصنوعة تكونت في عهد الاحتلال على أسس أبعد ما تكون عن الحسن أو اللذة أو العقيدة . وقد نشأ في هذه الدول طائفة من الزعماء والمفكرين الذين تعلموا في الجامعات الأوروبية وتأثروا بنظام الحكم في أوروبا وأعجبوا به . واستمد هؤلاء الزعماء آراءهم عن نظام الحكم الأوروبي ، ممثلاً في الديمقراطية ، من كتب ألفها علماء الغرب . فيهم الاستقرار والرخاء والحرية التي تتمتع بها الدول الأوروبية ، وأسكتهم تلك الشعارات الخدابة التي رأوا تلك الكتب تصف الديمقراطية بها ، مثل حق الثورة على الظلم . ومثل أن الديمقراطية هي الحصن الحصين ضد الطغيان ، وأن تاريخ النظام الديمقراطي ليس إلا سجلاً لأعمال مجيدة ضد كل نظام أو حكم سياسي سيئ . ونظر هؤلاء الزعماء في أثناء جهادهم قبل الاستقلال فإذا بقوى الاستعمار تشيد بالنظام الديمقراطي ، وتلوح به أمام أعينهم في غطرسة وكبرياء ، بوصفه نظاماً فوق مستوى الناس في آسيا . راعين أن القوم في آسيا لم يكتملوا الأهلية لمثل هذا النظام . وهكذا أصبح هذا النظام يرق لأعين الزعماء في آسيا . وهم العطاش إلى حرية بلادهم . المتطلعون إلى بوضها . بحيث يصبح على قدم المساواة مع تلك الدول الأوروبية . وأصبحت الديمقراطية ثمرة اطعام الشهي الذي يرق أمام أعين الخائف من حلف رحاج سميك . ولا سبيل إلى الوصول إليه . ولهذا أقبل على هذا النظام كثير من هؤلاء الزعماء ، وسعوا إلى التمتع بمزاياه وتطبيقه في بلادهم . غير أن بعض هؤلاء الزعماء المحاهدين كانوا قد فقدوا الثقة بكل ما يمت إلى عهد الاستعمار بصلة . حتى ولو كان فيه من الناحية النظرية خير لبلادهم . ومن بين ما يمت إلى الاستعمار البعض ذلك النظام الديمقراطي . ولهذا لم يكن أمامهم إلا أن يبقوا بأنفسهم في أحضان النظام المناوئ للعرب أي الشيوعية أو الاشتراكية .

وكان على زعماء آسيا وقد ورثوا عن الاستعمار حدوداً مصطنعة لبلادهم أن يعملوا حاهدين على أن تكون من تلك الحدود قوميات على نسق القوميات في أوروبا . وأخذوا يلمسون الأسس التي عليها نسي هذه القوميات المحددة .



وقد أدركوا في قرارة أنفسهم أن الدعوة إلى القومية الهندية مثلاً على أساس ما نشأت عليه القوميات في أوروبا ليس إلا سراباً يبرق للأعين حتى إذا جاءه الظمآن لم يحده شيئاً . فالطروف في آسيا تختلف عنها في أوروبا . والتاريخ غير التاريخ . إذ تضم الحدود الجغرافية للهند الحديثة عالماً من أحناس متباينة متنافرة ، ولغات مختلفة ذات لهجات كثيرة . ففي الهند عشر لغات أساسية ، ولكل منها لهجات متعددة . فليس بها ما يمكن أن يسمى باللغة القومية . وقد فشلت الجهود والمحاولات في جعل اللغة الهندستانية لغة قومية لكل مناطق الهند ، لأنها هي نفسها لغة محلية يتكلم بها في مناطق محدودة .

ولما افتقد هؤلاء الزعماء في مناطقهم تلك الأسس التي عليها بُنيت القوميات في أوروبا لجأوا إلى شعارات تنبثق من طروفيهم ، ومن طبيعة تكوين مناطقهم وأخيلوا يدعون إليها ، ويؤلفون قلوب الناس حولها . ففي أندونيسيا مثلاً ظهرت اللغة التي يسمونها Bahasa Indonesia ، وأصبح القوم هناك يتخذونها لغة قومية يهتمون حولها وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم .

ومع هذا فلا تزال بعض القوميات في آسيا في دور التكوين ومن العسير التنبؤ بمستقبلها

دعنا نعدد متدنة سريعة من الصروف التي شأب فيها القوميات بأوروبا ، وتلك التي تحرى أحدثائها الآن في أفريقيا وآسيا .

كانت أوروبا كما أشهدنا آنفاً تخضع لسيطرة الدولة الرومانية قبل القرون الوسطى ، ثم انهارت تلك الدولة العظيمة ، وتمتدت إلى مناطق يحكم كلا منها ملك أو ديوك أو نحو هذا ، وخيم على القارة نوع من الهدوء النسبي نسبت معه عهد الرومان الذي لم يشكل استعماراً بالمعنى الذي شهدناه في أفريقيا وآسيا . ذلك لأن كثيراً من الحاميات الرومانية قد استقرت في مناطق أوروبا بعد انهيار الإمبراطورية ، وامتزجت بسكانها امتزاجاً تاماً ، وانقطعت صلتها بروما . ولم يعد أحد من نسل تلك الحاميات يذكر أن أحداً في يوم ما كانوا عراة أو محتلين لتلك المنطقة . وعاش من نسل من تلك الحاميات حياة مدنية

مستقرة ، وعملوا في الزراعة ونحوها من وسائل العيش وطلب الرزق ، وشاركوا الناس في تلك المناطق في كل مظاهر الحياة وتكلموا بلغاتهم . ثم كان عصر النهضة الأوروبية . وساد أوروبا هدوء نسبي ، وبعث حديد في الفكر والعلم والفن . وفي صوء هذه النهضة بدأت القوميات في أوروبا تنشأ رويداً رويداً فتجج في مكان وتتعثر في آخر ، إلى أن اكتمل كيانها في أواخر القرن التاسع عشر . ومع أن بعض القوى الكبرى خلال ذلك القرن كانت تحاول الضغط على هذه القوميات والحد من انتشارها . فإن الرأي العالمي حينئذ كان بوجه عام ينصرها ويشجع عليها ، أو على الأقل يقف منها موقف الحياد . ولم يترك ضغط القوى الكبرى في هذه القوميات إلا أثراً مؤقتاً لم يضعف من قوتها ، ولم يجمع من انتشارها . ولعل المناسبة التي كانت بين هذه القوى الكبرى روسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا - كانت من العوامل التي ساعدت القوميات الأوروبية على استكمال نموها وتميرها واستقلالها . ولم تكن تسهى الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القوميات في أوروبا مستقرة معترفاً بها . هذه هي القوميات الأوروبية التي ورثنا ذلك المصطلح السياسي الاجتماعي الذي نسميه الآن ، القومية .

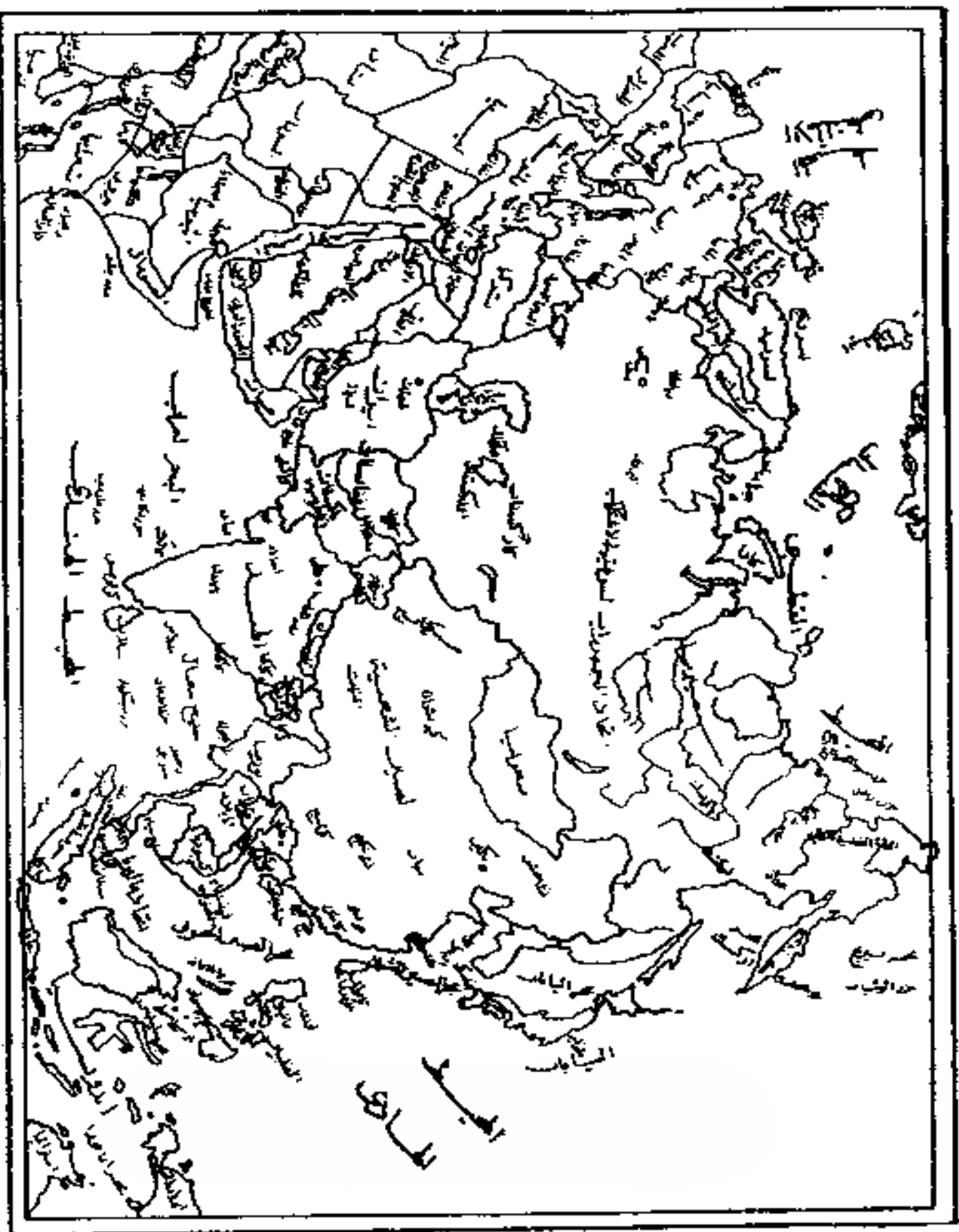
عندنا طرد إلى القوميات في أفريقيا وآسيا وحداها قد وُجد بعد ، خلال ومستعمار ، وأن نشأها إنما كانت بعد انحدار كادوس الاستعمار . دون أن يهر تلك الدول التي فرصته وأسسته . ودون أن نتفت كما تفتت الإمبراطورية الرومانية . بل انسحبت وهي لا تزال على قدر كبير من قوتها . تاركة مناطق في أفريقيا وآسيا مؤسسة على حدود إدارية أو استراتيجيّة خلقها الاستعمار دون اعتبار لحس أو دين أو لغة . وتلك الحدود المصطنعة أو المصنوعة هي التي على أساسها تقوم الآن المدعوات القومية في أفريقيا وآسيا . ولم تنح لمناطق أفريقيا وآسيا فترة كافية من الاستقرار والهدوء والنهضة العلميّة والفكرية كالذي ساد في أوروبا قبل ظهور قومياتها . ولهذا يحاول الآن الرعماء والقادة في أفريقيا وآسيا أن يدمسو شعارات جديدة ، وأساساً حديثه يسود عليها قوميتهم أو دؤمهم . وليس من المعلاّه إحد أن يقال إن مفهوم القومية في أوروبا يختلف إلى حد كبير عن مفهومها في أفريقيا وآسيا .

والقومية في حقيقة أمرها هي تلك القوة السحرية التي تدعو الأفراد في بيئة من البيئات إلى التجاذب بعضهم نحو بعض ، وشعورهم بوحدة بينهم في الفكر والأحاسيس . وتعاونهم على مواجهة الحياة ، يعملون حاهدين على أن يكونوا من أنفسهم مجتمعاً مسجماً في الآمال والأهداف . ومتطعاً إلى السلام والاستقرار والرخاء في بيئتهم . وهذا هو القدر المشترك بين قوميات أوروبا وقوميات أفريقيا وآسيا ، برغم الظروف التي نشأت فيها هذه أو تلك .

فإذا تساءلنا عن دور اللغة في قوميات أوروبا ، ودورها في قوميات أفريقيا وآسيا ، تبين لنا أن الأمر يتطلب فصلاً خاصاً نحاول فيه أن نعالج دور اللغة في نشأة القومية ، أو ما نسميه « اللغة والقومية » .

[illegible]

آسیا بحد معاہدہ فرسای



آسیا اوسطیہ نقشہ عالمی ۱۸

## الفصل الثالث

### اللغة والقومية

بعض الذين كتبوا عن القومية في العصر الحديث كانوا من السياسيين الذين سخرُوا من فكرة القومية ، ووصموها بأنها شعار من الوهم يعتمد إليه بعض الزعماء والقادة في بيئة من البيئات ليجمعوا الناس حوله ويخضعوهم به ، فيضموا ولاعهم وخضوعهم ؛ أو ليؤلفوا قلوبهم ، فيستقر الحكم والسلطان لهؤلاء الزعماء والقادة . وقد يكون سلوك هؤلاء الزعماء ذا طابع أناني شخصي ولا هم لهم إلا ضمان النعوذ والاستئثار بالسلطة . غير أن بعضاً منهم من ذوى النفوس الطيبة والنوايا الحيرة ، الذين يعملون حاهدين لصالح قومهم ، ليكفلوا لهم حياة كريهة يسودها الأمن والرخاء والاستقرار . وهؤلاء قد يعتمدون إلى فكرة القومية فيدعون لها . ويتشبهون بها ؛ لأنها في رأيهم السبل الوحيد لتجميع القوى ، ووحيد الجهود بين أفراد قومهم . وبـ كانوا في دائرة أنفسهم يؤمنون أن فكره القومية ليست إلا وهماً وحيلاً .

وهؤلاء السياسيون الساخرون يرون أن ما يسمى بالقومية لا يعدو أن يكون الانتماء إلى دولة من الدول أو ما يدعى بالجنسية « Nationality » وقد يكتسب المرء هذه الجنسية بال ميلاد وحده ، أو بالإقامة في البيئة فترة من الزمن ، وهو مع هذا لا يكاد يشعر نحو هذه البيئة دلاء أو اعتزاز . بل قد لا يتكلم عنها ولا يدين بدينها ، ولا يأخذ بعاداتها وتقاليدها . والدولة في رأيهم هي وحدها ذات المفهوم الواقعي ، فقد حدد القانون الدولي معاملتها . ونظم أمورها مع الدول الأخرى في العالم . وهي وحدها التي تسمى إلى هذا القانون المعترف به في كل أنحاء العالم ، وعلى أساس مواده تحكم محكمة العدل الدولية . والدولة وحدها هي التي يمكن أن تشترك في تلك المنظمة العالمية المسماة هيئة الأمم المتحدة ، وكان يجب

لهذا أن تسمى بهيئة الدول المتحدة . فليس الاشتراك أو الالتئام إليها يقوم على أساس ما يسمى بالقومية ، بل على أساس الدولة .  
وهذه ولا شك صورة قائمة لفكرة القومية ، إذ يسلبنا هؤلاء السياسيون الساحرون برسمها قيمة عاطفية بيلة يعتز بها معظم الشعوب في العالم ويستمسكون بها ، ويؤمنون كيانهم عليها .

ولكن معظم الدين تحدثوا عن القومية من غير هؤلاء السياسيون الساخرين قد نظروا إليها على أنها حقيقة واقعة ، وأشادوا بها وبأثرها في نهضة الشعوب كما حاولوا أن يحددوا مقوماتها ، ويوضحوا معالمها وسماتها . ثم نظروا فإذا هؤلاء يختلفون في تلك المقومات ، ويضطربون في بيان تلك المعالم والسمات ، ونشأ عن هذا عدة نظريات حول القومية وحقيقة أمرها والأسس التي تقوم عليها ، وغير ذلك مما تفصله الكتب التي عرضت لتعريف القومية . فمنهم من يجعل الدعامة الأساسية في نشأة القومية ما يسميه بمشيئة المعيشة المشتركة ، وقد أخذ بهذه النظرية جماعة من كتاب فرنسا ومفكرها أشهرهم « ريبان » إذ يقول فيما يقول : ( إن الأمة روح وجوهر معوي . وهذا الجوهر المعوي يتألف من أمرين أحدهما يعود إلى الماضي . والآخر يتعلق بالحاضر . ويرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً . ذلك لأن الاشتراك في رث ثمين من الفكر والصية . ورعيه في المعيشة المشتركة . مع الاحتفاظ بذلك التراث المعوي المشترك . والسعي وراء زيادة حجم ذلك التراث . هذا هو أس الأساس في تكوين الأمة ) (١) .

ولا نحب أن نفقد طويلاً أمام هذه النظرية . لأنها إنما نشأت في عهد احتدم فيه الجدل والنقاش بين مفكري الألمان والفرنسيين إبان الحرب السبعينية . فهي وليدة ظروف خاصة من الدولتين كبيرتين . ولذلك تتسم بالذاتية لا بالموصلية . فبمقوله المؤرخ الفرنسي « دوكلانج » مثلاً في معرض هذا النقاش . ( قد يكون الألمان ألماناً باللغة ، ولكنهم على كل حال فرنسيون بالترعة والمشيئة . والذي جعلهم فرنسيين لم يكن فتوحات لويس الرابع عشر أو معاهدة

« وستاليا » كما يتوهم الألمان - بل هي الثورة العظمى . فإن هذه الثورة هي التي دعت إلى اندماج الألزاس في فرنسا ، وجعلت الألزاسيين فرنسيين بكل معنى الكلمة . إن القومية لا تتعين باللغة ، بل إنها تتعين بالرغبة والمشئمة . . . فالعدالة تقضى بمراعاة مشئمة الألزاسيين وتحقيق رعباتهم في هذا المضمار . . . ويكفى هنا أن نتساءل لماذا تلاشت مشئمة الانفصال التي ظهرت بين الجنوبيين في الولايات المتحدة الأمريكية بعد هزيمة جيوشهم في ساحة القتال ، في حين أن مشئمة الانفصال التي ظهرت بين الهنغارين في أوروبا طلت تتأجج وتشتعل ، برغم الحسائر التي تكبدوها خلال ثوراتهم المتتالية ، وسلسلة الهزائم الأليمة التي تعرضوا لها .

أما النظرية الثانية التي نادى بها بعض المفكرين في الدول الشيوعية والاشتراكية فكان أساسها كما هو المتوقع . أن المصالح الاقتصادية هي أس الأساس في نشأة القومية ، وإن لم يكر أصحاب هذه النظرية أثر اللغة الواحدة ، والأرض الواحدة ، والثقافة الواحدة في نشأة القومية .

ويبدو لنا أن أولئك الذين ركروا اهتمامهم وعمايتهم عند الحديث عن القومية على مشئمة المعيشة المشتركة حياء . وعلى المصالح الاقتصادية حساً آخر قد خلطوا بين أمرين كان يجب التمييز بينهما . أولهما تلك الطاقة الكامنة التي قد تفسجج ويشأ في إثر هذا الانفجار ما نسميه بالقومية . والآخر الحوافز على هذا الانفجار ومعالمه الطاهرة . فإذا اختلفت سمات القومية في أوروبا بعض الاختلاف . فقد اشتركت ولا شك في تلك الطاقة الكامنة التي هي السر الحقيقي في كل قومية . ولنا ندهش إراء تلك الآراء المتشابهة والجلد المحتدم بين من يعرفون بالقومية أن يظهر أولئك السياسيون الذين أنكروا وجودها وقرروا أنها لا تعدوا أن تكون الانتهاء إلى دولة من الدول .

وإذا تذكرنا أن نشأة القومية عملية تاريخية بطئمة تتطلب زمناً طويلاً أدركنا أن فكرة المشئمة في المعيشة المشتركة أو المصالح الاقتصادية ليست في الحقيقة إلا عوامل قد تساعد على دعم القومية لا خلقها . فمثل هذه الأمور ترتبط برمس



معين وبظروف ميامية خاصة . فالقومية الصينية في عهد الرأسمالية هي هي في النظام الشيوعي الذي يسود الصين الآن ، وإن كان يمكن القول بأن النظام الاقتصادي الجديد قد قوى أو ساعد على دعم تلك القومية الصينية .

دعنا بعد هذا نتناول في عرض سريع أشهر تلك المقومات التي نصادفها في الكتب التي تحدثت عن القومية : الجنس . الدين . الثقافة . اللغة .

### ١ - الجنس :

يعني الدارسون بمصطلح « الجنس » عادة قوماً من الناس نشأوا من أصل واحد أو أرومة واحدة ، وأصبحت لهم ملامح جسمية معينة مشتركة بينهم . كأن يشار مثلاً إلى الجنس اليهودي ، أو كأن يقال إن الأوربيين في الوقت الحالي يتألفون من أحاس متعددة ، وأن ما يمكن أن يسمى بالنقاء الجنسي لم يعد له وجود في أوروبا . فما كان يسمى في أوروبا بالجنس النوردي ، أو جنس البحر الأبيض المتوسط ، أو الجنس الألماني ، وغير ذلك مما كان في وقت من الأوقات يعدّ أحاساً متميزة . كل هؤلاء قد أصبحوا الآن يؤلفون أحاساً مخلصة ممتزجة مع بقاوت في نسبة هذا الاحتلاط والامزاج .

ويحق أن مصطلح الجنس لا يعدّ مصطلحاً علمياً دقيقاً . فليس له مكان بين تقسيمات المخلوقات الحية تلك التقسيمات التي اكتسبت القبول والاعتراف بها من الدارسين في العالم . فعالم الطبيعة يتألف من ثلاث ممالك : الحيوان . النبات . المعدن وكل مملكة منها ترتب في نظام تدريجي ذي سبع شعب هي التي تعرف : بشطري المملكة . والأقسام ، والمراتب ، والأسر ، والأنواع ، والأحاس ، وأخيراً المتنوعات .

فالإنسان ينتمي إلى النوع المسمى Homo الذي يدرج تحته أحاس . ومتنوعات ، حددت تحديداً علمياً دقيقاً في علم الأحياء .

ولا تتصح في هذا النوع Homo معالم الجنس البشري على النحو الذي قررته عالم مثل « يوهان فريدريك بلومباخ » Johann Friedrich Blumenbach . وقد

قسم الجنس البشرى إلى خمسة متنوعات على حسب تلك السمة الواضحة :  
وهى لون البشرة :

- ( أ ) الأبيض القوقازى .
- ( ب ) الأصفر المصوى .
- ( ج ) الأسود الأثيوبى .
- ( د ) الأحمر الأمريكى أو الإنجليزى .
- ( هـ ) الأسمر الملاوى .

ثم استمر هذا العالم يصف هذه المتنوعات على حسب الهياكل والتكوين العظمى كشكل الجمجمة ( طويلة . متوسطة . عريضة . . إلخ ) ، وكاعتدال الأنف أو فلطحته ، وكروز الصدغ ، وكثعدد الشعر ، وكلون العيون . . . ونحو ذلك من صفات جعلها أساساً لتقسيماته ؛

وقد قام بنفس المحاولة علماء مشهورون فى علم الأجناس ، أو الفرع الخاص بمقاييس الأعضاء فى الجسم الإنسانى ثم تكررت المحاولات . ولكن النتائج التى اهتموا إليها . وحدثوا بها . كانت مضطربة وغير مؤكدة . وتبين دوماً لا بدع محالاً للشك أن توزيع الأجناس فى العالم تباين سابها غير متوقع . حتى تكون الأسس المتعارفة للتوزيع ملاحج معصية أو مجموعة من الملامح مثل القامة ، والجمجمة . والأنف ، والصدغ . والأعين . والشعر ، والبشرة ونحو ذلك . فالأجناس التى حاولوا تمييزها قد تبين لدارسين أنها غير واضحة المعالم . وأن أساس تمييزها تحكى .

أما الذين درسوا الأجناس البشرية من حيث الوراثة والبيئة فكانوا أكثر نجاحاً . ورغم أن الاكتشافات الرائدة التى قام بها « ماندل » لم تكن معروفة لداروين ، ولم يستفح بها أحد إلا بعد انقضاء القرن التاسع عشر ، فإن التقدم الذى أحرزه علم الوراثة منذ ذلك الحين تقدم سريع مرموق . فمن المحقق الآن أن الوراثة تم عن طريق الجراثيم فى الكروموسومات . وليست عن طريق الدم . ذلك لأن وراثة الدم فكرة خاطئة ظلت محل القبول منذ عهد

أرسطو الذي كان يؤكد لتلاميذه أن دم المرأة في النظام الشهري . وهو الذي ينقطع في أثناء الحمل . يساهم في المادة التي يتكون منها جسم الحنين . وفي الحق أنه ليس هناك جريان دموي بين المرأة وجنينها ، فلا تمر قطرة واحدة من دم الأم إلى الحنين في رحمها . بل الصحيح هو أن نواة كل خلية من جسم الوليد تحتوي على ٢٤ زوجاً من الكروموزومات ، زوج من جهة الأب ، وزوج من جهة الأم . أي أن الحنين ينحدر إليه ٢٤ من الكروموزومات عن كل من الأبوين ، ولكن عدد ما يرثه الوليد من هذه الكروموزومات قد يختلف باختلاف الوالدين . فما يرثه عن أحدهما قد يكون أقل ، أو أكثر ، أو مساوياً ، لما يرثه من الآخر ، ويتم كل هذا في حدود ٢٤ كروموزومات . وهكذا نرى أنه بعملية رياضية بسيطة يكون عدد الاحتمالات في وراثة الكروموزومات عن الأبوين في حدود الملايين . . . غير أن الغالب السائد أنه في حالة التزاوج المختلط . أي حين لا يقتصر التزاوج على أفراد أسرة معينة ، نلاحظ أن عدد ما ينحدر إلى الوليد من الكروموزومات من الأحداد يتباين ، فهو من الحد الرابع أكثر من الحد الثامن . ومن الحد الثامن أكثر من الحد السادس عشر . ويؤكد لنا علماء الوراثة أنه لا يكاد يرجع إلى ما قبل الحد الرابع والستين . أي في حدود الخيل السادس . حتى نشهد حالات كثيرة قد اعبر فيها نوليد عن أسلافه من حسب الكروموزومات ، فلا يكاد ينحدر إلى الحنين من هؤلاء الأسلاف القدماء عناصر جسمانية وعليه فأولئك الذين يدعون الآن الانساب أو الانتهاء إلى السلس المباشر لأحد الخلفاء الراشدين مثلاً . ويتحدثون من هذا الادعاء وحده شعاراً لمعهم واعتزازهم . يجدر بهم أن يعرفوا — على حسب ما يؤكد علماء الوراثة — أن من المشكوك فيه أن يكونوا قد ورثوا عناصر جسمانية بيولوجية عن هذا الخليفة .

وقد أصبح من المقرر الآن من الناحية السولوجية أن الفرق بين دم الزنحى في أفريقيا ودم الرجل الأبيض في « اسكندياوا » طفيف . بل قد ترس التحاليل على أن المجاميع الدموية لهما متحدة تمام الاتحاد . مما تقدم نرى أن فكرة الجنس بين البشر قد أسست على وهم . أو عبارة

أدق ليس لها أساس بيولوجي مؤكد .

أما الكلمة الأجنبية ( Race ) التي تترجم عادة بالجنس البشرى فقد انحدرت إلى بعض اللغات الأوربية عن الكلمة العربية « رأس » عن طريق اللغة الأسبانية. وتختلف هذه الكلمة في الأصل الاشتقاقي عن نظيرتها (Race) أيضاً تلك التي تعبر في الإنجليزية عن السياق . وقد كانت الكلمة (Race) بمعنى الجنس في اللغة الإنجليزية تعبر فيما مضى عن نسل الحيوان من أب واحد ، واستعملها شكسبير بهذا المعنى في بعض رواياته ، غير أنه استعملها أيضاً للإنسان، إذ يقول في إحدى رواياته (Happy race of kings) وفي رواية أخرى (The whole race of mankind) . وبرغم ورود هذه الكلمة عدة مرات في أعمال شكسبير لا تكاد نعثّر على مثل واحد لها في ترجمة الكتاب المقدس أيام جيمس الأول - أي في أواخر القرن السادس عشر من الميلاد - بل عُبرَ عن معناها بكلمات أخرى .

وظلت كلمة (Race) في اللغة الإنجليزية غير محددة الدلالة حتى جاء « ماكس ميلر » في منتصف القرن التاسع عشر وخلط في استعمال الوصف « آري » فلم يعصره على اللغات الآرية أو المتكلمين بها كما فعل « وليم جونس » من قبله . بل استعمله في بعض أقواله للدلالة على قوم ملامح حسامية متميزة ، كطول القامة ، وكالشعر الأصفر . مما شجع بعض الكتاب في عهده على استعماله بمعنى « الجنس الآري » الذي رعموا أنه يتموق على الأحاسس الأخرى في العالم . وقد استغلت هذه الدلالة استعمالاً ديباً أيام هتلر .

وكان هذا برغم أن «ماكس ميلر» نفسه قد نسه فيما بعد إلى هذا الخلط وبمذه في كتاباته المتأخرة إذ يقول: ( لقد أعلنت مراراً وتكراراً أن حين أشير إلى الآريين لا أعني مطلقاً أولئك الذين يتصفون بملامح معينة في الدم أو العظام أو الشعر أو الجمجمة . وإنما أريد فقط أولئك الذين ينكلمون لغة آرية . وحين أتحدث عنهم لا يحظر في ذهني أي خصائص تشريحية . فأصحاب العود الرقيق ، والشعر الأصفر في اسكتلندا قد يكونون العزاة وقد يكونون من وقع عليهم

الغزو . قد يكونون قد اصطنعوا لغة الغزاة السمر أو العكس . وفي رأي أن علماء الأجناس البشرية الذين يتحدثون عن الجنس الآري والدم الآري والأعين الآرية والشعر الآري إنما مثلهم في الخطيئة مثل اللغوي الذي يحدثنا عن معجم طويل الرأس أو أفتس الألف (١) . .

ومع هذا فقد استقر الرأي بين الكتاب على قصر استعمال الوصف « آري » على معنى الجنس الآري ، وتسمية ما أسماه وليم جونز باللغات الآرية ، اللغات الهندية الأوروبية ، منعا للتبس والإيهام .

حقاً إنه من العسير في بعض الأحيان أن نلتبس كلمتين مختلفتين إحداهما تعبر عن اللغة والأخرى تعبر عن المتكلمين بها . فحين نقول مثلاً : اللسان الكلتي ، كما نقول الجنس الكلتي ، ونقول اللسان العربي كما نقول الجنس العربي . لا شيء سوى أننا نعتقد كلمة أخرى للتعرف بين تسمية اللغة وتسمية الجنس . غير أن السياق في مثل هذه الحالة كفيلاً بتحديد المعنى المقصود . ومن واجب الدارس على كل حال أن يمسح فصلاً تاماً بين أسباب الشعوب واللغات التي يتكلمون بها . وألا يساق مع أولئك الذين يستمسكون بالأفكار لائمة المصالة حول ما يسمى « الجنس » . ويصرون في عدا عن الحديث عن لقاء الجنس والتفوق الجنسي .

وإذا تبين مما تقدم أن فكرة الجنس وبقاء الجنس ليس إلا وهماً . وليس له أساس علمي مؤكد . فهل يجوز مع هذا أن نعدّها من مقومات القومية ؟

#### ٢ - الدين :

الدين هو الولاء الروحي لعصيدة من العقائد . وإذا نظرنا إلى موقف الدين في العالم الآن تبين لنا أن الصير ترفع إلى حد ما عن الكونفوشيوسية . وأن الديانة الرهمية واليهودية قد أصبحنا في الوقت الحالي تقتصران على قوم معينين . ولذلك ينعكس القول بأن هناك ثلاثة أديان عامة فقط هي التي نستأثر بالخدمة والإنحلاص

بين جميع البشر ، وهى : البوذية ، والمسيحية ، والإسلام .  
وتسمو هذه الأديان الثلاثة فوق حدود الجنس والقومية والعظم الاجتماعية والطبقات والطوائف وكل القوانين والدساتير الوضعية ، لأنها تتسم حقاً بالعالمية والخلود . وهى تؤكد لنا حقيقة ذلك العالم الروحى غير المحسوس الذى لا يمكن رؤيته ، وتدعو جميعاً إلى خلود القيم المجردة للخير والجمال والحق . وهى لذلك تمنح البشرية قدراً وافراً من الأمن والسلام ، مما لا تقدر الدنيا على منحه .

وقد يعتق المرء ذلك الولاء الروحى فجأة ، بل ربما فى غمضة عين ، كالذى حدث لعمر بن الخطاب حين سمع أخته تقرأ آيات بيات من القرآن الكريم وكذلك الشأن فى الشعوب ، فقد يسود أحدها دين جديد خلال فترة قصيرة نسبياً ، كما حدث فى اسكتلندا حين عمت المسيحية بها . وانتشرت بين قومها . فى القرن العاشر الميلادى . ولم تكن سيادة المسيحية فى هذه المناطق الشمالية مجرد تغيير فى العقيدة ، بل شمل هذا تغييراً فى الثقافة أيضاً ، وترتب عليه عى كسر فى اللغة . فالعلماء والمثقفون هناك وجدوا أنفسهم فى حاجة ملحة لخلق مصطلحات جديدة تعبر عن المفاهيم التى تتصل بالعقيدة الجديدة .

وقد نجد أثر الدين فى اللغة أشكالاً أخرى فاللغة « انكرواوية » واللغة « صربية » وكلاهما فى روعوسلاف ، نجد أن فى الحقيقة لغة واحدة . ولكن بسبب الاختلاف المذهبى بين أساء هذه وأساء تلك فى الفلسفة المسيحية ، تكتب « الكرواوية » بحروف لاتينية ، فى حين أن « الصربية » تكتب بالحروف « السيريلية » وهى حروف الكسسه الأرثوذكسية للإغريق .

وإذا كانت أشهر الديانات فى العالم تتسم بالروح العالمى . وتسمو على كل ما يفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان . فهل يعقل مع هذا أن ندعى أن الدين من مفومات القومية ؟

فالإسلام مثلاً جاء للناس كافة . ويدعو البشرية جمعاء إلى اعتناقه والإيمان بتعاليمه وشرائعه . لا يفرق بين حس أو لون أو وطن . ويقول لله الشكر ثم إنه « لا فصل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » . وينسب الإسلام أيضاً

بالساحة والبعد عن التعصب لإزاء الديانات السماوية الأخرى .

ولا يصح لهذا أن يكون داعياً إلى القومية ، أو من مقوماتها . فهو دين عالمي ، ويعتقه الآن في العالم أقوام من قوميات متباينة في مشارق الأرض ومعاربها وكلهم إخوان في الدين يتعاطفون روحياً ، ويصبر بعضهم بعضاً في صدق هذا الدين الخفيف ، ونشر تعاليمه ، ودعم أركانه . وفي مبادئ الإسلام ما يسمح لكل وطن بتنظيم شؤنه السياسية والاقتصادية على حسب متطلبات الحياة فيه ، وعلى حسب ظروفه الاجتماعية . فلا يفرض لكل مسألة دينية حلاً معيناً ، بل تنسم شرائعه بالمرونة ، وسعة الأفق ، بحيث يمكن تطبيقها في كل أرض وكل وطن . ولما من قصة تأبير النخل بالمدينة خير دليل على هذا ، تلك القصة التي يحسمها النبي الكريم بقوله الرائع : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » . ولا يصح لهذا أن نتصور أن نشأة دولة باكستان إنما كانت على أساس الدين وحده . بل يجب أن نلتزم أسباب نشأة هذه الدولة من ظروف أخرى بعضها تاريخي وبعضها لغوي ، وأن نسمو بدينا الإسلامي عن الدعوة المحلية . هذا إذا وصفت دولة باكستان بالهوية الباكستانية . وفي الحق أن القول بأن باكستان دولة قومية بالمعنى المألوف لنا في قوميات أوروبا فيه قدر كبير من التحور والمالاه

أما في أوروبا فلم يكدهم قصي القرون التاسع عشر حتى شهدوا الناس يتصرفون في الدين نظرة أوسع أفقاً وأكثر سباحة . ولم يعد لهم تلك الحساسية العقائدية التي سادت أوروبا خلال القرون الوسطى . ولذلك نشأت كل القوميات الأوروبية في رحاب المسيحية . واستقل بعضها عن بعض وتميزت ، برغم أن الجميع من المسيحيين فهل يمكن أن يقال مع هذا إن الدين كان من مقومات القوميات الأوروبية ؟ بل إن المسيحية منذ نشأتها قد فرقت بين الدين والدنيا ، وتركزت ما ما لتقصر لتقصر وما لله لله . ومهلاً سمحت بنشأة القوميات . أو لم تعترض عليها . ولم تحدد من انتشارها .

فالقوميات التي هي من صنع الإنسان . ومن العظم الديني التي اهتدى إليها عقلمه وتمكبره وليس روحى من الله . لا يصح أن تربطها بالدين ، وأن يجعله لله من القوميات . والله

من مقوماتها ، وإلا نكون بذلك قد هبطنا بذلك المستوى الروحي الخالد الشامل الذي تتسم به الديانات السماوية إلى مستوى دنيوى محدود الأفق ، هو من عمل الإنسان وحده ، وليس للوحي الإلهي فيه نصيب .

من الإسراف إحد أن يقال إن القومية بمعناها الحديث في السياسة والنظم الاجتماعية تتطلب الدين أو العقيدة كأحد مقوماتها .

### ٣ . الثقافة :

حين نتساءل عن تعريف مقبول للثقافة نجد أنها لاتكاد تعنى سوى ذلك الطريق الموروث للحياة في شعب من الشعوب . وحين نتحدث عن الحضارة التقليدية في شعب ما نجد أنها تشمل فوه وحرفه التي ترجع إلى أزمان بعيدة في القلم . كما تشمل قوانينه ، ونظراته إلى تأسيس المجتمع ، وموقفه من الأخلاق والفصائل ، وسمو من يتحلى بها . بل تشمل أيضاً قدر ما يتسم به هذا الشعب من الدون السليم ، وسعة الأفق والسماحة ، وروح الدعاء من أبنائه ، وكلمه الحضارة حين نقابلها بالمداد لا تعنى أكثر من حياة المرء في المدينة عند مسطرة مصممه في مجمع ينمك القانون ويخضع له إلى ما مرجه من ربح في تطور الاجتماعي . تمت بعد تطور طويل شاق للمجتمع اسرى . ونفع أقدم مراكز الحضارة والثقافة في أحواس الأنهار الصالحة للملاحة كائنيل والهرات ودخله ونحوها . وقد نشأت هذه المراكز مستقلة في إثر الاهتداء إلى الملاحة المنظمة في الأودية الكبيرة ، حيث يسهل تبادل السلع والأفكار بين الدس . ثم تأثر بعضها ببعض . غير أنه لا يمكن الوقوف على مدى تأثير ثقافة بأخرى في هذه المراكز الحضرية ، أو تحديد قدر هذا التأثير . هي تاريخ الإنسانية شهدنا بين الحين والحين شعوباً مختلفة قدمت للعالم هذا الفكرية وثقافة متعددة . وعملت على استقراره ورخائه ونهضته فالمصريون القدماء قد مسحوا لعالم ذلك النوع من الكتابة التصويرية التي تطورت بعد ذلك على أيدي المصريين إلى الكتابة المقطعية . ثم عنهم أحد الإغريق حروف المعاء أو الكتابة



المهجائية . ووهبنا الإغريق القدماء دروساً ونماذج رائعة في فن النحت والدراما والموسيقى والفلسفة ، كما وهبنا الرومان القانون والظلم الإدارية . أما العرب فإليهم يرجع الفضل في نشر المعرفة بالرياضيات والفلك وغير ذلك من صنوف العلوم . ولكن العريب في ثقافات الشعوب خلال العصور التاريخية أنها لا تثبت على حال . فبينما نرى الثقافة في شعب ما تتقدم في اطراد عدة أجيال ، قد نراها تعود القهقري وتنتكس ، دون توقع لمثل هذا الانتكاس أو تفسير واضح له . وإذا تساءلنا بعد هذا عن أوصح مقياس لثقافة في العالم الحديث لا نكاد ننتهي إلى رأى حاسم قاطع . فهل نقيس الثقافة الآن عن طريق الدراسة الدقيقة للفن والأدب والقانون في شعب من الشعوب ؟ أو هل الثقافة تعتمد أولاً وبالذات على المستوى العام للتعليم في هذا الشعب ؟ إنها في الحقيقة تستمد حضورها ، وإلى حد كبير ، من كل ما تقدم . ولكنها مع هذا تعكس بوضوح درجة التحرر وسعة الأفق والسباحة بين الناس في حياتهم العامة ، كما تعكس مدى رغبتهم في السماح لعبهم بحرية الرأي . فإذا نظرنا في بيئة من البيئات وشهدنا السباحة وسعة الأفق تسود بين الناس تبي لنا بحلاء أن مستوى الثقافة في هذا المجتمع مرتفع . وعلى العكس من ذلك إذا شبه أن هذه سمات احده من الانحطاط والانتكاس فليس يعوض عن هذه الثقافة في مثل هذا المجتمع أو يغني عما قد نراه فيه من مظاهر براقة في البنى والعمارة الشائخة أو النظم المحكمة في التعليم والإدارة . ذلك لأن الشعاب الأصيلين للثقافة هما التحرر ، والسباحة .

فإذا تبين لنا أن الثقافة والنهضة الفكرية لم تستأثر بهما شعب واحد في كل العصور التاريخية . وأن ثقافات الشعوب قد صبّ بعضها في بعض وتأثر بعضها ببعض . وأن شعوراً متعددة قد أسهمت في النهضة الثقافية للإنسان خلال التاريخ البشري ، إذا تبين كل هذا فكيف يقال مع ذلك إن الثقافة من مقومات القومية الحديثة . إن الثقافة في معظم مظاهرها تراث إنساني ، وما قد يسم منها بالملكية قدر " نافع لا يملك أن يخلق شعباً أو قومية واعية . دعنا إذن

نفتش عن السر الحقيقي لنشأة القومية ، أو بعبارة أخرى عن أسس « الأساس » بين مقومات القومية ، فربما نفتتح في نهاية الأمر أنه ينحصر في اللغة المشتركة .

#### ٤ اللغة :

يحدثنا الدارسون لعلم النفس عن غرائز أو نزعات فطرية عامة ذات أثر بين في حياة المجتمع ، ويخصون ثلاثاً منها بالعناية وهي : المشاركة الوجدانية ، والاستهواء ، والتقليد . ويطلقون على هذه النزعات الثلاث في بعض الأحيان النزعات الاجتماعية ، ذلك لأنها تربط المرء بمجتمعه ربطاً وجدانياً وإدراكياً وسلوكياً ، فهي لأفراد المجتمع التماسك والانسجام في الوجدان والفكر والسلوك . أما المشاركة الوجدانية فهي أن يحس المرء بالانفعالات التي قد تكون عند الآخرين ، أي أن يشركهم في السراء والضراء والحزن والفرح . فإذا دخل المرء بيته ووجد أهله يضحكون مثلاً شاركهم في هذا الشعور وضحك مع الضاحكين ، وإن لم يشعر شعوراً تاماً بسبب هذا السرور . بل إن المرء في السهائم قد يضحك مع الضاحكين بسبب حوار خاص باللغة الإنجيلية . وإن لم يكن على معرفة بهذه لغة نسمح له بشع هذا الحوار .

ويكون مشاركة الوجدانية على قدر ما بين المرء والدين حوله من صلة القرابة أو الصداقة . وعلى قدر محبته لهم . فالأطفال يشاركون أهلهم وجدانياً في سرورهم وسر . لأهم يكسبون لأهلهم الأقربين الود والمحبة والعطف والرحمة .

وأما الاستهواء فهو أن يتفلسف المرء أفكار الكبار حوله وآراءهم ، دون مطالبة ما ثبت أو يبرهن على تلك الأفكار والآراء . وتتوقف عملية الاستهواء أيضاً على قدر محبة المرء لصاحب الرأي ، وعلى احترامه له . واعترازه بآرائه . ولهذا نلاحظ أن الأطفال ستهو بهم آراء الكبار من أهلهم ، ويتأثرون بها تأثراً عميقاً .

وأما التقليد فكأن يعجب المرء سلوك غيره فيقلده في هذا السلوك . فالطفل قد يقلد أبويه في طريقة كلامهما ومشيهما وطريقتهما في تناول الطعام أو جلوس إلى المائدة .

ويميل بعض الدارسين لعلم النفس إلى اعتبار هذه النزعات الثلاث نزعة واحدة يطلقون عليها لفظ التقليد . ذلك لأن المشاركة الوجدانية هي في الحقيقة تقليد في الإحساس والمشاعر . واعتناق المرء لآراء غيره دون فحص لها ليس في الحقيقة إلا تقليداً في الإدراك ، ويبقى بعد هذا التقليد في السلوك .

ويرى هؤلاء الدارسون في ختام حديثهم عن هذه النزعات الاجتماعية أنها من أكبر العوامل في انسجام الجماعات ، وأن لها أثراً كبيراً في توافق الجماعة وتأثرها ، ووحدةها في الآمال والأمانى ، وسعيها اللاتب لتحقيق تلك الأمانى والآمال .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن تلك النزعات الاجتماعية تتخذ مع الإنسان صورة أرق وأسمى من مجرد عريضة يشركه فيها بعض الأنواع الراقية من الحيوان . وبحقق ذلك عن طريق اللغة التي يتميز بها النوع الإنساني . فلا يكون الانسجام بين أفراد الجماعة تاماً وشاملاً إلا عن هذا الطريق . فالتمة الوجدانية التي يحس بها المرء العارف باللغة الإنجليزية حين يشارك المتفرجين وحداهم في مشهد سينمائي . أرق وأسمى من تلك التي قد تكون لدى من يحفل هذه اللغة وإعجاب المرء بآراء غيره بصحبه عادة عبارات ساحرة أحاده صدر من صاحب هذه الآراء وكذلك الشأن في تقليد السلوك لا يتم عادة في صلب منطق . بل يكسبه عادة كلام مقنع فصيح يشبه إعجابنا بالسلوك ويدفعنا إلى تقليده . تصور مثلاً أسرة تتألف من أب عبي . وأم صماء بكماء ، وأبناء شامت الظروف أن ينشأوا في بيئات أجنبية فلا يحسون لغة أبويهم . فإذا صم مجلس أفراد هذه الأسرة شهدنا انفصاماً بينهم ، وتفككاً في صلة بعضهم ببعض . وشهدنا ما يمكن أن يكون بينهم من مشاركة وحدانية أو استهواء في الرأي أو تقليد في السلوك ، في صورة أدنى مرتبة وأقل فعالية مما يكون لدى أسره أخرى ينطق كل أفرادها بلسان واحد ويتفاهمون بلغة واحدة . فانسجام لأفراد في الجماعة ، وتوافقهم وتأثرهم ووحدةهم في الآمال والأمانى ، وغير ذلك مما يسه الدارسون للنزعات العنصرية لا تتحقق كاملاً شاملاً إلا مع اللغة التي هي أقوى دباط بين أفراد المجتمع

فإذا سمونا عن تلك النزعات الفطرية التي يشترك فيها الحيوان أيضاً ، تبين لنا أن المجتمع الإنساني يتطلب في كمال انسجامه وتآزره وتعاونه شيئاً أرقى من تلك الغرائز ، ويتمثل هذا الشيء في خير ما اهتدى إليه الإنسان في كل تاريخ الإنسانية ، ألا وهو اللغة .

فاللغة هي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض ، واشترائهم في نفس الذكريات سواء كانت تاريخية أو ثقافية ، بل واقتصادية أيضاً .

ليست اللغة إذن كما قد يظن لأول وهلة مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار أو مجرد رموز لما يدور في الأذهان ، بل هي تلك الوسيلة التي امتزجت بعقولنا ونفوسنا ، والتي سما بها الإنسان فوق الحيوان ، وندين لها بتلك القوة التي ساعدتنا على التعاون مع رفاقنا ، ومحتنا السيطرة على مخلوقات أقوى منا جسماً .

فإذا كان للقومية وجود حقيقي ، أو مفهوم محدود . وحب أن نلتصقه في تلك الرابطة الوثقى التي تؤلف بين أفراد المجتمع . وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم وعواطفهم ، والتي تسمى باللغة أو اللسان .

فأقوى رباط يجمع أواصر الأسرة هو اللغة التي يشعر معها أفراد الأسرة أنهم يفكرون بطريقة موحدة ، ويشعرون بحساس واحد ، ويستخدمون مصداً مماثلاً . وللأسرة صفات خاصة في النطق والأداء ، واختيار الألفاظ ، وإيثار بعضها على بعض . فكثيراً ما يتماثل أفراد الأسرة في النطق بصوت معين . في صورة لثة أو عيب نطق ، وكثيراً ما يتماثلون في إيثار لفظ بعينه ، أو تركيب بعينه . بشيع بين أفراد الأسرة . ويصبح إحدى خصائصهم التي يتميزون بها في محيطهم الضيق ، والتي توثق من ترابطهم ، وشعورهم بأنهم وحدة مسجمة ، يفكرون معاً . ويشعرون معاً . كما يأكلون ويشربون حول مائدة واحدة . فشعورهم بكيانهم الأسري . وتغيرهم عن الأسر الأخرى ، هو في الحقيقة بمثابة قومية صغيرة . وهكذا نكون القومية بمعنى الرباط الوثيق بين أفراد المجتمع ذات مساويات . وذات أحكام . وأصغرهما حجماً ما نسميه بالأسرة ، ثم ما نسميه القرنة . ثم ما نسميه بالمدينة . ثم ما نسميه بالدولة

الى لها لغة مشتركة تنتظم كل المناطق ، ويعتمد إليها كل أفراد المجتمع .

فالقومية في حقيقة أمرها ليست إلا الشعور بما يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض لتألف منهم وحدة متميزة . وقد نجدعنا بعض المظاهر الخارجية والعادات الاجتماعية الطارئة التي لا تتسم بالثبات والدوام . والتي نظراً على الشعوب في فترة من تاريخها تحت تأثير ضغط سياسي أو اقتصادي أو حتى تقاي ، قد نجدعنا هذا كله فنلتبس فيه مقومات القومية . غافلين أو متغافلين عن الرباط الحقيقي ذي النصبغة الدائمة الخالدة الذي قامت القرون الطويلة بسنحه ودعمه ، وتعميق جذوره ، في قلوبنا ، وأفئدتنا ونفوسنا . وهو اللغة .

فتصورنا للقومية بوصفها رباطاً وثيقاً بين الأفراد يبدأ من الأسرة التي هي أصغر صورة للقومية ، ثم القرية وهكذا . وعلى قدر اتساع مناطق القومية ، يقل وثوق ذلك الرباط بين الناس ، لا شيء سوى أنهم يكتشفون أن بينهم فروقاً بطنية محلية تباعد بينهم ، وتخلخل تماسكهم . فإذا نشأت بينهم ما يسمى باللغة المشتركة عادت لهم وحدتهم ، وتطلعوا إلى هذه اللغة التي تلم شتاتهم . وتجمع ما قد تبدد من وحدتهم وانسجامهم . وإذا لم تتكون لغوة من الأقوام تلك لغة مشتركة . فلا قومية بينهم إلا في حدود الأسرة أو القرية .

وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين نفوى الصلة بين ماضي مجتمع من المجتمعات ، وتسهل بينها وسائل الاتصال . تتكون لها مع الزمن « لغة مشتركة » تقرب بينهم ، وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر ، وتقضي لهم مصالحهم الدنيوية ولدينا في العصر الحديث أمثلة كثيرة للغات المشتركة كالإنجليزية المشتركة التي سود في مناطق إنجلترا . والفرنسية المشتركة التي سود في مناطق فرنسا .. إلخ .

وتتخذ اللغة المشتركة في بدء نشأتها مركزاً معيناً يتاح له من الظروف والقرص ما لا يتاح لغيره ، فتتطلع إليه المناطق الأخرى . وتسلم له الزمام في النواحي السياسية ، والاقتصادية والثقافية . وينرح إليه الناس من كل صوب . ثم تسور عملية الاتصال إلى مزيج لغوي منسجم يقبله الجميع . وهو ما يسمى باللغة المشتركة . ومراكز اللغات المشتركة في العالم هي عادة «عواصم» التي يتبها لها

من الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مالا يتاح لغيرها من المناطق :  
وأهم صفات اللغة المشتركة أنها على حد تعبير « هنرى سويت » ( تلك اللغة التي  
لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة المحلية التي ينتمى إليها المتكلم ) . أى  
أن اللغة المشتركة قد أصبح لها مع الزمن كيان مستقل ، فلا تذكرنا في أثناء  
الحديث بها أو سماعها بمنطقة خاصة أو طبقة خاصة ، بل يشعر كل من السامع  
والمتكلم أنها ملك الجميع ، وأم الجميع ، لا بدعياً لأنفسهم قوم بأعيهم .  
ولا تنسب إلى بيئة معينة . وهي لذلك نكتسب الاحترام من الناس جميعاً .  
فلا يسخر منها أحد ، ولا ينقدها أحد ، بل يلجأ إليها الكل ليتخذوا منها العصا  
السحرية التي تقضى لهم مصالحهم الدنيوية .

واللغة المشتركة هي في الحقيقة تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية .  
ولذلك لم يكن من المصادفة أن القومية حين بدأت تتخذ شكلها في القرن  
الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين أو السياسيين ، وإنما كانوا من  
العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يلتصقوا روح الشعب في  
الأساطير القديمة ، والأغاني المجهولة الأصل . وكانت اللغة في أعمال هؤلاء  
المفكرين أداة هذه الذكريات . والتجارب المشتركة . والسجل التاريخي  
فليسست القومية إلا تلك الصلة الروحية التي أساسها الأفكار والرغبات والشعور .  
وكلها تنتقل من عقل إلى عقل ، ومن نفس إلى نفس في كلمات شائعة وثيقة  
الاتصال بتلك العقول والنفوس . والكلام المشترك والتعابير العامة والتغيم الكلامي  
بل المجازات ، كل هذا يتغلغل في نفوس أبناء البيئة الواحدة ، ويصبح  
المهاد النفسي للشعب ، ثم قد يتمجر في لحظة من لحظات التاريخ ، ويشأ  
عنه ما يسمى بالقومية

لا عراية بعد الذي تقدم أن نرى مفكرى الألمان يؤمنون إيماناً قوياً بأثر  
اللغة في تكوين القومية . ولعل « هردير » Herder العالم اللغوي في أواخر القرن  
الثامن عشر كان أول من نه الأذهان في كتبه إلى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها  
يدّ بقول : ( إن اللغة القومية عمزلة الوعاء الذي تشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل

بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا إنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ، لا يمكن أن نشك في أنها الآن تخلق العقل ، أو على الأقل تثير في التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدده وتوجهه توجيهها خاصاً . والأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل في كل روح الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . إن قلب الشعب ينبض في لغته . إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد (١).

وهكذا نرى أن « هرذر » كان ينادى بأن اللغة مكن القلب والروح للأمة ، ولذلك تستمسك الأمة بلغتها استمساكها بالحياة . وكان يدعو إلى أن من واجب كل فرد في أمته ، بل من حقه ، التمسك بلغته القومية ، وعلى الدولة التي ترعى شئون الشعب أن تحترم هذا الحق .

ولما أصدر إمبراطور النمسا في أيام « هرذر » أمراً بتخصي جعل اللغة الألمانية اللغة الرسمية في بلاد « النمسا » التي كانت ناطقة بالإمبراطورية ، استنكر هرذر « وهو الألماني » هذا الأمر بشدة الاستنكار ، وقال : ( وهل لشعب ما . حتى لو كان شعباً جاهلاً مهملًا روفه أكثر من لغة أجداده ، في تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين ، وفيها تنص قلب الشعب . ويتحرك روحه . وإن آمن يتزعزع من مثل هذا الشعب لغته ، أو ينصر في احترامها ، يحرمه من ثروته الوحيدة التي لا تعرف البلى ، والتي تستقل من الآباء إلى الأبناء وعلى مرّ الأجيال والعصور )

وقد كان لآراء « هرذر » أبلغ الأثر في البلاد الألمانية والسلافية . فقد أصبح بعدها كثير من المفكرين والسياسيين في ذلك الحين يربطون بين اللغة والقومية ربطاً وثيقاً . ويفررون أن اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة . وعليه فالمتمكلمون بها يصحون ذوي قلب واحد . وروح مشتركة ، فتنشأ لهم قومية

واحدة ، وعلى دعائها يجب أن تؤسس لم دولة موحدة .

وجاء بعد « هرذر » الفيلسوف الألماني « فيخته Fichte » في أوائل القرن التاسع عشر . وشهد النكبات التي حلت بلاده على يدي نابليون ، فأصدر كتاباً بعنوان « محاورات وطنية » نصر فيه على حوار رائع تم بينه وبين رجل من أهالي بروسيا :

فيخته : أنت . ألسن ألمانيا ؟

فيجيب الرجل إجابة حاسمة : كلا . . . لست ألمانيا ، بل أنا بروسي . . . وأفخر بروسي . ولا أرضي عنها بديلاً . . .

فيقول فيخته . أصع إلى جيداً . إن الفرق التي بين أهالي بروسيا وسائر الألمان ليست إلا مظاهر عارضة طارئة سطحية تنبت عن أحداث اعتبارية ولدتها المصادفة البحتة . أما الذي يتميز به الألمان عن الشعوب الأخرى شيء أساسي طبيعي يتمثل في اللغة التي يشترك فيها جميع الألمان فتميزهم عن غيرهم تمييزاً جوهرياً .

ثم أتى في جامعة برلين خطباً حماسياً ألهمه مشاعر الشاب . وسببه قوله : إن جميع الذين يتكلمون باللغة الألمانية هم في أيديكم أعداءكم . أنتم أيها المحسبون أمي لأن بئس دهي من خلقكم . ومن وراء حذر شديد القاعة . إلى جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية ) .

ولعل أروع ما جاء في بعض خطبه هو . ( اللغة والقومية أمران متلازمان ومتعادلان إن اللغة التي تراقق المرء . وتحركه حتى أعماق أعوار تفكيره وإرادته ، هي التي تجعل ما نحن الألمان مجتمعاً متماسكاً بدمه عقل واحد . إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة . ربطت الطبيعة بين أحرارها بروابط متينة . وإن كنا لا نراها . إن الحدود التي يستحق أن تسمى حدوداً طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغات )

وشهد القرن التاسع عشر أيضاً شاعراً ألمانياً عظيماً هو « موريس آرب » الذي كان يؤمن في أوائل حياته بالبرعة العالمية حتى كانت حروب نابليون



ومآسيها ، فأصبح يدعو في حماس شديد إلى القومية الألمانية . ففى إحدى قصائده الرائعة يتساءل عن الوصل الألماني ، هل هو بروسيا ؟ هل هو بافاريا ؟ هل هو « وستفاليا » ؟ ثم يجيب عن التساؤل بالنفى ويقول : ( إن الوطن الألماني يجب أن يكون أكبر وأسى من هذا كله . إنه كل البلاد التى دُرِنَ فى أرحائها أصوات اللغة الألمانية ) .

ثم تبين بعد هؤلاء فكرة أن اللغة أساس القومية جماعة من المفكرين المصلحين مهم « ماكس موندو » الذى كان يقول : ( إن الفرد يندمج فى المجتمع باللغة ، وبها وحده . باللغة يصبح عضواً فى الشعب الذى يتكلمها . وباللغة وحدها يتلقى كل تراث الفكر والشعور والأخلاق والاجتماعى للأمة ، سواء منه ما انحدر عن قرائح الكتب والشعراء والمفكرين ، السالفين ، أو المعاصرين ) ومن أروع ما جاء فى كلام هذا الكاتب المفكر قوله : ( فى عهد من عهود الحضارة التى اجتريها منذ أحيان كان عمل اللغة فى الحياة العامة محدوداً نسبياً ، لأن أداة الحكم فى ذلك العهد كانت تتمثل فى السوط ، ولغة السوط مما يهمهم الناس دون حاجة إلى وسع وسحر والصرف والمعجم حتى العدالة لم تكن تحتاج إلى كثير من الكلام . لأن للحكام والقضاة كتاباً صيقول بالأحد والردّ وحوار بين المتخاصمين . - حتى العقيدة نفسها لم تكن تلتفت إلى كلام الناس ، فالكاثوليكية كانت تصور الخالق للناس فى صورة صاحب السلطان الأخي الذى لا يستطيع تخرب إليه ، وطلب المغفرة منه ، إلا بلغته الأحسية وهى اللاتينية ، وعلى لدى حجاب معينين هم الفس . أما العامة فلم يكونوا يتمتعون بحق الكلام . وأما البلاء فكانوا يرثون ما يرثون دون أن يحتاجوا إلى الكلام ولكن الأمور تعبر الآن . فصار كل شيء يرتبط باللغة وأصبح حرمان شعب من حق استعمال لغته أسوأ ما يتعرض له الشعوب من عسف وظلم وذلة ومهانة إن لم يكن فى هذا القصد الحريم على هذا الشعب المسكين )

ونصح صدق رأى لدى نادى به النظرية الألمانية من أن القومية مرادفة للغة حين نتذكر تلك الثغومات التى نشأت فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر

فقد وُحدت ألمانيا على أساس اللغة وحدها بعد أن كانت مجزأة إلى دويلات كثيرة ، وكذلك وُحدت إيطاليا على أساس اللغة أيضاً . وإن استقلال بولندا واتحادها قد تم أيضاً على أساس أن الناطقين بالبولندية أصحاب قومية واحدة . وكذلك استقلال اليونان وبلغاريا ورومانيا وألمانيا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا . فكل هذه الدول قامت على أساس أن لكل منها لغة قومية متميزة عن غيرها . أى أن تفكك كل من السلطنة العثمانية والإمبراطورية النمساوية إنما كان بسبب اختلاف اللغات فيهما ، فانفصلت عن السلطنة العثمانية الشعوب التي تتكلم بغير التركية ، وانفصلت عن الإمبراطورية النمساوية الشعوب التي تتكلم بغير الألمانية . وبرغم أن أحداث التاريخ خلال القرن التاسع عشر تبين بوضوح وثوق الصلة بين اللغة والقومية لا يزال بعض السياسيين يسيرون الفضل في شئ هذه القوميات إلى عوامل أخرى ، ويرون دور اللغة في ظهور القوميات الأوروبية دوراً ثانوياً .

ويسوق أصحاب هذا الرأي أمثلة من الدول فيها أكثر من لغة واحدة . ناسين أو مجاهلين أن أهم عامل في تمكك الإمبراطورية النمساوية والسلطنة العثمانية هو اختلاف لغات فيهما فقد بسط عن كل منهما فمير . وكان الأساس الواضح في ظهور هذه القوميات هو اللغة وحدها .

ومن الأمثلة التي يسوقها « بلجيكا » التي تسود فيها الآن لغتان مختلفتان هما الفرنسية و « الفلمنكية » . ففي الإحصائيات الرسمية نجد أن نحو ٣٨ ٪ من مجموع السكان في بلجيكا لا يعرفون غير اللغة الفرنسية ، وأن نحو ٤٢ ٪ منهم لا يتكلمون غير الفلمنكية ، أما الباقى فيسيطرون على اللغتين .

وفي نقاشا لأصحاب هذا الرأي يجب ألا يعيب عن أدهاننا أنه ليس من اللازم أن تنطبق حدود الدولة على حدود القومية . فالدولة صفاتها التي تحددها القوانين السياسية العالمية التي انشأها القانون الدولي العام . وأسست لها المحاكم الدولية في حين أنه ليس للقوميات في العالم قوانين وصعيرة تنظم شئونها أو تحكم بينها . وقد حدثنا التاريخ عن دولة بصم عدة قوميات . كما حدثنا عن قومية واحدة

وَزَع أبناؤها بين عدة دول . وترتب على هذا نزاع وصراع وسفك دماء  
نعرض لبعض تفاصيله في فصل من الفصول التالية .

وأما الشأن مع بلجيكا فعب أن نذكر أنها لم تصبح دولة مستقلة إلا منذ  
سنة ١٨٣٠ ، وأن للقوى الكبرى من بريطانيا وفرنسا وغيرهما دوراً واضحاً في  
الإبقاء على بلجيكا في صورتها الحالية . وفي الحق أن هذه الدولة تتألف  
من قوميتين أو لعتين متميزتين . فإذا قدر لهاتين القوميتين انفصال إحدهما  
عن الأخرى فسيكون هذا في أسس اللغة وحدها ، أي أن المناطق التي  
تسود فيها اللغة الفرنسية تندمج مع فرنسا ، والمناطق الأخرى التي يتكلم سكانها  
اللغة الفلمنكية تندمج مع هولند . شرب اللغة الفلمنكية من الهولندية قريباً شديداً .  
على أننا حين ندرس تاريخ بلجيكا الداخلية وموقف الدول الكبرى منها  
قد نرى ما يسوع وجود بلجيكا من حالتها الراهنة . ولو إلى أمد ما .

فإذا نظرنا إلى التوزيع السكاني في بلجيكا تبيّن لنا أن معظم المتكلمين  
بالفرنسية يقطنون في الجنوب . وأن معظم المتكلمين بالفلمنكية يقطنون في  
الشمال . غير أن الحصوص - نسبة بين هؤلاء وهؤلاء معقدة شديدة التشابك .  
فهناك مدن ومناطق فرنسية - أخرى فلمنكية . وكذلك العكس أي أن  
تشتت بعض المدن والبلدات الصغيرة في المنطقة الفرنسية .  
« بروكسل » مثلا أحد أن حيز ٢١ ٪ من السكان لا يعرفون غير الفرنسية .  
وأن نحو ١٧ ٪ لا يعرفون غير الفلمنكية . وأن نحو ٢٥ ٪ يعرفون اللغتين ولكن  
تعلب عليهم الفرنسية . في حين أن نحو ٣٠ ٪ يعرفون اللغتين أيضاً ولكن  
الفلمنكية تعلب على ألسنتهم . ومن هذا التشابك اللغوي العجيب هو الذي حدا  
بها إلى القوميتين إلى أن بعد سراح من التعايش السلمي في ظل دولة واحدة .

ثم لا نسي أن بلجيكا كانت حاصصة لأسبانيا في القرن السابع عشر .  
ثم للمسا في أوائل القرن الثامن عشر . ثم لفرنسا بعد ذلك ، فلم تنجح للحركة  
القومية فرصة الظهور تحت صفة الاحتلال طوالت هذا الزمن . أو قل إن  
احتلالها رماً طويلاً قد أيضاً من ظهور الهوية فيها أو تلورها .

كذلك لا ننسى موقف بريطانيا من بلجيكا . فقد عملت جاهدة على عزلها أو استقلالها . فقد وجدت بريطانيا أن نابليون حين احتل بلجيكا استغل سواحلها في إحكام الحصار الذي أعلمه على فرنسا . وقد عملت بريطانيا بعد انتصارها على نابليون على فصل بلجيكا عن فرنسا . وصعدت هولندا . وتكون من بلجيكا وهولندا في وقت ما ما يعرف بـ «دولة الأراضي الميضية» التي بدلت بريطانيا جهوداً حثيثة في دعمها . ولكن البلجيكيين لم يروا وحسبوا بالانفصال عن هولندا ، فلم تجد بريطانيا بداً من مسايرة هذه الرغبة . ومع الاستقلال لبلجيكا بعد أن أخذت العهود الصريحة من فرنسا بـ «استقلال واحترامه» . ولما حاول نابليون الثالث ضم بلجيكا إلى فرنسا ثانية سحب بريطانيا وماجت وأعلنت على لسان وزير خارجيتها لورد «كرور» أن «مصلحة بريطانيا تقتضي بأن تبقى سواحل بحر الشمال في أيدي دولة أو عدة صغيرة» . أي أن سياسة بريطانيا كانت من أقوى العوامل التي أدت إلى «تصحيح» بلجيكا على وضعها الراهن .

ومع ذلك لا نغالي حين نفرر أن مشكلة اختلاف سياسة مشتركة في تحالف لعدة من بلجيكا . قد واجهت الدولة منذ استقلالها . ولا تزال تواجه حتى الآن كما سنرى في الفصل التالي .

أما المثل الآخر الذي يلتمسه عادة أصحاب الرأى الذى يعرض فكرة الربط الوثيق بين اللغة والقومية هو «سويسرا» .

وفي الحق أن «سويسرا» تعدّ مثلاً قريباً بين الدول . ففي أربع لغات : الإيطالية على حدود إيطاليا ، والفرنسية على حدود فرنسا . وألمانية على حدود ألمانيا ، وأخيراً لغة رابعة من أصل لا تبنى هي اللغة «الرومانشية» . وإن كان المتكلمون بها لا يكادون يحاورون واحداً في المائة من مجموع سكانها . أما نسبة المتكلمين بالإيطالية فهي في حدود ٤٪ ، والمتكلمين بالفرنسية في حدود ٢١٪ ، والمتكلمين بالألمانية نحو ٧٤٪ . ولو قد تركت أمور سويسرا وشأنها لنشأت بها قوميتان متميزتان على الأقل هما القومية الألمانية والقومية الفرنسية . غير

أن هناك طروفاً تاريخية وعوامل جغرافية ساعدت على خلق هذه الدولة المحايدة وسط عدد من الدول التي تقوم المنافسة بينها ، والتي رأت منذ زمن بعيد أن مصلحتها جميعاً تقضى بأن تفصل بين الواحدة منها والأخرى مناطق محايدة . وأن وجود هذه المناطق والاحتفاظ بها يلائم مصلحة الجميع من كل الوجوه .

وهكذا نرى أن العامل الأساسي في الإبقاء على « سويسرا » بوضعها الراهن هو الرعية الصادرة بين الدول الأوربية المحيطة بها في أن تكون أرض « سويسرا » بمثابة المناطق المتروعة السلاح . أو بمثابة ملجأ أمين يمر إليه القوم كلما أصابهم محنة سياسية أو هزيمة عسكرية ، أي أن « سويسرا » منذ بدء تكوينها كانت في الحقيقة من صنع دول أوربا المحيطة بها . هذا إلى أن الطبيعة الجغرافية في « سويسرا » كان لها دور ما في تشكيل هذه الدولة فالجبال التي تؤلف « سويسرا » كثيرة الفروع معقدة الشعب ، وتنقطع سموحها المتشاككة كثير من الوديان العميقة التي تضم عدداً من البحيرات . مما جعل مناطقها في شبه انعزال إحداها عن الأخرى

وقد بدأ التحالف السويسري بين ثلاثة من هذه الوديان ، ثم أخذ يسع تدريجاً خلال عده قرون . ودون أن يعرض لمؤثرات أو صعوبات خارجية ، أصبح من شكل آخر

سويسرا الآن تألف من خمس وعشرين مقاطعة لا يجمع بينها إلا شؤون الخارجية والدفاع . وبعض الأمور المتعلقة بالمواصلات . وأما الشؤون الأخرى فقد تركب لكل مقاطعة تقريرها ونصرها كما شاء . ولكل مقاطعة شعار خاص . وعلم خاص ، ودستور خاص ، وتسير الإدارة فيها وفق خطة من اللامركزية الواسعة النطاق

وبرغم ذلك الاستقرار الظاهري في سويسرا نجد أن ميول السكان وعواظمتهم تنحى اتجاهات ماسية . فعواطف أهالي سويسرا الإيطالية تنحى نحو إيطاليا . وميول سويسرا الفرنسية تنحى نحو فرنسا وهكذا

وقد ظهرت آثار هذه الخلافات العاطفية في شكل واضح خلال أحداث

الحرب العالمية الأولى ، ولم تستطع الحكومة الاتحادية التغلب عليها إلا بئذ  
جهود شاقة .

ونختتم هذا النقاش مع المعارضين لعكرة الربط الوثيق بين اللغة والقومية  
بأن نقول : حتى إذا سلمنا حدلاً أن سويسرا نحت وحدها في تكوين دولة  
مستقرة ذات عدة لغات ، لا يصح أن نتحد من هذا المثل الفريد دليلاً ينقض  
الأمثلة الكثيرة التي نشهدها الآن في أوروبا وأفريقيا وآسيا . فسويسرا كما تبدو  
لنا الآن دولة لم تستقر فيها القومية على وضع معين . أولم تشاور قوميتها لتأخذ  
طابعاً متميزاً . وليس هناك ما يمنع من الناحية النظرية أن تكون دولة ولا قومية لها ،  
وأن تكون قومية ولا دولة لها . فاللدولة والقومية أمران متميزان ، أو يجب أن  
ننظر لهما على هذا النحو ، فقد حددت القوانين الدولية مفهوم الدولة ، وبينت  
بوضوح ما لها وما عليها . في حين أن فكرة القومية لا تزال تصطبغ في  
مفهومها ، وفي مقوماتها بين كثير من السياسيين ، أو محترفي السياسة .

دعنا إذن نتبع المشاكل العالمية التي نبحث عن فصل حدود اللغة عن  
حدود الدولة

## الفصل الرابع

### فتش عن اللغة

نستمد هذا العنوان الغريب من المثل الفرنسي « فتش عن المرأة » لإيماننا بأن كثيراً من المشاكل الاجتماعية والسياسية ، بل الاقتصادية ، في العالم يمكن أن تُعزى إلى اللغة ودورها في المجتمع .

ومن الغريب أن الكتب التي تعرض لمثل هذه المشاكل تكاد تعفل أو تتجاهل الأثر الكبير للغة في إثارتها بين الدول ، وتعرؤها إلى عوامل طارئة ، أو أمور لم يعد لها وزن في العصر الحديث .

فالحدود الجغرافية الطبيعية التي كانت فيما مضى تفصل بين القوميات كالحال والبحيرات والأنهار ونحوها أصبحت الآن في خمر كان ، بعد ذلك التقدم العصيم الذي شهده في وسائل المواصلات بين بلدان العالم . فدوله مثل « بلغاريا » قد غلقت على نفسها وقد قسمتها حبال اللقمان إلى إقليمين متصلين . ومع هذا فقد أصبحت سياسية . بل إنها بعد من أكثر دول الشرق حساساً من حيث الكونش البشرى . وأقواها تماسكاً من حيث القومية . كذلك في الحديث عن حدود القوميات قد تثار بعض المسائل الاقتصادية أو الاستراتيجية . وهي في الحقيقة من الأمور الطارئة ، أو التي تتعلل لعطية الأطماع التوسعية لدى بعض الدول . ويعمل الساسة على السرّ الحقيقي لمشاكل الحدود أو الصراع بين القوميات . وهو في رأينا يركز في اللغة . أما ما كان يسمى بالحس أو أصل الشعوب فقد سن لنا أنما أنه أصبح أسطوره . وأنه من العسير الآن الحكم على جماعة من الناس بأنهم ينتمون إلى جنس معين . فقد احتلقت الأحاسيس في معظم أنحاء العالم ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يطلق عليه جنس خاص نقي لا يشوبه صفات من الأجناس الأخرى

ويبدو أن تجاهل اللغة في تحديد القوميات إنما يرجع إلى أن شأن اللغة من الوضوح والشيوع بحيث يُظن أنها لا تتطلب تعمقاً في دراستها ، أو بحثاً في أثرها . فهي تجري على كل لسان ، ولا يكاد يلتفت إليها إلا على أنها مجرد وسيلة للتعبير . ولذلك يلتبس المسألة أسباباً أخرى في تمييز القوميات . لأن دراسة اللغات فوق طاقتهم . وتحتاج إلى جهد كبير و زمن طويل ، ولا يتسع وقته لمثل هذا . أو إن شئت قلت إن عقلهم عن اللغة أو تجاهلهم لقدرها كان في بعض الحالات متعمداً وعن قصد ، ويحصرهم إلى هذا سوء البنية في كثير من الأحيان .

فالقوميات الحديثة في أوروبا . وبعد أن قاست صراعاً مريراً فيما بينها خلال القرن التاسع عشر ، وبعد أن مرت بحرين عالميتين ، لا تزال تفتقد الحكم العادل الحاسم في تكوين حدودها ، ولا تزال تتطلع إلى اليوم الذي تنال فيه كل حقوقها القومية . وذلك بصم أصحاب كل لغة إلى إخوانهم في اللسان الذي يوحد بين مشاعرهم وأحاسيسهم . ويكون تمثالة السجل الذي يصم تراثهم والحادية السحرية التي تلم شنائهم . وتؤلف بين فلولهم وعقولهم . ليصحبوا وكأهم عقل واحد . يفكرون بطريقة واحدة . و شعرون بشعور موحد .

ورأينا لهذا أن نعرض أشهر المشاكل السياسية والاجتماعية بين القوميات الحديثة في أوروبا وآسيا وأفريقيا . نسبح لـ دور هذه فيها بصورة حتمية التي طمس المسألة كثيراً من معالمها وملاحمها

أما مشاكل اختلاف اللغات في آسيا وأفريقيا وأثر ذلك في الصراع بين القوميات فلا تزال بمثابة رواية لم تتم فصولا . إذ لم يكدهم على نشأة هذه القوميات ومببرها أكثر من نصح سوات . ولذلك سكتني بالإشارة إليها إشارة سريعة عابرة .

فإذا بدأنا بالهند رأينا أنها ظلت حاصعة لحكم بريطانيا حضوعاً تاماً أكثر من قرن . وأن بريطانيا عملت حادثة على نشر اللغة الإنجليزية فيها ، فلم يكدهم بدأ القرن العشرون حتى شهدنا هذه اللغة قد أصبحت في كل مناطق



الهند بمثابة لغة مشتركة توحد بين أقاليمها المختلفة وطوائفها المتباينة ، وتجمع بعضهم إلى بعض ، برغم أنها لغة المستعمر . وإذا كان للاستعمار من خير في هذه البلاد فهو أنه منح الهند لغة مشتركة جعلتهم يفكرون تفكيراً موحداً ، ودون وعيهم السياسي والاجتماعي . ومكنت رعماءها وقادتها من السيطرة على قلوب الناس وعقولهم عن طريق ذلك اللسان الموحد . فاستجابت لهم الجماهير والتفوا حولهم .

فلما بدأ ظل الاستعمار يتقلص . وبدأت لغة المستعمر تتقلص معه . شهدنا مع الدهشة والأسف اللغات الهندية المحلية نطل برأسها . ونكاد تؤدي إلى تفكك أقاليمها . وهكذا تعددت الفصميات في الهند بتعدد اللغات . ومع ما يبدو من أن فصل باكستان عن الهند أساسه ديني أو عقائدي . نجد أن السر الحقيقي في الفصل بينهما يكمن في اختلاف اللغة ولا يكاد القوم يشعرون بهذا ، أو على الأقل لا يكادون يعرفون بالأثر الكبير في هذا الانفصال . « فالأردية » التي تسود في أنحاء الباكستان تمت في الحقيقة إلى الهندوستانية بصله وثيقة . ومع ذلك تميزت اللغتان إحداهما عن الأخرى . فالأردية التي هي في الأصل لغة الحبش . قد تطورت تطوراً مستقلاً . وأصبحت كتب « لأنديه العربية » وتشتمل على ألفاظ عربية وپارسية كثيرة . وهكذا أحدثت صورة مياية لأختها الهندوستانية . وأدى ذلك إلى ما يسمى بالقومية الباكستانية والقومية الهندوستانية

وشهد الآن في الهند بعد زوال نفوذ اللغة الإنجليزية صراعاً بين بعض اللغات المحلية التي يحاول أصحابها أن يبرهوا على كيانهم وفهميتهم المتميزة « صطباع تلك اللغات والدعوة إليها . ومن العسير التسو بمصير هذا الصراع اللغوي الذي تشهد مظاهره في بعض أقاليم الهند في الوقت الحالي . ويكفي هنا أن نسوق أمثلة لما ينشر في الصحف العالمية بهذا الصدد :

١ - في شهر أغسطس سنة ١٩٦٧ نشرت الصحف خيراً مؤسماً لخصته في قوها - ( قتل خمسة وجسود شخصاً خلال الاضطرابات العيفة التي سادت

طوال الأيام الأربعة الماضية في مدينة « رانشي » بولاية « بهار » الهندية بسبب نزاع لغوي نشب على إثر توزيع منشور في الولاية يعارض بشدة إدخال اللغة الأردية كلغة رسمية ثانية بحاجب الهندوستانية . وقد أعلن وزير الدوليس الهندي أن ١٠٦ من الأشخاص قد أصيبوا واعتقل ٧٩٥ شخصاً ) .

٢ - ( لا يرال الصيام من الأسلحة التي يستخدمها الزعماء السياميون الهنود وزعماء الطوائف والمذاهب المختلفة في مختلف الأزمات التي يواجهونها . ومنذ أسبوعين بدأ واحد من هؤلاء الزعماء هو رعيم طائفة « السيخ » الصام حتى الموت . واعتكف في الهيكل الذهبي في « أمريتسار » بعد أن أقسم أن يظل صائماً حتى تستجيب حكومة « نهرو » لمطالبه بإشياء ولاية تتكلم اللغة البنجابية ويكون فيها « السيخ » أعلى ) . هذا هو نص ما نشرته الصحف . أما اللغة البنجابية التي يشار إليها في هذا الخبر فهي أهم لغات الشمال الغربي من الهند ، ويتكلم بها سكان « لاهور » ، وتلك الطائفة المعروفة باسم « السيخ » .

٣ أما الصراع اللغوي الذي يشوم الآن مطقة « مدراس » و « قديمي » عسف . وقد أشارت إليه الصحف في عدة مناسبات

في فبراير سنة ١٩٦٤ نشرت الصحف « نص » ( أعيت حكومة شامري اليوم أن رجال الدوليس أطلقوا النيران على الطلبة المتظاهرين بولاية « مدراس » وقتلوا أربعة منهم . وكان الطلبة قد تظاهروا احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية جعل اللغة الهندوستانية اللغة الرسمية للبلاد . وقد أطلق رجال الدوليس نيران مدافعهم عندما حاول الطلبة اقتحام مركز الدوليس . وصرح ممثل في حكومة « مدراس » بأنه صدرت تعليمات إلى رجال الجيش الهندي بأن يكونوا على استعداد للتدخل في أي وقت ، وقال إن الطلبة يلقون بأنفسهم على قضبان السكك الحديدية ليرغموا القطارات على الوقوف ، ثم يجردوا رعاياها على البرول . كما أحرقوا إحدى عربات القطار وكان رجال الدوليس قد قتلوا ستة طلاب آخرين خلال الاضطرابات التي نشبت منذ أسبوعين للسبب نفسه ، كما انتحر

ثلاثة أشخاص احتجاجاً على قرار الحكومة الهندية ، واعتقل نحو ألف شخص معظمهم من الطلبة ) .

وفي يناير سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف : ( لاتزال الهند تعاني من نزاعها الداخلي الحاد الذي نشأ عن القرار الذي اتخذته الحكومة الهندية باعتماد « الهندوستانية » اللغة الرسمية ، والذي تسبب حتى الآن في انتحار ثلاثة أشخاص . ولا تزال معظم مدارس هذه الولاية معلقة بعد أن انتشرت خلال اليومين الماضيين أعمال العنف وإراقة الدماء . . . وقد طوق رجال البوليس مساكن الطلبة في المدارس والكليات بعد أن أشعلوا النار في سيارات الأوتوبيس المدرسية ، وقلعوا المرافق العامة ومقر حزب الدستور الحاكم بالطوب . وحذير بالذكر أن اللغة الهندوستانية في هذه الولاية التي يتكلم أهلها لغة « التامل » بعد لغة أجنبية . ولهذا يقول الطلبة إن فرص اللغة الهندستانية على الولاية صرب من الاستعمار الهندي ) وقد رج البوليس بما لا يقل عن ٢٠٠ طالب في السجون . كما اعتقل ألفين معظمهم ينتمى إلى الحزب الانفصالي الذي يعارض منذ مدة فرص اللغة الهندستانية على الولاية .

وفي فبراير من نفس العام عادت الصحف إلى نشر ما يلي ( تدفق حركة المرور في « مدراس » بعد أن أعيد سائمو القطارات وسدات « كسي والأوتوبيس الإصراب عن العمل في جميع أنحاء الولاية احتجاجاً على إحلال اللغة الهندستانية محل اللغة الإنجليز كمنة رسمية . كما أعلفت المحال التخزينه والصادق أبوابها تصامناً مع المصريين . وقد دعا رعيم العمال في مطلقه « مدراس » عمال الموانئ و ٣٥ ألف عامل في المصانع للإصراب عن العمل اليوم

وانتحر اثنا عشر من المواطنين في ولاية مدراس بإشعال النار في أنفسهم لنفسه . وكان أحد الذين انتحروا ناطراً لمدرسة ابتدائية والثاني مراراً . وقد وصل عدد الذين انتحروا في الولاية احتجاجاً على استخدام اللغة الهندستانية أربعة حتى الآن ) . ثم تسمر الصحيفة في وصف المظاهرات وتدخل البوليس والحيش إلى أن تقول . ( وقد اضطر شاستري رئيس وزراء الهند إلى التراجع

فأعلن في كلمة أذيعت في الراديو أن الحكومة لن تفرض اللغة الهندستانية كلغة رسمية على الولايات التي لا تتكلم فيها هذه اللغة ، وأن هذه الولايات تستطيع استخدام اللغة الإنجليزية بدلا من اللغة الهندستانية .

هذه هي الحال التي نواجهها الهند الآن من حيث المشاكل اللغوية . ومن العسير ، بل قل من المحال أن يستقر أمر القومية الهندية إلا بعلاج المشكلة اللغوية . ولا شك أن هذا يتطلب جهوداً متضافرة وزمناً طويلاً . قبل أن يقال إنه قد أصبح للهند قومية متميزة ذات كيان مستقل ، تعمل على اجتذاب الناس بعضهم إلى بعض ، وشعورهم بشعور واحد ، وتعاونهم على ما فيه الخير والرحاء لهم جميعاً . ذلك لأن دستور الهند الذي صدر سنة ١٩٥٠ قد نص على وقف استخدام اللغة الإنجليزية بعد خمسة عشر عاماً ، وعلى أن تحمل اللغة الهندستانية محلها بوصفها لغة رسمية . غير أن عدد المتكلمين بالهندستانية لا يكادون يجاوزون ١٩٠ مليوناً من سكان الهند البالغ عددهم ٤٤٠ مليوناً . وفي الهند محانب اللغة الهندستانية عشرات من اللغات ومئات من اللهجات ، وأشهر لغاتها : السنسكريتية . والمالاي . والسهنالية ، والسعالية ، والمهراية ، والسحابة ، والسبحاية . وتسمى هذه لغات إلى العصيلة الكبرى المسماة بالهندية الأوروبية كما في لغات أخرى تسمى إلى العصيلة الدرافيدية أشهرها التاميلية . والكمار . والنلوجو

واللغة المحلية التي تثير الاضطرابات في منطقة « مدراس » هي التاميلية ، أو لغة « التامل » التي يتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً لا تمت إلى الهندستانية بأية صلة . وتثير لغة « التامل » في جزيرة سيلان مشكلة كذلك ، فهي في صراع مستمر مع « السهنالية » السائدة هناك ، وتوشك أن تقسم الجزيرة إلى مطلقين قوميين . ( الصراع بين لغة الملايو واللغة الصيبية في ماليزيا وإعلان الأحكام العرفية في ١٥ / ٥ / ٦٩ انظر ص ٧٦ ) .

ونلاحظ نفس الظاهرة بين دول أفريقيا المستقلة حديثاً . فبعد أن بدأ طل الاستعمار يتقلص ومعه لغته من الإنجليزية وهوسية وغيرها . شهدنا اللغات المحلية تُطَلَّ برأسها وتثير العصية بين أبناء هذه الدول . وتدعو إلى حركات

انصالية مؤسفة لا ندرى مصيرها . ولكننا نرجو مخلصين أن يتنبه لها القادة والزعماء في منظمة الوحدة الأفريقية . فليس الصراع الدموي الذي نشهده الآن في « نيجيريا » إلا مطهراً لصراع لغوي بين لغة « الهوسا » في شمال « نيجيريا » . و « الإيبو » في جنوبها .

فاللغة وحدها هي أساس القومية ، فهي الجاذبية السحرية التي تجذب قوماً من الناس بعضهم إلى بعض ، وتجعلهم يشعرون بشعور واحد ، ويحسون كيانهم وتميزهم عن غيرهم .

نجد مثلاً جزيرة « قبرص » التي يسكنها منذ زمن طويل جماعات من الناس نصمهم أرض واحدة ، ومصالحهم الاقتصادية مشتركة ، وفي صلاح أمر الحرية واستقرار الرخاء والأمن فيها حيرهم جميعاً . ومع هذا نشهد الآن صراعاً بين فريقين في هذه الجزيرة الصغيرة . ولا مسوغ له إلا وجود لغتين مختلفتين هما اللغة التركية والبونانية .

بل حد « كندا » مثلاً واصحاً لما نشره اللغة من مشاكل في الدولة الواحدة فيها المتكلمون باللغة الإنجليزية الذين يؤلفون معظم السكان . وسها المتكلمون الفرنسية الذين أصبحوا في حدود تلك مجموع الشعب كندية . وتلك هي أهمية الفرنسية في مقاطعه « كويبك » التي أصبحت الآن أشبه بجزيرة فرنسية وسط محيط من المتكلمين بالإنجليزية . فهي في شبه عزلة عن « فرنسا » التي سمونها بالوطن الأم . وترتب على ذلك اختلاف في مستوى المعيشة بين سكانى البريطانى والكندى الفرنسى . فالمناصب الرئيسية في الدولة ككاد تكون مقتصرة على المتكلمين بالإنجليزية . في حين أن أبناء الطائفة الفرنسية لا يسمح لهم بالتعيين في الوظائف العامة إلا إذا توفر فيهم شرط إجادته اللغة الإنجليزية . أما الذين من أصل بريطانى فلا يحملون بتعلم الفرنسية . بل حتى إذا صادف أن ألمّ بها أحدهم نراه يستكف من التحدث بها إلى مواطنيه الفرنسيين . ويصرّ على مخاطبتهم بالإنجليزية . و « كويبك » الآن هي المقاطعة الوحيدة في كندا التي تستخدم فيها اللغتان الإنجليزية والفرنسية بوصفها لغتين رسميتين . أما

سائر المقاطعات فيقتصر فيها على الإنجليزية كلفة رسمية . وتعمل فرنسا الآن على تشجيع الكنديين الفرنسيين ، في حين أن بريطانيا والولايات المتحدة يعملان على تشجيع المتكلمين بالإنجليزية . وقد بلغ التوتر الداخلي في كندا حدا يهدد بقيام ثورة انفصالية شاملة في مقاطعة «كوبيك» من أجل استقلالها وانفصالها نهائياً عن كندا .

دعنا بعد هذا نشير في تفصيل إلى المشاكل التي أثارها اللغة في قوميات أوروبا بعد أن مرّ على نشوء هذه القوميات ما يقرب من قرنين ، وبعد أن شهدت حربين عالميتين ومع هذا فلا تزال قائمة تنذر بالحروب والصراع الدموي . بل حتى التي يُظن من هذه المشاكل أنها سويت واستقرت ، فيبدو أن التسوية قد نمت على دخل ، وتحت ضغط الدول الكبرى ، وأنها تكمن الآن مبرصدة لتحين الفرصة المواتية لثور ثانية وتهدد السلام في كثير من مناطق أوروبا .

### أولاً . الحدود بين فرنسا وإيطاليا :

فقبل الحرب العالمية الثانية دوت في العالم نداءات مصدرها النعاشية الطموح من إيطاليا لثبات تعديل الحدود بين إيطاليا وفرنسا ومع حشد مرونه من صحافير لإيطالية حين طأنت بعض الصحف باستعادة «نيس» ، «سافوا» ، و «كورسيكا» من فرنسا . ذلك لأن «نيس» ، «سافوا» تركتا لفرنسا سنة ١٨٦٠ كشرط من شروط تلك الصفقة السياسية التي عقدت بين نابليون الثالث والزعيم الإيطالي «كافور» ، غير أن فرنسا لم تقم بتنفيذ جميع الشروط ، ولم ينفذ بكل التراماتيا في هذه الصفقة أي أن أساس المطالبة الإيطالية كان في ظاهره أساماً تاريخياً . وتجاهلت إيطاليا ذلك الاستثناء الذي أجرته فرنسا حينئذ في هاتين المنطقتين وكانت نتيجته دعة الأهالي في الانضمام إلى فرنسا ، لأن مثل هذا الاستثناء كان في رأي موسوليني وأتباعه محل ريبة وشك . ولكن موقف فرنسا من هاتين المنطقتين اكتسب مع الزمن تدعيماً وقوة ، لأن السكان بهما أصبحوا يتكلمون الفرنسية ، وعصاروا بهذا جزءاً من

القومية الفرنسية . ولا تحدد القوميات على أساس الأوصاف التاريخية ، فالعبارة بما صارت إليه المنطقة ، لا عما كانت عليه . ولذلك لم يُنظر إلى هذه المطالبة بظرة حدية في أوائل الحرب العالمية الثانية ، وإيطاليا في أوج عطرستها . وفي الهدنة التي عقدت مع فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تحتل إيطاليا « بيس » أو « سافوا » اللتين طالما نادى بأحققتها فيهما .

ولما خرجت إيطاليا من الحرب مهزومة مدحورة لم تطالب فرنسا إلا ببعض التعديل في الحدود الشرقية ، على ساحل « الريفيرا » حيث يتكلم السكان الفرنسية وحدها . وركزت فرنسا مطالبها بعد الحرب على مناطق استراتيجية في الجانب الإيطالي من جبال الألب . فيها القوى المائية والقوى الكهربائية المولدة عنها . وأرسل الحلفاء المنتصرون لجنة من الخبراء لتبين رغبات الأهالي في هذه المناطق ، فوجدت اللجنة أنهم يتكلمون لغة قريبة من الفرنسية والإيطالية ، وأنهم لذلك غير متحمسين للانضمام إلى فرنسا أو إيطاليا . ومع هذا رصحت الدول المنتصرة إلى المطالب الفرنسية . على أن تضمن فرنسا المصالح الإيطالية وحققها في استغلال القوى المائية ومياه الأنهار المنحدرة صوب إيطاليا . وأيد هذا في معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . وهكذا يرى أن مشكلة حدود فرنسا وإيطاليا ليست في حقيقة أمرها إلا مشكلة لغوية أو عرقية . وإن ستر على حال في مستقبل الأيام ما لم تحفظ على هذا الأساس وحده .

### ثانياً - الألزاس واللورين :

صُحبت هاتان المقاطعتان إلى فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ورغم أن غالبية السكان في الألزاس لا يتكلمون إلا الألمانية وحدها . أما في منطقة اللورين فكانت اللغة الألمانية سود في جهاتها الشرقية . في حين أن الفرنسية كانت سود في الغرب منها . ولما كان لهمايتين المنطقتين أهمية اقتصادية كبيرة بطلعت إليهما الدولتان الكبيرتان المصافيتان فلما هُزمت فرنسا في حرب التسعين اسولت ألمانيا على المقاطعتين على أساس أن اللغة الألمانية هي السائدة

في معظم الأنحاء هما. ثم تبدلت الحال بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، واستعادت فرنسا المقاطعتين العزيزتين ، غير أنها في غياب وسوء فهم للشعور لقوى بين السكان قد عملت جاهدة على زيادة نفوذها وثقافتها بينهم ، فحاولت تغيير لغة الأهالي وحظر تعليم اللغة الألمانية . وعارض سكان الألزاس ذلك في قوة وإصرار ، مما اضطررت معه الحكومة الفرنسية إلى الاعتراف بمبدأ ازدواج اللغة في الإقليم

ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، ونجحت ألمانيا في أوائل الحرب في ضم لمقاطعتين لأراضيها ، ولكن القدر أ. إلا هزيمة « ألمانيا » ثانية في هذه الحرب العالمية ، وعادت المقاطعتان إلى فرنسا ، ولا تزال مشكلتهما من أعقد المشكلات الأوروبية . لأنها لم تخطط على الأساس اللغوي القوي ، وستظل مثار النزاع بين الدولتين إلى أن تقوم بينهما الرغبة الصادقة في تسويتها على هذا الأساس وحده .

### ثالثاً - منطقة السار :

منطقة ذات أهمية اقتصادية كبرى نطعت إليها فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى . وحاولت ضمها إلى أراضيها . رغم أن الأهالي بها لا يتكلمون إلا ألسان . ولكن اختلعا في معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ فرروا وضع هذه المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم لمدة ١٥ سنة ، يُبحر بعدها استفتاء عام ليقرر السكان ما إذا كانوا يرجعون في العودة إلى القومية الألمانية . أو الانضمام نهائياً إلى فرنسا . ومرت مشكلة « السار » في مراحل ثلاث .

١ - من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥ كانت المنطقة تحت إشراف عصبة الأمم .

٢ في سنة ١٩٣٥ أُجرى استفتاء عام ، وأسفرت نتيجته عن ردة الكثرة الغالبة من السكان في العودة إلى ألمانيا .

٣ - بعد الحرب العالمية الثانية نظمت العلاقات بين فرنسا و « السار » بمقتضى اتفاقية وقعت سنة ١٩٥٠ . فيها مُنح « السار » استقلالاً ذاتياً في



التشريع والإدارة ، على أن تكون فرنسا مسئولة عن سياسته الخارجية ، وأن يكون هناك اتحاد اقتصادي جمركي ونقدي بين « السار » وفرنسا .

ثم كان الاستفتاء العام بين أهالي « السار » سنة ١٩٥٥ ، وصوت الأهالي ضد وضع المنطقة تحت الإشراف الدول . وكان في هذا الدليل الخامس على مرور السكان من السيطرة الفرنسية ، ولا سيما بعد استقلال ألمانيا الغربية . ولم تحدد فرنسا وحلفاؤها بدءاً من عودة هذه المنطقة إلى القومية الألمانية . وتم هذا مهائياً سنة ١٩٥٩ ، لسبب بسيط واضح هو أن الأهالي لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية . وليس يُجدي مع تمسك الأهالي بلغتهم أو قوميتهم ، تلك الضغوط السياسية التي قد تقوم بها الدول الكبرى<sup>(١)</sup> .

#### رابعاً دوقية « لوكسمبورج » :

تمثل هذه المنطقة أدق تمثيل مجال الانتقال بين فرنسا وألمانيا ، إذ تسود فيها اللغة الألمانية ، ولكنها مع هذا تتأثر إلى حد بعيد بالثقافة الفرنسية . وبدء أن الدول الكبرى خلال القرن التاسع عشر أرادت أن تجعل من هذه المنطقة منطقة حياد . أو ما يسمى بالدوقية حائز Buffer State . محروب دون مع صدام بين ألمانيا وفرنسا . ولكن هذا الحياد قد حرق مريخ في الحربين العالميتين . فاستولت ألمانيا أراضي « لوكسمبورج » في الهجوم على فرنسا وتحضيم حص « ماسيو » أو تقويضه .

وفي أوائل الحرب العالمية الثانية أعلنت ألمانيا ضم « لوكسمبورج » إلى « الرايخ » الألماني أو القومية الألمانية . على أساس أن الأهالي بهذه المنطقة لا يتكلمون إلا الألمانية ، ولكنها تحررت من جديد في نهاية الحرب . غير أن فرنسا لم تحاول المطالبة بهذه الدوقية بعد الحرب . أو ضمها إليها ، فقد وجدت من تحاربها في مناطق أخرى أن لا جدوى من القضاء على اللغة الألمانية أو قومية الألمانية . فصعدت بحياذها واشتركتها مع دول الحلفاء في أوروبا في السوق الأوروبية

( ١ ) مشكلة الحدود السياسية ص ٢٦٨ لاندستور محمد صالح عجيل

ولكن « لوكسمبورج » تواجه الآن مستقبلا مظلما تكتنفه الشكوك والريب ، وستظل تشكل مشكلة من مشاكل الحدود ، لأنها حرة من القومية الألمانية اقتُطع منها ، وستطالب به ألمانيا في أول فرصة تتاح لها . وكل هذا لأن السكان بها لا يتكلمون إلا اللغة الألمانية ، فلا يدينون إلا إلى القومية الألمانية . وأغلب الظن أنه لو أُجرى هناك استفتاء محايد لطالب السكان بقوميتهم المسلوبة ، والانضمام إلى إخوانهم في الشعور والأحاسيس المشتركة التي وعاءوها ولا شك اللغة الألمانية .

#### خامساً - مشكلة يوبن Eupen ومالميدي Malmedy :

هاتان مقاطعتان على حدود ألمانيا وبلجيكا كانتا تابعتين لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، وطالت بهما بلجيكا بعد الحرب على أساس أن معظم السكان بهما يتكلمون اللغة الفرنسية إحدى اللغتين الرسميتين في بلجيكا . ووافقت دول الحلفاء على مطالب بلجيكا . وضحت « يوبن » ، « مالميدي » إلى بلجيكا ، برغم أن سهما حالية كبيرة لا تتكلم إلا الألمانية . ثم واجهت بلجيكا صعوبات كثيرة بسبب هذا الصمم . لأن العنصر الألمانية بالمطقة قد رعت في العودة إلى ألمانيا . ولما كبت الحرب العالمية ثيابه وعنت ألمانيا لبلجيكا صمت إقليمي « يوبن » . « مالميدي » إلى التراجع الألماني سنة ١٩٤٠ . ولكهما أعيدتا إلى بلجيكا في إثر نهاية الحرب . ويرى بعض الساسة من البلجيكيين أنه إذا أُريد الاستقرار في هذه المنطقة ، وجب صرد الألمان منها وإحلال عناصر بلجيكية محلهم وإلا فسوف نتحدد المشكلة .

ولكن بلجيكا نفسها التي تطالب بهذه المنطقة على أساس اللغة ، أو ما يسمى بحق تقرير المصير . تواجه الآن مشكلة من أعقد المشاكل هي سيادة لغتين في هذه الدولة الصغيرة اللغة الفلمنكية واللغة الفرنسية . وتتحد بلجيكا عادة مثلاً لإمكان تأسيس الدولة على لغتين مختلفتين وقد أشربا آناً إلى الأسباب التي ساعدت على تماسك الدولة اللجيكية حتى الآن . عبر أن مستقبل بلجيكا مثير بالخطر . وبوشك أن نشعب إلى قوميتين . وربما انفصل

إحداهما عن الأخرى ، واستقلت استقلالاً ذاتياً في مستقبل الأيام وذلك بسبب  
نضاع القائم الآن بين اللغتين الفلمنكية والفرنسية . فبرغم أن المجلس التأسيسي  
قد قرر أن تكون اللغتان متساويتين في حق الاستعمال ، إلا أن هذا القرار  
بقي منذ ذلك الحين حبراً على ورق ، لأن اللغة الفرنسية طلت لغة العلم والثقافة  
في جميع أنحاء البلاد ، في حين أن « الفلمنكية » اقتصر أمرها على لغة كلام  
بين أهلها .

وحاول أبناء اللغة الفرنسية ، أو أصحاب القومية الفرنسية . فرض هذه  
اللغة في الدواوين والمدارس ورحاء أن تنتظم كل أنحاء بلجيكا ، غير أن اللغة  
« الفلمنكية » أو القومية الفلمنكية عارضت هذا وأثبتت وجودها ، وعملت على دعم  
كيانها . فألف بعض أبناء هذه اللغة سلسلة طريفة من الأشعار والقصص  
والروايات وأصبحت الفلمنكية لغة أدب وثقافة أيضاً .<sup>(١)</sup>

وبدأت بلجيكا استقلالها بأن جعلت اللغة الفرنسية وحدها اللغة الرسمية  
للبلاد ، وأدى هذا إلى حرمان أبناء اللغة الأخرى من تولي الوظائف والمساهمة  
في الأعمال الحكومية . كما أدى إلى صعوبة التفاهم بين الموظفين الذين  
لا يعرفون غير الفرنسية . وأصحاب مصالح واحاحاب ممن لا يعرفون غير الفلمنكية  
بذلك ثار أبناء الفلمنكية ونشروا من هذا الوضع المصحف بحقوقهم . وبدأت  
هذه الحركة القومية تساور . وتتخذ شكلاً مطعماً منذ سنة ١٨٤٠ واضطرت  
حكومة البلجيكية في سنة ١٨٥٦ إلى تأليف لجنة لدراسة مطالب أبناء الفلمنكية  
و القومية الفلمنكية . واقترحت اللجنة عدة اقتراحات أهمها

( أ ) أن اللغة الفلمنكية يجب أن تكون لغة التعليم في جميع المناطق التي  
تكلم أهلها هذه اللغة . وأن جامعة « عاند » يجب أن نحول إلى جامعة  
فلمنكية .

( ب ) أن القوانين يجب أن تنشر باللغتين . وعلى القضاء والمحامين  
ومحثلي السياسيين أن يسيطروا عليهما .

(ج) أن الجيش يجب أن يقسم إلى كتائب بعضها من المتكلمين بالفرنسية والبعض الآخر من المتكلمين بالفلمنكية .

ولكن الحكومة البلجيكية ظلت تتلكأ في تنفيذ هذه الاقتراحات حتى سنة ١٨٧٨ ، ثم أخذت تستجيب لها شيئاً فشيئاً ، فسمحت أولاً بأن تكون البلاغات الرسمية والمراسلات الإدارية باللغة الفلمنكية في المناطق التي تسود فيها هذه اللغة . ثم سمحت بأن تصبح الفلمنكية لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية بهذه المناطق . وأخيراً سمحت أن تكون التشريعات والقوانين باللغتين ، وأن يكون صباط الجيش ملمين باللغتين .

ولكن أبناء اللغة الفلمنكية لم يقتنعوا بتلك الخطوات . وطلبوا حتى الآن بطالبون بخطوات أخرى أكثر تحقيقاً لقوميتهم ، ودعماً لكتابتها ويكفي أن نقرأ ما ينشر بالصحف العالمية في هذه الأيام بصدد هذه المشكلة ، لنفهم أن مشكلة اللغة أو القومية في بلجيكا تعد الآن في الحميمه رواية لم تتم مفصلاً .

في أكتوبر سنة ١٩٦٢ كنت صحفياً ما نصه « معارك عصرية في بروكسل بين المتحدثين بالفرنسية والمتحدثين بالفللمنكية اضطرت التويسر البلجيكي اليوم إلى استخدام بعض العنصر المعركة التي وقعت بين البلجيكيين الذين يتحدثون بالفرنسية ، وعشرات الآلاف من إخوانهم الذين يتحدثون بالفلمنكية . وقد قام أبناء الفلمنكية بالرحف على « بروكسل » للمطالبة بالمساواة في الحقوق ، في الوقت الذي قامت فيه مظاهرة مصادرة من أساء الفرنسية . واشتبك الفريقان في معركة تدخل فيها الدو لاس . واعتقل عدد كبير من الحائنين . وأصيب عدد آخر . وقد امتلأت الشوارع بالأحجار والمسامير ، وظلت مكبرات الصوت تدوي في المدينة طول الليل . وتنادى أساء اللغة الفرنسية ليجتمعوا للدفاع عن العاصمة » .

وفي مايو سنة ١٩٦٥ نشرت الصحف أيضاً دعوان « حطر المنازعات في بلجيكا سبب اللغتين الفرنسية والفلمنكية يبعدد ثابته » . ثم ذكرت الصحيفة أن الانتصارات المذهلة التي طهرت بها الجماعات السياسية في الانتخابات

البرلمانية التي جرت يوم الأحد الماضي أدت إلى اشتداد الخوف من أن تتجدد المنازعات بين البلجيكيين الذين يتخاطبون بالفرنسية ، وأولئك الذين يتكلمون اللغة الفلمنكية . فقد تحولت المنازعات فيما مضى إلى معارك دامية بين الفريقين ولم نهدأ الحال إلا بعد أن أصدرت الحكومة الائتلافية قانوناً بشأن استعمال اللغتين ، قبله الفريقان على مخصص ، ومن ثم اتفقا على المهادنة . غير أن حزب الحرية والتقدم وهو الحزب المحافظ . قد كسب في الانتخابات عشرين مقعداً جديداً . وكان هذا الحزب يدعو في أثناء المعركة الانتخابية إلى الحرية اللغوية في كل أنحاء البلاد . ولا تعني هذه الدعوة إلا رفض القانون الذي صدر في العام الماضي ، ويقضي بأن تكون اللغة الفلمنكية اللغة الرسمية في شمال البلاد ، وأن تكون اللغة الفرنسية اللغة الرسمية في الجنوب ، وأن تستخدم اللغتان رسمياً في العاصمة بروكسل . وقد طهرت الجماعات المتطرفة التي تريد تقسيم بلجيكا إلى دولتين لكل منهما استقلالها الذاتي ، بعدد لا يستهان به من المقاعد في الانتخابات هي الأخرى ومن ثم يتوقع المراقبون السياسيون أن تتحدد المنازعات حول اللغتين الفرنسية والفلمنكية .

فهل يقال بعد هذا إن بلجيكا استمرت فيها القومية بدعم حتمية اللغة بين أبنائها ؟ إن بلجيكا تعد في الحقيقة مثلاً رائعاً لقوة الارتباط بين اللغة والقومية فلم يُعن عنها أن أرضها مشتركة ، وأن مصالحها الاقتصادية مشتركة ، بل ولا تاريخها المشترك . ولأمر ما لم نثر منازعات في الحدود الجنوبية لبلجيكا ، ذلك لأنها حدود مصنوعة بين لغة واحدة وقومية واحدة ، وليس من المغالاة أن يقال إن خط الحدود بين فرنسا وبلجيكا ليس له أي مسوغ من الناحية الطبيعية أو البشرية .

سادساً - أيرلندا :

تعرضت الجزر البريطانية في تاريخها الحافل لغزوات من أوروبا تتمثل في الأنجلو ساكسون أولاً في القرنين الخامس والسادس من الميلاد . ثم الغزو

النورماندي في القرن الحادي عشر . ولم يكد يتصف القرن السادس عشر من الميلاد حتى كان شأن اللغة الإنجليزية أو القومية الإنجليزية ، قد استقر على حال تمثلت في آثار شكسبير وفي الترجمة المعتمدة للكتاب المقدس . وظلت هذه اللغة في صعود حتى الوقت الحالي ، إذ يتكلم بها في العالم الآن ما ينيف على ٢٨٠ مليوناً ، في مناطق متباعدة من العالم الحديث ، وقد حلت اللغة الإنجليزية محل لغة قديمة كانت تسود تلك الجزائر البريطانية ، هي اللغة « الكلتية » . ثم لما كان الغزو النورماندي طعمت اللغة الإنجليزية بكثير من الألفاظ والتراكيب الفرنسية . فلما اكتمل للإنجليزية نموها وازدهارها ، وأصبحت تشكل لغة متميزة ذات أدب وفلسفة وثقافة ، نشأ ما يسمى بالقومية الإنجليزية . وكان من أثر الصراع بين الإنجليزية الغازية والكلتية المعزولة . أن تتهمرت الأخيرة إلى أماكن منعزلة في أسكتلندا وويلز وأيرلندا . ولا تزال فروعها سائدة في بعض هذه المناطق حتى الآن . غير أن المنكلمين بها في أسكتلندا وويلز أصبحوا الآن من القلة بحيث لا يكادون يشكلون خطراً أو ما يشبه الخطر على العموم للإنجليزية . أما في إيرلندا فقد انحأ إليها العناصر القديمة التي احتفظت بصفتها الحسية وحفظت الشدة . أو بعدة أخرى احتفظت باللغة « الكلتية » القديمة أو ما تفرع منها ، وعلى أساس هذا وحده تكونت القومية الأيرلندية التي ظلت مشار الصراع الدموي حتى استقلت في السنين الأخيرة .

فبعد الكماح المرير أصدر البرلمان البريطاني سنة ١٩١٤ قراراً منح الحكم الذاتي لأيرلندا ، ولكن هذا المشروع تأجل مؤقتاً بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى . فلما انتهت الحرب أخذ أهل أيرلندا يجاهدون بوجوب تطبيق مبدأ حق تقرير المصير . وطالب القوميون مهم برعاية « دي فاليرا » بالاستقلال التام ، كما طالبوا بشمال أيرلندا المسمى « ألتستر » Ulster ، وهو المنطقة التي تحب بريطانيا في عرلها عن سائر أنحاء « أيرلندا » بعملية تهجير واسعة النطاق من العناصر الإنجليزية الذين استقروا بها ومعهم لغتهم واصطغر . بريطانيا سنة ١٩٢١ إلى الاعتراف بتمام دولة أيرلندا الحرة على أن تظل داخل

مجموعة الأمم البريطانية ، بينما ظلت « أستر » جزءاً من المملكة المتحدة .  
ثم تكونت في أيرلندا منظمة سرية عرفت باسم الجيش الأيرلندي الثوري ،  
بنت سياستها على العنف والتخريب والإرهاب لتحقيق ما تصوو إليه من ضم  
« أستر » إلى « أيرلندا » . وفصلها عن المملكة المتحدة .

وفي الحرب العالمية الثانية وقفت أيرلندا الحرة على الحياد ، بل مالت إلى  
مساندة دول المحور . وكلف هذا الموقف دول الحلفاء ثمناً غالياً ، فقد كانت  
« أيرلندا » ميداناً لحاسومية دول المحور . وفي سنة ١٩٤٨ أعلن الانفصال  
التام بين جمهورية أيرلندا وبريطانيا ، وخرجت أيرلندا من الكومنولث البريطاني ،  
وما زالت جمهورية أيرلندا ترفض بقاء منطقة « أستر » منفصلة عنها ، وتطالب  
بتوحيد الجزيرة كلها .

وليس لكل هذا الصراع من سر سوى اختلاف اللتين الإنجليزية « والكتلية »  
التي تسود معظم مناطق أيرلندا ، وتشكل قومية أيرلندية متميزة . فهل أحدى  
إزاء هذا المصالح الاقتصادية المشتركة بين هذه الحرر ؟ وهل أجدى إزاء  
هذا وحدة الحزب من الناحية الجغرافية ؟ إن عجز اللغة الإنجليزية عن عزو  
الكتلية في أيرلندا والقضاء عليها . أو إن شئت فبت إن عجز أهالي أيرلندا  
عن السطوة على لغة الإنجليزية . ودأبهم د في الكه متصره صب محل  
السحرية بين الإنجليزية رمزاً طويلاً ، كل هذا أدى إلى أن تكونت للفريقين  
ما سمي بعقدة اللغة ، وهي على الجانب الإنجليزي عقده التفوق ، وعلى الجانب  
الأيرلندي عقده النقص ، وهكذا صمدت اللغة الكتلية في معظم أنحاء أيرلندا .  
وعلى أساسها تكونت القومية الأيرلندية . واللغة الكتلية هي لغة شعب من الجنس  
الآرى يرجع وجوده في أوروبا إلى عصور ما قبل التاريخ . سكن أولاً أوروبا  
الوسطى ثم بلاد الغال ( فرنسا ) ، وأسبانيا ، ثم الحرر البريطانية ولكن هذه  
اللغة اندثرت من أوروبا بخلفة حيواناً صغيرة ضئيلة الشأن في « بريتنى » ، وحل  
محلها فروع للغة اللاتينية كالفرنسية والأسبانية . فلو قد نحت اللغة الإنجليزية  
بأيرلندا فما نحت فيه اللغة الفرنسية في بلاد العذ . لا شهدنا الآن ما يسمى  
بالمشكلة الأيرلندية .

### سابعاً - مشكلة شلنڤيچ Schleswig :

كانت هذه الدوقية جزءاً من أراضي الدانيمركى منذ أكثر من ستة قرون . ثم هاجر الألمان إليها ومعهم لغتهم ، وأصبحوا الأغلبية في الجنوب من هذه الدوقية . وأندى هؤلاء الألمان رغبة ملحة في الاتحاد مع ألمانيا . ونم لهم ذلك على أيدي بروسيا والنمسا في حرب سنة ١٨٦٤ . فقد عرنا دوقية « شلنڤيچ » واستولنا على قسميها الشمالي والجنوبي دون اعتبار لرغبات السكان في الشمال وهم من الدانيمركيين وطلبت بروسيا والنمسا تحكمان معاً هذه الدوقية إلى أن نازلت النمسا عن حقوقها فيها لبروسيا سنة ١٨٦٦ . وحيث بدأ عهد جديد عملت فيه ألمانيا على صوغ الإقليم بالصيغة الألمانية . ولما كُهرمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى حدد أهالي الشمال من هذه الدوقية مطالبهم بالانضمام إلى الدانيمرك على أساس حق تقرير المصير . وأجرى استفتاء عام في هذه الدوقية سنة ١٩٢٠ كانت نتيجة أن سكان الشمال وهم الذين يتكلمون الدانيمركية أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى الدانيمرك . في حين أن سكان الجنوب وهم المتكلمون بالألمانية أبدوا رغبتهم في الانضمام إلى ألمانيا .

### ثامناً - فنلندا :

وقعت هذه الدولة الصغيرة بح حكم السويد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . وبقيت في قبضة السويد حتى استول عليها روسيا في أوائل القرن التاسع عشر . وظلت تزدح تحت نير انقياصه الروس إلى قبل نهاية الحرب العالمية الأولى حين ثارت للحلص من السيطرة الروسية . وأسست جمهورية مستقلة سنة ١٩١٧ . واحتفظت فنلندا باستقلالها وكيانها القومي منذ ذلك الحين ، ورغم أطماع ألمانيا وروسيا خلال الحرب العالمية الثانية ، فلم تكرر روسيا السوفيتية بعد الحرب في ضم هذه المنطقة إلى أراضيها . بل اعترفت بالكيان الفنلندي أو القومية الفنلندية في معص الحدود التي كانت لها قبل الحرب<sup>(١)</sup> .

(١) Pounds N J G. A Historical and Political Geography p. 273 London .



فإذا تساءلنا كيف صمدت فنلندا الصغيرة لتحدي روسيا خلال الحرب الأخيرة وبعدها . تبين لنا أن فلندا تسودها قومية متميزة متمثلة في لغة تختلف كل الاختلاف عن كل اللغات التي تحيط بها . كالسويدية والروسية والألمانية . فاللغة الفينية تمت إلى فصيلة لغوية تعرف باسم « الفينية - الأجرية » التي منها لغة « المجر » . ولغات هذه الفصيلة لا ترتبط بلغات أوروبا بأية صلة . . وهذا هو السر الحقيقي في تميز القومية الفنلندية وبقائها عبر القرون صامدة إزاء تحديات الدول الكبرى التي تحيط بها . فهل هناك مثل أروع من هذا للدلالة على أن أساس الأساس في القومية هو اللغة ؟ وأقرب القوميات شهراً بالقومية الفنلندية فيما يحيط بفنلندا من مناطق ، هي القومية التي في جمهورية « أستونيا » ، ذلك لأن اللغة « الفينية » هي لغة « أستونيا » أيضاً ، ولا ندري سبباً للفصل بين فنلندا وأستونيا وهما متجاورتان ، ومماثلتان في اللغة أو القومية . إلا حين نتذكر أطماع الدول الكبرى ، وسياساتها الحمقاء في الفصل بين أجزاء القومية الواحدة ، لأغراض توسعية أو استراتيجية . فبالقرب من « أستونيا » قومتان صغيرتان أخريان هما القوم « اللتنية » والقوم « اللتوانية » . وأكل منهما أعمها المتخيرة . فكل من اللغة اللتنية واللوانية يمثل مجموعة لغوية تعرف بمجموعة اللانطية أو اللانطيقية . وهي إحدى مجموعات ثلاث متصلة الكبرى التي ضيق عليها دلتها . الأوربية . والتي ينتمى إليها معظم لغات أوروبا . وقد تطورت اللغة اللتنية . وطبعت بها بصوص في منتصف القرن السادس عشر . ثم أصبحت لغة قومية ذات أدب وتراث مدد منتصف القرن التاسع عشر . أما اللغة اللتوانية فقد استرعت انتباه اللغويين المحدثين ، لأنها لا تزال تحتفظ بخصائص قديمة للعصيلة الكبرى أكثر من أي لغة أوربية أخرى . وقد نشر بها بعض الكتب الدينية في منتصف القرن السادس عشر . وأصبحت لغة قومية ذات آداب وتراث في القرن التاسع عشر .

لا غرابة إذن في أن الخلقاء بعد الحرب العالمية الأولى قد اعترفوا بهاتين المظفتين بوصفهما قوميتين محمريتين . فمحتا الاستقلال على أساس مدأ حرية تقرير المصير

ولكن هذه الجمهوريات الثلاث الصغيرة على بحر البلطيق ظلت مجالا لأطماع الألمان والروس خلال الحرب العالمية الثانية . وانتهى أمرها بعد الحرب بأن خرجت من عداد الدول المستقلة ، واحتضت من الخريطة السياسية لأوروبا ، ولكر إلى حين ، فستظل القومية بكل منها إثارة السراع ما بقيت لغاتها الثلاث صامدة . وهي الآن خاضعة لروسيا ، بل ضمت إلى أراضيها بعد استفتاء عام أجريته روسيا . وقبل إن نتيجته كانت ٩٩ ٪ في صالح الحزب الشيوعي ، مما يشكك في حرية هذا الاستفتاء . وترتب على الاستفتاء أن المجالس التشريعية في هذه الجمهوريات قررت المطالبة بالانضمام إلى الاتحاد السوفيتي ، ووافقت روسيا على هذا الطلب . وأعلن وزير خارجيتها مولوتوف في مجلس السوفيت الأعلى ضم أستونيا ولاتفيا وليتوانيا إلى الاتحاد السوفيتي بناء على طلبها . . واعترفت بريطانيا بهذا الصم على أساس أنه الأمر الواقع . غير أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال تأبى الاعتراف به حتى الآن .

#### تاسعاً - حدود بولندا :

تلك هي المشكلة المزمرة في أوروبا . وقد أشربنا آنفاً في العموم إلى مدينة ودو لعة . وقد طلب حدود بولندا ما يحور ألف سنة شكله كبرى واحته دول أوروبا الوسطى . وتعرضت تلك الحدود لكثير من التغييرات نتيجة الضغوط السياسية والعسكرية من جانب الدول المحاورة لها

وقد حدث خلال ما بين الحربين العالميتين أنه تحرك بولندا إبان قوتها ، في الوصول إلى البحر البلطي ، فعملت بعض الجماعات الألمانية في الشرق عن إحوائهم في العرب ، مما أدى إلى السبب المباشر في إشعال الحرب العالمية الثانية .

وقد تعرضت بولندا خلال تاريخها الطويل لبعض العزوات والاعتداءات من الدول الكبرى المحاورة لها ، ولكنها برغم هذا طلبت تحتفظ بوحدةها العنوية والقومية

وفي القرن الثامن عشر زاد ضغط الألمان على حدودها الغربية ، وضغط الروس على حدودها الشرقية ، وكادت بولندا تزول من الوجود بوصفها دولة مستقلة . فقد قُسمت أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا . وعملت هذه الدول الثلاث على تحطيم الروح القومية في بولندا ، فمضت لغاتها وثقافتها على الشعب البولندي . ثم لم تكد تنهى الحرب العالمية الأولى حتى شهدنا القومية البولندية المكسوة تنفجر كالبركان ، وعادت بولندا إلى سابق عهدها ، وأصبحت جمهورية جديدة سنة ١٩١٨ . وقرر مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩ جعل الحدود الغربية والجنوبية لبولندا على أساس التوزيع اللغوي بصيغة عامة . وفصل بين الأغلبية البولندية على جانب والأغلبية الألمانية أو التشيكوسلوفاكية على الجانب الآخر . أما على الجانب الغربي فلم يكن هناك حط واضح يفصل الألمان عن البولنديين ، وكان الحد بينهما في تلك المنطقة حدًا شريًا أو لغويًا وليس حدًا جغرافيًا طبيعيًا . ورأت دول الحلفاء حينئذ ، وفي غناء وسوء تقدير ، ضرورة اتصال بولندا بالبحر البلطي . وبذلك حلقت مشكلة الممر البولندي و « دانبرج » التي كانت السبب المباشر في الحرب العالمية الثانية . ذلك لأن « دانبرج » كانت مدينة ألمانية صرفة بلغت سنة الألمان بها نحو ٩٠ ٪ . واستلاء « بولندا » عليها يساق مع حق تقرير المصير . ولذلك وضعها الحلفاء مؤقتًا تحت إشراف عصبة الأمم . أما حدودها الشرقية فقد تركت لتتفق عليها بولندا مع روسيا . واقترح الحلفاء سنة ١٩١٩ خطًا فاصلًا بين الدولتين على أساس لغوي تحت هو ما يعرف بخط « كرزون » .

وهكذا أصبحت حدود بولندا بعد الحرب العالمية الأولى تتألف من دول هي « لاتفيا » ، « ليتوانيا » ، وألمانيا ، والاتحاد السوفيتي ، ورومانيا ، وتشيكوسلوفاكيا . وقد كانت الأطماع البولندية حينئذ سببًا في توسع رقعها ، وامتدادها خارج نواتها القومية ، مما خلق لها مشكلات الأقليات في أراضيها ، وأدى إلى نزاع سياسي حطرت فيما بعد .

فلما قامت الحرب العالمية الثانية عرت النازية بولندا ثم لم تلبث أن

قسمت أراضيها بين ألمانيا وروسيا بمقتضى اتفاق تم بين وزير خارجية ألمانيا « روبرت » ووزير خارجية روسيا « مولوتوف » سنة ١٩٤٠ . ثم عدلت حدودها بعد الحرب تعديلاً بعيداً عن التوزيع اللغوي أو حق تقرير المصير ، مما سيؤدي حتماً إلى إثارة القومية البولندية في المستقبل . ذلك لأن اللغة البولندية وإن كانت إحدى لغات المجموعة السلافية غير أنها تشكل فرعاً منها مستقلاً متميزاً . وعرفت هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، وتطور أديها في القرون الأخيرة ، فأضحى من الآداب الأصيلة ذات التراث القوي العريق . وأقرب لغات أوروبا شهاً باللغة البولندية هي اللغة التشيكية ، لغة تشيكوسلوفاكيا .

عاشراً . حدود تشيكوسلوفاكيا :

كون الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى هذه الدولة الجديدة ، ووضعوا لها حدوداً لا تكاد تمت إلى مبدأ حق تقرير المصير بصلة . ولذلك تعد خليطاً عجيباً من قوميات مختلفة ، ومثلاً واضحاً لاستحالة تأسيس الدولة على تلك القوميات المتناهرة . فقد أصبحت بعد سنة ١٩١٨ تشمل « بوهيميا » و « مورافيا » وجزءاً من سيليريا العليا وهي المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية النمساوية . كما تشمل مقدسها سلوفاكيا و « روش » . ناس كوت تعين للمحجر قبل الحرب . وقد بدأ تأسيس هذه الدولة الجديدة « جمهورية التشيكية المستقلة » سنة ١٩١٨ . ثم أبدى المجلس الوطني في مقاطعة سلوفاكيا رغبته في الانضمام للتشيكيين في دولة واحدة . وتم ذلك سنة ١٩١٩ في معاهدة « ست جرمان » . واعتقد رعماء هذه الدولة الجديدة حينئذ أن التشابه في اللغة والتقاليد والشعور القومي متقارب جداً ، بحيث يسمح بصم التشيكيين وأهالي سلوفاكيا في دولة واحدة . ولكن الأيام برهنت على أنهما قوميتان متميزتان كما سترى<sup>(١)</sup> .

ومما هدّد سلامة هذه الدولة الجديدة شمولها على بعض الأقليات القوية ذات القوميات المختلفة . ففي إقليم « السوديت » غرب بوهيميا ، وفي « سيليريا » و « مورافيا » وبعض المدن الكبيرة ما يقرب من ثلاثة ملايين من الألمان وفي

سلوفاكيا حالة كبيرة تجاوز نصف مليون من المجرين . ويخاف هذا الوضع مدأ حق تقرير المصير .

وتكوين هذه الدولة الجديدة على هذا النحو جعلها أشبه بجزيرة من السلاقيين في وسط أوروبا . فيها أكثر من ثلث السكان لا ينتمون إلى التشيكين ، ولا إلى أهالي سلوفاكيا . ومن هنا نشأت تلك المشكلة التي عرفت قبل الحرب العالمية الثانية بمشكلة « السوديت » ، تلك المشكلة التي بلغت الذروة في اتفاقية ميونيخ سنة ١٩٣٨ ، حين تركت تشيكوسلوفاكيا فريضة لأطماع النازية . ثم تبع ذلك احتلال بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس أن اللغة الألمانية هي السائدة في هاتين المقاطعتين .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى . وتأسست تشيكوسلوفاكيا ، تطلعت هذه الدولة الجديدة إلى منطقة « السوديت » الألمانية وصممتها إلى أراضيها . ولكن أهالي السوديت وهم من الألمان اعترضوا على هذا . وكانت تلك الواقعة بمثابة خطوة أولى في تدمير أهالي « السوديت » . ومطالبتهم بالانضمام إلى الريح الألماني . ثم رحلوا فيما بعد بحركات النازي السياسية التي كانت بشر دعايتها من محرر لألماني ليس يعيش خارج الوطن الألماني . حتى أولئك المدر عذبوا ألمانيا منذ أكثر من ثمانية عقود . ولكنهم مع هذا احتفظوا بلعنتهم الألمانية وعميتهم الألمانية . وأمكن للنازية استعادة السوديت سنة ١٩٣٨ في اتفاقية ميونيخ . بل عرو بوهيميا ومورافيا سنة ١٩٣٩ على أساس لغة أيضاً .

ولكن العرب أن تعلق « سلوفاكيا » . وهي التي يتكون من اسمها نصف الاسم الذي أطلقه الحلفاء على الدولة الجديدة تشيكوسلوفاكيا . استقلالها سنة ١٩٣٩ وكانت سلوفاكيا قبل الحرب العالمية الأولى حاصصة حكم « المجر » . وقام المجرين في أثناء حكمهم لها بمجهود كبيرة في محاولة صعب أهالي سلوفاكيا بالصيغة المجرية .

وفي الحق أن أهالي « سلوفاكيا » لم يكونوا على وفاق دائم مع حبراهم من التشيكين نظراً لأن مسواهم الحصارى والثغافى كان أهل من مستوى التشيكين ،

وذلك بسبب خضوع سلوفاكيا لسيطرة المجر لعدة قرون ، بل إن شئت قلت بسبب اختلاف اللغتين التشيكية والسلوفاكية إلى حد ما ، و برغم قرب الشبه بين اللغتين . وكان من الممكن أن تتكون لها قومية واحدة على أساس قرب اللغتين أو تشابههما ، فهما من فرع واحد هو الفرع الغربي لمجموعة اللغات السلافية . وتعد الحركة الانفصالية التي قامت في سلوفاكيا سنة ١٩٣٩ بإيعاز من النازي حركة غير موفقة من الناحية القومية .

ومن المشاكل القومية في تشيكوسلوفاكيا تلك التي تعرف بمشكلة « روثينيا » ، وهي مقاطعة في أقصى الشرق من الدولة الجديدة ، كانت تابعة للمجر . وكانت اللغة المجرية هي اللغة الرسمية السائدة بها جنبا إلى جنب مع اللغة المحلية . وقد ضُمت هذه المقاطعة إلى تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى ليتسنى لها الإحاطة بالمجر ، ولفصل المجر عن بولندا ، ولكي تسمح باتصال تشيكوسلوفاكيا بـرومانيا في حالة ما إذا احتاج الأمر إلى تعاونهما الحربي . وقضت معاهدة سنت جرمين سنة ١٩١٩ بأن تمنح تشيكوسلوفاكيا مقاطعة « روثينيا » الاستقلال الذاتي . فقد لاقت صعوبات ومتاعب فيما يتعلق بالحقوق اللغوية . وباللغة التي تدرس في مدارسها ، وعرضت كثير من الاصطلاحات فيما بين المدرسين العلميين . فلغة روثينيا أقرب إلى لغة أوكرت في روسيا لا عرايه لذلك أن صحتها روسيا إلى أراضيها بعد الحرب العالمية الثانية ، وأطلقت عليها « أوكرانيا » الكرواتية التي أصبحت الآن جزءاً من الاتحاد السوفييتي .

وهكذا نرى أن السرّ الحقيقي في كل مشاكل الحدود تشيكوسلوفاكيا لا نعدو أن تكون اختلاف اللغات . أو اختلاف القوميات في تأسيسها

#### حادي عشر - حدود « المجر » :

يؤكد لنا الدارسون للأحاسيس أن شعب المجر من عنصر معرلي الأصل كالبلغار ، غير أن البلغار يتكلمون بإحدى اللغات السلافية في الفرع الجنوبي لهذه المجموعة اللغوية التي نضم عدداً من لغات أوروبا . في حين أن المجر لا تزال

تحتفظ بلغتها الأصلية التي وعدت بها إلى أوروبا ، والتي لا تمت إلى لغات أوروبا  
بصلة . فيما عدا اللغة الفنلندية . فاللغة المجرية إحدى لغات تلك المجموعة المسماة  
« العنسة الأجرية » الغربية عن لغات أوروبا .

ومن هنا تميزت القومية المجرية عن القومية السلغارية . وبعدت إحداهما  
عن الأخرى ، برغم ما يقال من أنهما من جنس أصلي واحد هو الجنس المغولي ،  
وهكذا يرى أن العبرة في تشكيل القومية هو اللغة لا ما يسمى بالجنس الأصلي .  
فلم يعد هناك ما يربط بين القوميتين بعد اختلاف اللغة ، ولم تعد إحداهما  
تشرع بعطف أو جاذبية تجاه الأخرى ، بعد أن أصبح سكان بلغاريا يصطنعون  
لساناً مبيناً للسان المجرين .

وقد بدأ ظهور شعب المجر في وسط أوروبا منذ القرن التاسع الميلادي ،  
ثم هضوا وأسسوا مملكة لأنفسهم تمت وازدهرت خلال القرون التالية .

وفي القرن الثامن عشر تأسس من المجر والنمسا إمبراطورية ثنائية تحت  
حكم أسرة « هابسبورج » . ظلت قوية متماسكة حتى الحرب العالمية الأولى .  
ولكن عرنيين لم يسوا أبداً خلال هذا الحكم الثنائي قوميتهم الممثلة في لغة عربية عن  
لغة نمسا . بل لا تمت إلى لغات أوروبا بصلة . ولم تهرمت هذه الإمبراطورية  
في الحرب العالمية الأولى انفصلت المجر عن النمسا ، ونجّاهل الحماة المستصرون  
الحدود تقوية للمجر في معاهدة الصلح سنة ١٩١٩ ، وتركوا نحو ثلاثة ملايين  
من المجرين خارج حدود قوميتهم . جماعات منهم في ترانسلفانيا في الشرق  
وآخرون في مقاطعة براتيسلافا ( بريسورج سابقاً ) في الشمال الغربي من سلوفاكيا ،  
وجماعة ثالثة يبلغ عددهم ربع مليون على حدود يوغسلافيا .

وضت مسأله إعادة النظر في معاهدة تريانو سنة ١٩١٩ الشغل الشاغل  
للحكومات المجرية في الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٣٨ . ولما قامت الحرب العالمية  
الثانية ، نصمت المجر إلى ألمانيا . ونجحت في أوائل الحرب في استعادة أساء  
قوميتها بل طعت على قوميات أخرى محاورة في ترانسلفانيا وروثينيا وغيرها (١)

وبانتهاء هذه الحرب عادت الهجرة إلى حدودها سنة ١٩٣٨ ، وتأكد هذا في معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ . أي أن الحلفاء المنتصرين في هذه الحرب لم يحدوا مفرًا من الاعتراف بالقومية المحررة الممثلة في لغة عربية متميزة عن لغات أوروبا ، فتركوا لها حدودها بعد أن اترعوا منها « روثينا » التي يتكلم سكانها لغة أقرب إلى لغة أوكرانيا ، ولذلك ضمت إلى روسيا ، كما اترعوا منها ترانسلفانيا وضموها إلى رومانيا برغم الأقلية المحررة التي تقيم فيها والتي يبلغ تعدادها أكثر من مليون نسمة . وكان صم « ترانسلفانيا » إلى رومانيا على أساس أن أغلبية السكان يتكلمون لغة رومانيا . وقد تبين من دراسة مشكلة ترانسلفانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية أنه من العسير حل هذه المشكلة بما يرضى الطرفين طالما تستمسك كل من الهجرة ورومانيا بقوميتها أو بلعنها . ولن يسجح أى تغيير في الحدود بين الدولتين ما دامت الجماعات المحررة المسماة « الزكلر » تعيش في رومانيا بعيدة عن وطنها القومى المحرى .

أما في الحدود الجنوبية للمجر وهي المتاخمة لبوعرسلافيا فموضع مطقة اتصال بين الصرب والمجر ، وتمثل هذه المنطقة في أقاليم : « باتشكا » ، « اراشاجا » ، « باب » . أي احتلت فيها القومية الصربية اليوغسلافية . واقتومها « عر » . وقد صمب هذه الأقاليم إلى يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى . ثم عدت إلى المجر في أوائل الحرب الثانية ، ثم عادت مرة أخرى إلى يوغسلافيا بعد انتهاء هذه الحروب .

### ثاني عشر . مشكلة « التيرول الجنوبي » و « نورتيو » :

كان هذان الإقليمان تابعين للنمسا قبل الحرب العالمية الأولى . فلما نهبت الحرب هزيمة النمسا تطلعت إيطاليا لضم الإقليمين إلى أراضيها ، وبحجت في ذلك برغم مدأ حق تقرير المصير الذي أعطاه الحلفاء حيثئذ ذلك لأن « تيرول » الجنوبي نسود فيه اللغة الألمانية . في حين أن إقليم « نورتيو » نسود فيه اللغة الإيطالية . وقد حاولت إيطاليا فيما بين الحربين العالميتين صم الإقليمين



بالصفة الإيطالية ، فنشرت بهما الأسماء الإيطالية ، وأحلت اللغة الإيطالية محل الألمانية في التيرول الجنوبي . ولم تملح الأسماء الإيطالية ، ولا الموطعون الإيطاليون في القضاء على الشعور القومي والمعارضة العيفة التي أبدتها سكان التيرول الجنوبي الذين دأبوا على المطالبة بالانضمام إلى أسياء قوميتهم في النمسا . ولا تزال هذه المشكلة قائمة حتى الآن . وتتاولها الصحف العالمية المحايدة بالشرح والتفسير . ومع مرور ما يقرب من نصف قرن على ظهور هذه المشكلة نقرأ الآن في الصحف المحلية عرضاً مفصلاً لمشكلة نقتسه فيما يلي :

في معاهدة تسويات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ استولت إيطاليا على ولاية « بولترانو » وهي المعروفة باسم التيرول الجنوبي التي كانت خاضعة للنمسا . وفي نفس العام وعد ملك إيطاليا وحكومتها ورسماً أبناء التيرول المتحدثين باللغة الألمانية بالاستقلال الذاتي في شئون ولايتهم . وبعد ما يقرب من ٢٧ عاماً أي سنة ١٩٤٦ اتفق وزير خارجيه إيطاليا مع وزير خارجية النمسا على نفس المدأ ونصت المعاهدة في مادتها الأولى على أن يتمتع السكان المتحدثون باللغة الألمانية في المنطقة بكافة الحقوق والامتيازات التي تمنح لسكان المتحدثين الإيطاليه . حتى يمكنهم المحافظة على هويتهم النمساوية وعى تقاضيتهم المتميزة . وبعد سنين فقط من هذه المعاهدة أعيد إيطاليا ضم ولايه « بورتينو » إلى التيرول الجنوبي ومنحها الاستقلال الذاتي في إداره موحدة . وهذا بدأت أزمة العلاقة بين إيطاليا والنمسا ذلك لأن أبناء التيرول الجنوبي يطالبون بفصل إقليمهم عن « بورتينو » ومنحهم الاستقلال الذاتي كما وعدت إيطاليا في اتفاقيتي سنة ١٩١٩ . سنة ١٩٤٦ . لأن سياسة الإدماج جعلتهم يواجهون سياسة تمير عصري تهدد مستقبلهم بالخطر وأعلنوا إنكارهم لما ترددده الشائعات من أنهم يتخفون من الحكم الذاتي خطوة أولى نحو الانفصال عن إيطاليا . والانضمام إلى النمسا مرة أخرى .

أما النمسا فقد أعيد في « فيينا » أنها لا تطالب بإعادة التيرول الجنوبي إليها . ولكنها تطالب احترام الاتفاقيات المعقودة مع إيطاليا وتنفيذها نصاً

وروحاً . وترى النمسا فيما قامت به إيطاليا سنة ١٩٤٨ من إدماج الإقليمين تحت حكم موحد محاولة للتخلص من الأغلبية المتحدثة باللغة الألمانية . فهم في التيرول الجنوى يمثلون ثلثي السكان ، ولكنهم بانضمامهم إلى « تورتينو » سيصبحون أقلية لا يتجاوز عددهم ثلث السكان في الإقليمين معاً .

وأما إيطاليا فترى أن الأقلية الألمانية تتمتع بحقوق لا تقل عن حقوق أية أقلية أخرى في أوروبا . أما سياسة الإدماج في رأيهم ، فتدعو إليها ضرورة إستراتيجية من جانب ، وإدارية من جانب آخر .

وتمسك كل من الطرفين برأيه في المشكلة ، والتجأ الطرفان إلى الأمم المتحدة بشكواهما ، ولكن المنظمة الدولية لم تصل إلى قرار حاسم ، ونصحت الدولتين بالدخول في مفاوضات مباشرة . ولما فشلت هذه المفاوضات المباشرة اقترحت إيطاليا عرض المشكلة على محكمة العدل الدولية ، ولكن النمسا رفضت ذلك ، واقترحت النمسا تكليف « همرشولد » بالوساطة والقيام بالمساعي السلمية لإنهاء الخلاف ، ولكن إيطاليا رفضت هذه الوساطة وهكذا عادت المشكلة إلى نقطة بدايتها من جديد دون أى تقدم

#### ثالث عشر مشكلات الحدود في اللقان :

ليس من الضروري في الحديث عن القوميات الرئيسية باللمان كما شهدناها القرن التاسع عشر أن نذهب إلى أبعد من هذا القرن فقد كانت هذه القوميات في اوائله خاضعة لحكم السلطنة العثمانية منذ زمن طويل . ثم صعدت هذه السلطنة ، وبدأت المنافسة بين الدول الكبرى في أوروبا حول أراضي اللقان التي يقطنها شعوب تنتمي إلى أجناس مختلفة ، ولا عكس أن تتكون على أساسها قوميات متميزة . لذلك كان الأساس في نشأة القوميات في منطقة اللقان أساساً لغويّاً صرفاً . فلم يكبد بدأ القرن التاسع عشر حتى شهد العالم في اللقان ست لغات رئيسية هي : « التركية » ، الرومانية - المغاربية . اليونانية - الألبانية « وأخيراً » الصربية - الكرواتية « في يوغوسلافيا . وبررت القوميات اللقانية

على أساس هذه اللغات ، وتميز كل منها عن الأخرى ، مما اضطر الحلفاء المنتصرين بعد الحرب العالمية الأولى إلى تأسيس دولة لكل لغة من هذه اللغات ، على حسب مبدأ حق تقرير المصير الذى نادوا به إثر انتهاء الحرب ولكن الحلفاء لم يوفقوا فى كل الحالات بل جمع حدود سلطنة هذه اللغات . ومن هنا نشأ ما يسمى بمشاكل اللغات فى دراسات السياسية .

فإذا بدأنا بالقومية التركية نرى - أنها مؤسسة على اللغة التركية العثمانية الحديثة ، التى تنتمى إلى مجموعة لغة عيده كل اللغة الأوربية . هى التى تسمى باللغات الأترابية . بمصنفاتها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وآسيا الوسطى وجزءاً من سيبيريا . وأهم فروع هذه المجموعة اللغة التركية الحديثة التى تسمى أيضاً اللغة العثمانية . وهى لغة أتراك الأناضول و « ترافيا » الشرقية . وهى اللغة الرسمية للجمهورية التركية فى الوقت الحاضر ليس عربياً إذن أن مبدأ تقرير المصير قد أدى إلى شعاب الحرب العالمية الأولى إلى أكبر حركة هجرة وتبادل السكان فى تاريخ حديث . فقد كانت الأقليات اليونانية التى تعيش على سواحل الأناضول . ولا سيما فى مدينة أزمير وصواحبها بحاور المدن نسمة . وتشكل حصداً كبيراً من سكان القومية التركية التى تسمى بجمهورية الجديدة فى آسيا الصغرى . وأدت تلك الأقليات اليونانية على المحرقة من تركيا إلى الأراضى البونية . وبخاصة فى « ترافيا » الغربية . وتم ذلك خلال ثلاث سنوات فيما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٥ .

أما اللغات الأخرى فى الشرق فتنسب كلها إلى الفصيلة الهندية التى يسمونها الهونون بالفصيلة الهندية - الأوربية . غير أنها تنحدر من فروع مختلفة فذه الفصيلة .

فاللغة الرومسية وهى لغة روم - حدى إحدى اللغات اللاتينية كالأبطلية والفرنسية والأسبانية ولا تدرج تحت سترة فى تلك المنطقة البعيدة نسبياً عن مهد اللغات اللاتينية . أصل السكان فى بنابا . وتكونهم الجنس ، موضع خلاف كبير . بل حتى لأحاس . ولا يجمع بينهم فى خفشتهم

إلا اللغة التي هي أساس قوميّتهم ومحلّ فخارهم واعتزازهم .  
ومع أن القومية في رومانيا محدّدة المعالم متميزة بتميز لغتها ، نشأ على حدودها ما يعرف بمشكلة « سارابيا » تلك المقاطعة التي دلّ الإحصاء سنة ١٩١٩ على أن نحو ٦٤ ٪ من سكانها يتكلمون اللغة الروميسية ، وأن نحو ١٥ ٪ يتكلمون لغة أوكرانيا . ولذلك صمّت هذه المقاطعة إلى رومانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن روسيا استعادتها في أوائل الحرب الثانية . ولم تنشأ الحكومة الرومانية إثارة مشكلة « سارابيا » ثانية عند إقرار معاهدة الصلح سنة ١٩٤٧ ، وقد عوصت رومانيا عنها بمقاطعة ترانسلفانيا التي معظم سكانها من الرومانيين ، ولكن المعاهدة تجاهلت وضع المحرّيين المسمّين « الزكلر » والذين يبلغ عددهم حدود المليون نسمة ويعيشون في شبه جزيره في نطاق رومانيا . وهكذا خلق حلّ مشكله سارابيا بين رومانيا وروسيا ، مشكلة « ترانسلفانيا » بين رومانيا والمجر .

أما القومية اليونانية فليست في حاجة إلى تعريف . فهي تنحدر من القوميّة الإغريقيّة العظيمة التي وحيث الإنسانية راثاً راثعاً في الفكر والفلسفة قبل المسيحية . وعلى ما حدثه للإسبانية قامت النهضة لأوربية الحديثة وتمثل هذه القوميّة في العصر الحديث في اللغة اليونانية الحديثة التي انتشت عن الأصل القديم . ولا شكاد تختلف عنه في الأصوات . بل يتركز الخلاف بينهما في بعض النواحي الاشتقاقية . وفي المفردات .

ولما كانت هذه القوميّة متميزة بتميز لغتها العريفة لم يثر بينها وبين جيرانها ما يسبب مشاكل خطيرة حول الحدود . واقتصر النزاع بينها وبين بلغاريا على منطقة صغيرة في « تراقيا » العربية التي أصبح معظم السكان بها يتكلمون اللغة اليونانية بعد تهجيرهم من الأناضول كما أشرنا آنفاً . كما اقتصر النزاع على المنطقة التي تعرف « بالألبانوس » الشمالي بين اليونان وألبانيا .

وأما « ألبانيا » تلك الدولة الإسلامية الصغيرة فهي أصغر دول البلقان مساحة وأقلها سكاناً . ويلاحظ دارسو الأحاس أن سكان ألبانيا يتألفون من

شعير متميزين يتمثل أحدهما في جماعات « الغغ » Ghag طوال القامة وهم المعروفون بالأرناؤوط ، وتعدادهم في حدود ٦٥ ٪ من السكان أما الشعب الآخر فيعرف أبناؤه « بالتوسك » Tosk وهم أقصر قامة ويشتهرون في صغابهم الحسابية وفي طاعهم جيرانهم اليونانيين . وتعدادهم في حدود ٢٣ ٪ من السكان .

ولم يكن هناك من مسوغ لتأسيس هذه الدولة الصغيرة بعد الحرب العالمية الأولى سوى أن أهلها يتكلمون لغة متميزة تختلف تمام الاختلاف عن اللغات المحاورة لها . وكان هناك شبه اتفاق على الإبقاء على « ألبانيا » بوصفها دولة مستقلة ، لوجود عنصر ألباني متميز لا يستطيع الاستقرار والعيش في هدوء مع أية دولة بلقانية أخرى ، ودار كل الخلاف بين الدول حول مدى اتساع هذه الدولة الجديدة . وفي الحق أن المسوغ الحقيقي لتأسيس هذه الدولة هو اللغة الألبانية التي هي فرع مستقل من فروع العائلة الكرى الجديدة - الأوربية . وتسمى هذه اللغة عند أهلها بالأشكيب Shqip . وأقدم ما وصل إلينا من نصوص مخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وأول نصوص مطبوعة لها يرجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وقد جمعت هذه اللغة أعداد كثيرة وقصص شعبية في القرن التاسع عشر ومعظم سكانها يعتبرون الدين الاسلامي .

وأخيراً نختتم الحديث عن قوميات البلقان أو لغات لمعبر تنمنا إلى مجموعة لغوية واحدة هي المجموعة السلافية . بل إلى فرع واحد من فروع هذه المجموعة هو الفرع الجنوبي . وهذان اللغتان هما اللغة البغارية التي يتكلم بها في بغاريا وهي لغة قومية ذات حضارة وتراث أدبي . فبرزت بين اللغات منذ القرن الثامن عشر وتكسب بالأحدية الكريمية أو السيريلية أما اللغة الأخرى فهي « الصربية - الكرواتية » التي يتكلم بها في معظم مناطق جمهورية يوغوسلافيا وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة - الهرسك . حل الأسود ولها ثلاث لهجات محلية متميزة . وبكثبانها المسيحيون الأرثوذكس بالأحدية « الكريمية »

أو السيريلية ، في حين أن الكاثوليك يكتبونها بالأبجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها التي ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، غير أنها لم تصبح لغة حضارة إلا في القرن التاسع عشر .

ومع أن سكان بلغاريا ينسلون من أصل معول هاجروا منذ قرون إلى هذه المنطقة واستقروا بها . نحد أنهم اتخذوا ذلك اللسان السلافي وسيلة التفاهم والخطاب فيما بينهم ثم كان أن استقلت هذه اللغة ، وتميزت عن أحواتها من اللغات السلافية . وأصبحت وحدها تشكل القومية البلغارية . وتعد بلغاريا من أكثر دول البلقان تحانساً واستقراراً في قوميتها ، ومن أقلها مشاكل في حدودها . وكل ذلك بفضل لغتها المثمرة الموحدة التي هي اللغة المشتركة لكل السكان .

أما يوغسلافيا ففيها بكثرة الاختلافات العصرية والانقسامات الاجتماعية . وقد أدى موقعها إلى متاخمة جميع دول البلقان ، بل هي تتانم أيضاً البحر والنمسا وإيطاليا . ولذلك كانت علاقاتها منذ نشأتها بكل هذه الدول يشوبها قدر من التوتر والمشكلات السياسية .

#### ١ مشكلة كارينثيا السلوفينية :

وتعد هذه مشكلة من أكثر لمشكلات التي تؤثر في سير العلاقات بين يوغسلافيا والنمسا . ذلك لأن أغلبية السكان بهذا الإقليم يتكلمون الألمانية ، وظهر من الانتخابات والاستفتاءات التي أُحري في هذا الإقليم مبلغ ولائه للنمسا ، ومع هذا فلا تزال يوعدها تلح في المطالبة بصم الإقليم إلى أراضيها بدعوى أن معظم السكان يتكلمون اللغة السلوفينية إحدى لغات الفرع الجنوبي للمجموعة السلافية . فهي لذلك من أقرب اللغات إلى « الصربية - الكرواتية » اللغة الرسمية ليوغسلافيا

#### ٢ المشكلة المقدونية :

يشكل هذا الإقليم نزاعاً شديداً بين يوغسلافيا وبلغاريا من ناحية ، وبين يوغسلافيا واليونان من ناحية أخرى . ويؤلف السكان في هذا الإقليم وحده

بشرية متميزه، ويتكلمون لهجة سلافية تعرف باللهجة المقدونية . وقد ضم معظم أراضي إلى يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن السكان ظلوا غير راضين عن حكم يوغوسلافيا ، وتثيرهم وتحرضهم على الثورة بلغاريا . ولم تنجح يوغوسلافيا في الاحتفاظ بهذا الإقليم ، إلا على أساس تكوين الجمهورية المقدونية التي هي إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي .

### ٣ - مشكلة ميناء تريست ، فينيتسيا جوليا :

بين يوغوسلافيا وإيطاليا ، وهي المشكلة المعقدة التي كادت توقع العالم الحديث في حرب عالمية ثالثة . وليس لهذه المشكلة من مسوع سوى اختلاط السكان في هذه المنطقة بين سلافيين وإيطاليين . أو إن شئت قلت : سيادة لغتين في المنطقة ، إحداهما وثيقة الصلة بلغة يوغوسلافيا . والأخرى باللغة الإيطالية .

ولعل من أهم أسباب اشتعال هذه المشكلة وتعمدها بعد الحرب العالمية الأخيرة ، تلك المنافسة القائمة بين المعسكرين الشرقي والغربي . فروسيا من ناحية ناصر يوغوسلافيا وتعمل على تحقيق مطالبها . في حين أن دول العرب وعن رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تؤيد حاد الإيطالي في مطالبه . وبعد صراع سياسي طويل بين الكتلتين الشرقية والغربية . فشل الكثير من المقترحات التي تقدم بها كل من الفريقين ، انتهى النزاع أو كاد ، باتفاقية لندن سنة ١٩٥٤ وهي التي تقضي بتقسيم المنطقة بين يوغوسلافيا وإيطاليا ، وحصلت إيطاليا على ميناء « تريست » وشقة ساحلية صغيرة تصلها بالأراضي الإيطالية . كما نص في الاتفاق على إنهاء الحكم العسكري للحلفاء في المنطقة وعلى تخصيص منطقة جمركية حرة في ميناء تريست ، وحماية حقوق الأقليات في التسمين اليوغسلافي والإيطالي .

على أن المشكلة الحقيقية في دولة يوغوسلافيا هو تعداد الأحس في أراضيها ، ويترجى بهذا اسمها القديم وهو مملكة الصرب والكروات والسلوفين . وقد هاجر

إليها فوق هذه الأجتناس جماعات من انجر ورومانيا وبلغاريا وألمانيا وإيطاليا ، فزادت هذه الحجرات من التعتد الجسى ؤ يوغوسلافيا . وترتب على تلك الاختلافات اللغوية والثقافية فى يوغسلافى صهور جهات معارضة تعمل على تفكك هذه الدولة . مما اضطر الحكومة يوغسلافية إلى إنشاء اتحاد يوغسلافى سنة ١٩٥٣ يتألف من ست جمهوريات هى :

- ١ - جمهورية الصرب وعاصمتها « بيوجراد » .
  - ٢ - جمهورية كرواتيا وعاصمتها « زغرب » .
  - ٣ - جمهورية البوسنة .
  - ٤ - جمهورية سلوفينيا وعاصمتها « لوبلانا » .
  - ٥ - جمهورية مقدونيا وعاصمتها « سكوبلي » .
  - ٦ - جمهورية « مونتيجرو » الجبل الأسود . وعاصمتها « تيتوجراد » .
- وإذا كان الحكم الاشتراكى الناحج فى يوغسلافيا قد كفل لها حتى الآن استقراراً ورحاء . وإذا كانت الطوبى فى صهرها رعمائوها الحالزون خلال الحرب قد أسكرت الناس وجعلتهم يلتصقون حور هؤلاء الزماء . وبطمشون إلى حسن سياستهم . براعه قيادتهم . إذا كان هذا هو الدفاع المشاهد الآن فى هذه الدولة . فليس هناك ما يؤمن لمستقبل من . . . حصر المشرية المساهم إلى حكور منها . فلا بد من دعم القومية اليوغسلافية على أساس وحدة لغوية شاملة . ويرغم أن لها لغة رسمية هى اللغة « الصربية » « كرواتية » لا تكاد تنظم هذه اللغة كل أنحاء الدولة . ولا تزال هناك هجوت إقليمية متعددة يخشى معها أن تطل بعض الحركات الانفصالية رأسها فى المستقبل . حين تبدل الرعامة الحالية بغيرها . أو حين نجد صعوبات فى تطبيق النظام الاقتصادى الحالى . ولا سبيل لتفادى هذا إلا بدعم اللغة المشتركة فى الدولة ، والعمل على أن تنظم كل مناطقها . بحيث ينظر كل السكان إليها على أنها لسانهم المفضل . فيؤثرونها فى كل المخلات وكل الأوساط . وزجد بين مشاعرهم وأحاسيسهم . ولا شك أن تحقيق هذه الغاية يتطلب زمناً طويلاً وحيداً كبيراً . ولكنا مع الأسف



نقرأ الآن أخباراً تنشر في بعض الصحف وتشير إلى بعض أم يوحنا يوغسلافيا من الناحية اللغوية . فقد نشر بالأهرام في شهر أبريل سنة ١٩٦٧ ما نصه :

( اجتمعت لحثا الحرب الشيوعي اليوغوسلافي في مدينتي ساراييفو . (غرب ، لانحاذ قرار بشأن الدين اشتركوا في الاضطرابات اللغوية التي نشأت بين إقليمي الصرب وكرواتيا عندما صمم كل جانب على تعميم استخدام المصطلحات اللغوية الخاصة به في الشؤون الرسمية . والمعروف أن الطرفين يستخدمان نفس اللغة . ولكن مع بعض الاختلافات . وقد شكوا المتنوع في إقليمين من التفرقة اللغوية ، ويخشى زعماء يوغوسلافيا أن تؤدي تلك حالات إلى إحياء حصومات قديمة بين الإقليمين )

وتتضح لنا خطورة المشكلة اللغوية بيوغسلافيا حين تذكر أن بهذه الدولة ثلاث لهجات محلية متميزة ، وأن الأرثوذكس يكتبون بالأبجدية كيريلية ، في حين أن الكاثوليك يكتبون بالأبجدية اللاتينية .

• • •

## الفصل الخامس

### أشهر اللغات القومية الحديثة<sup>(١)</sup>

#### ١

#### في أوروبا

في عرصنا هنا للغات أوروبا والحديث عنها يؤثر أن نترك اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى الفصل الذي فيه سنتحدث عن اللغات العالمية الحديثة . فقد أخذت هاتان اللغتان في العصر الحديث طابعاً عالمياً أكثر منه قومياً . وتنتمي الكثرة الغالبة من اللغات الحديثة في أوروبا إلى الفصيلة الكبرى التي تسمى الهندية - الأوروبية .

#### المجموعة الجرمانية :

هي مجموعة من اللغات في غرب أوروبا ، ووسطها وشمالها الغربي . وهي لغات ذات صفة وحدة بعض ، بعض . وشارت في خصائص لغوية أصيلة . لا سيما في تطور الأصوات أو التبادل الصوتي بين أفرادها ، وهو ما يعرف بقانون حريم Grimm وأشهر هذه اللغات ، وأوسعها انتشاراً في العصر الحديث اللغة الإنجليزية . وسنتحدث عنها بين اللغات العالمية الحديثة . وأفراد هذه المجموعة اللغوية في اللفظ الحار هي

#### ١ - الدنمركية :

وهي لغة متشرة في شبه جزيرة « الدنيمرك » في بحر البلطيق وما حولها من جزر . وقد أصبحت لغة كتابة وأدب منذ القرن الثالث عشر الميلادي

( ١ ) A. Meillet and M. Cohen, Les Langues du Monde. Paris 1952

( ٢ ) Mario Pei The World's Chief Languages London 1949.

## ٢ - السويدية :

لغة منتشرة في النصف الشرقى من شبه جزيرة « اسكنديناوا » . وصارت لغة كتابة وآداب منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

## ٣ - النرويجية :

لغة النصف الغربى لشبه جزيرة « اسكنديناوا » ، وقد أصبحت لغة كتابة وأدب في القرن الثامن عشر الميلادى بعد أن استقلت عن النرويج القديمة .

## ٤ - الأيسلندية :

وهي اللغة التى يتكلم بها في جزيرة « أيسلندا » . وتكتب منذ القرن العاشر الميلادى وبسبب انعزالها احتفظت بطواهر لغوية قديمة وهي مشهورة بأدب الملاحم « إدا » التى تقارن عادة بملاحم « هوميروس » . وملاحم اللغة السسكربتية في الحد .

## ٥ - الألمانية :

وهي هجتان مميزتان شماليه وجنوبية والجنوبية هي أصل اللغة الألمانية الرسمية الحديثة التى بدأ التدوين بها أيام « مارتى لوتر » الذى ترجم إليها الكتاب المقدس في القرن السادس عشر الميلادى . وتعدّ الألمانية أكثر اللغات الجرمانية محافظة ، فقد استمسكت بعناصر لغوية قديمة أكثر من غيرها

## ٦ - الهولندية :

وهي اللغة الرسمية لمملكة هولندا . وهذه اللغة نشأت من لهجات شماليه الشمالية . وتتصل اتصالاً وثيقاً باللغة « الفلمسكية » التى يتكلم بها في شمال بلجيكا . وتعدّ لغة رسمية هناك . وقد انتقلت الهولندية إلى جنوب أفريقيا مع المهاجرين حيث شاع استعمالها وأطلق عليها هناك « الأفريكانيس » Afrikaans

### المجموعة البلطية - السلافية :

مجموعة من اللغات تشترك في كثير من الخصائص التي تميزها عن المجموعات اللغوية المجاورة لها . وهذه المجموعة تنقسم إلى شعبتين : البلطية . السلافية . أما فروع البلطية فهي

١ - اللتوية : وهي لغة « لتويا » على بحر البلطيق . طبعت بها نصوص في منتصف القرن السادس عشر الميلادي . وقد تطورت هذه اللغة وأصبحت لغة قومية ذات أدب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .

٢ - اللتوانية : وهي لغة « لتوانيا » على بحر البلطيق . وتحتفظ هذه اللغة بخصائص قديمة جداً ترجع إلى القصة الكرى الأم « الهندية - الأوربية » أكثر من أي لغة أوربية أخرى . ونشر بها بعض كتب دسية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي .

وأما لغات الشعة السلافية فيتصل بعضها ببعض على قدر مجاوره إحداهما للأخرى فالمسافر من « موسكو » منحياً إلى العرب إلى « مسك » ثم إلى « ورسو » ثم إلى « راج » . لحظ أن صيغ الكلمات وصرر حمن والعبارات يعبر تدرجياً . وعلى مراحل متدحله كأنها ألوان الطيف فضاء اللغات السلافية المتجاورة يفهم بعضهم بعضاً إلى حد ما . أما غير المتجاورة منها فلحظ بينها تبايناً في الأصوات والتصريف وتركيب الجمل . بل في الألفاظ أيضاً .

وأهم الصفات المشتركة بين لغات الشعة السلافية هي . كثرة الأصوات الساكنة . واستعمال عدد متجاوز من هذه الأصوات في أوائل كثير من الكلمات . وكذلك استخدام ما يعرف لدى اللغويين بالثنائية في الصوت الساكن ( أي صورة حنكية وأخرى غير حنكية مثل ما في الإنجليز من نطق التاء في الكلمتين Tomo ، Tune ) وللأسف في اللغات السلافية سبع حالات إعرابية وثلاث حالات للتعبير عن الجنس ( مذكر ، مؤنث ، محايد ) . ورغم أن الفعل

ينظر إليه من حيث الزمن على أنه ماض ، حاضر ، مستقبل ، ومن حيث الحدث على أنه تام ، ناقص ، مؤقت . مستمر . ويرغم أن للفعل صيغا معينة في كل هذه الأحوال ، نلاحظ أن المصطلح هذه اللغات يعنيه بوجه عام كون الحدث مستمرا أو كاملا . أكثر مما يعنيه كونه معبرا عن الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وتختلف اللغات السلافية في موضع النبر من الكلمة . فاللغة التشيكية تجعل النبر على المقطع الأول من الكلمة . في حين أن البولندية تجعل النبر عادة على المقطع الذي قبل الأخير .

أما الروسية فالنبر فيها منغير الموقع ، وليس له موضع ثابت فيها يبدو ، بل يستقل في الكلمة الواحدة سعاً لتصرفاتها . وينطبق هذا أيضاً على « الصربية - الكرواتية » لغة جمهورية يوغوسلافيا . ولكن المتكلمين بهذه اللغة يتحاشون جعل النبر على المقطع الأخير

كذلك تختلف ألعاب السلافية في طريقة الكتابة الهجائية . فأولئك الذين ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما في روسيا ، الصرب ، بلغاريا يصطنعون الكتابة « الكريلية » . في حين أن المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية كما في شكولوكيا - بولندا - كرواتيا - صطعون الأجدية اللاتينية وفروع الشعة السلافية هي :

١ - السلوفينية : ويصطلح بها في المنطقة الجنوبية للنمسا على ساحل الأدرياتيكا ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . ولها أدب مكتوب منذ القرن الثامن عشر الميلادي .

٢ - الصربية - الكرواتية : وهي لغة منطقها جمهورية يوغوسلافيا ، وهي اللغة الرسمية لها في الوقت الحاضر . وأهم أقاليمها الصرب ، كرواتيا ، البوسنة ، الهرسك . يجبل الأسود . وهذه اللغة ثلاث لهجات محله منميرة . ويكتبها المسيحيون الأرثوذكس بالأجدية الكريلية ، والكاثوليك بالأجدية اللاتينية . وقد وصل إلينا بعض آثارها الأدبية من القرن الخامس

عشر الميلادى ، ولكنها لم تصح لغة حضارة وآداب إلا فى القرن التاسع عشر .

٣ - البلغارية : وهى لغة جمهورية بلغاريا ، ويتكلم بها أيضاً فى بعض المناطق المحيطة بهذه الجمهورية . وقد أصبحت لغة قومية ذات حضارة وآداب منذ القرن الثامن عشر ، وتكتب بالأبجدية الكريلية .

٤ - التشيكوسلوفاكية : وهى اللغة الرسمية لجمهورية تشيكوسلوفاكيا . وتكتب بالأبجدية اللاتينية منذ القرن الثالث عشر الميلادى . وقد أصبحت لغة أدبية منذ النهضة القومية فى القرن التاسع عشر .

٥ - البولندية : وهى اللغة الرسمية لجمهورية « بولندا » . وقد عرف هذه اللغة منذ القرن الرابع عشر الميلادى . وتطور أديها فى القرون الأخيرة وأصبح من الآداب الأصيلة الغريرة . وهى تكتب بالحروف اللاتينية .

٦ - الروسية ( الكبرى ) : وهى اللغة الرسمية للاتحاد السوفيتى وقد أصبحت لغة مشتركة لجمهوريات الاتحاد السوفيتى منذ سنة ١٩٤٥ . وتأسس هذه اللغة هو صفة « موسكو » التى اشتهرت بعد تأسيس جامعة موسكو سنة ١٧٥٥ م . وقد أخذت شكلها الحالى منذ القرن التاسع عشر وكان ينكدها فى العهد الروسى القيصرى ما لا يزيد على نصف عدد السكان وهى تكتب بالأبجدية الكريلية .

٧ - الروسية البيضاء : وهى اللغة الرسمية لجمهورية روسيا البيضاء إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى المتاخمة لبولندا . ولبنواتا . ويتكلم بها نحو عشرة ملايين .

٨ - الأوكرانية ( الروسية الصغرى ) : وهى لغة « أوكراب » الواقعة فى جنوب روسيا البيضاء . ويتكلم بهذه اللغة نحو ٤٠ مليوناً .

### مجموعة اللغات الرومانية :

وتتحدث هذه اللغات الحديثة عن اللغة اللاتينية ، ولذلك تشترك في خصائص لغوية أصيلة . وأشهر هذه اللغات الفرنسية التي ستتحدث عنها بين اللغات العالمية الحديثة .

ويؤكد لنا اللغويون المحدثون أن لغات هذه المجموعة لم تتحدث عن اللاتينية النموذجية الأدبية التي خطب بها « شيشرون » وكتب بها « قرجيل » ، وإنما انحدرت عن اللاتينية العامة التي كانت تصطنع في الخطاب بين عامة الشعب في الإمبراطورية الرومانية ، قبل سقوطها في القرن الخامس الميلادي . وكانت هذه اللاتينية أيضاً لغة الحاميات الرومانية في المواقع البعيدة من الإمبراطورية ، وبين أفراد هذه الحاميات من ولد وعاش كل حياته دون أن يقع نظره على عاصمة الإمبراطورية . غير أننا نعتمد في كثير من الأحوال النصوص المدونة التي يمكن أن نعدّ حلقة اتصال بين هذه اللاتينية العامة وبين فروعها الحديثة من اللغات الأوروبية

وأشهر أفراد هذه مجموعة هي

١ - الرومسية ( لغة جمهورية رومانيا ) : وهي اللغة السائدة الآن في رومانيا وبعض المناطق المجاورة لها وأقدم ما وصل إلينا من آثارها يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادي مكتوباً بالأبجدية الكريلية ولكن هذه اللغة تكتب الآن بالحروف اللاتينية ، ويتكلم بها ما يقرب من تسعة عشر مليوناً .

٢ - الإيطالية : هي لغة إيطاليا وبعض المناطق التي في جنوب سويسرا . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى منتصف القرن العاشر الميلادي ، أما اللغة الإيطالية المستعملة اليوم فهي لمحة مقاطعه « تسكاليا » التي كتب بها « دانتي » في أوائل القرن الرابع عشر

- ٣- الرومنشية : هي لغة منتشرة في بعض مناطق سويسرا والنمسا . وعدد المتكلمين بها الآن نحو نصف مليون . وترجع أهمية هذه اللغة إلى أنها إحدى اللغات الرومانيه التي اعتمد عليها الدارسون في المقارنات اللغوية . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي . وقد أصبحت منذ سنة ١٩٣٨ إحدى اللغات الرسمية في الاتحاد السويسري .
- ٤- القطلونية : وهي لغة يتكلم بها شرقي إسبانيا ( قطلونيا ، فلانسيا ، جرر الليار ) وعدد المتكلمين بها نحو خمسة ملايين . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

٥- الإسبانية : وهي لغة إسبانيا ومعظم جهات أمريكا اللاتينية ، وتعدّ من أكثر لغات العالم انتشاراً . وأقدم ما وصلنا من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . وقد دخلت فيها ألفاظ عربية كثيرة .

٦- البرتغالية : وهي لغة البرتغال وبعض جهات أمريكا اللاتينية وبخاصة في البرازيل . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

ومن اللغات القوميه الحديثه لغتان مهميتان أيضاً إلى انتميه الكرى ( شبه الأوربيه ) ولكن يتميز كل منهما بصفات لغويه تجعلها كياناً متميزاً مستقلاً عن اللغات الأوربيه الأخرى . وهما

١. اللغة اليونانية الحديثه : وهي صورة منبثقة عن اللغة « الكويشيه » التي كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولا نكاد نختلف اليونانية الحديثه عن « الكويشيه » في الناحية الصوتيه . وإنما الاختلاف في بعض النواحي التصريفية وفي المفردات . ونحاول دولة اليونان الآن وتأييدها الكنيسه في هذا . أن تقترب ما أمكن من اللغة « الكويشيه » . وقد أصبح اليونانية الحديثه نشأة لغة مشتركه لكل بلاد اليونان منذ القرن الثامن عشر . وعلى أساسها تكونت القوميه اليونانيه الحديثه



٢ اللغة الألبانية : وهي لغة دولة « ألبانيا » وتسمى عند أهلها بالإشكيب Shkip وقد اقتصرت كثيراً من مفرداتها من اللغات المحاورة لها كاللاتينية واليونانية والصربية ، والتركية . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها المخطوطة يرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وأول نصوص مطبوعة ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر . وفي القرن التاسع عشر جمعت هذه اللغة أغان كثيرة وقصص شعبية . ومعظم المتكلمين بهذه اللغة يعتنقون الدين الإسلامي . ويتكلم بها نحو ١,٥ مليون نسمة . وبإستثناء بعض الوثائق القانونية لم يبق من تراثها الأدبي ما هو أقدم من القرن التاسع عشر .

وأشهر لغات أوربا التي لا تنتمي إلى الفصيلة الكرى « الهندية - الأوروبية » لغتان حديثتان هما :

١ الفينية : وهي اللغة الرسمية لفنلندا . ويتكلم بها أيضاً في « أستونيا » وهي مدونة منذ القرن السادس عشر الميلادي .

٢ المجرية : ويتكلم بها في المجر وفي بعض المناطق المجاورة لها . وهي أقدم لغات معروفة باسميها « المجرية » « المجرية » . ونصوصها بعض من نصوصها يرجع إلى القرن العاشر الميلادي .

## ٢

### في آسيا

نتمى اللغات القومية الحديثة في آسيا إلى عدة فصائل لغوية لا صلة بينها . وأشهر هذه الفصائل تلك الفصيلة الكرى ( الهندية - الأوروبية ) . ولهذه الفصيلة في آسيا ثلاث شعب :

## ١ - الشعب الهندي ولغاتها القومية الحديثة هي :

### ( أ ) الهندستانية :

وهي اللغة الأساسية في عرب الهند . وقد أطلق عليها هذا الاسم اصطلاحاً ، لأنها أكثر اللغات انتشاراً في الهند . وهذه اللغة صورتان : « الأوردية » وهي في الأصل لغة الجيش ، وتكتب بالأبجدية العربية ، وتشمل ألفاظاً عربية وفارسية كثيرة ، وهي الآن اللغة الرسمية في باكستان . أما الصورة الثابتة فهي ما يسمى « بالهندي » وتكتب بالخط الهندي القديم وفيها ألفاظ سنسكريتية كثيرة . ويتكلم بالهندستانية ما يقرب من ١٩٠ مليوناً . وتعدّ هاتان الصورتان بمثابة لغتين متحيزتين للهندستانية ، فلا يقتصر الفرق بينهما على اختلاف الكناية ، بل هو الشأن مع الكروايتية والصربية ، بل إن « الأوردية » تظل متميزة حتى لو كانت بتلك الحروف الهندية القديمة . فاللهجتان تختلفان في السيان وفي النطق ، لأنهما حصعتا لمؤثرات تاريخية مختلفة .

### ( ب ) السهالية :

وهي من مشرق الهند في القسم الجنوبي من جزيرة سيلان وقد أصبحت اللغة الرسمية رسمياً بدلاً من اللغة الإنجليزية منذ سنة ١٩٦٤ .

### ( ج ) السواحلية :

وهي من لغات شرق الهند انتشاراً في كلكتا وما حولها . ولها أدب قديم . ويتكلم بها نحو ٣٤ مليوناً .

### ( د ) بهارانية :

وهي من منطقة بومباي . ولها أدب شعري قديم . ويرجع بعض نصوصها إلى القرن العاشر الميلادي ، ويتكلم بها ٤٠ مليوناً .

## ( هـ ) البنجابية :

وهي أهم لغات الشمال العربى للهند . ويتكلم بها سكان « لاهور » والطائفة المعروفة بالسيح .

## ٢ - الشعب الإيرانية وأشهر لغاتها القومية الحديثة هي :

## ( ا ) الفارسية :

وهي اللغة الرسمية لدولته إيران في الوقت الحالى . وتكتب بالخط العربى . وأقدم نصوصها التى وصلت إلينا ترجع إلى القرن الثامن الميلادى . وهي ذات آداب غريبة . وبلغت أوج ازدهارها على يدى الفردوسى في القرن العاشر الميلادى . وتتضمن ألفاظاً عربية كثيرة جداً .

## ( ب ) الكردية :

وهي لغة الأكراد في الشمال العربى من إيران . ويتكلم بها نحو خمسة ملايين ولا يزال معظم آدابها غير مدون .

## ( جـ ) الداشتو ( لغة الأفغان ) :

وقد عرفت منذ القرن السادس عشر من الميلاد . وأخذت لغة رسمية لأفغانستان منذ سنة ١٩٣٦ . وتكتب بالحروف العربية . وهي متأثرة بالترسية . وكثير من آدابها لم يمدون حتى الآن .

## ٣ - الشعب الأرمنية :

وهي لغة واحدة متميزة ذات كيان مستقل سادت في البلاد المحلية الممتدة فيما بين العراق والأودية الجنوبية للقوقاز وعلى الشاطئ الجنوبى لبحر الأسود . ولها أحيحة خاصة تتكون من ستة وثلاثين رمزاً . وبعد مثلاً دقيقاً للأحذية الصوتية . ورجع أقدم المخطوطات إلى عثر عليها من هذه اللغة إلى القرن التاسع

الميلادى. ولا يزال يُتكلّم بها في جمهورية «أرمينيا» في الاتحاد السوفيتى ، وفي مناطق أخرى مثل «جورجيا» و«أذربيجان». وعدد المتكلمين بها نحو ٤ ملايين وقد احتفظ أصحاب هذه اللغة بشخصيتهم وكيانهم المتميز خلال تاريخهم المليء بالمآسى والاضطرابات. ولا تزال لغتهم نشيطة وقوية. وتنضم كلمات فرنسية مقرّصة منذ أيام الصليبيين ، كما فيها قدر كبير من الكلمات الفارسية والمصطلحات الروسية.

أما الفصائل اللغوية الأخرى التى تنتمى إليها اللغات القومية الحديثة في آسيا فهى <sup>(١)</sup> :

#### ١ - اللغات الأتراكية :

ومنطقتها تشمل معظم أنحاء آسيا الصغرى وآسيا الوسطى. وقد استعمل أهل هذه اللغات في كتابتها حروفاً قومية يُعتقد أنها سامية الأصل ، وظلت سائدة بينهم حتى دخول الإسلام فأخذوا محلها بالحروف العربية. وتنصف هذه اللغات بأنها لغات التصاقية ومن فروعها الحديثة «التتارية» على شواطئ «القوقاز» و«الآلبان» و«التغرافية الأركية» التى تكلم بها عدد ملايين من السكان فى «صنجد» و«سمرقند» و«بخارى» و«قرعانه» و«القوقازية» على شواطئ خزر و«و» ولكن أهم اللغات الأتراكية فى العصر الحديث هى اللغة التركية العثمانية اللغة الرسمية للجمهورية التركية. وهى لغة أراك الأناضول «وتراعها» الشرق. ومهدت أسست الإمبراطورية العثمانية فى القرن الثالث الميلادى بشأ لهذه اللغة أدب عثمانى يسمى اليوم بالأدب التركى وهذه اللغة متأثرة تأثراً كبيراً بالعربية والفارسية.

ويتكلم بالتركية أكثر من عشرين مليوناً ، وتكتب الآن بالحروف اللاتينية وتتميز هذه اللغة بظاهرة الانسجاء بين أصوات اللين أو الحركات وصوت اللين الأمامى يسعه أممى مثله ، والخلقى يسعه خلقي مثله وهكذا وصوت اللين

(١) «ك» الحديث عن اللغة العربية إلى الفصل الخامس من معجمه العربية



### ٣ - الملايو - البولينية :

وهي مجموعة من اللغات يتكلم بها شعوب تمتد من جزيرة « مدغشقر » في الغرب إلى جزيرة الفصح في الشرق . ومن « فرمورا » وجنوب فيتنام في الشمال إلى نيوزيلندا في الجنوب . وتتألف هذه المجموعة من شعبين :

الشعبة الأندونيسية وتتضمن عدة لغات يتكلم بها نحو ١١٥ مليوناً . وقد تأثرت لغات هذه الشعب باللغة العربية بعد دخول الإسلام في هذه المناطق ، ولذلك تتضمن كلمات عربية كثيرة . ومن لغات هذه الشعب لغة « مدغشقر » ويتكلم بها نحو ٤ ملايين وتكتب بالحروف اللاتينية . ولغة « الملايو » وقد أصبحت هذه اللغة الآن بمثابة لغة مشتركة لسكان كل الجزر الأندونيسية وشبه جزيرة الملايو ؛ ولغة « جاوة » ويتكلم بها نحو ٥٠ مليوناً وهي لغة عريقة ولها تاريخ قديم ، وكانت تكتب بالحروف الهندية في قديم الزمان ، وكان لها آداب قديمة حافلة بالملاحم . ولغة « سومطرة » ويتكلم بها نحو ١٢ مليوناً في جزيرة سومطرة .

أما الشعب الثاني فمجموعة شعوب تمتد من بورنيو في جنوب إلى « هوى » في الشمال . ويتكلم بها نحو ٣٥٠ مليوناً من يسكنون عدة جزر صغيرة في المحيط الهادي .

ونعني لغة « الملايو » أهم لغة في هذه المجموعة وأوسعها انتشاراً . وقد أصبحت الآن تحتل المرتبة التاسعة بين لغات العالم الحديث . وأصبح لهذه اللغة في الشرق الأقصى أهمية كبيرة ، فهي بمثابة اللغة المشتركة لعظم مناطقها . وقد سميت « بهارا أندونيسيا » . واتحدت اللغة الرسمية للإدارة والحكم في هذه المناطق الشاسعة . وقد ظل أهل « الملايو » يستخدمون الحروف العربية في كتبهم وصحفهم زمناً طويلاً ، وذلك لشيوع الدين الإسلامي بينهم . ولكنهم الآن لم يعدوا يلاحظون بدأوا يجهلون نحو الحروف اللاتينية . وتوصف لغة الملايو بأنها أيسر لغات العالم . فليس فيها تلك المحامع الصوتية الحشة التي عرفت بها لغات

القرقار . ونظام التصريف فيها سهل غير معقد . وكذلك تراكيب جملها بسيطة لا تعقيد فيها . وقد اقترضت اللغات الأوربية الحديثة بعض كلماتها مثل .

Bamboo, Sago

ومع أن لغات هذه المجموعة قد تبدو لأول وهلة متباينة كل التباين . غير أن الدراسة العميقة قد برهنت على أنها تشترك في ملامح لغوية كثيرة . فمماذجها من « القونيات » تشابه تشابها قوياً ، وتتألف الأسماء فيها من مقطعين ، ويقع البير على الأول منهما . هذا إلى أنه ليس لظاهرة تكيم أو العدد في هذه اللغات صيغ خاصة أو تصريف متميز . ويعبر الفعل فيها بوساطة اللواحق والسوابق عن التعدية واللزوم والبناء للمجهول والمطاوعة والمشاركة وغير ذلك . ويندر فيها تجاوز عدد من الأصوات الساكنة . كما يسر أن تنتهي كلماتها بالمقاطع المغلقة ، وترتب على هذا أن الأصوات الساكنة في هذه اللغات قد أحدثت في الانكماش أو التناقص ، ومالت إلى الاختفاء من الكلام .

#### ٤ - الصينية - التبتية :

مجموعة من اللغات المنتشرة في الصين . وهنالك النسب و « الحملان » وفي الهند الصينية سيام وبورما وقيسام وكبوديا . وقد أثرب منها في العصر الحديث لغات قومية ، على أساسها تكونت عدة دول في هذه المنطقة تعرف باسم فيتنام . سيام - وكبوديا - وبورما . وبرعم أن لغات هذه الدول قريبة الشبه بعضها البعض . غير أن كلاً منها قد تطور وأصبح ذا كيان لغوي منمير . مما سوغ انفصال هذه الدول واستقلال كل منها عن الأخرى وأهم لغات هذه المجموعة :

#### ( ١ ) الصينية :

وهي لغة جمهورية الصين ، ولها عدة لهجات أهمها لهجة العاصمة « بكين » التي تعتبر اللهجة الرسمية للجمهورية والموطن الأصلي للغة الصينية هو منطقة النهر الأصفر ، ومنه انتشرت ناحية العرب ولها كتابة قديمة مريج  
اللغة من العصور والمعد

من الرموز التي تدل على الصورة والتي تدل على الصوت . ولم تتغير الكتابة الحديثة عن القديمة إلا قليلاً في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حين استعملت الريشة بدل أدوات الكتابة الصلبة . وهذه اللغة ذات أدب عريق يعدّ أغنى آداب آسيا . وأقدم ما وصل إلينا منه مكتوباً يعدّ معاصراً لصيغ السسكريتية . ولكن العصر الذهبي للأدب الصيني يعاصر العصر الذهبي للإغريقية . فالفيلسوف الصيني « مينج تسي » ولد قبل أرسطو بنحو ١٢ عاماً ، أي أهد عاشا في القرن الرابع قبل الميلاد . ولكنهما عاشا وماتا دون أن يسمع أحدهما بالآخر . وأهم خصائص هذه اللغة أن ألفاظها آحادية المقطع . وأن النغمة هي التي تحدد معنى الكلمة ، وأن الوظيفة السحوية للكلمة تُحدد بموقعها من الجملة . وأن حرف اللام قد سقط واندثر من هذه اللغة .

ويُتكلّم بالصينية الآن في الجمهورية الصينية الشاسعة . وفي بعض جهات الملايو والهند الصينية وسيام وجزر الهند الشرقية . وظلت كذلك لغة الثقافة في اليابان « وكوريا » و « أنام » رمزاً طويلاً . ومنها يستمد أسماء هذه البلاد دون انقطاع المصطلحات العلمية . كما يستمد أسماء اللغات الأوروبية الحديث مصطلحاتهم من « الاتبسة » والإعريشة

أما اللهجات الصينية فلا يكاد أصحابها يفهم بعضهم بعضاً . وتستخدم الكتابة الصينية بمثابة أداة صلة بين أبناء هذه اللهجات التي لا يفهم المتكلمون بعضها بعضاً إلا كما يفهم اللاديمركي السويدي . أو كما يفهم البرتغالي الإسباني . ويعمل المسؤولون في الصين الآن على جعل لغة « بكين » اللغة القومية . إذ تتكلم بها في معظم أنحاء الصين . وقد فرض الرعيم الصيني « موسي تونج » بحكم القانون تعليم هذه اللهجة في كل مدارس الجمهورية الصينية .

وإذا سلمنا بأن التمييز بين اللهجة واللغة أساسه المهم المتبادل فحسب . وحب أن ننظر إلى هذه اللهجات الصينية على أنها لغات لا لهجات . ولذلك كانت الرموز التقليدية التي تشبه الكتابة التصويرية أمراً بالغ الأهمية لأصحاب



هذه اللهجات الصينية . فهم جميعاً يستطيعون قراءتها ولكن في نطق مختلف .  
أى كما يقرأ الأوروبيون الأرقام . فحين يرى الإنجليزى الرقم 5 يقول five  
ولكن الفرنسي يقول Cinqu و يقول كل من الإيطالى والإسبانى شيئاً آخر .

### ( ب ) التبتية :

ويُتَكَلَّمُ بها في منطقة هضبة « التبت » . وقد وصلت إلينا نصوص قديمة  
من هذه اللغة ترجع إلى القرن الثامن الميلادى . ومن خصائصها الصوتية أنها  
تقل توالى السواكن في أول الكلمة وآخرها . وأن الاسم لا يتميز من الفعل إلا  
عن طريق السياق ، وأنها تفرق بين المذكر العاقل والمؤنث العاقل بإضافة لاحقة  
« نا » للمذكر ، « ما » للمؤنث . وتأثرت هذه اللغة بالأديين البوذى والسنسكرى  
تأثراً كبيراً .

### ( ج ) البرمية :

و يتكلم بها في « بورما » . وتتميز عن « التبت » بأنها لا تقل توالى الأصوات  
الكلمة . لا في أول الكلمة ولا في آخرها . ويعبر عن الحالات الإعرابية  
بجمع كسرة من « ه » وهى كسرة خروفت من أصل هندي

### د اليابانية . الكورية :

في الحق أن الصلة بين يابانية وكورية لا تبدو أن يكون مجرد ص أو  
حس فليس ندب درهان قاطع على هذه الصلة سوى تشابه في أسيل  
فكلاً للعتين من النوع اللصقى . وكلاهما بعدل في التصريف صواحر الحس  
والكم والشخص . ولكن مثل هذا التشابه لا يقطع بأصالة الرابطة بين اللغتين .

أما اليابانية فتاريخها القديم مجهول أو لم يكتدل معرفتنا به . وهى تصطبغ  
في مكانه الرموز الصينية التى عدت من الكسرة التصويرية . والتى شاعت بعد  
القرن الرابع الميلادى وليابانية مع ذلك عكس الصلة الحديثة بعد  
من اللغات التصريفية ولذلك انحسرت إلى اصطلاح بعض الرموز الصدية .

فابتدعت منذ زمن طويل حروفاً تسمى « كانا » تمثل مقاطع محددة ذات نطق ثابت . وقد تصاف هذه الحروف إلى الرموز التصويرية في الصحف والمجلات لمساعدة أولئك الذين لا يجيدون القراءة على الفهم السريع ، كأن يكتب بالإنجليزية مثلاً five Pounds £ 5 .

ويلاحظ في الكلمة اليابانية أن حروفها متحركة ، بمعنى أن الحرف تعقبه حركة ، ثم حرف آخر تعقبه حركة أخرى وهكذا . ولذلك توصف المقاطع اليابانية بأنها من النوع المفتوح أى الذى ينتهى بصوت لين أو حركة ، مثل « هراكيرى » . « نجاراكى » « هيروشيا » . . . فى حين أن الصينية تنهى الكلمة فيها بصوت ساكن . وقد تأثرت اليابانية بالصينية أيضاً من حيث الألفاظ فقد اقتضت اليابانية من الصينية - عبر قرون مضت ودون انقطاع - كلمات من أصل صينى للتعبير عن حاجاتها

وأما الكورية فتاريخها قبل القرن الخامس الميلادى يكاد يكون مجهولاً جهلاً تاماً . بل لا نزال حتى الآن نتمتع الوصف التحليلى الكامل لهذه اللغة فى صورتها الحالية ، ولكن يبدو مع هذا أنه من المرجح أن الكورية ترتبط لهذه . وقد اقترحت الكور « كثيراً من الكلمات الصينية .

### ٣

## فى أفريقيا

إن الحديث عن اللغات فى أفريقيا<sup>(١)</sup> أمر مرهق غاية الإرهاق للدارسين . وقد يوفر على دراسة هذه اللغات فى السبب الأخيرة عدد من المتخصصين ليس بينهم لسوء الحظ مصرى أو عربى . ويبلغ عدد اللغات فى أفريقيا

The language families of Africa, by A. Werner

(١)

Linguistic analyses, by A.M. Tucker

Distribution of the Nilotic & Nilo-Hamitic Languages of Africa by M.A. Bryan

نحو ٥٠٠ لغة يتكلم بها نحو ١٠٠ مليون من الزوج الذين يعيشون جنوبي الصحراء وفي المناطق الاستوائية .

فإذا استثنينا اللغة العربية في شمال أفريقيا . نرى - أن هناك في شرق الغارة لغتين قوميتين متميزتين : إحداهما تنتمي إلى الفصيلة - ميه وهي الأمهرية اللغة الرسمية في أثيوبيا . والأخرى تنتمي إلى المجموعة الكوشية وهي لغة الصومالية .

### ١ - اللغة الأمهرية :

لغة قومية حديثة تنسب إلى منطقة « أمهرا » ويرجع أصل تحدث من أخت اللغة « الجعزية » انقرضت أو اندثرت . وقد تأثرت الأمهرية بعناصر كوشية . ومنطقة انتشارها تمتد شمالا إلى منطقة المتكلمين « بالتجيرية » . وجنوبا إلى صحراء الدنا كل . أي معظم بلاد أثيوبيا الحديثة . وأقدم ما وصل إلينا من نصوصها يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي . وقد أصبحت الأمهرية اللغة الرسمية في أثيوبيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي . وعلى أساسها تكونت القومية الحبشية

### ٢ اللغة الصومالية :

وتنتمي هذه اللغة إلى فرع من الفصيلة الحامية يدعى مجموعة الكوشية التي تشمل الركن الشرقي لأفريقيا فيما عدا المناطق المنتشرة في سواحل الحبشة السامية . وتمتد شمالا بين النيل والبحر الأحمر وجنوبا إلى كيب . أما في الغرب فتحدها المنطقة الجبلية في أثيوبيا . وقد بدأت دراسة هذه لغات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وليس لها أدب مدون سوى بعض أسفار من الكتاب المقدس بشرتها الإرساليات الدينية . وأشهر لغات هذه مجموعة « البحه » . و« الجالا » . والصومالية . غير أن الصومالية وحدها هي التي نستحق أن يطلق عليها لغة قومية حديثة . فقد عيرت عن أحوالها . واستقرت في بلاد الصومال وعلى أساسها تكونت القومية الصومالية .

فلذا تجاوزنا هاتين اللغتين باحثين عن لغات قومية في أفريقيا وجدنا أنفسنا في محيط حضم من اللغات واللهجات . غير أن الذين عنوا بدراسة هذه اللغات في حقلها الطبيعي قد اصططحوا على تقسيمها إلى مجموعات ثلاث تميز كل منها بخصائص لغوية محددة :

### ١ المجموعة السودانية :

وهي التي تمتد في شكل حزام عبر السودان الجنوبي من « حاميا » إلى « كينيا » وتتضمن خليطاً عجيباً من اللغات المختلفة . وأهم خصائص هذه المجموعة : أن مفرداتها آحادية المقطع . وأنها تكاد تخلو من التصريف على حسب العدد أو الشخص أو الجنس . وأن الإصافة فيها تكون بوضع المضاف إليه قبل المضاف فمثلاً : « محمد كتاب » معناه « كتاب محمد » ، وأن دلالات كثير من كلماتها ووظائفها النحوية تتغير بتغير العمة .

وأهم ألعاب هذه المجموعة لغة « الهوسه » التي يتكلم بها في السودان الأوسط وشمال بيجيريا وقد اكتسب هذه اللغة أهمه خاصة من ألعاب أفريقيا في مسوب لأحياء . وهذه اللغة لها مشاركة لسجاد من « إندو » ، « إيدو » من عرب افقاره . وقد دخل أن تأسيس عليها قومية حديثة في بيجيريا بعد استقلالها . ولكن الصراع الذي نشده الآن في بيجيريا بين الشمال والجنوب ليس دلالة واضحة على أن القومية في جمهوريه بيجيريا لم تستقر على وضع معين . فلم يكف تنقل طل اللغة الإنجليزية لغة المسعمر حتى أخذت لغات المحلية الأخرى في بيجيريا تظل ترأسها مطالبه بالانفصال فالصراع الذي يدور الآن في بيجيريا هو في الحقيقة صراع لغوي بين « الهوسه » و « والإيدو » . ويبدو أن ما في بيجيريا من لغات متعددة أشهرها « الهوسه » ، و « كانو » في بعض جهات الشمال من الجمهورية ، « اليوروبا » في الغرب ، « يوشي » في جهات أخرى من الشمال أيضاً . « إيدو » في الغرب . وأخيراً « إيسو » التي تسود في الشرق والغرب . يبدو كل هذا سبباً معروفاً لقيام قومية موحدة . وكذلك الشأن في الدول التي استقلت

حديثاً في عرب أفريقيا . مع ما في كل منها من تعدد اللغات . نخذ مثلاً [غانا] التي يبلغ عدد سكانها نحو ٧ ملايين ، فيها من اللغات المحلية أربع لغات كبيرة هي : « أكان » . « نوي » . فولتا « السنوفو » . « إيوي » . وكذلك [ داهومي ] التي يبلغ عدد سكانها مليونين فيها ثلاث لغات هي : « يوروبا » ، « إيوي » . « الفولاني » . و [ السنغال ] التي يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين فيها أربع لغات هي : « الفولاني » . « الولف » . « ماندي » . « السيرير » . و [ سيراليون ] التي يبلغ تعدادها ٢.٥ مليون فيها لغتان محليتان هما : « ماندي » . « تمني » . و [ توغو ] التي تعدادها في حدود مليون ونصف فيها لغتان هما : « إيوي » . « القود » . و [ مالي ] التي تعدادها نحو خمسة ملايين فيها : « الفولاني » . « ماندي مديجو » . « ماندي مبارا » . و « سونشكة » . و [ غينيا ] التي تعدادها ٣.٥ ملايين فيها : « الفولاني » . « ماندي مندينجو » و « كيبيلي » . . .

## ٢ - مجموعة البانتو :

وتندرج هذه المجموعة أكثر اسماً أو أقل اصطفاً فيما بينها من المجموعة السودانية . و تكلم بها نحو ٥٠ مليوناً . وسكانها في جنوب أفريقيا على الساحل الآخر من خليج « الكمرون » في العرب إلى « ماسا » في الشرق .

ومعنى كلمة « بانتو » ba-ntu اسم أو العموم ، وهي جمع « مانتو » mu-ntu بمعنى الرجل . وقد سماها هذا الاسم اللغوي المشهور « ولم يملك » في منتصف القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup> .

ويعتقد أبناء « البانتو » أن أجدادهم قد برحوا نحو الجنوب من أعالي النيل واحتلوا الوسط والجنوب الشرقي من القارة . ولكنهم فشلوا في غزو الجنوب الغربي حيث يقطن « الهوتنتوت » و « البوشمن » .

ومن أهم خصائص هذه المجموعة أن التصريف فيها مقصور على العدد والشخص ، دون الجنس ، وأن التصريف فيها يكون عن طريق المطابقة بين الأشكال المتعددة للاسم والسوابق Prefixes المتعددة في هذه اللغات . وأن الإضافة فيها على عكس المجموعة السودانية ، وأن كلماتها ثائية المقطع في الغالب . وأن مقاطعها مفتوحة أى تنهى بحركة أو صوت لين . وأن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير من الكلمة . ولعل أوضح صفات هذه المجموعة أن مقاطعها المفتوحة ذات وقع موسيقى جميل . وأن أصواتها توحى بالدلالات في شكل رائع . ولا يكاد يتجاوز في هذه اللغات حرفان ساكنان إلا حين يكون أولهما صوتاً أنفياً والثاني انفجارياً مثل بانتو bantu ، أو أن يكون الأول متوَعاً « بياء » أو « واو » مثل سواحيلي Swahili ، « كيبيا » Kenya .

أما ظاهرة المطابقة فتبدو واضحة حين يرتبط اسم بفعل أو وصف أو ضمير . ففي هذه الحالة تصاف سابقة Prefix إلى كل من الاسم والفعل . أو كل من الاسم والصفة . أو كل من الاسم والضمير . وتحدد الدلالات عن طريق هذه السوابق . مثلاً الاسم « غدا » تصح « لوعدا » أى العة . « ناعدا » أى الناس و « أوغندا » أى المكان الذى يعيش فيه هؤلاء الناس . وفي سواحيلي مثلاً وهي أشهر لغات هذه المجموعة لاحظ أن المقطع الأول من الاسم الذى في أول الجملة يلتزم . ويضاف إلى سائر الكلمات في الجملة بعده . ويمكن أن نسمي هذه الظاهرة بالمطابقة الاستهلاكية في أوائل كل كلمات الجملة مثلاً كلمة Umuntu التى معناها « رجل » تبدأ بالمقطع Umu الذى يراه في مجموعة كبيرة من الكلمات . فكلمة استعملت إحدى هذه الكلمات في أول الجملة التزم هذا المقطع في أوائل الكلمات الأخرى من هذه الجملة . ويمكن لتوضيح هذه الظاهرة أن نضرب المثل الآتى . الكلمة Wili معناها العدد « اثنين » ، فإذا شئنا تمييز العدد بكلمة مثل Visu التى معناها سُدنة فلما : Visu Viwili أى مديتان أو سَكِيان . وكذلك الشأن في miti miwili معناها شجرتان ، Watu Wawili معناها شحصان .

وأشهر لغات هذه المجموعة وأوسعها انتشاراً «السواحلي» التي هي في الأصل لغة «زنجبار» وما يجاورها من السواحل . وقد استخدمت «السواحلي» بوصفها لغة مشتركة في التجارة في كل أفريقيا الوسطى منذ زمن طويل ، أي أن مثلها مثل «الهوسه» في المجموعة السودانية . وقبل أن تمتد السكك الحديدية في أفريقيا ، وقبل استخدام السيارات كان الاعتماد كله في استكشاف الأراضي يقوم على وسائل الركوب البدائية التي نظمها السواحليون . وتحتل اللغة «السواحلية» الآن مركزاً مرموقاً بوصفها لغة العلم والتعليم في المدارس «كينيا» «تنجانيقا» ومناطق عدة في الكونغو اللجيكية . وتكتب هذه اللغة بحروف عربية ، وقد نمت ألفاظها وكلماتها نمواً كبيراً بفضل ما اقترضته من ألفاظ عربية كثيرة .

أما الدول التي استقلت حديثاً في مناطق «البانتو» فلا تكاد القومية فيها تستقر على وضع معين ، وذلك بسبب تعدد اللغات في كل منها

مثلاً في «كينيا» و «تنجانيقا» و «زنجبار» وهي المنطقة التي تسود فيها اللغة السواحلية نجد محاب هذه اللغة لغات أخرى هي «الساو» - «بيامويري» - «سوكومو» - «ب.ب.ب» - «الشعا» - «ككرو» - «كام» - «ك.ف.ر.و.دلو» - «هايا» - «دبرا» - «أخون» وكل هذه اللغات رغم أن عدد السكان في المنطقة لا يكاد يجاور عشرين مليوناً

ونجد في «الكونغو» التي تعدادها في حدود ١٥ مليوناً نحو سبع لغات محليه هي : «النحالا» - «مويجو» - «السيلا» - «لولوا» - «اللوا» - «اللواندا» - «اللاما»

أما «دميا» التي لا يكاد تحاور في تعدادها أكثر من ٢.٥ مليون فمبها من اللغات المحلية ما يأتي «اللوري» - «اللاما» - «الهما» - «اللواندا» - «ماراي» . .

لك هي المشكلة الكبرى في أفريقيا . وليس يرحى أن تستقر معها القوميات الأفريقية . بل ليس يرحى معها أن تعني الدول التي استقلت حديثاً

ثَمَّار استقلالها . ومن واجب الزعماء والقادة في هذه القارة أن يُؤَلُّوا هذه المشكلة ما تستحق من عناية ، بل من واجب منظمة الوحدة الأفريقية أن تجعل منها الشغل الشاغل ، وألا تنصّ في سبيل حلها بجهد ماديّ أو أدبيّ مهما بلغ قدره . ويبدو أن من خير الحلول التي يمكن أن تُقترح لحل هذه المشكلة ، العمل على نشر لغة « الهوسه » في كل مناطق غرب أفريقيا بحيث تصبح لغة مشتركة بين أهلها ، ونشر « السواحيلي » في كل مناطق شرق القارة لتصبح لغة مشتركة لها .

\* \* \*



## الفصل السادس

### القومية العربية

يعتر كثير من الدارسين المحدثين بتعريف العلم الإيطالي « باسكال مانتشيني » للأمة إذ يقول : [ إن الأمة مجتمع إنساني طبيعي مؤسس على وحدة الأرض والأصل والتقاليد واللغة ، على نحو كامل متفاعل في الحياة وفي الوعي الاجتماعي ] . ويستمدون من كلامه في ثقة وحماس تعريفاً للقومية يتلخص في أن القومية في حقيقة أمرها شعور الناس في مجتمع ما بكيانهم وتميزهم عن غيرهم ، ولا يتم هذا الشعور إلا إذا توافرت لهم عدة مقومات مشتركة هي : وحدة الأرض واللغة والتاريخ والمصالح المشتركة . فالجماعة التي تمتاز بوحدةها الجغرافية والجنسية وتقاليدها ولغتها ودينها لها الحق في تقرير مصيرها السياسي ، ومن ثمّ جاء المبدأ المشهور الذي عرف في إثر الحرب العالمية الأولى وسمى بحق تقرير المصير

ولما لمح الزعماء والقادة في هذه الأيام إلى عت القومية العربية شهدنا كثيراً من كتابا وعلمائنا يغمروهم الحماس للفكرة ، ويسكرهم صداها القوي في البلاد العربية . فيحاولون دعمها بحديث مفصل عن كل العناصر التي وردت في تعريف العالم الإيطالي للأمة ، فكأنما قد أحسوا أنه لا يكفي في دعم القومية العربية ، أن تُعزى إلى مفهوم واحد أساسي كاللغة مثلاً ، فأشركوا معها ما سموه الاشتراك في الوطن الجغرافي وتصدى لهذا علماء الجغرافية ، والاشتراك في التاريخ وعنى بهذا أساتذة التاريخ ، والاشتراك في المصالح الاقتصادية وعالج هذا طائفة من الاقتصاديين ، بل والاشتراك في الدين كما يؤكد لنا بعض من المفكرين . ونعتقد بين هؤلاء الكتاب المحدثين حديثاً مفصلاً عن دور اللغة في نشأة القومية ، فلا نكاد نطفر في كلامهم عن دور

اللغة إلا بحديث عابر سريع لا يدل على معاناة حقيقية لهذا الدور ، أو دراسة تخصصية في اللغة وطبيعتها ووظائفها في المجتمع .

ونحن نحمد هذا الحماس لتلك الفكرة القومية التي يدعو الجميع إلى دعمها ، ولكننا في الوقت نفسه لا نتصور كيف يمكن أن يقال كما يقول الجغرافيون منهم : ( إن الوطن العربي من الناحية الجغرافية يمثل وحدة متكاملة متناسقة العناصر . فهو بمثابة إقليم متميز في مساحته وموقعه وخصائصه الطبيعية )<sup>(١)</sup> . يقال مثل هذا برغم أن الوطن العربي يمتد من المحيط إلى الخليج ، وبرغم اختلاف المناخ فيه اختلافاً واضحاً ، إذ يمتد عرصاً في حدود عشرين درجة عرضية تجعل من بعض أقاليمه ما يشبه الزمهرير ، ومن البعض الآخر ما يشبه الحميم . وهل من اليسير أن نتجاهل الصحارى والجبال وطبيعة التربة . وأن نقول مثلاً : إن هناك وحدة جغرافية بين بلاد الشام وبلاد المغرب من ناحية والسعودية والسودان من ناحية أخرى ؟ ولم لا نتذكر أن بلاد العرب تقع الآن في قارتين ، ونتذكر مع هذا أن وسائل المواصلات الحديثة وتطورها العظيم لم تدع للحدود الجغرافية ما كان لها في قديم الزمان من أثر في عزل القوميات بعضها عن بعض ؟

أما حديثهم عن الاشتراك في التاريخ فيمكنه بعض العدوس . بل فيه بعض الخلط بين الاشتراك في التاريخ والاشتراك في التراث الفكري . فقد مر الوطن العربي بأحداث تاريخية متباينة . وليس من الضروري في الحديث عن القومية العربية أن نشير إلى حركات السلاحفة في العراق وأرض الحريرة . وإلى حركات الأيوبيين في مصر والشام ، والمرابطين والموحدين في المغرب . والمماليك في مصر . بل ولا إلى أثر الحروب الصليبية التي يكاد أمرها يقتصر على بلاد الشام ، والمغول الذين لا يعرف لهم دماراً حقيقياً إلا في بلاد العراق وما حولها . أما الاشتراك في التراث الفكري فهو حقيقة لا مرأى في هذا . ولكنه كما سرى يمثل ناحية من دور اللغة في القومية

(١) دراسات في المجتمع العربي يصاغه من الأستاذة الجامعة بين ص ٢٧ . نشر دار البصيرة العربية سنة ١٩٦٢

وأما الاشتراك في المصالح الاقتصادية فدعوة حديثة يتنادى بها أصحاب مذهب اقتصادي معين ، ولكنها في رأينا ليست من عوامل نشأة القومية ، وقد تكون من عوامل دعمها . فالشعب بحسب بكيانه وتميزه أولاً ، وبذلك الحادية السحرية التي تربط بين أفرادها ، وتجذب بعضهم إلى بعض لتتألف منهم كتلة متميزة ذات شعور موحد وفكر موحد وكيان متميز ، ثم يحملهم هذا كله على التعاون فيما بينهم والتماسهم معاً ما يكفل لهم جميعاً الاستقرار والأمن والرخاء . وحيثما يلتصقون لأنفسهم نظاماً من الحكم يحقق لهم ذلك ، ونظاماً اقتصادياً يلائمهم ويظمثون إلى نفعه وجدواه . فالبعث القومي يبدأ أولاً ، وله مقومه الأساسي الذي تنشأ القومية وتولد في أحضانها . وفي ظلال هذا البعث يلتصق أصحاب القومية الواحدة ما يعتقدون أن فيه خيرهم وصلاحهم وما يحقق لهم منافع دنيوية

ونلاحظ أن معظم الذين كتبوا عن القومية في العصر الحديث ينظرون الآن إلى ما يسمى بوحدة الجنس على أنه مجرد أسطورة . فليس هناك ما يمكن أن يسمى بالجنس العربي الخالص فتلك القائل التي فتحت الأمصار . وتلك المحرقة القلبية التي تمت بعد ذلك فد امتصت كلها وهضمت في البيئات الجديدة . فلا نكد شهد الآن سماء أو ملامح حماية خاصة تتميز بها لمواطني العرب وقد أشرنا آنفاً إلى عدم جدية ما يسمى بوحدة الجنس في تكوين القوميات الحديثة .

أما الذين ربطوا بين الدين الإسلامي والقومية العربية فعذرهم أن اندسوة الإسلامية قد ارتطبت منذ ظهورها ارتباطاً وثيقاً بلغة العرب ، فالمعجزة الكبرى للإسلام تتمثل في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، ودُعي المسلمون في جميع نواحي الأرض إلى التمسك ببعض نصوصه فهم في صلاتهم وسكوتهم وفي كل شعائر الإسلام يطالبون بهاء ما يستطيعون من آياته البينات ، ولا يصح صلاتهم ولا يتم عبادتهم إلا بترنيل تلك الآيات ولكننا مع هذا لا ننصف الدين الإسلامي حين نربطه بالقومية العربية أو نعصر أمره عليها . فهو دين الناس كافة ، ولا تقتصر دعوته على شعب معين . فهو دعوة روحية

عالمية ولا تقف تعاليمه عند حدود القوميات ، ولكنها مع هذا لا تناقض القومية ولا تدعو إلى تحريمها ، بل سارت الدعوة الإسلامية حنباً إلى جنب مع الدعوة إلى القومية منذ ظهور الإسلام . ولنا حاجة إلى الإفاضة في الحديث عن العالمية في الإسلام والمسيحية . فنحن نشهد الآن قوميات متميزة في أوروبا بين المسيحيين ، كما نشهد بين العرب أصحاب القومية الواحدة ، عدداً كبيراً ممن ظلوا على دينهم المسيحي ويؤمنون مع هذا بقوميتهم العربية إيماناً قوياً . وفي العالم الآن عشرات الملايين من المسلمين الذين لا يحسون كلاماً عربياً ، ولا يخطر في بالهم أنهم ينتمون إلى قومية عربية . في حين أن الوطن العربي الحديث يضم ملايين من المسيحيين ليس بينهم عرب واحد لا يحسن الخطاب باللسان العربي وسيطر عليه .

فالقومية العربية تتمثل في شعور المرء نحو قومه ، أما الدعوة الإسلامية فتتجلى في موقف العبد من ربه ، وفي أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وفي مثل الآية الكريمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . غير أن صلة الإسلام بالقومية العربية أوثق من صلة المسيحية بقوميات أوروبا وذلك للصلة التي بين الإسلام والعهدة العربية أي أن الإسلام يرتبط بالقومية العربية على قدر ارتباطه باللسان العربي لا أكثر ولا أقل . فالإسلام دعوة سماوية روحية عالمية . في حين أن القومية العربية دعوة اجتماعية تنحصر في قوم معين ، ومع هذا لا تناقض بين الدعوتين ، بل إن الإسلام منذ ظهوره قد عمل على تعميق الشعور بالقومية العربية . فالذكر الحكيم الذي نزل به الروح الأمين ، ووعدنا سبحانه بالحفاظ عليه . يتألف من نصوص تلك اللغة التي عليها تأسست القومية العربية

### القومية العربية قبل الإسلام :

يجمع الدارسون الآن على أنه كان للعرب قبل الإسلام لغة مشتركة انتطعت جل أنحاء شبه الجزيرة . واصططعت في المخالات ، خديبه من القنن فقد نظم بها الشعراء وحطت بها الخطباء وكسبها الرسائل والوصايا . وأهم

ما تتصف به هذه اللغة المشتركة القحطجية الأدبية أنها سمت على اللهجات المحلية القبلية ، فلا تتضمن صفة خاصة لإحدى القبائل . وقد نشأت هذه اللغة المشتركة وعت وازدهرت قبل الإسلام . وأصحت قبيل ظهور الإسلام سجلاً لكل الآداب الجاهلية . أما كيف نشأت هذه اللغة فيُعرى ذلك إلى عدة عوامل منها الروحي ومنها الاقتصادي ، بل ومنها السياسي . فقد تطلع العرب القدماء إلى بيئة مكة وما حوطا من مدن الحجاز ، يحجون إلى الكعبة ويؤدون المناسك فيها ويلتمسون الزلفى من أصنامهم التي توسطها صم قريش المسمى « هبل » . وترتب على مواسم الحج قبل الإسلام أن اجتمعت وفود القبائل وتأثر بعضهم بلغة البعض ونشأ عن تلك الاجتماعات الروحية نواة لغة مشتركة بين العرب مؤسسة في أغلب ررهرها على لغة مكة والحجاز . وساعد على تبلور هذه اللغة واستقرارها ذلك العامل الاقتصادي الهام الذي يتمثل في أسواق العرب قبل الإسلام التي أشهرها « عكاظ » وهي السوق العامة للعرب وكانت تعقد قرب مكة في شهر « ذى القعدة » . وسوق « المحة » وكانت تعقد في أواخر ذى القعدة بعد موسم عكاظ . ثم سوق « دى بخار » في أوائل ذى الحجة . ثم سوق « حبر » بعد موسم حجة .

ولم يكن امر هذه الأسواق مفصلاً عن تدب المذاع في البيع والشراء . بل كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية للعرب ، أو كما يصعبها المنشرقون كانت أشبه بالأعياد الأولية لدى اليونان القدماء . ففي هذه الأسواق كانت تشد القصائد . ويخطب الخطباء وتقوم المساجلات والمناظرات . وتستمتع وفود العرب بكل ذلك التناح الأدنى الرائع . فهي مجال المارة والمناقصة الأدبية بين العرب ، ولا يتصور أن تتم مثل هذه المارة إلا على أساس لغة موحدة يسيطر عليها الخاصه بين وفود القبائل وينافسون في إتقانها نظماً ونثراً . كما يفهمها عامة العرب ويعملون بحس حرسها وجمال موسيقاها . ثم تعود الوفود إلى قراها أو ماسحها ، وتشر كل ما سمعت أو بعصه في ربوعها .

وهكذا تمت نشأة اللغة العربية المشتركة قبل الإسلام فوحدت من شعور

العرب بكيانهم وتميزهم عن الأمم الأخرى من فرس ورومان ويونان : بذلك اللسان العربي المبين ، الذي عليه وحده تأسست القومية العربية مع ما ظل عليه العرب من بعض مظاهر الفروقة . فقد ظلت كل قبيلة أو مجموعة من القبائل تتخذ في عبادتها صنما خاصا ، وتؤثر أن تحافظ على أنسابها ، ولا تخضع إلا لرؤسائها وشيوخها . وربما شنوا الغارات بعضهم على بعض باعث الفتوة وحب المغامرة ، أو طلبا للثأر ، أو اللود عن حياصهم ، ولكنهم برغم هذا كانوا يشعرون أنهم جميعا عرب ، وأن هناك ما يحدد بعضهم إلى بعض ويجمع شملهم أمام الغزو أو العدوان الأجبي . وكان ذلك الجامع لهم والموحد لكيانهم يتمثل في لغتهم العربية التي اعترفوا بها كل الاعتزاز ، والتي أصبح الرجل منهم يتقاس مركزه بين قومه بمقدار إتقانه لها وسيطرته عليها . وهكذا نشأت القومية العربية قبل الإسلام على أساس اللغة وحدها .

فلما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم هذه اللغة الكريمة عظم شأنها واكتسبت فوق ما كان لها بين قومها من حب واعتزاز وإثارة . الخلود ادى وعدا به سبحانه في قوله « إنا نحن نرثها الذكر وإنا له لحافظون »

غير أن الدعوة الإسلامية التي جاءت إلى الناس كدوة . والتي تسمي بعالمية في تعاليمها وشرائعها وكل أسسها . قد سهرت العرب في أوائل عهد الإسلام ووجهتهم وجهة أسمى من القومية الخاصة . ونظروا فإذا الدعوة تنادي بالإسلامية وأن المسلمين إخوة في الدين . وأن مثل المسلم للمسلم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسير والحمى ، وأن المسلمين بعضهم لبعض كاسيان المرصوص . وأنه لا فصل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . فأدرك كل ذلك العرب ومهرهم ، وجعلهم يحبون بكل قلوبهم وعواطفهم نحو هذا الدين الحنيف . ثم كانت الفتوحات التي تمت في صدر الإسلام لنشر الدين في ربوع الأرض . وثبتت أركانه فيما وراء شبه الجزيرة . فشعور العرب كله في تلك الفترة كان محصورا في الدعوة الإسلامية . وفي أنهم المسمون اسمين دعوا إلى إيقاد الناس في النجاة الأخرى من العوابة والصلال . لينتدوا مثلهم .

وليصحوا إخواناً لهم في هذا الدين الجديد . وهكذا انصرف شعراء العرب أو كادوا عن النظم فيما تعودوه قبل الإسلام . والتفوا حول النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ستمدون منها مثلهم الأدبية والخلقية . فأصبحت السيادة للإسلامية أكثر منها للعربية دون تناقص بينهما . أو حصص على نبد إحداهما لحساب الأخرى .

فلما استقرت الفتوحات في العهد الأموي واتصل العرب بأقوام آخرين في الأمصار ، لم لسان غير لسانهم . وشق التعام بين هؤلاء وهؤلاء . عاد إلى العرب إحساسهم بلغتهم . وبدأوا يشعرون أنها التي تميزهم عن غيرهم ، وأن كيأنهم ووحدهم تنحصر في تلك اللغة التي اعتر بها أجدادهم قبل الإسلام . والتي شرفت بتزول القرآن بها . فقوى اعتزازهم بها ، واشتد استمسكهم بكل خصائصها ، وعاد لهم شعورهم بالقومية العربية . مع الشعور بتميز لغتهم العربية عن اللغات الأخرى التي صادفوها في الأمصار . فحولوا اللواوين من الفارسية إلى العربية في فارس . ومن الرومية إلى العربية في الشام . ومن القبطية إلى العربية في مصر . لا معالة إحد أن يقال إن الدولة الأموية كانت عربية أكثر منها إسلامية . ونكبه لم يسم كما تحذر بعض متأخري من المؤرخين بالعصية السعيدة والسرمد وصيق لافس . ويبدو أن الدولة الأموية كانت تعمل على نشر اللغة العربية مع نشر الإسلام . وترك العربية تغزو ألسنة الناس في الأمصار كما عرو الإسلام قلوبهم ونفوسهم

ونظروا فإذا الصعقة العربية تسود في كل أعمال هذه الدولة ونظمها ومظاهرها الاجتماعية . فالخلفاء يرسلون أساءهم إلى البادية ليكونوا متحداً من الناحية التي شاع في الأمصار . حفاطاً على عروبتهم بالحناط على سلبقتهم العربية . ويروي أن الوليد بن عبد الملك كانت ثقافته في اللغة العربية ضعيفة ، وأنه كان لحناً ، وأن عبد الملك كان يقول ( أصير بالوليد حساً له فلم يرسله للبادية ) . فقد كانت البادية مدرسه لمن أراد أن تتعلم اللغة المصمحي بعيداً عما نشر بالأمصار من لحن بسب احتلاط العرب بعرب العرب . ولكن عبد الملك لم يدع الوليد

في لحنه ونخطته بل قال له في حزم ( إنه لا يلي أمر العرب إلا من يحسن كلامهم ).  
ولذا دخل الوليد بيتاً وأخذ معه جماعة من علماء اللغة وأقام مدة يشتغل بها  
ويحاول السيطرة عليها<sup>(١)</sup> .

وكان الخلفاء الأمويون يؤثرون محالس الشعراء على مجالسة الفقهاء ، مما جعل  
الفقهاء ينمسون على الشعراء حطوتهم ومكانتهم ، ويقفون موقفاً عجيباً من الفن  
بصفة عامة والشعر بصفة خاصة ، ويرددون في سبيل الانتقاص من قدر  
الشعر الآية الكريمة : ( والشعراء يتبعهم الغاؤون ) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ،  
وأهم يقولون ما لا يفعلون ) .

ولعل من أوضح الأدلة على اتسام الدولة الأموية بالعربية أكثر من اتسامها  
بالإسلامية . أن شاعر الدولة الرسمي كان « الأخطل » النصراني الذي ينتمي  
إلى قبيلة تغلب العربية ، ويحسن النظم بهذه اللغة ، ولم يؤهله لهذه المنزلة  
من خلفاء بني أمية إلا أنه يسيطر على اللغة العربية التي هي قوام القومية العربية ،  
وكان الأخطل أثيراً عند عبد الملك يلدخل عليه بغير إذن وفي عنقه سلسلة  
من ذهب وفضة ولحيته تقطر حمراً . وجلس معه مكرماً وهو نمل وكان  
ب الملك يظن أنه مرد شاعر أمير المؤمنين . ومرة شاعر بني أمية . ومرة  
شاعر العرب<sup>(٢)</sup> . وكذلك كان « القطامي » نصرانياً من بني تغلب وعاصر  
الأخطل

ويبدو أن الأخطل نفسه كان بعنجهيته العربية أكثر من اعتباره  
تسيحيته . فيروى أن امرأته خرجت مرة إلى السوق فمر بها أسقف على حمار له  
وأراد أن تسارك بلمس رداء الأسقف فلم تستطع أن تلحق به وإنما لحقت  
بذيل حماره ، وعادت كسيعة الدال إلى زوجها الأخطل وشكت إليه  
فقال لها معرباً : ( هو وذيل حماره سواء )<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) بحري ص ١٠٩

( ٢ ) لأبي ٢٨٧ / ٨

( ٣ ) لأبي ١٧٠ / ٧



لا غرابة إذن أن يكون مما هجا به الأخطل منافسيه وعيبرهم به أن أهمهم  
غير عربية ، فهو الذي يقول :

وما وجدوا أما له عربية وما أسهرتها من ختان كلومها

ولا غرابة كذلك أن الأخطل لم يجد لدى « الوليد » اللحنانة نفس الخطوة  
التي كان يجدها عند أبيه عبد الملك . فضعف الوليد في اللغة أضعف شعوره  
بالقومية العربية . وفقره من الشعراء وأهل البيان .

فالإسلام على عهد الرسول ، وصدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين ،  
قد اتسم بالسماحة من حيث اللغة العربية ، وقنع من المسلمين بأدائها على حسب  
ما تستطيعه ألسنتهم . فالقرآن الكريم وإن نزل يتحدى الخاصة من فصحاء  
العرب فإن الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم قد دُعوا إلى تلاوة ما قدروا عليه  
من آياته في صلاتهم ومسكنهم ، وهم قائل متباينة ، وأصحاب لهجات في  
الخطاب مختلفة . فرقت بينهم بعض الصفات الصوتية التي نشأوا عليها ، وتميزت  
بها كل قبيلة . فلما تناول بعض العامة تلاوة آيات من القرآن ، ونطقوا بها على  
غير ما تحرى اللغة النمودجية المشتركة التي نزل بها ، حدث تلك الحوادث  
العربية التي روى أبو يعقوب في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيروى  
مثلاً أن أبي بن كعب دخل المسجد يصلي وسمع رجلاً يقرأ آيات من سورة  
الحل قراءة تخالف قراءته ، وأن عمر بن الخطاب سمع هشام بن حكيم  
يقرأ سورة القفران على غير ما تعلم عمر من الرسول . وأن عمرو بن العاص سمع  
رجلاً يقرأ آيات من القرآن قراءة أنكرها عمرو ، إلى غير ذلك من حوادث  
عربية تروى لنا . ويغال إن أصحابها قد احكموا إلى النبي فأقر كلاً على قراءته ،  
وقال قوله المشهور : ( إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ) ، فكانت به إحدى  
رخص الإسلام وسماحته من حيث اللغة . ذلك لأننا حين ننظر إلى هذا الحديث  
في ضوء الروح الإسلامي نرى أنه يهدف إلى التيسير على الناس في قراءة القرآن .  
فالمسلم أيّاً كان لهجته . وأياً كان الصعاب الكلامية التي درج عليها يستطيع  
أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته أعضاء نطقه ، دون أن ننكر عليه قراءته

أو أن تسخر منها . أو كما عبر ابن قتيبة بقوله : ( فكان من تيسير الله أن أمره أن يقرأ كل قوم بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم . . . فلو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً اشتد ذلك عليه وعظمت المحنة ثم لم يمكنهم إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسامة وقطع للعادة )<sup>(١)</sup> .

بل نلاحظ تلك السباحة بوضوح في دفاعه صلى الله عليه وسلم عن سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي . حين قرر أن كل من يتكلم بالعربية فهو عربي . فلم يقل إن من يحسن العربية أو يجيدها هو وحده العربي ، بل كل من يتكلم بالعربية يستحق أن ينتمى إلى العرب ، وأن يصبح واحداً منهم . وبهذا كان يشجع الرسول غير أبناء العرب على تعلم العربية ، ويغض الطرف عن تلك الفروق الصوتية التي بين لهجات العرب ، وعن تلك الانحرافات النطقية التي قد تسمع من الأجنبي عن اللغة العربية ، ويقرر أن مجرد الكلام بالعربية يؤهل صاحبه للانتماء إلى العرب أنما كان أصله وأباً كانت لغة أبويه

يروى الإمام مالك قال : ( جاء هيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بصرة هذا الرجل فما زال هذا " مشيراً إلى سلمان الفارسي " فقام معاد بن جبل فأخذ تلييه . ثم أتى به النبي - عليه السلام - فأخبره بمقالته ، فقام النبي - عليه السلام - قائماً بجزء رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودي أن الصلاة جامعة . وقال : يا أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هي اللسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربي<sup>(٢)</sup> .

وهكذا رأى النبي بثاقب بصيرته أن نحاح الدعوة الإسلامية لا يتم إلا بالقضاء على كل مظاهر العنصرية الجاهلية ومنها عقدة اللغة . فهو الذي يقول : ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) . ويقول : ( كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فصل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ) . وغير ذلك من أحداث تقرر مدأ من أسس

( ١ ) كتاب العرب ١ ص ٢٢٢ وكتب اللهجات العربية ص ٤١ .

( ٢ ) تهذيب تاريخ ابن عسكركر ٦ ص ١٩٨ .

مبادئ الإسلام هو الأخوة الإسلامية .

ولا يصح أن نتصور أن ما حدث في عهد عثمان من جمع المسلمين على مصحف واحد كان انتكاساً لتلك السباحة التي شهدناها على عهد رسول الله ، بل امتداداً لعمل النبي على جمع شمل المسلمين والتهوين ما أمكن من قدر تلك الفروق الصوتية التي منشأها لغات أجدادهم قبل الإسلام ، من فارسية ويونانية وقبطية وغيرها . فهدف عثمان كان أيضاً القضاء على عقدة اللغة بين المسلمين في الأمصار ، فعمل على جمع المسلمين على مصاحف أمر بكتابتها ووزعها على الأمصار ليحول دون بلبلتهم في قراءة القرآن ، وليجمع شملهم .

وهكذا نرى أن الإسلام على عهد الرسول والخلفاء الراشدين كان يربص بأصحاب العصية اللعوية ، ويدعو إلى السباحة من حيث اللغة ، ويقنع من المسلمين بأداء العربية على حسب ما تستطيع ألسنتهم ، ويرى أن الأولى أن يجمعهم الوحدة الإسلامية ، وأن يكونوا إخواناً في الدين . ولهذا لا نعرف أن أحداً من الفاتحين في صدر الإسلام قد دعا الناس في الأمصار إلى نداء لغات آبائهم . بل وجهت الدعوة كلها إلى الدين والدخول فيه ، ولم يُطلب من المسلم في الأمصار أن يتعلم من العربية إلا نصع آيات من القرآن تصح بها صلاته .

وبتم ٥ عهده

وإذا كان ما حدث فعلاً بعد ذلك من أن كثيراً من الناس في الأمصار قد حشروا لغات أجدادهم ، فإيما كان ذلك منهم عن طواعية ، وعن رغبة في تعلم تلك اللغة التي نزل بها القرآن ، وهو دستور دينهم الحديدي والمعجزة الكبرى له

أما في عهد الدولة الأموية فقد تبدلت الحال كما أشرنا آنفاً ، وأصبحت الدولة عربية أكثر منها إسلامية . وبدأت النظرة للمسلمين من غير العرب على أنهم الموالي . ولم يكن لقب الموالي ثدي الأمويين يدل على أنهم أدنى من العرب منزلة . أو أقل شأنًا كما برغم بعض المؤرخين من المؤرخين الذين أحلوا بأقوال من شنعوا على الدولة الأموية بعد زوالها ، من الشيعة

والعباسيين . فلم يكن بدعاً أن يلقب الأمويون غير العرب من المسلمين بالموالي وإنما كان هذا على نهج ما قام به الرسول من تلقيب أهل المدينة بالأنصار بعد الهجرة . وكلمة الموالى ترادف كلمة الأنصار في دلالتها وأهدافها ، وإن أسيئت النظرة إليها بعد ذلك . فلم يقنع أولئك الذين شعوا على الدولة الأموية إلا بأن يصورها بمثل ما تنطوى عليه القصة التي يقال فيها إن أحد الموالى خطب فتاة من بني سليم وتزوجها ، ففرع محمد بن بشير الخارجي إلى والى المدينة وشكا إليه ، ويقال إن الوالى أرسل في طلب الزوج وفرق بينه وبين امرأته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . . (١)

والذى لا شك فيه أن الدولة الأموية كانت عربية في تقاليدها ونظمها ، وأن مقاليد الأمور فيها كانت بيد العرب من خلافة أو ولاية أو قيادة ، وأن الأمويين كانوا يعتزون بقويتهم العربية ، ولكنهم لم ينظروا إلى الموالى على أنهم دونهم جنساً أو لغة ، بل إخوة في الدين ، وأنصار في الإسلام .

لا غرابة إذن أن شهدنا اختلاط العرب بغيرهم في عهد بني أمية ، بل امتزاجهم بهم عن طريق المصاهرة في كثير من الحالات . ولا غرابة أن نشهد في عهدهم بعض القواد والولاة مثل « عبيد الله بن زياد » الذى لم يكن يحس النطق بالعربية فيبدل الحاء هاء والقاف كافاً بل شهدنا من أساء الفارسيات من يولى الخلافة مثل « يزيد بن الوليد » سنة ١٢٦ هـ . كذلك كان في العصر الأموى طائفة من أهل العلم الدين ولدوا في بيئة فارسية ، ومع هذا كانوا محل التجلية والاحترام من جميع الناس ، مثل الحسن البصري الذى يروى أنه حين توفي خرجت البصرة على مكرة أبيها لتشيع جنازته حتى سعلت صلاة العصر في المسجد الجامع ، هذا رغم أن أناه كان أحد الأسرى من مدينة « ميسان » .

### انتشار الإسلام في فارس :

بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية ، وساد السلام ، أخذ الدين الإسلامى يعزو قلوب الناس في الأمصار وعقولهم ، وأقبلوا عليه إقبالاً متقطع الظير ٥

فقد انتشرت الدعوة الدينية في ربوع فارس ، واتسم انتشارها هناك بالربعة لا الرهبة . فقد سارع الناس من أهل فارس إلى هذا الدين الجديد الذي قضى على ما كانوا فيه من بلبلة روحية . ذلك أن بلاد فارس قبل الإسلام كانت تتارعها ديانات ثلاثة . الدين الرسمي للدولة وهو المسمى بالزرادشتية الذي ظهر هناك خلال القرن السابع قبل الميلاد ، وظل سائداً بين الكثرة الغالبة من الفرس حتى جاء الإسلام . وكان هذا الدين ينادى بأن الإله الحق هو « أمورا مردا » ، أى أنه فيما يبدو كان يدعو إلى الوحدانية . غير أن أتباعه فيما بعد قد أفسدوا هذه الوحدانية بتفسيرات وتأويلات ترتب عليها أن نشأ بينهم خلاف ديني يشبه إلى حد كبير ما بين المسيحيين من أنصار الطبيعة الواحدة والطبيعة الثنائية وقد خلف « زرادشت » صاحب هذا الدين أو الداعي إليه كل تعاليمه في كتاب مقدس يدعى « الأستا » . وبرغم أن هذه الديانة ظلت خلال قرون ، الديانة الرسمية لبلاد فارس . كان كثير من أهلها لا يطمعون كل الاطمئنان لمبادئها . ويتطلعون إلى دين آخر يشع عاصمتهم وبرعاتهم الروحية . لذلك ظهر بينهم في العصر المسيحي عقيدتان هما « الزرادشتية » إحداهما في آخر المائتين من ميلاد زدهى « المانوية » ومانوية دية ، أثرت بالملسعة اليونانية وبناءت على مسيحية في بعض تعاليمها . وكان بين أصحاب « الزرادشتية » و « المانوية » صراع ديني مرير انتهى بقتل « ماني » مؤسس « المانوية » شر قتلة ولكن « المانوية » مع هذا صلت شبه سريره في بلاد فارس ، ووجدت صدى رحاً في بعض مناطق بلاد الخيرة .

وأخيراً كان المذهب « المردكي » الذي دعا إليه « مردك » وقد ادعى « مردك » أنه يوحى إليه ، ثم جاء الناس بتعاليم جديدة عربية ، منها أنه أبطل احترام النار ، كما أبطل الملكية الشخصية للمال والعقار . بل والنساء . . فهو مذهب إناحي أقبل عليه كثير من العوعاء والرعا . واعنقه « قياد » أحد ملوك الفرس فترة من الزمن . ولكن مصير أصحاب هذا المذهب لم يكن أسعد من مصير أصحاب المانوية في تلك البلاد

وهكذا نرى أن العقائد في بلاد فارس حين جاء الإسلام كانت تسودها بلبلة روحية جعلت الناس يتطلعون إلى ما ينقذهم منها فلما جاء الإسلام وجلوا فيه طلبهم المشودة ، فأقبلوا عليه إقبالا عظيماً . وفي خلال سنوات كان الدين الحنيف يسود في كل بقاع فارس وأفغانستان . وكان تمسك الفرس بالدين الإسلامي واعتزازهم بتعاليمه أيام الأمويين لا يقل عن العرب الذين جاءوا بهذا الدين الجديد . وطلت بلاد فارس بعد ذلك وفي كل العصور بلاداً إسلامية لا تحيد عن تعاليم الإسلام ، بل ربما أوغلت فيها أحياناً إلى حد التعصب ، مما أدى إلى نشأة عدة فرق إسلامية فيما بعد

### صراع العربية مع الفارسية :

لم يكن هناك صراع ديني بين العرب والفرس في عهد بني أمية بل صراع لغوي ، أو صراع بين قوميتين وظهرت بوادر هذا الصراع حين قام عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين في الأمصار فقد قوى الشعور بالقومية العربية في عهده ، إذ تنبى العرب بعد الصلح بأرمين أن خير لساناً عربياً من بيتا بنصرون . ويحسون وحدهم أدبه . ويصبرون كالكبد شدة وجده . والصبر بالصوت . فاشند نعلقتهم وأعرارهم هذا اللسان وأصبحوا يرون أنهم لم يسموا عرباً . ولم يكن لهم ذلك الكيان المتميز إلا على أساس لغتهم ولذلك حرب « عبد الملك » شعراء الدولة وأدباءها من محبسه . ونصب نفسه حامياً للملك اللغة الشريفة التي كرمها الله سبحانه بنزول القرآن الكريم بها واشتهرت في عهد عبد الملك المجالس الأدبية التي اجتمع فيها شعراء وأهل التصاحف والديان . وأثيرت فيها مسائل من النقد الأدبي . والعوص عن نواحي الخمار والبلاغة في النص العربي وكان عبد الملك يشعر شعوراً غوراً بخصائص لغته . ويحاول جاهداً الحفاظ عليها ووقايتها من الانحراف والزلزل الذي بدأ يحوي على بعض أسس الناس في عهده . ولذلك حين سئل لقد عجل إليك اسبب يا أمير المؤمنين . أجاب « شسى موافقت الخطاة وبوقع اللحن »

وأسف عبد الملك أسفاً شديداً لظهور اللحن على سان ابنه « الوليد » وقال  
كلمته المشهورة « أصر بالوليد حُبنا له فلم نرسله ندية » . ولكن ابنه الآخر  
سليمان كان مثل أبيه مشهوراً بالقصاحة وحسن البيان .

ورأى عبد الملك بثاقب رأيه وبائع حرصه على بعثه أن يقوم بعمل خطير  
فيه قدر كبير من المغامرة ، ولكن في نجاحه حماية معه عرب ، ونصراً لسياسته  
العربية . فأمر بتعريب الديوانين حتى لا تكون لغة غير عربية منه أو دالة .

أما كيف تم هذا التعريب ، وما هي المشكليات يمكن أن تكون قد  
صادفته فلا نحدثنا كتب التاريخ عن تفاصيل ذلك . بل نكتفي بأن تشير إلى  
أن الذي عرب ديوان العراق من الفارسية إلى العربية هو صالح بن عبد الرحمن ،  
وأن الفرس حاولوا عبثاً أن يثنوه عن هذا . فلهذا فن له رئيس الديوان  
مروان شاه « قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل فارسية » . وكان الحجاج  
هو الذي أصدر الأمر بتعريب الديوان تحقيقاً لرغبة حبيبة عبد الملك وإرادته .  
وتخير الحجاج لهذه المهمة الخطيرة صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم الذي  
كان يحسن العربية والفارسية . ولما أراد الفرس أن يتحدوه سأله كيف تصنع  
بدونه . ويستوثقه . فقال أكتب عشرة وعشرين . فقالوا له وماذا  
تصنع « بوبد » . قال أكتب أصلاً . وروى . فرس قد بدلوا ما لا  
كثيراً بصالح بن عبد الرحمن لعله يظهر عجزه عن تعريب الديوان من الفارسية .  
لكنه أنى وأدى مهمته خير أداء .

ولكن تعريب ديوان خراسان من الفارسية أيضاً لم يتم إلا في عهد هشام بن  
عبد الملك أي بعد نحو ربع قرن من تعريب ديوان العراق . فقد ظل هذا الديوان  
وحده يسجل بالفارسية حتى أمر هذا الخليفة نصر بن سيار وإلى خراسان  
من قبل بني أمية ألا يستعين بأحد من أهل الشراء في أعماله وكتائبه . ورأى  
نصر بن سيار أن أكثر الكتاب بهذا الديوان من مجوس امرس فأمر بتعريبه . وقد  
قصمت هذه الخطوة ظهور أهل فارس وعرعوا منها فرعاً شديداً

أما تعريب الديوان عصر والشام فقد تم في عهد عبد الملك وابنه الوليد .

ويبدو من كلام المؤرخين العرب أنه لم يصادف في هذين المصرين متاعب أو مشاكل ، بل تحقق في هدوء وسلام . ويرى لنا أن رئيس الديوان بالشام « سرحون » كان يدل على الخليفة وأعوانه بمهارته في تدبير أمر الديوان ويتأقل كلما طلب منه أمر . فأشار عبد الملك بتحويل الديوان إلى العربية بدلا من الرومية .

وكذلك كان الشأن في تعريب ديوان مصر ، فقد أمر بهذا التعريب الوليد بن عبد الملك ساء على مشورة أخيه عبد الله وإلى مصر ، وأسوة بتعريب ديوان الشام .

ولكى نتبين بجلاء حقيقة الصراع اللغوي بين العربية والفارسية في المشرق يجدر بنا أن نشير إلى ما تألف منه المجتمع الإسلامي في أمصار العراق وبلاد فارس بعد أن استقرت الفتوحات . فقد نزع إلى بلاد فارس طبقة من الحكام العرب وكانوا قلة في عددهم . كثرة في نفوذهم وسلطانهم . وكان من الضروري أن يسعينوا في قضاء حوائجهم بالآلاف من الفرس في صورة خدم أو عبيد أو طهاة أو تحار . ثم كان مع هؤلاء أولئك الأسرى الذين دخلوا بيوت العرب في صورة إماء . ولم يكونوا أقل عدداً من سنوهم هذا إلى أن الكثيرين من العرب أقبلوا على الزواج بالفارسيات . وولد منهم أبناء وأحفاد . وتتصور لهذا أن المجتمع الإسلامي في أمصار العراق قد تألف معظمه من الموالي الفرس الذين لا يكادون يحسبون العربية . وكان من الطبيعي أن يتخذ هذا المجتمع الإسلامي وسيلة للتفاهم فيما بينهم . ثم بدا بعد قليل من الزمن أن العرب يعترفون بلغتهم ويسمسون بها . وأن الفرس قد عجزوا عن محاكاة هؤلاء العرب أو الوصول إلى مستواهم في أداء العربية . بل من الفرس من آثروا لغتهم الفارسية واستمككوا بها أيضاً . وهذا نشأ صراع لغوي بين الحائذين انتظمه روحان متباينان ، فمن جانب العرب سادت فيهم ما يمكن أن يسمى بعقدة التفوق Superiority Complex ومن جانب الفرس غلب عليهم ما يمكن أن يسمى بعقدة النقص Inferiority Complex ومع هذا قمع كل من الفريقين في نادي



الأمر بأن يصطنعوا في الأمور العامة لغة عربية في بعض ظواهرها ، وتعدّ في الحقيقة مسخاً للعربية الفصيحة ، وأشبه بما يعرف في بعض شواطئ الصين بالإنجليزية المهجنة Pidgin English . واتسمت هذه العربية الجديدة بأبسط وسائل التعبير اللغوي ، وتحريف العناصر الصوتية التي اختصت بها لغة العرب ؛ بل شملها أيضاً بعض الانحرافات في الصيغ وتراكيب الجمل ، والتخلص من ظاهرة الإعراب ، وكثير من الألفاظ والعبارات الفارسية .

ولم تقتصر هذه الحال على الجهات القريبة من بلاد فارس ، بل جاوزتها إلى المدن الإسلامية التي أسسها العرب كالبصرة والكوفة . فيروي أن عبید الله ابن زياد والي العراق أيام الأمويين كان لا يحسن النطق بالعربية ، وكان يعيّر هذا شاعر يسمى ابن مفرغ ، فلما تمكن عبید الله من أن يضع يده على هذا الشاعر أمر بحرقه في ثياب ممزقة في طرقات البصرة ، وتجمع عليه الصبيان يسخرون منه ويهزأون ويسألونه بالفارسية : إين چیست ؟ أي ماهذا ؟ فيجيبهم ابن مفرغ بالفارسية أيضاً : آب است ، بيد است ، عصارة زيب است ، سمیه روسی است . أي هذا ماء ، وبید ، وعصارة زيب . وسمیه البعی<sup>(١)</sup> .

ورغم هذا شهد العهد الأموي عصاً من الملوك أصحاب الطموح الذين حاولوا حياهم السبورة على لغة عربية الفصيحة . ولكن عيت في أستمه لكفة تم عن أصلهم ، وتمشي ما استر من انماهم للفرس . ويكفي أن نشير هنا إلى أن الفقيه الكبير « مكحول » المتوفى سنة ١١٧ هـ كانت لهجة العربية سم عن أصله الفارسي . إذ كان يبدل الحاء هاء والتفاف كافاً . وكذلك الشأن مع المحدث الثقة الكبير « نافع » أستاذ مالك

والعرب أن بعض هؤلاء الملوك أمام الأمويين كانوا يحاولون نظم الشعر العربي . وعرف منهم شعراء من أمثال زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ وهو مولد المهلب بن أبي صفرة حاكم حراسان . وقد سمي بالأعجم للكفة في لسانه جعلته ينطق بالعربية وبلحاء هاء ويرقق حروف الإطباق . وذلك هي

(١) ت. مع الطبری ٢ ص ١٩٢ أعني ١١ ص ٥٦

السمات الخاصة باللسان الفارسي . بل يذكر الجاحظ أن زياداً الأعجم كان يجعل السين شينا والطاء تاء فيقول في « السلطان » « الشلتان » . ولهذا اختار له المهلب بن أبي صفرة غلاماً فصيحاً ينشد له شعره في بعض المجالس والأندية . وتكررت هذه الحال مع شاعر آخر من الموالى هو أبو العطاء السندی الذي اختار له ممدوحه من يلقى له الشعر ، وفي هذا يقول :

أعوزتني الرواة بآبن سليم      وأبى أن بقم شعري لسانى  
وغلى بالدى أجمعهم صدرى      وشكائى لعجمى شيطانى  
فاكفى ما يضيق عنه روائى      بمصيح من صالح الغلمان  
يفهم الناس ما أقول من الشعر      فإن البيان قد أعيانى

نشأت إذن تلك الروح التي اتسمت بالعصبية القومية بين العرب والفرس على أساس اللغة أو عن طريقها . فالعرب الذين نزحوا إلى الأمصار قد اعتزوا بلغتهم إلى أبعد حدود الاعتزاز . ورأوا فيها الفصاحة كل الفصاحة . وكان الرجل منهم يقاس مركزه الاجتماعي على قدر إحادته لها وحسن نطقه لأصواتها ، بين شاعر ينشد شعره في الأسواق ، أو خطيب يدعو إلى مذهب اجتماعي أو سياسي وقد أعادوا في العصر الأموي صوته من أروع ما ألهاه قبل الإسلام في أسواق العرب التي كانت بمثابة مؤتمرات تدفع . وأقاموا بالبصرة سوق « المريد » يتنافس فيها الشعراء بإنشاد روائع القصائد ، وتندوى في حباتها أصوات الخطباء الموهين .

وقد نشأت العربية قبل الإسلام في بيئة أمية فتلقاها أبساؤها عن طريق الآذان وحدها ، وأدّى هذا في نهاية الأمر إلى أن أصبحت أسماعهم مرهقة تنهر من الأصوات التي تسوق في السمع . ومن تناهر الحروف محتمة . فتخلصت لغتهم من الكلمات التي لا انسجام في أصواتها . وأصبحت لغة موسيقية الألفاظ والعارات<sup>(١)</sup> ولذلك لم يكن العربي يحمل سماع الكلمات من لحنه أو ترديدها . وكان يعد كل ما سوى العربية لكنة وعجمة . ومن هنا جاء الاستعمال القرائي في قوله تعالى « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة : «أى لسان الذى يميلون إليه ويشيرون أعجمى . والعجمة الإحفاء وصد البيان . ورجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح » إلى أن يقول . «والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجمياً»<sup>(١)</sup> .

فلما اتصلوا بالفرس ، وبدأ الموالى من المسلمين يحاولون تعلم لغة دينهم الجديد أعيتهم أصواتها وتراكيبها . وأحسوا بعقدة النقص أمام العرب برغم أن الإسلام قد سوى بينهم ، وجعلهم جميعاً إخوة فى الدين . وإزاء عقدة اللغة وبسببها انقسم المجتمع الإسلامى فى حدود فارس إلى فريقين : أولئك الذين يحسنون العربية نطقاً وأداءً ، وأولئك الذين يتعثررون فيها ، وسيطر على الفريق الأول عقدة التفوق فى اللغة Superiority Complex . كما سيطرت على الآخرين عقدة النقص Inferiority Complex . وحيث نشأت تلك الحركة الانفصالية التى عرفت بعد ذلك باسم الشعبوية ، فى التاريخ الإسلامى ، والتى ظهرت بوادرها لنصر بن سيار وإلى خراسان ، وجعلته يكتب للخليفة الأموى مروان الثانى مندرأً ومحدراً فى أبيات مشهورة مطلعها :

أرى بين الرمد وميص نار وبرزك أن يكون لها صرام

وقد بلغت تقومية العربية دروتها . وامتدت إلى أقصى ماطفها فى عهد عبد الملك ، فشملت إسبانيا وشمال أفريقيا ومصر والشام وبلاد العراق مع شبه الجزيرة العربية . وكان انتشار هذه القومية على قدر انتشار اللغة العربية واستقرارها فى تلك المناطق . وانتشر معها الدين الحنيف يعزو قلوب الناس وعواطفهم . واللغة تغزو ألسنتهم وحاجرتهم . وصادت العربية فى بلاد الشام عدة لغات قصت عليها جمعاً وحلت محلها . فقد كان معظم العامة يتكلمون «الآرامية» وهى لغة سامية شقيقة للغة العربية ، ويصطنع المثقفون منهم اليونانية والرومانية . فنعلت العربية على كل ذلك ، وبدأت تستقر فى ربوع الشام . واستقرت معها القومية العربية . وما يسر ذلك على أهل الشام أن ألسنتهم كانت تنطق



أبا حنيفة كان يقتلى في هذا بالصحابي ابن مسعود<sup>(١)</sup> .  
ولا يتأق مثل هذا الاتغماس في الحياة الفارسية دون أن يكون للغة الفرس دور كبير في حياة الناس أيام العباسيين . لا غرابة إذن أن يحدثنا بعض المؤرخين أن لغة كثير من الناس في هذه الدولة كانت ثنائية . أي يتكلمون العربية والفارسية ، بل كان الأمراء والوزراء وجلهم من الفرس يؤثرون الكلام بالفارسية حتى في قصور الخلفاء . ولذلك نشأ حيل من الناس ينطق باللسانين العربي والفارسي ، ويترجم اللغتين إحداهما إلى الأخرى من أمثال « وهب بن منبه » و « طاوس بن كيسان » و « موسى بن ميار الأسواري » الذي بصفه الجاحظ بقوله : ( إنه كان أعجب أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ويفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأي اللسانين هو أبير » .

تلك كانت حال الناس في بعض مدن العراق على حدود فارس . أما في المدن التي نأت من بلاد الفرس كخراسان ونحوها . فسدو أن الفارسية قد طلب الناس اساءة . وفتصر شأنهم على المسائل الدينية والعلمية . وبين الخاصة من المثقفين الذين اسهر أمرهم في كتب التاريخ . في حين أن العامة من الناس في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم لم يكونوا يصططعون إلا الفارسية في كلامهم ، ولا يكادون يعرفون من العربية إلا بضع آيات من القرآن الكريم يتعبدون بها في صلاتهم ونسكهم . ويرددونها في رطانة أعجمية . وقد بلغ من تأصل الفارسية في تلك التواحي النائية من فارس أن شق على كثير من المسلمين هناك حتى قراءة فاتحة الكتاب في ألسانها العربية . مما جعل أبا حنيفة فيها يروى : لما يفتي بحوار قراءة فاتحة في الصلاة بالفارسية . فيقول السرخسي ما نصه : ( ثم عد أي حنيفة رحمه الله إنما يجوز الفارسية إذا كان

يُستقن بأنه معنى العربية (١) .

ووصل الأمر في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث من الهجرة أن بعض وزراء الخلفاء العباسيين كانوا يؤثرون الفارسية في مجالسهم الخاصة . فالفضل ابن سهل ذو الرياستين ووزير المأمون ، رآه مرة الطبيب ابن « بختيشوع » في أثناء مرضه بالحمى فوجد في يده المصحف فسأله بالفارسية (چون بیبی نامہ لیزد؟ أي كيف تجد كتاب الله؟) . فأجاب الفضل بالفارسية أيضاً (خوش وچون کليلة ودمه : أي حسن مثل كليلة ودمنة) .

ولعل أكبر خطوة اتخذها المأمون في نصرة الفرس أن كافأ قائده طاهر بن الحسين بولاية خراسان ، وجعلها لأولاده من بعده بتوارثوتها ، فكأن بيننا للفرس من هذه المنطقة ، إذ تعد الدولة الطاهرية أولى الدول الفارسية التي قامت في الإسلام . وقد حل محلهم في خراسان « الصفاريون » سنة ٢٥٩ هـ وهم فرس دما ولحماً ولغة . ولذلك لاندعش حين يروى لنا أن أحد الشعراء قد نظم قصيدة بالفارسية ليستقل بها المأمون عند قدومه إلى « مرو » ، وإن كان بعض الدارسين يتشكك في صحة هذه الرواية (٢) .

### الشعوبية صراع لعوى :

الشعوبية مصطلح بغض بتردد كثيراً في كتب التاريخ الإسلامي ، ولا يزال يحرق على بعض الألسنة والأقلام كلما أريد وصف حركة انفصالية في منطقة من المناطق . وما يسمى بالشعوبية أو الانفصالية في نظر بعض الناس ليس في الحقيقة إلا القومية في نظر الفريق الآخر . وهكذا نرى أن الحركة السياسية الواحدة قد يسخط عليها قوم فيطلقون عليها الشعوبية . ويرضى عنها آخرون فيسمونها بالقومية . والحركة التاريخية التي ظهرت بوادرها في أواخر عهد

(١) المسود للرحى ص ١٠ ص ٢٧

(٢) تاريخ الأدب في إيران ص ٢٢ تأليف المشيقي « راود » وترجمه الدكتور إبراهيم

بنى أمية كانت من وجهة نظر العرب حركة شعوبية ، ومن وجهة نظر الفرس حركة قومية .

ويحدثنا بعض المؤرخين عن تلك الحركة الشعوبية التي قامت بين العرب والفرس والتي اقتضت في الحقيقة على المشرق ، فيرغمون أنها كانت بين العرب وكل الأعاجم . بل يحاول بعض الدارسين أن يلتمسوا جذور هذه الحركة في تلك الحوادث الفردية التي وقعت في صدر الإسلام كقتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي . وربما غالى بعضهم فتلتمس تلك الجذور في الصلة بين العرب والفرس قبل الإسلام .

وفي الحق أن هذه النزعة الشعوبية لم تتخذ طابعاً واضحاً إلا في أواخر عهد بنى أمية . وإذا كان الأصفهاني<sup>(١)</sup> يصف «إسماعيل بن يسار» بأنه شعوبي فذلك من عند الأصفهاني حين عرف عنه أنه كان يرفع من شأن الفرس أمام هشام بن عبد الملك في قصيدة جاء فيها :

أصلى كريم ومجدي لا يهاس به      ولي لسان كعبد السيف مسموم  
أحمى به مجد أقوام دوى حسب      من كل قره نتاج الملك معموم

فمصطلح الشعوبية قد دأب في العصر العباسي . أو عبارة أدق في أوائل القرن الثالث من الهجرة . ولما يعرف كتاباً حصص لتاريخ الشعوبية ، أو اقتصر مؤلفه على بحثها وسرد حوادثها وتفسير حوافرها وكل ما تحده لدى القدماء بصدد هذه الحركة لا يعدو أن يكون إشارات وروايات متناثرة في كتب الجاحظ ولا سيما البيان والتبيين ، وفي العهد الفريد . وفي بعض ما نقله ابن قتيبة في كتابه المسمى بالعرب .

وهذه الحركة الشعوبية التي ظهرت بوادرها في أواخر عهد بنى أمية ظل صداها حتى بعد أن أسست الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري . ويحدثنا رواة الأدب أن شاعراً من أصل فارسي نال من العرب في حصره اصحاب

ابن عباد وزير آل بويه في قصيدة مطلعها :  
 عنيثا بالطول عن الطلول وعن عشم عذاهرة ذمول  
 فقال الصاحب لبديع الرمان الحمذاني وكان بالحصرة « أحب عن ثلاثك  
 أدبك وسك ومنهيك » . فأنشد الحمذاني قصيده يرد فيها على مزاعم الفارسي  
 ويقول :

أراك على شفا خطر مهول      لما أودعت قولك من فضول  
 نريد على مكارمنا دلا      متى احتاح النهار إلى دليل  
 وبها يقول .

متى عرفت وأنت بها رعيم      أكف الفرس أعراف الخيول  
 ومعظم ما يروى لنا من مظاهر الشعوبية في كتب اللغة والأدب لا بعدو مجموعة  
 من الأشعار تتضمن ذكر مثالب العرب . وأخرى يردّ بها أصحابها موهين  
 بحاسن العرب وطاعين على الفرس والحياة الفارسية . ولكن من الغريب أن  
 الخلفاء في أواخر عهد بني أمية وفي العصر العباسي الأول لم يكتفوا بمصون  
 مثل هذه الأشعار . الشكّل بأصحابها وإلّا لم تأت في تراجمهم وأموالهم . وروى  
 لنا مثلاً أن إسماعيل بن سدر وهو من أصل بني مدح قومه في أدب من  
 شعر بني هاشم بن عبد الملك . ومع هذا لم يصح لأدى بل اكتفى  
 تأسسه

بل حتى الشعراء العباسيون الذين سددوا حديد العرب وبنادقهم . وأشادوا  
 بحياة الفرس وحصارهم من أمثال « بشار بن برد » « وأبي نواس » و « دعبل  
 الجراعي » وغيرهم . لم تكن النظرة إليهم إلا على أنهم قوم من أصحاب المحدث  
 الذين أسرفوا في التشيب بالنساء ومعافرة الخمر . والليل من أعراض الناس  
 المهجاء ، بل لم يسلم بعض الخلفاء من التسميم . ومع ذلك لم يقتل بشار لأنه  
 كان ذا درعة شعوبية . ولم يحبس أبو نواس إلا بسب مجونه وحلاوته .

وتصف كتب الأدب أمثال هؤلاء الشعراء أنهم شعورون . ونسوى منهم



في هذه النزعة بين شاعر « كالحريمي » الذي كل عيبه لدى بعض دارسي الأدب أنه امتدح أجداده من الفرس في قصيدة اختتمها بقوله :  
فلما أتى الإسلام وانشرحت له صدور به نحو الأنعام تيب  
نعمنا رسول الله حتى كأنما سماء علينا بالرجال تصوب

وكل هذه الأشعار وإن صورت لنا في صورة نقائض شعبية ، لا تعدو في رأي أن تكون أشبه بالمهاترات الصحفية في عصرنا الحديث ، أو المنافسة المهنية بين شعراء من أصل عربي ، وآخرين من أصل فارسي . بدليل أنه لا خلفاء بني أمية ولا خلفاء بني العباس كانوا يضيقون حقاً بمثل هذه الأشعار أو يفكرون في إيذاء أصحابها ، بل تركوا هؤلاء وهؤلاء حرية القول ، فكأنما قد تذكروا الآية الكريمة : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون .

ولا نكاد نرى صدى لتلك الدرعة الشعبية بين الكتاب النافرين ، أو بين أهل العلم من الموالى على كثيرهم ، أولئك الذين ألغوا في اللغة والدين وأهمروا في الحياة الثقافية الإسلامية بمصيب كبر .

وإذا كان هؤلاء أدب شعري حقيقي وحب أن يلتصق في شعر عربي أو فارسي نظم في المناطق النائية من فارس كخراسان وطبرستان . غير أن لا يعرف شيئاً عن مثل هذا الأدب ، ولعله اندثر فلم يرو لنا .

فرعة الشعوبية وإن انتهت بنتائج خطيرة أوضاعها إعادته تأسيس الدولة الفارسية فيما وراء الهرين ، والسيطرة على النفوذ والسلطان في مهد الخلافة . لم يكن لها من المظاهر العلنية ما يسوع مثل تلك النتائج . بل كانت أشبه بحركات سياسية سرية انجلمت فيما بعد الطابع العسكري .

فإذا شئنا البرهنة على أن هذه الدرعة لم تكن إلا صراعاً بين العربية والمارسية وحب الاستئناس بكتاب الحافظ الميان والتبيين . وبالكاتب الأخرى التي أشارت إلى الشعوبية ككتاب « العرب » لاسن قتيبه . وكتاب العقدة الحمراء

لابن عبد ربه . ويعدّ كتاب الجاحظ أسبق هذه الكتب وأوفرها ذكراً للشعوبية وسرد حداثها . ذلك لأن الجاحظ عاش كل حياته يشهد مآسي الشعوبية ، بل لقد شهد مولد الدولة الفارسية ، على يدى الطاهريين فى خراسان ، واستطاع من أجل ذلك أن يتنبأ بالمصير الذى انتهت إليه تلك الرعة الانمصالية بين قوم اتحلوا ديناً ، وأصبحوا بعد الإسلام إخراجاً فى الدين . ولكن اتصال اللغتين العربية والفارسية قد ولد الاحتكاك بين الفريقين ، فقد وجد الموالى من الفرس ، كما أشرنا آنفاً ، أنفسهم عاجزين عن السيطرة على الأداء العربى والطق العربى . فأصابهم عقدة النقص ، كما تبين للعرب تعرقهم فى هذا فأصابهم عقدة التفوق . فانعزل هؤلاء عن هؤلاء ولم يشفع لهم إزاء تلك العقدة اللغوية ما كانوا عليه من وحدة دينية إسلامية . واتجه كل فريق إلى الطعن فى لغة الفريق الآخر ورميها بسهام مسمومة ، أو على الأقل النيل من مزاياها وخصائصها .

ويروى لنا الجاحظ وهو من نصب نفسه مدافعاً عن لغة العرب فيصد هجمات الشعوبيين طرفاً من تلك المشاحنات التى قامت بين هؤلاء وهؤلاء . يلاحظ مما روى أن العربيين قد وجهوا كل تبايهم إلى الواحى الوثنية اتصاله لغة . فى حديث الجاحظ عن الملاعة و... يشهد بمصداقه العرب و... المعنى والحصر عنهم . ويشبت الالكنة والرطاة للأعاجم مستنداً على ذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى ميسر . وكذلك يصف الجاحظ العرب بقوله : ( إن العرب أنطق ، ولغتها أوسع ، وانقطعها أدل . وأمثالها أحود وأسير ، والديهة مقصورة عليهم ، والارتجال خاص بهم ) ثم يوزن بين اشعر العربى وما يسميه الفرس شعراً فى لغتهم ويقول : ( إن العرب تقطع الألحان الموزونة . على الأشعار الموزونة . فتضع موزوناً على موزون ، واهجم نط الألفاظ فتقص وتبسط حتى تلخل فى وزن اللحن موزوناً على غير موزون )

وبما وصف به الجاحظ كلام العرب قوله . ( يسرى الأرض كلام هو أمتع ، لا أمتع . ولا آتق ، ولا ألدّ فى الأسباع . ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ،

ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول سماع حديث الأعراب  
العقلاء الصالحاء (١) .

ألا بصور لنا كلام الحافظ هنا شعور قوم سيطرت عليهم عقدة التفوق  
اللغوى ؟

وكان لأصحاب النزعة الشعبوية ردود على ما يصح به العرب ، فإذا صحر  
العرب بالخطابه وجودة النطق ، أحاب أصحاب الشعبوية ( ليست الخطابة ميزة  
امتزمت بها وحدكم ، فهي شيء في جميع الأمم ، حتى إن الزنج مع غباوتها  
وفساد مزاجها لتطيل الخطب ، وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولم فوق  
حظهم التأليف في صناعه البلاغة ومعرفة العريب مثل كتاب كازوند ) . ثم يصفون  
الناطق العربي بعولهم : ( وأين كلامكم الخافي ، وأصواتكم الغليظة من طول اعتيادكم  
مخاطبة الإبل . مما للفرس من معنى دقيق واهط رشيق وصوت رقيق ) .

ويؤكد اما حصة أن الشعبوية صراع بين اللغتين العربية والفارسية المرحوم  
أحمد أمين بقوله في صحى الإسلام (٢) ( إن من أهم أهداف الشعبويين  
الليل من آداب العرب . وذلك بالعمل على إفساد آداب عربى وإصاعة  
معدله نسبة الشيء إلى عمر فئله كالذى قام به أبو عبيدة الذى كان أوسع  
علماً وأكثر ثقافة ، فقد عرف تاريخ الفرس لفارسيته ، والثقافة اليهودية ليهودية  
آبائه . ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعى . فالأصمعى يمثل العربية  
ويتعصب لها . وأبو عبيدة يمثل فكرة الشعبوية . والبحث عن معائب العرب  
والتشهير بهم ) .

ومن أدلة الصراع بين اللغتين ما يقال من أن الشعبوية قد دفعت بحماد  
الراوية وخالف الأحمر ليتحلا أشعاراً على العرب القدماء رعة في إفساد آدابهم  
والانتقام من لغتهم

( ١ ) البيان والنبير - ٣ ص ٢  
( ٢ ) صحى الإسلام - ١ ص ٤٩

وبلغ الشأن بهؤلاء وهؤلاء في نهاية الأمر أن تورط كل من الفريقين في وضع بعض الأحاديث التي اختلقوها ونسبوها إلى النبي . فقد رجم الفرس أن النبي يقول : ( إن الله تعالى إذا عصّب أنزل الوحي بالعربية . وإذا رضى أنزل الوحي بالفارسية ) . . ويرد عليهم العرب قائلين إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول ( أحسوا العرب لثلاث . لأنني عربي . والقرآن عربي . ولسان أهل الجنة في الجنة عربي ) .

فدعة الشعوبية ليست في حقيقة أمرها سوى صراع بين اللغتين العربية والفارسية . وقد عني الجاحظ بوصف نطق الأعاجم للأصوات العربية ، وكان مما قرره في هذا الشأن أن الأعجمي لا يقدر على إتقان النطق بهذه الأصوات العربية ( ولو أقام في عليا تميم ، وفي سفلى قيس . وبين عجر هوازن حمير عاماً ) .

وانتهى أمر تلك الرعة الشعوبية بأن استقلت فارس . وأسست فيها أولاً الدولة الصفوية . ثم الساسانية على النحو المعروف في كتب التاريخ وحيث فقط شاعت تلك التسمية التي حلها العرب على لغتهم وهي « الصاد » .

فقد بين لنا ش. عب. أنجب مؤتمر مجمع اللغة العربية (فبراير سنة ١٩٦٧) أن تسمية العربية بلغة الصاد قد شاعت في القرن الرابع الهجري للتمييز بين العرب وغيرهم من الفرس والأرامل . وأن نشأة هذه التسمية قد بدأت في بغداد ومنها انتقلت إلى بعض البلاد العربية الأخرى . وأصبحت الآن قصبة مسلمة دون تفكير في أصل نشأتها . ودون اهتمام إلى المسئول الأول عنها

ومما حاء في هذا البحث لمحاولة الوقوف على أصل هذه التسمية « لغة الصاد » . نصه . ( ولكن سيبويه لم يشر مطلقاً إلى أن الصاد وحدها مما تميزت به اللغة العربية . أو أن هذه اللغة تسمى بلغة الصاد . وقد بددش بعضاً لصمت سيبويه عن هذه التسمية « لغة الصاد » إذا تذكر ذلك الحديث المروي في كتب البحار والأصوليين من المتأخرين . وهو « أنا أفصح من نطق بالصاد » ولو قد

صح هذا الحديث لاقتضى ذلك أن نتصور أن النطق بالضاد التقديمه صفة  
تميز بها النطق العربى أيام النبى صلى الله عليه وسلم . بل وقبل ذلك . وأن  
تلك الصفة كانت قد شاعت وذاعت . وأنه قد أصبح من المألوف والمعهود  
حينئذ تمييز العربى بوساطة النطق بهذا الصوت . مما يسوع أن يطلق على اللغة  
العربية « لغة الضاد » ولكن هذا الحديث كما يقرر معظم الثقات من القدماء  
لم يثبت ولم يصح وليس له سند . فيروى القاضى عياض فى كتابه الشفاء هذا  
الحديث فى صورة « أنا أفصح العرب بيد أنى من فريش . . . إلخ » ويعلق  
على هذه الرواية شراح الشفاء فيقول شهاب الدين الخفاجى فى كتابه نسيم الرياض :  
وأما ما اشتهر من « أنا أفصح من نطق بالضاد » فقالوا إنه لم يثبت ، وإن ذكر  
فى كتب النحو والأصول . ويقول « على القارئ » فى شرح الشفاء أيضاً .  
« وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد » فنقله الحلبي عن ابن هشام . لكن  
لا أصل له كما صرح به جماعة من الحفاظ .

إلى أن قلت فى البحث ( وهكذا يرى أن علماء اللغة حتى أواخر القرن  
الثانى من الهجرة لم يلبسوا إلى صوت الضاد على أنه مما تميز به العربيه وبعدها  
وم تطلقوا على هذه اللغة ذلك المأثور « لغة الضاد » وكل ما أشبهه  
فى كتبهم أن كان هناك أنواع من النطق غير مسجسه وقعت فى بعض الأصوات  
ومن بينها الضاد . ثم جاء الخاطى وتوفى أن يرى فى كتبه ما يوضح هذا الموضع .  
فهو الذى عنى عبارة كبرى بلغة العرب ونطق العرب وموقف الأعاجم من أصوات  
العرب . فقد تحدث عن كثير من عيوب النطق بين المتكلمين . كما تحدث  
عن نطق السطى والحراسانى والأهوازى والزنجى والسدى والحشى . وكان قد فرده  
أن السدى يجعل اللحم العربيه راباً ، ولا يقدر على غير هذا ولو أقام فى عبا  
بهم وفى سبلى فس ويين عجر هوارى حمسين عاماً . . كذلك تحدث الخاطى  
عن أولئك الذين كانوا يطقون بالحاء هاء . وبالحاء همزة . وبالحاقاف كافاً .  
وعبر ذلك مما جاء فى البيان والتبيين .

ومع هذا أو رسم هذا لا يكاد نثر فى كلام الخاطى على إشارة لصوت

الضاد وموقف العرب أو الأعاجم منها إلا قوله : « قال الأصمعي ليس للروم ضاد » .  
 أى أن نطق العرب للضاد في صدر الإسلام والعصر الأموي لم يكن يسترعى انتباه  
 أحد من العلماء . ولم يشر إليه على أنه مما تميزت به العربية حتى أواخر القرن  
 الثاني من الهجرة . فلم يهل أحد منهم حتى ذلك الحين إلا بعض المتكلمين  
 بالعربية قد تعرّض في النطق بهذا الصوت وحده ، وإن العربية سميت لغة  
 الضاد من أجل ذلك .

أما إشارة الجاحظ إلى أن الأصمعي كان يقول « ليس للروم ضاد » ، فهي  
 إشارة مقتضية وملاحظة لغيره وليس مستثلاً عنها ، فليست من ملاحظاته المباشرة  
 التي مارسها بنفسه . وأفاض في شرحها كلما وجد انحرافاً في النطق بالأصوات  
 العربية .

ثم بدأ بعد الجاحظ في سرعة عجيبة اضطراب الألسنة في النطق بالضاد  
 العربية . وظهر الخلط بينها وبين الظاء في المشرق بصفة خاصة بعد أن نغلغل  
 السرس والأتراك في ألبانيتها العربية . وكلما عرف موقف السرس والأتراك من الضاد  
 إذ سمعها منهم طاء كشي في نطق العامة لكلمة « مصبوط » فتقارون « مطبوط »  
 وفي « صاص » تحولوا « صاصط » و « صاص » تحولوا « صاصط » في « حطرتنا »  
 « حطرتنا » .

ود استعمل الأمر في القرن الرابع الهجري شهدنا من علماء العربية من  
 يؤلفون كتباً ينصون فيها على الكلمات التي تكب بالضاد والتي تكب بالطاء ،  
 مثل ذلك الكتيب الذي ألّفه الصاحب بن عباد وسماه « الفرق بين الضاد  
 والطاء » .

وهنا أي في المشرق . وحينئذ أي في القرن الرابع الهجري . بدأنا ولأول  
 مرة نسمع عن اختصاص العربية وحدها بالضاد . وعن سميها لغة الضاد  
 بقول النبي في قصيدته التي مطلعها  
 كم قتل كما قُلتُ شهيد  
 سياص الضلي وورد الحدود

لا بقوى شرفتُ بل شرفوا نى      وبنفسى فخرتُ لا بجلودى  
وهمُ فخر كل من نطق الضا      دَ وعوذُ الحاني وغوث الطريد

• • •

ويقول ابن حنى فى «سر الصناعة» حين يتحدث عن الضاد «واعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا القليل». ثم استمر علماء اللغة بعد هذا القرن فى جهادهم للتمييز بين الضاد والظاء، رغبة فى التمييز بين العربى والفارسى أو الأعجمى الذى تمثل لهم فى الفرس والأتراك حيثئذ.

وهكذا نلاحظ أن التمييز بين القوميتين العربية والفارسية كان أساسه لعرب، وجاءنا بتلك التسمية المشهورة «لغة الضاد».

أما فى الشام ومصر وبلاد المغرب فكانت اللغة العربية أوفر حظاً، وأكثر استقراراً، واستقرت معها القومية العربية دون منازع، إذ لم نسمع عن حركة شعوبية هناك كذلك التى كانت بالشرق.

وأما ما يقال لئلا نأخذ «ابن عرسية» فى الأندلس ألف كتأ فى شعوبية لأندلس، وأن بعض العلماء ردوا عليه، فكل ذلك يحتاج إلى تحقيق ونشر كتب الأدب والتاريخ إلى رساله قصيره كتبها من يدعى «ابن عرسية» سى عاش فى الأندلس بمدينة «دانية» فى أوائل عهد دولة المرابطين، ونعده هذه الرسالة فى رأى أصحاب هذه الكتب حلقة من حلقات الشعوبية فى تلك البلاد. وقد وجه «ابن عرسية» هذا رسالته إلى صديق له، وفيها يتفصّل من قدر العرب، ويشيد بمفضل الأعاجم. ويروى ابن سام فى الذخيرة نصاً هذه الرسالة، كما عثر على نص آخر لها فى مكتبة «الاسكوريال» وحقق هذا النص أحد الدارسين ونشره المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديره سنة ١٩٥٣

ولما أتيت لنا فرصة الاطلاع على هذه الرسالة تبين لنا أن أسلوبها مليء بالسجع المتكلف، والعبارات المشوّهة الغامضة، مما جعل مفسريها من أمثال الناشر المشار إليه آمهاً، وكذلك المستشرق «جلد نسر» صطربون بعض

الاضطراب في تحديد مدلولاتها. ولا غرابة في هذا فان غربية نفسه كما يروى لنا  
يتنمى إلى الدوشكنس من الصقالبة الذين كان لهم نفوذ كبير في أواخر عهد  
الحلافة بالأندلس

والذي يسترعى الانتباه فيما جاء هذه الرسالة أنها لا تكاد تحدد المقصود  
من الأعاجم الذين فضلهم صاحبها على العرب . فمعان العبارات فيها عامة .  
والإشارات فيها غير محددة ، بل لانكاد نطفر فيها بما يشير إلى أعاجم الأندلس .  
بل قد يصادف في هذه الرسالة إشارات تنطق على الفرس أكثر من انطافها  
على أي شعب آخر ، مثل قوله يصف الأعاجم (الأساورة الأكاسرة) .  
وقوله (الحرسان) التي فسرنا لنا محقق الرسالة على أنها «الحرسان» أي أهالي  
حراسان . وكذلك قول صاحب الرسالة : (واليد الطويل إذ تخلصوكم من أكف  
الحشاش) . وقوله : (أما علمتم أن الدولة الدوشروانية . والمملكة الأردشيرية بفروا  
أحواكم وخلعوا أكتافكم ثم عطفوا ورأفوا وملكوكم الحيرة) . وكل هذه إشارات  
تنحى إلى الفرس أكثر من انحاءها إلى أي شعب آخر

هذا إلى أن قوله : ( فأصبح بعد حرّ الدوب مدوساً بأحفاف الفيول ) يدل  
دلالة واضحة على أن الأعاجم المشار اليهم كانوا يتحدثون الأقبالي في  
حروهم . وهؤلاء هم الفرس لانواع في هذا . فليس يعرف أن بلاد الأندلس  
كان مسرحاً للأقبالي

وأخيراً قول صاحب الرسالة (والعمومة الإسماعيلية) وهؤلاء هم شيعة فارس . علم  
بكن بالأندلس فيما أعلم مذهب شعي . بل كان أهلها حراً على الشيعة والمشييعين  
أما قول صاحب الرسالة : (وقد رسحت في اتحاد أصولنا وفروعنا) فموجي بأن  
المراد هم الفرس الذين كانوا يصحرون دائماً بأحسانهم وحضرتهم .

لم يبق إلا أن نقرر أن قول صاحب الرسالة في آخرها : (مع الدولة دي  
الرياسة الساسانية) يجعلنا نتصور أن الرسالة تشير إلى حكام الدويلات الفارسية  
في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس من الهجرة . فهم الذين لقبوا أنفسهم  
شمس الدولة وعز الدولة ونحو ذلك من الألقاب

ويجئ إلى بعد الذي هدم أن صاحب هذه الرسالة شخص خائف على



العرب موتور منهم ، فأراد إن صحت رواية هذه الرسالة أن يتفلس عن حقده الشخصي وكان فيما يبدو قد سمع بما يقوله أهل الشعوبية في المشرق فقلدهم في أقوالهم . وردد بعض ما شاع بينهم فلما وصلت إليه أثناء الحركة الشعوبية في المشرق وصادفت هوى في نفسه وهو الموتور شخصياً من بعض العرب كتب هذه الرسالة التي لا تمثل في رأي حركة شعوبية . ولا ما يشبه الشعوبية . ولولا أن بعض كتب التاريخ أشارت إلى هذه الرسالة . ولولا أن بعض أدباء العرب حاولوا الرد عليها ، لما كان للشعوبية أي ذكر في حياة أهل الأندلس . فالشعوبية بالمعنى الذي عرفت به في المشرق لم تصل إلى الأندلس<sup>(١)</sup> ولم يكن هناك مسوع لوجودها في تلك المنطقة ، لا سيما وأن كل المؤرخين يؤكدون لنا أن هذه الرسالة هي الأثر الوحيد الذي يشار فيه إلى شعوبية الأندلس . والشأن في الأندلس أن العداء كان سافراً بين فريقين مختلفين في كل شيء ديناً ولغة وعادات ، بل وأرياء . فأنهى أمر العرب في الأندلس إلى ما نعرف . في حين أن الشعوبية في المشرق كانت بين قوم اتحدوا ديناً ، واتفقوا في كل المظاهر الاجتماعية ، ولكنهم اختلفوا لغة . ولم تسطع إحدى اللغتين أن تفهم الأخرى أو تفهم غيرها . فكان ذلك الصراع اللغوي الذي بلغت الشعوبية في التاريخ الإسلامي ذكته هو الذي حظير الذي هو به عقدة اللغة في معظم اللغات الانفصالية فهي قوة كامنة ولكنها متربصة ومحتمزة تسيطر على قلوب الناس وعواظهم . ولما أثرها الفعال في كل منطقة أشبهت ظروفها تلك الظروف التي شهدتها التاريخ الإسلامي في أوائل عهد العباسيين فالصراع اللغوي الذي نراه الآن في بلجيكا بعد من وجهة نظر المتكلمين بالفرنسية حركة شعوبية ولكنه من وجهة نظر المتكلمين باللغة الفلمنكية بعد حركة قومية والصراع اللغوي الذي تحدثنا عنه الصحف الآن في حريزه سيلان بعد حركة شعوبية من جانب المتكلمين باللغة السهالية . ولكنه لدى المتكلمين بلغة « التامل » بعد حركة قومية وكذلك الشأن في منطقة « مدراس » بالهند شعوبية في رأي أساء اللغة الهندستانية . وقومية في رأي المتحدثين بلغة « التامل »

(١) راجع الصفاة في إسبانيا بقلم أحمد مختار عبد الفتاح المادى

### أطوار تاريخية للعروبة :

دعنا من قبيل الإيجاز نخلع على القومية العربية كلمة واحدة هي العروبة . لا نريد بها حنساً خاصاً ولا نسباً معيناً . وإنما نقصرها على تلك الروح التي دعت العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام إلى أن ينجذب بعضهم إلى بعض ، ويلتف بعضهم حول بعض ، في كيان متميز وشعور موحد ، رغبة في التعاون لتحقيق الاستقرار والأمن والرخاء فيما بينهم ، وتلك هي القومية العربية التي تشمل في اللغة العربية وحدها .

وقد أشرنا آنفاً إلى اللغة العربية المشتركة وكيف نشأت وامت وازدهرت قبل الإسلام ، وانتظمت كل أنحاء شبه الجزيرة ، واصطنعت في الأشعار والخط ثم كرمها الله سبحانه وتعالى فأُنزل القرآن الكريم بها

والتف العرب قبل الإسلام حول هذه اللغة بتنافسون في إجادتها ، ويستمتعون بحرسها وموسيقاها ، مع ما عرت عنه من روائع الصور والأخيلة وتنافس الحكم والأفكار ، فكان لهم بها وحدها لقب العروبة

فلما كان العصر الأموي والتقى العرب أقوام آخرين . وأحسوا أن ذؤلاء هذه سايين بغتهم أشد اعتزازهم بالعروبة وسمسكهم بها . ووجدوا في البصرة والكوفة ميداناً حديداً لعدد الدواب الأدبية التي أنفوسها في تحريرتهم . وقد بدأت البصرة والكوفة في صورة معسكرين لحيوش القاتحين . ثم لم يكدهم يمضي نصف قرن حتى أصبحتا مدينتين عظيمتين هرع إليهما من كل أنحاء الجزيرة ، وبطلق عليهما وما حولهما اسم العراق . وقد نشأ وبرز في هاتين المدينتين الإسلاميتين أبغ شعراء بني أمية وأفصح خطائهم وعاشوا فيهما مع من وفد إليهما من الجزيرة من فصحاء العرب . ثم نظرنا فإذا بسوق « المرند » تؤسس في البصرة ، وهي التي تشبه سوق عكاظ في عصر ما قبل الإسلام . كما تأسس بالكوفة سوق أدبية أخرى هي « الكعاسة » وإن كانت أصغر من « المرند » شأناً وأقل شهرة . وهكذا انتقل تيار الحركة الأدبية من الحجاز إلى العراق ممثلاً في هاتين المدينتين

ويلدهش دارسو الأدب إذ يرون « دمشق » عاصمة الأمويين لا تقوم فيها تلك الحركة الأدبية ، ولا تؤسس في ربوعها أندية للأدب أو أسواق كالتى عرفوها قبل الإسلام من عكاظ وحنطة وذى المجاز ، وإنما يقوم مثل هذا فيما سمي حينئذ بالعراق ممثلاً في بصره والكوفة . ويحاول هؤلاء الدارسون أن يسوّغوا هذه الظاهرة بأن دمشق أيام بى أمية شغلت بالسياسة والملك ، وتخلت عن الأدب للحجار والعراق . وفي رأي أن السبب الحقيقى هو أن بيئة الشام لم تكن قد استقرت بها اللغة العربية . بل كانت لا تزال في صراع مع اللغات التى كانت سائدة هناك من يونانية ورومانية وآرامية . ولذلك أسس القاتحون مدينتى البصرة والكوفة على حدود جزيرتهم لتستقبلا الموجة الأدبية التى نزحت من الجزيرة . وتشكونا امتداداً لبيئتهم التى ألفوها . فلم يكن حضر الشام مستعداً حتى ذلك الحين لإقامتهم به ، وعيشهم على نحو ما تعودوا في جزيرتهم ، وكذلك الشأن مع أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، فقد كره هؤلاء العرب في أوائل عهد الإسلام أن يحول بينهم وبين جزيرتهم ماء . ولذلك انحصرت الحركة الأدبية أيام بى أمية في سمود بالعراق ممثلاً في البصرة والكوفة . ولم تكن رحلتهم إلى دمشق حينئذ في صورة زيارات سريعة يشدون فيها خلاء الأشعر والمصائد وسائر محاسنهم الأدبية التى عهد ثم ينعص . ليعودوا بعدها إلى البيئة التى است شاعرينهم وأطلقت ألسنتهم ، ونشأتهم على الفصاحة وحسن البيان ودلائل حسن . وتلك هى بيئة البصرة والكوفة .

وحيث نطلع على أخبار « المربد » وما كان يدور فيها من مساحلات ومساخرات ونهاج ، وعلى أخبار عذس والدوات التى كان يعقدتها خلفاء بى أمية ، لا نشك لحظة في أن انهم كانوا يعيشون في لغتهم ولغتهم ، فكأنما لم يكن لهم من شاعل إلا أدها وما سحه الفرائح وتطلق به الألسنة من روائح القول فى « المربد » تقوم المناصه بين الشعراء وتتألف من فصائدهم ما يسمى بالقائص التى كان أشهرها من المحبوب الثلاثة الأحطل وجريز والمرردق .

وتعد هذه القائص هجواً أو نهاحياً في رأى معظم الدارسين ، أريد بها بيل

المهاجرين بعضهم من بعض ، والانتقاص من شأن أهليهم وقبائلهم ، والخط من قدرها في أقذع ألوان الشتائم والسباب . ولكنها في الحقيقة لم تكن كذلك ، بل هي تمثل في رأي نوعاً من أدب الفكاهة والمسامرة ، أو إن شئت قلت كانت كالمرح الكوميدي في أيامنا ، فلا يهدف الشاعر فيها إلى سباب أو قذف ونحو ذلك مما يدخل في نطاق المزاولة القانونية أو الأخلاقية ، وإلا لعاقبهم الخلفاء عليه وآدوهم عند سماعه . بل كان الخلفاء يستمعون به كما يستمتع السامعون له حين ينشد في سوق المربد . كانت تلك المهاجاة مافسة مشروعة في ذلك الحين ، لا يبغي بها الشعراء إلا إظهار الفتوة والمهارة في نظم الكلام ، والبراعة في الأخذ بعواطف السامعين والتأثير فيهم . وكان أولئك الذين يشهدون محافل المربد ويستمعون لإنشاد الشعر فيها يطربون غاية الطرب ويهتزون إعجاباً ، ويضحكون ملء أفواههم ، ويهللون لهذا الشاعر ولنافسه ، ثم يمضي كل ذلك دون أن يخلف حقداً حقيقياً أو ضغينة بين المتنافسين . فجزير والقرزوق كانا ينتميان إلى قبيلة واحدة هي تميم . ومع هذا تعرض كل منهما لأهل الآخر وعشيرته لينال إعجاب السامعين ، وليدخل السرور على قلوبهم . ولتتأقلم أقواله في المجالس كصور من السكتة أو الدعابة لم يكن الأمر إذن أمر مداعة أو سباب بقصد للذم . أو يتلفظ بها في ساعة غضب ، أو تم عن حق وصعينة ، وإنما هي صور من الأدب الذي تأدبوا به . وانخلوا منه سلوتهم والترويح عن أنفسهم .

كذلك حين نطلع على ما كان يدور في مجالس بعض الخلفاء الأمويين ، ولا سيما مجالس عبد الملك بن مروان ، نوقن أن القوم حينئذ لم يروا أحب إلى نفوسهم وقلوبهم من الاستماع إلى لغتهم وما أنتجه الأدباء بهذه اللغة . ويخيل إلينا أن عبد الملك لم يكن يشغله من مهام الدولة إلا المطارحة بالأشعار . والاستمتاع بالاستماع إلى إنشاد القصائد في حصرتة . وهذه بعض أبياتها . وإحازة الشعراء على ما ينظمون . وقد أحسن استقبال هؤلاء الشعراء وهش لهم ، وبسط معهم في الحديث ، فيقول لأحدهم مثلاً أشدنا قصيدتك في كذا ، أو

التي مطلعها كنا <sup>(١)</sup> . حتى الشواعر من النساء كان يستقبلهن ويمارجهن ،  
مثل لقائه لليلي الأخيلىة في رواية لابن قتيبة قال ( بلغني أن ليلي الأخيلىة  
دحلت على عبد الملك بن مروان وقد أسست وعجزت ، فقال لها : ما رأي  
« نوبة » فيك حتى هوبك ؟ قالت ما رآه الناس فيك حتى ولوك . فضحك  
عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يحقها ) .

وكان عبد الملك يسأل الشاهدين لمخبره عن معنى بيت وعن قائله ليختبرهم  
ويشجعهم على رواية الأشعار . بل حتى وهم على موائده كان يداعبهم ويسألهم ،  
مثل تلك القصة الطريفة التي يرويها صاحب الأغاني . والتي تؤثر هنا أن  
تروى معناها .

فيقال إن رجلاً من أهل العراق جاء ليشارك في موائد عبد الملك ، فلما رآه  
الخدام لم يعجبه مطهره ، وأخذ يصايقه ويسحرمه ، ثم دخل عبد الملك  
وسأل الحاضرين عن معنى بيت أنشده أمامهم وعن قائله ، فهمس العراقي  
في أذن الخدام مصللاً له بأن قائل البيت هو عدى بن ريد يصف به الطيخ  
فادبرى الخدام في عدا وأجاب كما علمه العراقي ، فضحك عبد الملك وسأله  
من نزلك هذا ؟ فأشاد إلى العراقي . فاصمت إلى العراقي وقال له أنت لقنته هذا ؟  
فأجاب نعم . فقال عبد الملك أحطاً بغيرته أنه صواباً ، قال العراقي خطأ طبعاً . وقد  
لقنته هذا مصللاً له ، لأنه حاول معنى عن موائده . فأردت أن أحطه أضحوكة  
قال عبد الملك فكيف الصواب ؟

فأجاب العراقي في ثقة أن البيت « نلشماح » صنف به البقر الوحشية .  
قال عبد الملك صدقت وأحاره . ثم قال له ما حاجتك ؟ قال العراقي : تنحى هذا  
الخدام عن بانك فإنه يشبهه .

بل ربما أقطع عبد الملك أحد شعرائه ضيعة من الصياع مثل صنيعة مع  
« كثير » عرة وإقطاعه له . وكان عبد الملك مع هذا شجاعاً لا يهاب الوغى  
فقد حاول عانكة معه عن الخروج بحرب « مصعب » وحدرته ونوسلت إليها

(١) الأغاني ٢ = ٣٥٨ - ١١ ص ٢٤٠ ، ٢٦٩ ، ٩٢ ص ١٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ١٧٠

باكية فأبى وتمثل بقول الشاعر :

إذا ما أراد الغز ولم تن همه      حصان عليها عقد درّ يزيها  
نهته فلما لم تر النهى عاقه      نكت فكى مما شحاها قطبها

وسواء صحت تلك القصة التي نروي عن بنت عبد الملك وتطلعها إلى غزل «عمر بن أبي ربيعة» أم لم تصح في كل تفاصيلها ، فروايتها في كتب الأدب على كل حال ترينا كيف كان العرب حتى النساء منهم يستمتعون بأدائهم ، ويجدون فيها المتعة كل المتعة . فيقال إن بنت عبد الملك خرجت للحج وتوقعت أن يقول فيها ابن أبي ربيعة شعراً ، وغضبت حين ظنت أنه لم يتغزل فيها . ثم ابتهجت حين تبينت أنه نظم فيها قصيدة مطلعها :

راع الفؤاد تفرق الأحباب      يوم الرحيل فهاج لي أطراب

وفيها يقول :

اقتلني فلا سريعاً مريعاً      لا تكربي عليّ سوط عذاب

لا عربة إدد أن يقال إن أدب الأمويين كان امتداداً لأدب ما قبل الإسلام ، فالمرء في الصرّة حلت محل عكاظ . وليلى الأحياء أعادت للأمويين عهد الحساء . وسم حو الأدب على عهد الأمويين بالسياسة وسعة الصدر من حيث الدين ، فلم تحمل بصرانية الأخطل أو القطامي دون شهرتهما ، أو رواية شعرهما . بل كما رأينا إنما كان عبد الملك يلقب الأخطل بأعبر الشعراء ، وبشاعر الخليفة وغير ذلك من التعوت . أي أن أوضح ما يؤهل الشاعر لدى الأمويين عرويته لا دينه ، وحسن بيانه لا عقيدته

وهكذا نرى أن رمام الشعر على عهد بني أمية قد انتقل من الحجاز إلى العراق ممثلاً في البصرة والكوفة ، تاركاً للحجاز شعراء العزل من أمثال جميل بثينة ، وابن قيس الرقيات . وعمر بن أبي ربيعة . وكثير عزة ، «والأحوص» وهو أكثرهم إنتاجاً ، و «دو الرمة» وغيرهم

ولعل أهم ما يتصف به أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام أنه أدب

منطوق، يعتمد على ذلاقة اللسان والآذان المرفهة، ويتمثل في إنشاد الشعر وفي الخطابة. فلما كان عهد العباسيين، وأسست بغداد ظهر نوع جديد من الأدب، وهو الذي نحب أن نطلق عليه اسم الأدب المكتوب الذي عاش مع الأدب المنطوق حنباً إلى جنب فترة من الزمن في أوائل عهد العباسيين. غير أن المنطوق كانت له السيادة قرابة نصف قرن، وأنه ظل على ما يشبه الصورة التي ألفناها في عهد الأمويين. فشعراء العباسيين في القرن الثاني من الهجرة حتى الموالى منهم نشأوا جميعاً في البصرة والكوفة، وتربوا بهما، واستقوا من مناهلهما الفصاحة وجودة النظم، وإن حاولوا الخروج على تقاليد شعرائهما في بعض الأحيان، كالذي كان من ثورة أبي نواس على الوقوف بالأطلال والتشبيب هند أو «دعد»، وغير ذلك من الأساليب الشعرية التي ألفها القلماء وتنافسوا فيها.

فبشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ هـ نشأ في البصرة، وتزوج أعرابية وعاش في عهد بني أمية نحو ثلاثين عاماً. أي أن البيئة التي أطلقت لسانه بقول الشعر، والتي أدنت شاعريته وصقلتها هي نفس البيئة التي نشأ فيها شعراء بني أمية. هند عاش حتى سن السبعين أو الثمانين في بعض الروايات. وهذا شعر وهو عشر سنين بل يروى أنه حاول أن يهجو جريراً فانسحب به جرير وهو المائل

بي أمية هوا طال يومكم إن الخليفة عفو من دود  
فإذا تذكرنا أنه كان كفيفاً أمكن أن نتصور أنه من أصحاب الأدب المنطوق لا ممن عبره

وأبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ نشأ في البصرة منذ الثانية من عمره. وعاش بها وترى في أحضانها وعت شاعريته في ربوعها، فلم يذهب إلى بغداد قبل سن الثلاثين.

وأبو العتاهية المسمى سنة ٢١١ هـ نشأ في الكوفة وتربى، وكانت بيته وبين حماد عجرد مهاجاة على نحو ما ألفنا من التهاجي بين جرير والمزورق

وليس من الإسراف أن نقرر أن كل شعراء القرن الثاني على عهد العباسيين كانوا ممن تأثروا بأدب البصرة والكوفة . ونهجوا نهجه . ذلك لأن بغداد لم تكن حتى ذلك الحين مهداً ينبت الشاعرية ويشحذ قرائح الشعراء على النحو الذي ألقناه في بيئة البصرة والكوفة . فالعربية وإن كانت قد استقرت في ربوعها بعض الاستقرار كانت لا تزال في صراع مع الفارسية . ولكن بغداد مع ذلك كانت مهد الخلفاء الأوائل الذين كانوا عرباً أو على الأقل يحسنون العربية ويعتزون بأدبها ويشجعون على روايته . ويكفي أن نذكر أن علماءها هم الذين أرسوا قواعد العربية ، وقعدوا أساليبها ، وثبتوا نظامها فيما جاء في كتبهم من وصف دقيق وتحليل رائع على يدى سيبويه ومعاصريه من اللغويين .

على أن الدارسين للأدب العربي يأبون إلا أن يجعلوا من شعر القرن الثاني على عهد العباسيين صورة مبينة كل التباين لما كان سائداً في البصرة والكوفة أيام الأمويين . ويضربون أمثلة بثورة أبي نواس على طريقة من سبقوه حين يقول .

لا تلك هذا ولا تطرب إلى دعد      واشرب على الورد من حمراء كالورد  
، يقول

صفة الطلول بلاعة القدم      فاحمل صندك لاسه الكرم  
ولكنهم ينسبون أن الخليفة قد سجنه لاشبهاره بالحمير . ثم عما عنه وأخذ  
عنه المواثيق ألا يذكرها . ودعاه إلى العظم على طريقة القدماء فقال  
أعر شعرك الأطلال والمنزل القهرا      فقد طالما أرى ، نعتك الحمرا  
دعاني إلى نعب الطلول مسلط      نصيف دراغي أن تد له أمرا  
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة      وإن كب قد حشمتي مركأ وعرا

أى أن من الخلفاء من دعوا إلى الأحد بتقاليد القدماء من الشعراء وشجعوا  
عليه

ولسا نكر أن شعر القرن الثاني على عهد العباسيين قد اهتم بعض الصفات



الجديدة كالمبالغة في المدح ووصف الخمر والغلمان والشعر المجنى ووصف الرياض والأزهار ، ولكنه مع هذا يعد امتداداً لشعر البصرة والكوفة أيام الأمويين . أى أن شعراء القرن الثاني على عهد العباسيين تعلموا الشعر وأجادوا نظمه في بيئة البصرة والكوفة . ثم رحلوا إلى بغداد فتأثر حيالهم وتنوعت قلوبهم في البيئة الجديدة . ولكنهم ظلوا من أصحاب الأدب المنطوق ، وهذا هو ما يعني هنا .

أما الأدب المكتوب الذى شأ ونما في هذا العصر فيتمثل في الإنشاء . أو ما يسمى بالنثر الفنى الذى يقال لنا إنه بدأ بعبد الحميد وانتهى بابن العميد . وحيث مثل لهذا الأدب المكتوب في القرن الثاني كتابات ابن المقفع . وآثار أئمة المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى . وابن حنبل ، وما دونه المتقدمون من مؤرخي العرب في السيرة النبوية وغير ذلك . وحل الأدب المكتوب محل الخطابة التى اشتهر أمرها في أدب الأمويين وأدب ما قبل الإسلام ، فقد ضعف شأن الخطابة في عهد العباسيين ، أولم يعد لها من الخواطر ما كان أنام بى أمة وفي أسواق الحاهلية . إذ اعتمد الأدب المنطوق حيثند على دعائتين أساسيتين . أو فئتين أساسيتين . هما إنشاد الشعر والخطابة . فلما كان العصر العباسى حمل ذكر الخطابة أو كاد . وأصبح تقتصر على حطب الجمعة والعيدين وما أشبه ذلك من مناسبات . وحدث الكتابة محلها .

ولعل من خير ما وصف به الدارسون للأدب ، عصر العباسيين في القرن الثاني من الهجرة أنه عصر التدوين ، فقد طهر فيه ما نسميه بالأدب المكتوب الذى دعت ظروف وحوافز إلى نشأته . منها أن البيئة الحصارية الجديدة قد ورثت عن حضارات من سبقوا من الأمم الاعتماد على القلم والقرطاس أكثر من الاعتماد على الذاكرة والحافظة ، وأصبحت الأمية التى كانت من قبل أمراً مألوفاً لا يغض من شأن صاحبه ، شيئاً معيماً لا يليق بأصحاب الحضارة . فأقبل الناس على تعلم القراءة والكتابة وشاع أمرها وظهرت الحاجة إليها في كل الشؤون

ولا تبين للقوم حينئذ أن التراث العربي قد أخذ يتضح وأصبحت الذاكرة والحافظة تعيان به ، حرصوا على تدوينه وتسجيله خشية من ضياعه كله أو بعضه . وربما كان لهم حافز كبير في كلمة أبي عمر بن العلاء المشهورة التي يقول فيها : ( ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ولو قد جاءكم كله لحاءكم علم وأدب كثير ) .

أما أهم مادعا إلى نشأة الأدب المكتوب في هذا العصر وجعله بمثابة الضرورة الملحة فيتمثل في أمرين : أحدهما حركة الترجمة لعلوم الأمم الأخرى وآدابها تلك الحركة التي شجع عليها المأمون واختار لها خير المترجمين ، والآخر أن بعض الموالى ممن حسن إسلامهم وحاولوا مخلصين السيطرة على اللغة العربية نطقاً وأداءً ، قد شق عليهم بعض أصواتها فقتعوا بالكتابة الصامتة وأحسنوا التعبير بالقلم حين أعياهم التعبير باللسان ، وكان هذا من فضل الله على التراث العربي الإسلامي الذي درسوه وألقوا فيه ، فحلفوا لنا جهوداً علمية ممتازة .

### انتشار العربية في الأمصار :

نمت الفتوحات الإسلامية خلال فترة تاريخية وجيزة نسبياً لا نعرف لها مثيلاً في تاريخ الأمم الأخرى . وانتشر الإسلام في هذه الأمصار ، في العراق وفي الشام وفي مصر وفي المغرب . ودخلت اللغة العربية هذه المناطق مصاحبة للناس الخيف ومؤيده له . ثم كان أن دخل الناس في دين الله أفواجا ويسر على الناس اعتناق الإسلام أن تعاليمه لا تطلبهم بأكثر من إعلان الشهادتين ليصبح المرء مسلماً ، ولا تكلفه ترك لغته . بل تقع منه بحفظ بضع آيات من القرآن الكريم يقيم بها صلاته ويتعبد بها . ولذلك كان انتشار الإسلام في الأمصار أسرع من انتشار لغته في بادئ الأمر . فقد بقي كثير ممن أسلموا في الأمصار على لغة آبائهم في القرن الأول من الهجرة ثم كان الصراع المحتمى بين العربية واللغات الأخرى في هذه الأمصار . فكان ما كان مما شهدنا أثره في بلاد فارس ، وأشرنا إليه آنفاً من ظهور الشعبية نتيجة لهذا الصراع بين العربية والفارسية . فلما انحسر تيار اللغة العربية عن بلاد فارس أخذ يندفع بقوة نحو الشام ومصر وبلاد المغرب حيث كان الصراع أخف وطأة وأقل عنفاً

وفي خلال ما يقرب من قرنين نظرنا فإذا بالعربية تسود في كل هذه المناطق ، ولم يبق من آثار اللغات التي كانت بها إلا قلول صغيرة هنا وهناك قضت عليها العربية مع مرور الزمن ، فلم يكد يبدأ القرن الخامس الهجري حتى كانت هذه اللغات في خبر كان فاندثرت اليونانية والرومانية والآرامية من بلاد الشام ، واندثرت القبطية من مصر ، وانحسرت البربرية إلى مناطق منعزلة في صحراء المغرب

أما العراق فكان مهد الدولة الإسلامية العربية ، فيه عاصمتها وخلفاؤها ، وهو محط أنظار العرب الفصحاء الذين نزحوا إليه واتخذوه دار إقامة . ولذلك سادت فيه العربية برغم الحركة الشعبية التي حالت دون تغلغل العربية في بلاد فارس .

وانتهى الصراع اللغوي بين العربية واللغات الأخرى ، وإن لم تحدثنا كتب التاريخ عن تفاصيله ، إلى أن أصبحت بيئة اللغة العربية تمتد من العراق إلى الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ثم إلى الأندلس وباستقرار العربية في كل هذه المناطق استقرت معها العروبة أو القومية العربية . ونسى الناس ما كان عليه أحد دهر وأصبحوا لا يذكرون إلا أنهم عرب تجمعهم لغة واحدة . يمكرون بها ويكتسبون موهبة من نراثها ، ونوحده شعورهم ونم شتاتهم . وبذلك أصبحت تلك البيئات مؤهلة لإنتاج الأدب العربي في كل صوره وفنونه . تنبت الشعراء ويتخرج فيها الكتاب ، وتحمل بالدارسين لآثار من سبقوهم من العرب . ونظر الناس في هذه الأمصار فإذا بالسماحة الإسلامية تترك لهم دباناتهم وعقائدهم بعد أن استقرت الفتوحات ، فأبطأ تيار الإسلام قليلا . في حين أن تيار اللغة أخذ يسرع الخطا ويزداد انتشاراً . فقد بين للناس أن الوصول إلى بعض أغراضهم الدنيوية لا يتحقق إلا بتعلم العربية والسيطرة عليها . كاشتراكهم في الحكم والوظائف والإدارة وترك الإسلام يشق طريقه في هدوء وفي سماحة مستمداً قوته من تعالجه وحدها . فانتشر في مساطب أخرى من الأرض في الهند والملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا ، ناركاً البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية

لتكون منها منطقة "موحدة القومية" ، إذ يصطنع الجميع هذه اللغة الشريفة ، وإن بقي بينهم خلق كثير ممن ظلوا على مسيحياتهم ، ولا يزال منهم في البلاد العربية قدر كبير .

وهكذا يمكن أن يقال إن الطور الأول في تاريخ القومية العربية إنما كان حين سادت اللغة العربية في الأمصار أي في القرن الثالث من الهجرة حين أصبح الناس فيها يتطلعون إلى هذه اللغة ويعتزون بها . ويرون فيها وحدها ما يجذب بعضهم إلى بعض ، وما يميزهم عن غيرهم من الأمم وما يدعم كيانه واستقلاله . وكان من الممكن لهذا أن تنشأ حيثئذ حركة أدبية ناهضة في أي من هذه الأمصار ، غير أن العراق وهو مهد الخلافة كان أسبقها إلى هذا . وبرغم ما كانت عليه بغداد من تدهور سياسي خلال القرن الثالث من الهجرة نتيجة نفوذ الأتراك وسلطانهم قامت بها حركة أدبية علمية جلية الشأن ، فأثبتت بغداد ولأول مرة شعراء وكتاباً وعلماء نشأوا بها ، أو تربوا في ربوعها . بعد أن كان اعتماد الأدب على من نشأوا وبربوا في بيثة البصرة والكوفة من قبل . فانتقل رمام الأدب إلى بغداد . وأصبح أربابه يتمنون إلى بغداد وحدها سواء منهم من ولد فيها ونشأ ، أو من نشأ في مصر آخر قصي فيه طفولته ولكنه لم تصبج ملكته . ولم تعرف شاعريته إلا في ربوعها كأي تمام والبحري . فهما في رأيي ممن أنشئهم بغداد ومن الغريب أن بعض الدارسين للأدب العربي يعدون أبا تمام والبحري من شعراء الشام . لا شيء سوى أنهما ولدا في قرية بالقرب من دمشق وقضيا بعض طفولتهما في الشام أو مصر .

فتجتمع الروايات على أن أبا تمام توفي سنة ٢٣٢ هـ . أي مع وفاة الخليفة الواثق . وتكاد تجمع على أنه ولد سنة ١٨٨ هـ ، وأنه كان وف وفاته في حدود الأربعين من عمره . ونحدثنا كتب التراجم أن أبا تمام ولد في قرية بالشام قرب دمشق ، ثم رحل منها إلى مصر وهو علام يافع وطل بها خمس سنين ويبدو من أرجح الأقوال أن أبا تمام ترك مصر إلى بغداد في أوائل عهد المأمون أي في حدود سنة ١٩٨ هـ ، وطل هناك برقي في مدارج الشهرة حتى أواخر عهد

الخليفة الواثق ، وإن كان في أثناء إقامته بالعراق قد تجول في أمكنة متعددة معظمها في المشرق ولذلك نرى أن الكثرة العالية من مملوحيه شخصيات عراقية .

كذلك يبدو أنه لم يكد يمر بصع سنين على وفوده إلى بغداد حتى لم يحمه وعظم شأنه شاعراً بمدح الخلفاء والوزراء والكتاب فيقال إنه مدح المأمون بقصيدتين ، ومدح من وزرائه الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبي داود كما مدح قائده عبد الله بن طاهر وعدداً من كتاب هذا القائد .

ولكن تاريخ أئى تمام في السير العشرين الأولى من حياته غامض كل الغموض ، وتضطرب فيه الروايات (١) . على أن ما يروى من شعره في هذه الفترة كدحه أو هجائه «لعمياش بن لهيعة» وغيره . قليل لا يؤلف قدراً ذا قيمة في ديوانه ، ولا يكشف بشكل واضح عن بيئة مصر أو الشام . وحياته فيهما أو تأثيره بهما .

ولذلك نجد معظم شعره وأروع فصائده قد نظمت في أواخر عهد المأمون وفي خلافة المعتصم والواثق فقد مدح المعتصم وبعض وردائه كـ محمد بن عبد الملك رباب . ومدح الواثق : وريرة الحسن بن وهب .

في ربوع بغداد وقبل اتصاله بالمعتصم نظم شعراً كثيراً دأب شأنه بين أهلها مما قرب به إلى الخليفة وجعله شاعره المفضل في بيئة بغداد هي التي أنبت شاعرية أئى تمام وأنصحبها . ولا أثر فيها لبيته أخرى فهو لذلك شاعر بغدادى . وبيئة بغداد هي وحدها مصدر نبوغه والسر في قريحته وشاعريته التي فاقت كل معاصريه

أما المحترى فقد ولد أيضاً في «منبج» مسقط رأس أئى تمام سنة ٢٠٦ هـ ، ونشأ كما نشأ أبو تمام في الندية بين قتائل طيء وغيرها فغلبت عليه الفصاحة . وتختلف كتب التراجم في الحديث عن مكان اتصاله بأئى تمام ، فمنها ما يروى

(١) انظر كتاب الدكتور نجيب الهسي (أبو هـ الطاهر حده وحياته شعره) دار الكتب

أن البحري لى أبا تمام فى « حمص » وعرض عليه شعره فى جملة من كان يأتيه لهذا الغرض <sup>(١)</sup> ، ومنها ما يؤكد لنا أن البحري خرج إلى بغداد فلقى أبا تمام ولمه حتى تخرج عليه <sup>(٢)</sup> ، ويبدو أن هذا هو الأرجح . والعبرة على كل حال بالمكان الذى أنضج شاعريته ونمى بيانه ، وكان ذلك ولا شك فى ربوع بغداد . فهو لذلك شاعر بغدادى كأبى تمام . فقد عاش معظم حياته فى بغداد ، ونظم أكثر شعره فى مدح المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، فلما قتل رجع إلى مسيج مسقط رأسه ، ولكنه ظل يختلف إلى سراة بغداد ، و « سر من رأى » فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤ هـ .

ليس إذن من المغالاة أن نعدّ البحترى شاعراً بغدادياً أيضاً . وقد عاصر  
البحترى شاعر بغدادى آخر توفى فى نفس السنة التى تروى فيها البحترى ، وهو اس  
مى به فى بعض النسخ كعب . هم به يد بغداد وهم نشأ وتربى حتى شع  
رهم من نظم الشعر .

وهكذا نرى أن هذا القوم قد شهد سيادة العربية من المحيط إلى الخليج ،  
معها أو على أساسها سيادة القومية العربية في كل هذه المناطق ، غير أن  
بعداد كانت لها الزعامة الأدبية بوصفها مهد الخلقاء وعاصمة الدولة الإسلامية ،  
وفيها تركزت مع الحركة الأدبية حركة علمية رائعة عمثت في أدب الخاطئ وابن  
قتيبة وغيرهما ، وفي آثار علماء اللغة من أمثال المارني وتلميذه المرد وأبي العلاء

(٢) أحمد حسن الزيات ص ٢٩٥، مع الألف العربي

ثعلب ، وفيما دونه المؤرخون من أمثال ابن عبد الحكم والبلاذري وابن جرير الطبري ، وفي آثار الأئمة من أصحاب الحديث كالبخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي وغيرهم . وفي تفسير الطبري ، وفي علوم الفلسفة والرياضيات والطب . وكل هذا من الأدب المكتوب الذي ربما كانت له السيادة والتفوق على الأدب المنطوق في هذا العصر ، والذي خلد اللغة العربية ، وأصبح لها بمثابة السجل الذي يضم ألقاظها وتراكيبها ، بل ويصف أصواتها . وكان هذا الأدب المكتوب محل الدراسة والعناية في كل العصور التي تلت هذا ، يذكر الخلف معجده السلف ، ويصون اللغة من الضياع أو الاندثار ، ويصون بصونها القومية العربية ، ويذكر العرب في عصور الاضمحلال بعظمة أجدادهم ، ويحفزهم إلى النهوض كلما أصابهم كربة ، أو عدت عليهم عوادي الزمن

ثم شاعت أحداث التاريخ أن تقوم دولتان مسلمتان إحداهما في المشرق والأخرى في مصر تدعوان إلى مذهب ديني معين هما دولة آل بويه سنة ٣٣٤ هـ ٤٤٧ هـ في بغداد . والفاطميين في مصر سنة ٣٦٢ هـ ٥٦٧ هـ

وهما يكاد نحتي الأدب المنطوق ، بل يكاد يحنى أدب العروبة ليصبح دماً مكتوباً في أعين صوره . وأدب إسلام محضاً ، وتصيح معه القومية العربية في شه سبت ، أو تأخذ سنة من يوم غير أن بيئة الشام لا تكاد تتأثر بهذين التيارين الدينيين ، ولذلك التفت الشام رمام الشعر من بغداد خلال القرنين الرابع والخامس من الهجرة . وبهض الأدب المنطوق في ربوع الشام على أيدي أنى فراس والمتنبى وأبي العلاء ، وظل الشعور بالقومية العربية على عنفوانه في عهد حكام الشام وأمراءه من العرب الخلفاء الذين يعتزون بعروبيتهم وآدابها ولعبها . فكانت تلك الهضة الأدبية التي بدأت بشاعر يسمى « ديك الجن » المتوفى سنة ٣٣٥ هـ الذي لم يرح الشام ولم يشهد بغداد . ثم المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ، وأبى فراس المتوفى سنة ٣٥٧ هـ ، وكشاجم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، والسري الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ هـ ، والوزراء المشقى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ وأحرأ ولسن أحرأ أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

في حين أنا لا نعرف شاعراً يستحق الذكر ظهر في مصر على عهد القاطمين سوى « ابن قلاقس » المتوفى سنة ٥٦٧ هـ ولا يصح أن نمارن عن ذكرناه من شعراء الشام . وكذلك الشأن في بغداد برغم أن الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ظهر بها خلال هذه الفترة . ولكننا نرجح أن بيته الخاصة ونسبه وحسه وما رُئي عليه بين قومه الأقربين . كل ذلك أهله لنظم الشعر ورواية نهج البلاغة؛ في بيته الخاصة وليس بيته بغداد . هي السر الحقيقي في أدبه وشعره . ثم ظهر بعده مهيار الديلمي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ الذي أسلم على يد الشريف الرضي وتلمذ عليه وتأثر ببيته . أما الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ هـ فلم يشتهر بين الشعراء إلا بلاميته التي نسمي لا مية العجم والتي مطلعها .

أصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفصل رانتي لدى العطل  
هؤلاء هم أشهر الشعراء الذين طهروا في بغداد خلال حكم آل بويه ومعه نقييل . وهم مع كثرة ما نظموا لم يستطيعوا أن يتزعموا رمام الشعر من الشام ، ولا أن يعيدوه إلى بغداد فالظروف السياسية التي عاشوا فيها . والدعوة الدينية التي تركزت في حكم آل بويه جعلت أدهم يصطلع الصنعة الديبية أكثر من صناعه بالعرونة والقومية العربية

ثم كانت تلك الحروب من بعدهم مؤرخة بحرب . عن حروب الفرنجة ويسميا الأوربيون باخروب الصليبية . وتركزت في الشام من ٤٩٢ ٥٨٢ هـ فألحبت الشعور بالقومية العربية فلمس هناك ما يقوى الشعور بالقومية وشغل أحييها أكثر من شعور أصحابها أنهم وأحبهون عدواً مشتركاً يحاول النيل من كرامتهم والاعتداء على وطنهم وتطلعت البلاد الإسلامية إلى مصر على عهد صلاح الدين الذي برغم أنه كان كردى الأصل آمن بالعرونة والإسلام معاً . فقهر الفرنجة الأوربيين . وأعاد للعرونة والإسلام المحد والعرة والكرامة

لا غرابة إذن أن تنقل رمام الشعر والأدب في عهده وعنه من جاءوا بعده من المماليك . إلى مصر وتمثل ذلك في ظهور عدد من الشعراء أشهرهم ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ وابن الدليمي المتوفى سنة ٦١٩ هـ وابن القارض المتوفى



سنة ٦٣٢ هـ وابن مطروح سنة ٦٤٩ هـ وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ،  
 والبوصيري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ وابن بياتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، بل ربما  
 بعد من شعراء مصر في تلك الحقبة صبي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ برغم  
 أنه نشأ في بغداد . ولكننا مع هذا لا ندعي أن هؤلاء الشعراء قد استطاعوا  
 أن يعيدوا عهد شعراء العراق أو الشام ، وإنما كانوا مظهرًا لبقظة أو انتفاضة دبت  
 في جسد القومية العربية . وأعادت لها بعض ما كان من شأنها فيما مضى .  
 ثم كان ذلك السبات العميق الذي أصيبت به القومية العربية ممثلة في روائع أدبها  
 ومشهورى شعرائها بعد نكبة المغول في المشرق وخلال حكم العثمانيين في مصر والشام ،  
 حتى ظهرت بوادر النهضة العربية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد .  
 أما الشأن مع الأندلس وبلاد المغرب فيمكن أن يقال إن النهضة الأدبية  
 والشعور بالقومية العربية قد عاصر ذلك كله النهضة الأدبية في الشام على عهد  
 المتنبّي وأبي العلاء . أو ربما عاشت قليلا بعدها ثم أصابها نفس السبات  
 الذي حلّ بكل المناطق العربية فاس هاني الأندلسي توفى سنة ٣٦٣ هـ .  
 واس ريلون توفى سنة ٤٦٢ هـ . واس حمادة توفى سنة ٥٣٢ هـ . واس عبدون  
 توفى سنة ٥٢٠ هـ . واس حمد بن الأصغلي توفى سنة ٥٢٧ هـ  
 وبينما كانت العربية تثبت قدامها وتعمس حدودها في الأماص في القرنين  
 الثاني والثالث من الهجرة اصطلمت بطاهرة حطيرة هي طاهرة اللحن الذي ظهرت  
 بوادره منذ اتصال العرب بعيرهم من الأمم واحتلاطهم بها . أو إن شئت قلب  
 منذ لقاء العربية باللغات الأخرى . ومصدر هذا اللحن الذي فشا واستشرى  
 فيما بعد . أمران - الأول مهم بعض الصفات الخاصة باللهجات القبائل التي  
 برحت إلى الأماص . من ععنة وعجعة وفصحجه وكشكشه . ونحو ذلك  
 مما ورد ذكره في الكتب والروايات التي أشارت إلى فحاحات العرب القدماء  
 عبر أن الخاصة من العرب في صدر الإسلام وعهد بني أمية كانوا ينظرون  
 إلى هذه اللهجات على أنها أدنى منزلة . وأقل فصاحة . فندوها عنها وتحاشوها  
 في آدابهم الحديثة فاعين تلك اللغة المشتركة انموجبه لأدبها التي نظم بها

الشعراء وخطب بها الخطباء قبل الإسلام ، والتي فوق هذا كله نزل بها القرآن الكريم ، ويدل على هذه النظرة تلك الروايات التي منها ما يقال فيها ( سأل معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن الخيلخانية القرات ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر . ليست لهم عجمجة قضاة ولا طمطممانية « حمير » قال معاوية من هم ؟ قال المتكلم هم قريش ) . وقريش هنا في رأيي رمز للبيئة الحجازية التي نمت فيها اللغة الأدبية المشتركة ، ومنها انتشرت في جميع أنحاء شبه الجزيرة

على أنه لم يكده ينقضي القرن الرابع من الهجرة حتى ظهر من علماء اللغة من يشيد بهذه اللهجات ويرأها جميعاً حجة ، وإن كان بعضها أشهر وأفصح من البعض الآخر . مثل ابن جني في الخصائص حين عقد فصلاً سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، وأشار فيه إلى هذه اللهجات . واختتم كلامه بقوله : ( إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن محطناً لكلام العرب . لكنه يكون محطناً لأجود اللغتين . فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مفضول منه غير معي عليه )

وهذه اللهجات العربية الحديثة هي التي وفدت مع فرائدها إلى العرب بعد امتنع الإسلامى بشكائهم : « كلام كل مصر منها شكل خاص وتركت على ألسنة الناس بعض آثار النحس والانحراف عن أساليب اللغة الأدبية المشتركة . وورعاً ساعد على انتشار هذه اللهجات في الأمصار وعدم تحاشي الناس لها نظراً لبعض التعويين من أمثال ابن جني في القرن الرابع من الهجرة أما الأمر الثاني فهو أخطر أثراً وأعرق حدراً . وهو ما تأثرت به اللغة العربية في الأمصار من اللغات التي كانت سائدة فيها ، فزعم أن العربية قد خرجت طافرة متصرفة من صراعها مع هذه اللغات لم تسلم من بعض الجروح والندوب التي تمثلت في انحرافات أصاب بعض أصوات اللغة وصيغها ونواكبيها ، وحدثت على ألسنة الناس . وعندها التعويين أمثلة من النحس

ويبدو أن العلماء والأدباء لم يحدوا خطوهم هذا النحس في نادى الأمر ،

ولم يتصوروا أنه من الممكن أن يتشأ عنه ، كما حدث فعلاً بعد ذلك ، ما يشه  
الثانية أو الازدواجية في اللغة ، لغة للخاصة وأخرى للعامة . يدل على هذا بعض  
كلام الجاحظ حين يشير إلى لغة العامة بقوله ( وإذا سمعت سادرة من نوادر  
العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام فإياك أن تستعمل الإعراب ، أو تتخير  
لها لفظاً حساً أو تخرجها من فيك مخرجاً سويّاً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها  
ويخرجها من صورتها ) (١) .

غير أن بعض الغيورين على اللغة والمتحمسين لصحة الكلام قد بدأوا منذ  
القرن الثالث من الهجرة يحاربون ذلك اللحن ويعملون جاهدين على وقف تياره .  
ويتمثل ذلك في مثل كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت . وأدب الكاتب  
لا بن قتيبة

ويبدو أن النهضة الأدبية التي سادت في بغداد خلال القرن الثالث من  
الهجرة وفي الشام خلال القرن الرابع قد ألهمت الأدباء عن طاهرة اللحن ، فلم  
يعيروها اهتماماً . واعتقدوا أن أمثله مهما كثرت ، ومهما حوت على ألسنة  
العامة . لن تنال من العربية الفصحى ، ولن تصحح لها ما فسد . وأن الشعور  
بنوعية العربية خلال حداثتها القريب والاعتزاز بلونها وآدابها . كل ذلك كفيل  
بإصلاح الخط ونقصاء على اللحن مع مرور الزمن فأشبهت الألسنة عرى  
كما تشاء وبما تشاء ، وقنع أصحاب الأدب بكلام الخاصة والمثقفين من الناس

أما اللعوبون فقد هالهم الأمر ، عشمروا عن ساعد أحد . وبدأوا تلك  
الحركة التي يمكن أن تدعى حركة التطهير أو التنقية في اللغة . وظهرت لهم  
مؤلفات بعنوان (إصلاح النطق ، أو تقويم اللسان ، أو تنقيت اللسان وتلقيح  
الحنان . أو المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان ، أو تصحيح التصحيف  
وحرير التحريف ، أو إجمانة في إزالة الرطانة ) ، مع تلك الكتب التي  
عنوت بلحن العامة أو لحن الخاصة .

وحن مع الذين تشككوا في الرسالة الصعرة المنسوبة لمكسائي وعوامها

لحن العوام ، بل نرجع أن حركة التنقية في اللغة بدأت بدءاً حقيقياً بكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ ، ثم جاء بعده أدب الكاتب لابن قسيمة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . ثم ظل التأليف في هذا الغرض مستمراً في كل عصور اللغة

ومع الجهود المحمودة لهؤلاء اللغويين نظرنا فإذا المقلد في الجغرافيا الذي طاف بالبلاد العربية خلال القرن الرابع من الهجرة يحدثنا في كتابه « أحسن التقاسيم » عن الخصائص اللغوية لكل إقليم من الأقاليم العربية ، ونشعر من حديثه أن نمة ما يشبه الثنائية أو الازدواجية في اللغة قد نشأ فعلاً في البلاد العربية<sup>(١)</sup> .

وقد كان من الممكن أن تتطور هذه اللهجات المحلية فتتصحح لغات مستقلة كما حدث للاتينية التي اندثرت أو كادت محلفة لغات متميزة هي التي نعرف الآن بالإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومانية ، والتي على أساس كل منها نشأت قومية مستقلة في العصر الحديث . غير أن صلة العربية بالدين الإسلامي قد صانتها . وحالت دون مثل هذا المصير . بعد نزل القرآن الكريم على نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم . ووجدت سبحانه عصمه وصيانته في قوله تعالى « إنا نحن رب المذكر والإنا به خافضون » ونكر القرآن الكريم لا يضمن كل أخص اللغة ولا كل أساليبها ونراكيبها . وكان لا بد في صيانته اللغة أن تكون معه الأحاديث النبوية . والمؤلفات الصحفية التي وصفت وفي كل العصور . في الدراسات الأدبية والإسلامية والتاريخية وغيرها . فهي التي كانت ولا تزال بمثابة سجل يحوى كل ألفاظ اللغة وتعايرها وأساليبها . ويذكر بها الدارسين في كل عصر . ويصونها من المصير الذي كان للاتينية

محض في عهد « آل بويه » وبعد أن دالت دولة الأدب في بغداد كان هناك نوع من الأدب الإسلامي المكتوب ممثلاً في الإنشاء والرسائل لا من العميد وأبي إسحاق الصائغ والصاحب بن عباد ونديع الرمان الحمداي . وفي آداب

أبى الفرج الأصبهاني وأبى هلال العسكري وأبى على القالي ، وفي معاجم الجمهرة لابن دريد . والتهذيب للأزهري ، والمحمل والمقاييس لابن فارس ، والصحاح للحواري . وفي تاريخ المسعودي .

وربما كانت أكبر حركة تأليف عرفها العربية في كل تاريخها تلك التي تمت بعد نكبة المعول . فكان الدارسين حينئذ أرادوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الفكري الذي خلفه أجدادهم العرب . بعد أن أحرق منه الكثير . وغرق منه الكثير في أثناء غارات المعول وتخريبهم لبغداد . وكانت الكثرة العالة من هؤلاء الدارسين في ربوع مصر والشام . ففي هذا العصر عُرف ابن مالك النحوي المشهور بمؤلفاته والمتوفى سنة ٦٧٢ هـ . وفيه وضع أضخم معجم عربي هو لسان العرب لابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١ هـ . ووضع ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ مؤلفاته النحوية التي هي عماد هذه الدراسة حتى الآن . أما المؤرخون فمنهم ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وابن حلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ . وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . وتقي الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وأبو الخراسان نغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ صاحب مجموعة نثره . وغيرهم كثيرون من أهل نعمة والتاريخ والعدة للإسلامة وذلك لأن حلفاءه مثل بل آلاف من المؤلفات لخليقة الشار

ونسب بعض مؤلفات هذا العصر تاجمع الشامل الكامل في استقصاء عجيب . أدى إلى نشأة ما يعرف بالموسوعات . فالويزي المتوفى سنة ٧٣٢ هـ أخرج لنا موسوعة بعنوان « نهاية الأرب في فنون الأدب » . وابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ألف الموسوعة التاريخية المسماة « مسائل الأمصار في ممالك الأمصار » . وجلال الدين السيوطي أخرج للناس أكبر مجموعته من المؤلفات التي يمكن أن تسب لعالم واحد . والقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ صاحب صبح الأعشى .

وظل العلماء عمارين وجمع والتأليف حتى في العصر العثماني . وقد كان موقف المتأدبين ودارسي تاريخ الأدب العربي إلى زمن قريب . أن هذا العصر

بعد عصر اصمحلل للأدب العربي ، وأن معظم ما ألف فيه لا يعدو أن يكون جمعاً لتراث السابقين وتفسيراً له أو تعليقاً عليه ، وأن الابتكار فيه قليل أو نادر . فأصحاب هذه المؤلفات الضخمة عالة على من سبقهم ، وكل ما لهم من فصل أنهم جمعوا هذا التراث فصانوه من الضياع . على أن بعض الدارسين الآن يشيدون بإنتاج هذا العصر ، ويحاولون جاهدين أن يردوا له اعتباره . وليس يعنينا هنا ترجيح رأي هؤلاء أو هؤلاء ، ولكننا نقرر في حيلة واطمئنان أن نتاح هذا العصر قد خلد اللغة ، وجمع كل ألفاظها وتعابيرها وأساليبها . فجمع بهذا كل أبناء العرب حوطاً . وطل يذكركم بها ، ويشعرهم أنها هي التي تلم شتاتهم وتجذب بعضهم إلى بعض ، وأنها الأساس الحقيقي لقوميتهم العربية ، رغم سأتها العميق خلال هذا العصر .

#### القومية العربية في العصر الحديث :

كان للتقدم الصناعي والعلمي في القرن التاسع عشر أثر كبير في الوعي العالمي . كما كان لسهولة المواصلات وسرعتها أثر كبير أيضاً في نشر الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب والدول . فلما بدأت الحركات الثورية في بعض ماطى أوربا سرى إلى المناطق الأخرى أثرها فبهرت ببريقها . وبصرنا فيد شعوب عدة تطالب باستقلالها . وحس بكياها وتغيرها لا على أساس من الجحس أو الدين أو الوطن الجغرافي ، بل على أساس اللغة التي تحرى على ألسنتهم جميعاً ، وترحد عقولهم ، ويجذب بعضهم إلى بعض ليتكون منهم مجمع يسعى إلى الأمن والاستمرار والرخاء لكل أفرادها . ولم يكد ينهى هذا القرن حتى نبلى ماسمى بعد ذلك بحق تقرير المصير الذي يودى به في إثر الحرب العالمية الأولى . وليس له معنى في حقيقة أمره سوى حق تقرير المصير بين أصحاب كل لغة . فتأسست بذلك قوميات أوربا في هذا القرن . أو بعبارة أخرى انعزلت كل لغة بأبائها . وإن كان حكام الدول الكبرى لم يوقفوا الترفيق كله في تطبيق هذا المبدأ ، مما أدى إلى تلك المشاكل التي أشربا إليها آنفاً .

ولم تكن القومية العربية الحديثة بدعاً في يقطها وانتفاضتها في أواخر هذا هذا القرن ، كأثر من آثار الحركات القومية في أوروبا ، أو اقتداء بها . فالقومية العربية الحديثة اعتداد بالحركات القومية في أوروبا ، تأسست على ما تأسست عليه تلك القوميات ونهجت نهجها ، وإن تأخرت عنها قليلاً .

بدأت إذن الانتفاضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، ولا أسميها بعثاً أو إحياء كما يعبر بعض الدارسين . ذلك لأن البعث أو الإحياء إنما يكون بعد موت ، والقومية العربية لم تمت أبداً ، بل كانت قد أصابتها سنة من النوم خلال حكم العثمانيين ، إذ تفرقت مناطقها إلى وحدات شبه مستقلة ، يحكم كلا منها حاكم له طموح شخصي ، وكل ما يخطر فيه هو أن يتفرد بالحكم في نطاق معين ، يسوسه كيف يشاء ، وعلى ما يهوى . وربما ساعد على هذه العزلة بين البلاد العربية خلال حكم العثمانيين بطء المواصلات وصعوبتها . مع ما لكل إقليم من لهجة خاصة في الخطاب ، تكونت خلال عدة قرون من إهمالها وتركها تخرى على ألسنة العامة . وتتطور إلى حصائص متميزة في كل إقليم .

ولما كانت تصحوه العربية نظر أبناء هذه الأقاليم إلى ما يمكن أن يجمع بينهم فلم يجدوا سوى تلك اللغة المكتوبة ذات التراث العكري الضخم . فقد تلقاها أبناء العرب مكتوبة لا مطبوعة ، إلا في نطاق صيق بين القرائن للقرآن الكريم والمرثليين لآياته عن ظهر قلب ، وكانوا قلة في كل إقليم ، وربما معهم عدد قليل من الناس أتاحت لهم دراسة شعرية لبعض النصوص اللغوية وآدابها في المدارس الإسلامية التي ألحقت بالجماعات والمساجد المشهورة في البلاد العربية . ومع حرص قراء القرآن الكريم على حسن ترتيله ، وحرصهم على تلقيه مشافهة وتحريريد أصواته ، وإجارة الشيوخ منهم لتلاميذهم من الحفاظ ودارسي القراءات ، مع كل هذا حدث تطور لبعض أصوات اللغة على الألسنة ، وتغير كل إقليم بصمات صوتية معينة . وأصبح فإذا لأبناء العراق حتى في

قراءتهم للقرآن الكريم بعض السمات الصوتية في نطق الحروف وفي نبر الكلام تختلف عما لأهل الشام ، ولهؤلاء سمات أخرى قد تختلف عما لأهل مصر . كما للمصريين ما يميز نطقهم عن نطق أهل المغرب وهكذا . على أن هذه الفروق أصرية كانت عن الصالة وعدم الأهمية في نظر معلمى القرآن وشيوخه . فلم يعيروها اهتماماً . أو إن شئت قلت أعياهم أمرها بين التلاميذ بعد أن لمسوا تأصل حدوثها في ألسنتهم ، فتمنعوا منهم في بعض الحالات عما قدروا عليه ، وأجاروهم على مصص . أو رغبة في التيسير على طلاب القراءة لتكثير عددهم . وبشر الثقافة العربية الإسلامية بين أكبر قدر منهم .

وتطلع أبناء العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى تلك التراث العكري المصنم الذي خلفه لهم أسلافهم مكتوباً باللغة العربية ومخطوطها العريق المتميز . فتشبهوا به ، واهتموا حوله . ينهلون من حياضه ما استطاعوا . وكانت النهضة القومية العربية في صورة نهضة للغة ، وإيقاظ لها من سباتها . وقد يحيل لبعض الدارسين أن الحركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر كانت حركة إسلامية . وإذ كان ذلك لصعوبة تعصل بين الإسلام ونهضة العرب . هي لغة الوحي . وهي التي دلت في القرآن الكريم . وربما كان ذلك أيضاً لأن هؤلاء الدارسين . حسب الأمر عنهم من إسلامية التي هي دعوه علمية وفداس كافة . وبين العربيه التي هي دعوة للمتكلمين بالعربية وحدهم . وقد انمصل بين الدعوتين واصحاً حلياً لكثير من المسيحيين العرب في الشام وغيره . وعملوا جهدين على التمييز بين الدعوتين . وأسهموا بجهود كبيرة في الحركة العربية . ودعم القومية العربية ، عن إيمان بها وثقة في نجاحها . كان المستشرقون من أساء العرب يركزون تمام الإدراك أن الإسلام قد شق طريقه إلى مناطق متباعدة لها لغتها وقومياتها ، في الهند والملايو وأندونيسيا وقلب أفريقيا . وليس من المعقول أن تنحصر القومية العربية مثل هذه المناطق ، لا شيء سوى أن الناس بها لهم ألسنتهم الخاصة . وربما حظهم الخاص . وإن كانوا إخواناً لنا في الدين والعقيدة .



لا غرابة إذن في أن تطلعت القومية العربية أولاً وبالذات إلى اللغة التي تجمع أبنائها وتوحد تفكيرهم ، وإلى ما ورثه هؤلاء الأبناء من آثارها وآدابها ودراساتها فكانت النهضة في صورة ما يسمى من قبيل التجوز ببعث التراث أو إحيائه وإنما هو إيقافه من سياقه ، بتحقيقه وإعادة نشره وتيسير تداوله بين الراعيين في دراسته . فأنشئت المطابع العربية ، وحفل الأزهر الشريف وأمثاله في بلاد العرب بالدارسين لعلوم اللغة وآدابها ، وبكل ما يمت إليها ، واحتفوا بها قبل احتفائهم بالعلوم الدنيوية الأخرى التي لا تميز قومية من أخرى ، والتي لا تعدّ طابعاً لقومية معينة ، بل هي تراث إنساني تشترك فيه كل القوميات وتسهم فيه بنصيبها . ثم حاول بعض أناء العرب ترجمة هذا التراث الإنساني إلى لغتهم القومية وكتابته بخطها ، فساعد ذلك على أمرين : أحدهما تقوية الوعي بين الدارسين وتوسيع أفقهم وترقية الحياة العامة ، والآخر تعميق الشعور بالقومية العربية بعد أن صردت العلوم الدنيوية بلغتها وخطها ، وبعد أن عبرت عنها الألفاظ العربية والأساليب العربية . وأصبح ميسراً على كل أناء العرب دراسها وفهمها في صورة موحدة لفظاً وخطاً .

وما أطل أن تلك الانتكاسة التي أصابت القومية العربية في أوئل عهد الاحتلال البريطاني حين جعلت لغة العلم والتعليم في المدارس اللغة الأجنبية قد أدت إلى إضعاف القومية العربية ، أو حالت دون تدفق بيارها . فقد مكثت تلك الحال عدداً قليلاً من السنين ، فلم يكن لها أثر يذكر ، إلا أن تكون قد ألهت الشعور بالقومية العربية ، وحثت المصلحين المخلصين على سرعة العودة إلى التدريس في المدارس باللغة القومية .

فإذا اتسمت النهضة العربية بترجمة العلوم الحديثة . فإما كان ذلك . أو من أهم أهدافه ، إثراء لغتها العربية وتوسيع آفاقها . وإذا أنشئت المطابع العربية وأسست دور الصحف والشر ، فإما كان ذلك للنهوض بأساليب اللغة وتطويرها لمسايرة رك الحاصرة . وإذا أنشئت المدارس والمكاتب في البلاد العربية . فإن ذلك قد خدم اللغة قبل خدمة أي شيء آخر .

ونحن نؤثر في التاريخ لبوادر القومية العربية أن نبداً بعهد «إسماعيل» الذي كان ممتوناً بالخصارة الأوروبية ويسعى إلى جعل مصر قطعة من أوروبا . وإن أراد هذا أن يهيء لنفسه حواً من الرفاهية الأوروبية . وأن يوهم الناس بأنه حاكم متحضر ومع هذا قرب ضارة نافعة . فقد ترتب على سياسة إسماعيل أن تيار القوميات الأوروبية وصل مصر متدفقاً . وأن فكرة القومية التي سادت في أوروبا حينئذ وجدت طريقها في البلاد العربية ممثلة في مصر التي كانت محط أنظار العرب في ذلك الحين . فأخذ الوعي العربي يتقوى . وساعد على هذه الیقطة مظاهر أبررها : الثقافة اللغوية الحديثة والتطلع لها ، فأرسلت العشرات التعليمية لأوروبا ، وفتحت المدارس . واستغل رفاة الطهطاوى وتلميذه على مبارك تلك الفرصة فعملاً على إعادة مدرسة الألسن وتأسيس مدرسة الإدارة التي صارت بعد ذلك مدرسة الحقوق ، وعلى كثرة المدارس الابتدائية والثانوية . وافتتاح أول مدرسة للبنات ، ودعم الدراسة اللغوية العربية بإشياء دارالعلوم ، فكان لكل ذلك أثر واضح في النهوض باللغة مع إنماء الوعي بين المثقفين .

أما المطهر الثاني للیقطة العربية وموادها في أواخر القرن التاسع عشر فهو «سعى بإحياء التراث العربي الذي عمر عنه أحد الأئمة المحدثين بقوله» (أحسن كثير من المثقفين بوجود إبرار عصمه بلادهم وإشرف تاريخهم . . . فأرادوا أن يواحيوا الثقافة الأوروبية الوافدة بثقافة عربية أصيلة . . . ومن هنا اتجهوا إلى التراث العربي القديم وإلى انشاء حمهرة من روائعه لإحيائها ونشرها للالتقاء عليها في إرضاء الوعي النامي المتلهف إلى ثقافة عربية جيدة تقف أمام التواء الأوروبية الوافدة . وكاتب نواه هذه الحركة «جمعية المعارف» التي ألفت سنة ١٨٦٨ ، وما لبثت أن نمت سريعاً ، وعُييت بإحياء عدد كبير من الكتب التاريخية والأدبية العربية ، كما عشت بشر طائفة من الدواوين الشعرية التي أسجتها العصور العربية الراهرة في المشرق والأندلس) .

وأما المطهر الثالث فيتمثل في الصحافة ودور النشر والمكتبات وكان لها

ولا شك أثر كبير في ترقية اللغة ، وتنمية ألفاظها ، وتجويد أساليبها ، فوق ما كان لها من أثر عظيم في الوعي الثقافي العام .

ولكن القومية العربية والحق يقال ، لم تأخذ طابعاً سياسياً إلا في أوائل القرن العشرين ، وإن عبّر عنها « الكواكبي » في بعض كتاباته في أواخر القرن التاسع عشر .

وكان الطابع السياسي للقومية العربية في إثر ما أصاب الدولة العثمانية من الهزائم ، وما لحق بها من الاضمحلال بعد سلسلة مؤسفة من تأمر الدول الأوروبية الكبرى عليها ، حتى أصبحت ألعوبة في أيدي الساسة الأوروبيين وأضحكة بين الدول ، وهي الدولة الإسلامية التي كانت البلاد العربية تتطلع إليها ، وتقع بحكمها . فلما فشلت تركيا في حماية البلاد العربية الإسلامية طهرت بين أبناء العرب فكرة اللامركزية التي هي دعوة إلى انفصال البلاد العربية لتتكون منها دولة مستقلة ذات كيان عربي متميز تقف في وجه المستعمرين المعتدين الذين تمثلوا لأبناء العرب حينئذ في بريطانيا وفرنسا . ونظر أبناء العرب فرأوا أن هناك ما يجمع بينهم ويلهم شتاهم ويوحد من شعورهم وفكرهم . وذلك هو اللغة العربية التي ورثوها عن أجدادهم مع ملء من أدب سامية . وبرزت فكرة رافع كانوا يتدارسون في دور العلم ويتشبهون بأهله . فدعوه اللامركزية هي في الحقيقة دعوة إلى القومية العربية التي بدأت تستيقظ من سباتها ووحد أبناء العرب كذلك أن يبار القوميات الأوروبية التي أساسها وحدة اللغة قد حاور حدوده إلى تركيا نفسها ، فنشأت بها تلك الحركة التي تدعو إلى « التريك » . وصنع كل البلاد التابعة لتركيا بالصيغة التركية من حيث اللغة والثقافة . إيماناً من أصحابها بأن وحدة الدولة وتماسكها وقوتها لا يتم كل هذا على أساس الوحدة اللغوية والثقافية كما هو الشأن في دول أوروبا . لذلك شج أصحاب فكره « التريك » حراً شعراء على اللغة العربية والثقافة العربية . وبلغت ذروة هذه الحركة فيما قام به بعد ذلك كمال أتاتورك الرعيم التركي المشهور . وكان من الطبيعي أن يكون لحركة التريك صداها بين أبناء العرب . ورد فعل عسفي داخل

العالم العربي <sup>(١)</sup> . فنشط المصلحون والمفكرون في العمل على إحياء التراث العربي ونشره . لأنه السجل الخالد الذي حفظ لهم لغتهم ، فصان لهم عروبته . فكانت النهضة الفكرية العربية التي تمت في نشر أمهات الكتب في اللغة وآدابها ، ذلك لأن مطاردة اللغة العربية والثقافة العربية على إثر حركة التثريب في المدارس والمحاكم وكافة المحافل والأوساط الرسمية ، كانت بمثابة كارثة لدى أبناء العربية الذين زاد استعساكهم بلغتهم ، واشتد تعصمهم لها واعتزازهم بها .

وبدا هنا واضحاً حلياً في البحوث التي أقيمت في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ ، وهي البحوث التي اتسمت بالفهم المتكامل للقومية العربية والتي اختفت منها النزعة الدينية ، فأصبح لدى المثقفين من العرب وعي كامل وإحساس بالكيان العربي .

ويبدو أن بعض المفكرين في أوائل عهد الانتفاضة العربية قد فهموها أو فسروها بحسب نية طمعا على أنها حركة إسلامية ، واحتلظ الأمر عليهم بسب تلك الرابطة الوثيقة بين الإسلام واللغة العربية . ولكن الأمر نكشف واتضح قبيل الحرب العالمية الأولى فلما نشبت الحرب وقامت ثورة الشريف « حسين » على الأتراك . نظر إليها على أنها تهدف إلى تحرير البلاد العربية من الحكم العثماني وتكوين دولة عربية مستقلة تضم كل المناطق التي تسود فيها اللغة العربية . ثم كانت النكسة للقومية العربية بعد هذه الحرب . وظهرت بين البلاد العربية حركة التفتت أو التفتت التي عمل لها الاستعمار حادراً . وجنى ثمارها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية . وأصبحنا فإذا بالبلاد العربية مناطق يستغل بعضها عن بعض ، وقد قسمت إلى وحدات سياسية صغيرة لا مسوع لها سوى أطماع الاستعمار ودسائسه ومؤامراته . وأصبح العربي الذي كان يتنقل بين هذه المناطق في حرية تامة ، ويجد في أي منها مستقراً وموطناً . بعد أحياً إذا انتقل من بلد عربي إلى آخر . فأقيمت الحواجز الحركية بين هذه الوحدات السياسية .

وخضعت لنظم مالية واقتصادية متباينة . فظهرت لذلك خلال الثلاثينيات نزعات إقليمية كالزعة المرونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والقومية في سوريا ، ونحو ذلك .

ويعتبر هنا اختلاف اللهجات بين المناطق العربية . فقد استغله الاستعمار أسوأ استغلال في حركة التفتت التي قام بها .

ذلك لأن لهجات الكلام قد تطور أمرها منذ قرون ، وأهل شأنها في المناطق العربية ، وتركت تجرى على الألسنة في الأسواق وفي تعامل العامة بعضهم مع بعض ، وأدّى هذا إلى انحراف في نطق بعض الأصوات العربية ، وإلى تغيير في بعض صيغها وتراكيبها ، واصطبغ هذا بصيغة محلية لا تزال تلمس أثرها حتى الآن . وكأن المثقفين والخاصة من أبناء العرب قد قنعوا فيما مضى بما ورثوه عن أجدادهم من تراث فكري مكتوب ، ورأوا أن العمل على سعة انتشاره بين أبناء العرب وحسن مدارسهم له . كهيل بتقويم الألسنة والقضاء على تلك العروق الطبقية التي عرلت المناطق العربية بعضها عن بعض .

ومن هنا ندعو الآن إلى دراسة هذه اللهجات المحلية فإنما ندعو إلى علاجها وننظر إلى أهم أمراض ابتليت بها الألسنة العربية . ولا سبيل لعلاجها إلا بتشجيع شجيرة علمية يصحح ولا ينفق دسك ولا مدرستهم من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب وما قد تتضمن من ألفاظ أجنبية .

فالقرية العربية الآن قد أصبحت حتمية ثابتة بما حققه من إنشاء جامعة عربية . وتأسيس للمجامع اللغوية في مصر وبيروت ودمشق ، وما نشر من مئات الكتب العربية التي ألفها السلف ، وبالتبادل الثقافي بين البلاد العربية على نطاق واسع ، وأخيراً وليس آخراً بما تواجهه من تحديات الاستعمار وعمله على أدها . ولكنها مع هذا لا تزال بحاجة إلى دعم ، وإلى جهود متضافرة لصيانتها والحفاظ عليها . وقد يكون من وسائل هذا الدعم القضاء على كل المتناقضات التي نشهدنا الآن بين البلاد العربية من أنظمة مختلفة في الحكم وفي النواحي الاقتصادية ، ومن تحلف في المستوى الثقافي في بعض مناطقها .

ولكن الدعم الحقيقي في رأيي إنما يكون عن طريق اللغة ووحدةها نطقاً وأداءً بين البلاد العربية . ولعلني لا أكون مسرفاً حين أقرر أنه إذا تحققت لنا وحدة لغوية حقيقية كذلك التي ألهمت بين الألمان ونعت فيهم القومية الألمانية . أو كالتى وجدت إيطاليا وخلقت فيها القومية الإيطالية . إذا تحقق لنا هذا فقد نحقق كل شيء .

ذلك لأن اللغة العربية المشتركة التي يلتف حولها العرب الآن لا تزال في أغلب صورها لغة مكتوبة لا مطبوعة ، بل لا تزال نفتقد في هذه اللغة المكتوبة وحدة كاملة شاملة . فلا تزال مصطلحات الحكم والإدارة تختلف بعض الاختلاف في البلاد العربية ، ولا تزال بعض الاستعمالات العامة التي تقرأها في الصحف والكتب والمجلات تسم بالصيغة المحلية ، بله المصطلحات العلمية في القانون والطب والهندسة والزراعة وسائر العلوم الحديثة . وتعمل الجامعات اللغوية في البلاد العربية جاهدة على علاج هذه الظاهرة المؤسفة ، غير أن جهودها لم تكمل بكل النجاح . لا لتقصير فيما تبذل من جهد . بل لضعف التشجيع . واقتقاد النظرة الحدية المخلصة إلى عملها بين بعض من يبدعهم مقاليد الأمور في البلاد العربية . وليس لها من العود والسلطان . تتركز به جهودهم أو ما به عهده على شرها وشوعها بين الناس . ولكن الخطر الذي همس على كل حال ، وجهود الجامعات اللغوية على بطنها ، والصلات الثقافية التي تتوطد يوماً بعد يوم بين البلاد العربية ، كل ذلك كهيكل بوحدة شاملة في المصطلحات والأساليب وطرق التعبير . ونحن ولا شك واصلون إليها في المستقبل القريب . أما الخطر الأكبر فينحصر في الأدب المنظوف وفي لهجات الكلام والتخاطب<sup>(١)</sup> . ولنا نتطلع إلى المستحيل أو ما يشبه المستحيل بأن نتصور أنه من الممكن أن يتوحد اللفظ في كل البلاد العربية ، أو أن يتماثل تماثلاً تاماً . بحيث إذا سمعنا العراقي مثلاً يقرأ نصاً أدبياً وسمعنا المعري يقرأ نفس النص لا نلاحظ أي فارق

(١) انظر للمؤلف مستقبل اللغة العربية المشتركة . نشر معهد الدراسات والبحوث اللغوية في جامعة القاهرة .

صوتى ، حتى ولو كانت آذاننا مدربة على التقاط الأصوات والتمييز بينها ، مرهقة لا تفعل عن نبرة أو جرس . فمثل هذه الدرجة من المماثلة لا يتصور وجوده حتى في الأسرة الواحدة . كذلك لا نتطالع إلى أن تصبح لهجات الكلام في البلاد العربية موحدة أو متماثلة في كل شيء ، فهذه أيضاً حال لم تصل إليها أرقى اللغات في العالم ، وليس من الضروري أن تبلغ هذا المدى لتحقيق القرينة المتناسكة التي فيها تكتمل حاذبية الأفراد بعضهم إلى بعض . وشعورهم جميعاً بتمييزهم وكيانهم ، وتعاونهم على ما فيه الاستقرار والأمن والرخاء

ففي إنجلترا مثلاً لا تزال نلاحظ دون عناء أو خيرة خاصة . بعض تلك الفروق النطقية التي تميز سكان لندن من سكان إسكتلندا ومن سكان « ويلز » حين يقوم أحدهم خطيباً في حفل أو ندوة ، ويحاول جاهداً أن يتحدث بتلك الإنجليزية النموذجية المشتركة التي استقر شأنها منذ سبين . والتي حددت مستوياتها ومعالمها وسماها في الدراسات الصوتية الحديثة على أيدي أشهر اللغويين من اللغويين . وقعت القرينة للإنجليز هذه القدر من الوحدة اللغوية . وتركت تلك الفروق لمطبعة الطبيعة للرأس ، وأصبح المصنحون ونداء يروو وبحق أن إمكانيات الإدعاء الحديثة كقوله تنحيز هذه الفروق من حدود لغة المشتركة . وأنه ليس من العبد في المستقل أن ينفي معها أن ينفي . فلا تكون هناك أى شبهة أو مسحة لللهجات محلية .

فإذا نظرنا إلى الوضع اللغوي في معظم البلاد العربية الآن وحدها هبة كبيرة في دراسة اللغة العربية وآدابها ، في الشعر والمقال وفي القصص والمسرحيات . غير أن معظم هذه الآثار الأدبية لا يزال في صورة الأدب المكتوب نثره ، الأعيان قراءة واحدة . ولكن لا تكاد تنطلق به الألسنة في شكل موحّد . أو شبه موحّد . فالعراقي ينشد الشعر العربي في نبر وإيقاع متميز عن إنشاد المصري له ، والشامي يسمي بعض أصواته حتى في قراءة القرآن الكريم عن أصوات المعري . فعمد أن له لغة أدبية نموذجية مشتركة محدثت إلينا عن أحداثنا العرب . وسُحلت لنا في نراث فكري صرح يعمل الآن على نشره وتحقيقه ، لكما ورثاها مكيونة لا مطبقة ، ونحن

بحاجة الآن إلى أن نُنطقها ، وأن نخرجها من صمتها الذي طال أمده ، وأن نجعلها ككل اللغات المشتركة الحديثة لغة كتابة ولغة أداء ونطق ، بحيث إذا تحدث بها العربي مع أخيه العربي في مجلس أو ندوة لا يشعر بعد قليل بالملل والسأم ، ولا يحس بالإرهاق الذهني ، ولا بوصف بالتكلف أو التقيؤ كما هو الشأن الآن . ذلك لأن سيطرتنا على هذه اللغة قد كادت تبلغ الذروة حين نكتب بها ونسجل أفكارنا بتعابيرها وأساليبها وتبادل كل هذا في سهولة ويسر ، غير أننا حين نعود إلى النطق نتعثر الألسنة لدى معظم الناس حتى المتقنين منهم ، ويظهر اللحن في أشنع صوره . فدرجة سيطرتنا على النطق بهذه اللغة وأدائها لا تقارن بمستوانا العظيم في الكتابة بها ، فنطقنا بها أدنى كثيراً جداً من كتابتنا بها . ولا غرو لذلك أن تعد لغتنا المشتركة التي نعتمد عليها في وحدتنا نحن أبناء العرب ، لغة مكتوبة لم تصل في النطق بها إلى مستوى اللغات المشتركة الأخرى .

أما من حيث لهجات الخطاب فالموقف أشنع وأبعث على المرارة والحسرة . فقد ينهب المصري إلى أسواق العراق أو المغرب فيجد التماهم مستحيلاً أو شبه مستحيل . ولا يكاد يقصى حاجته في بيع وشراء إلا مشى الأندلس فالألفاظ المختلفة والتركيب مخالفة والأصوات مختلفة وقد حاد إلى اللغة المشتركة المصباح أصاب المتكلم والسامع دوار . أو إرهاب بعد فترة وجيزة ، ثم قد يسهى الأمر مع الأسف أن يتحاطا بلغة أحسن كالإنجليزية أو الفرنسية التي يتصادف أن كلاهما يحسن الخطاب بها . فالكمثرى في مصر هي العرموط في بغداد . والرفوف في مصر هو الخوخ في الأردن ، والخوخ في مصر هو الإجااص في الشام وكلمة « البرطة » التي لها دلالة رديئة في مصر . ها دلالة طيبة في لبنان والأردن ، فهي هناك نوع من المثلجات التي تشبهها النفس في الجو الحار ولا يتسع المجال هنا لسرد أمثلة من تلك المعارفات المضحكة أحياناً ، والمؤسفة في أحيان أخرى . ويدرك كل من طاف بالبلاد العربية عمى الدرك الذي هوى إليه لهجات الخطاب في البلاد العربية ، ويبين أبناء العرب الذين يتطلعون إلى وحدة قومية مباسكة .



ويبدو أن قوميتنا العربية التي تقوم أساساً على وحدة اللغة تتطلب دعماً أقوى بحقق الارتباط الوثيق والتماسك الوطني بين أبنائها .

ولست أزعم أن تحقيق هذا المستوى أمر هين يسير ، بل هو في رأيي يتطلب رماً صريلاً وجهوداً متضافرة بين القادة والزعماء في البلاد العربية ، ويتطلب دراسة تخطيطية دقيقة ، وفوق ذلك كله إخلاصاً حقيقياً لقضية القومية العربية .

وفي رأيي أنه لو وجهت كل جهود البلاد العربية إلى هذا الغرض وحده وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات بلحنينا ثماراً له لا تقدر بحال ، ولشهدنا قومية عربية حقيقية متماسكة لا تنفك عراها ، مبيعة عزيزة لا تقال منها أحداث الزمن ، وذلك خير لنا من أن نؤسس قوميتنا على شعارات أقرب إلى الخيال والوهم ، كتوحيد النظم الاقتصادية ، أو المذهب السياسي ، ونحو ذلك مما لا يلبث أن يصطدم بالآمال الشخصية . ويكتنف بالشكوك والريب في العلاقات بين البلاد العربية .

ولدينا في العصر الحديث من الإمكانيات الإبداعية ، ووسائل الشر والإعلاء ما إذا أحسن استخدامه . وحصلت إليه في عهده . حقق لنا لغة عربية مشتركة . سود كل البلاد العربية ويحسبها قومياً كائناً وضناً وأداء . وبشد أساءها بعضهم إلى بعض ، فتولف منهم مجتمعاً عربياً حريصاً على عرته وكرامته . بشعر في شعور واحد . ويمكر في عقل واحد . فلا مبارعات ولا حصومات . بل سلام وحسن تفاهم . وتعاون على الاستقرار والأمن في أراضهم . وتآزر في النضدي لأعدائهم الطامعين في حيراتهم . وعمل على الرجاء الذي يكمل لهم حياة كريمة ذات مستوى من العيش رفيع . وحيثئذ نبحر بقوميتنا العربية . ورددادها اعتزازاً واستمساكاً .

ولقومية العربية فيما مضى أيام اردهارها في عهود الأمويين والعباسيين وأمرء الشام وحلفاء الأندلس والأيوبيين في مصر لم يعتمد أساساً إلا على اللغة وآدابها وهي في العصر الحديث كذلك لا يسلمهم وجودها إلا عن صرق هذه اللغة

ولا يتحقق دعمها إلا على أساس ذلك اللسان العربي المبين .  
وأود أن أختتم هذا الفصل بما كتبه أدبية عربية كبيرة في الصحف (١) بعد  
أن زارت الجزائر عدة مرات أولاها سنة ١٩٦٣ وآخرها سنة ١٩٦٨ . تحت  
عنوان « معركة التعريب على أرض البطولات » وكان مما جاء في مقالها قولها .

( يسمونها في أرض البطولات معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة ،  
ويعتقدون بيساط يقولون إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائري ، وبقى أن  
تخلص الجزائر معركتها لتحرير لسانها . وتحرير اللسان يعني تحرير الفكر  
والوجدان والضمير ، ويعبر هذه الحرية يكون الاستقلال وهما والنصر عقيماً ) .  
ثم تقول : ( وحين كان التعريب قضية مطروحة علينا في مؤتمر المعلمين العرب  
بالجزائر بدت لنا نحن الأعضاء الوافدين من أقطار الوطن العربي هيئة يسيرة  
سهلة ، يكفي لها أن تجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت .  
ومثل الشعب الجزائري لا يشق عليه أن يمرض إرادته الحرة على أنثائه ، وقد فرضها  
على المستعمر في عنفوان حبروته ولكنها أعمق عوراً وأعقد مسلماً في حساب  
من يواحيونها في دوامة الصراع . فالتصوم فيها صحاباً في الوقت نفسه . صحاباً  
عنه طول من الاستعمار امتد قرناً ونعصر قرن . فرض فيه لسانه وثقافته  
وسيطر على التعليم المدرسي نظاماً وحظه ومهجة ولغة ومادة ومباحاً ) .  
ثم تقول : ( ولدى أجيال تخرجت أفواج من هذه المدارس لا يملكون التعامل  
أو التعامل بعبر لغة المستعمر ، ولا يحدون سبلاً إلى زاد فكري أو وحداني  
إلا في مكتته (١) واستطاع الضمير الشعبي مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية  
وطنهم فشاركوا في النضال قدر ما استطاعوا وحلوا المستعمر فإذا بهم يسمعون  
فحاة دعوة إلى التعريب تتجاوب بها آفاق الجزائر وكان من الطبيعي أن  
نصعدوا لمقاومتها لا عن حيانه للوطن في تهديدهم ، ولا عن جهل منهم بشرعية حق الأمة  
في تحرير لسانها ، ولكن دفاعاً عن كياناتهم ووجودهم . وقد رأوا أن دعوة التعريب  
تحرير لسانها بطولها الزمن ، ثم يذهب مع الريح وفاتهم حس الوعي الثوري لأمة رند

تحرير لسانها واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية بكل ملامح عراقها. وفاتهم كذلك أن فداحة التضحيات التي اقتضاها الكفاح المسلح لم تستنفد طاقة الشعب ، وإنما أعطته رصيذاً ثورياً يخوض به معركة الأصالة في إصرار ، كيلا يتحول النصر إلى هزيمة . وكان أن صارت دعوته التعريب إعلان ثورة وشعار مرحلة ونداء معركة . ونجدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة منها بمقتضى قرار جمهوري صدر في شهر أبريل من عامنا هذا معلناً إصرار الأمة على استكمال تعريب لسانها في موعد أقصاه أول عام ١٩٧٠ . معطياً مهلة عامين اثنين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لمحو الأمية . أو استكبروا أن يدخلوها ، ومحققاً إرادة الأمة في أن تخرج حركة التعريب من مجال الجدل الخطابي والحوار الكلامي إلى مجال التنفيذ .

(وتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ إيذان باقتراب الأزمة من ذروتها العيية . وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى النفاذ :

وندروس نوشك أن تستكمل تعريبها ، والأسماء الفرنسية للشوارع والطرق والأدقة . وتمعت واستندل بها أسماء حرائرية وعربية صميمة ولافتات المتاحر ترجم كثير من العربية واكتفى في بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية . وسدرس العربية نحو لأمية بسر على امتداد الأرض الحرائرية ، وبكاد تصق على سعتها من محروصون على محو أميتهم العربية قبل عام ١٩٧٠ والصحت اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية ومعاهد المعلمين صمغ في حسابها تخرج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء المرحلة ، ثم نهى كلامها قائلة ( إلى ذلك المدى تتعمد معركة التعريب وتمتد أبعادها في العمق العائر من الكيان الحرائري . وتأخذ وضعها الصعب في دوامه الصراع بين متعصم التيارات . وهكذا تحتدم معركة تحرير اللسان القومي امتداداً للحرب التحرير . وما كنت أدري أنها بلغت ذاك المدى من التعقد والعنف حتى كانت جلتي إلى الحزائر هذا الصيف ) .

## الفصل السابع

### العالمية واللغة

يتمثل تاريخ الإنسانية فوق سطح البسيطة في سلسلة من المآسي الدامية ولا فرق في هذا بين عهود الحمجية وعصور المدنية والحضارة . ويبدو أن الإنسان لم يوفق حتى الآن في الاهتداء إلى نظام اجتماعي يكفل لبنى حنسه حياة يسودها السلام والاستقرار والأمن والرخاء . ولم يُجد معه شرائع سماوية أو وضعية . فكلما تخيلنا أنه قد آن الأوان لمثل هذه الحياة ، وتصورنا أن روح الخير في طريقها إلى السيادة . نظرنا فإذا بالشرور تغلب . والحروب تستطعم الأرض ومن عليها . وقد تبدو هذه النظرة متشائمة إلى أبعاد حدود التشاؤم . ولكنها مع الأسف الشديد ، واقعية تؤيدها أحداث التاريخ قديمه وحديثه .

بدأ الإنسان نظامه الاجتماعي في صورة قلبية اتسمت بشر العارات . وبالاعتداءات على الأرواح والأعراض والممتلكات . ونشأ هذا النظام إلى . نشهد الآن من صور مروعة لقسوة الإنسان على أخيه الإنسان .

وانفل الإنسان من الحياة القبلية إلى تأسيس المدن والقرى . هذا هدا مرحلة جديدة في نظامه الاجتماعي . وبدأ معها ما عرف بعد ذلك بالقومية التي هي في أوصح تعريقاتها لا تعني أكثر من أن جماعة من الناس يحسون في قرارة نفوسهم بقوة قاهرة تجذب بعضهم إلى بعض ، وتوحد بين شعورهم وعواطفهم وآمالهم . فيعاونون معاً على تحقيق أكبر قدر من السلام والاستقرار والرخاء فيما بينهم .

وقد تبين لنا فيما عرضناه آنفاً أن السر الحقيقي في مثل هذا الشعور الموحد هو الاشتراك في لغة واحدة ولا شيء غير هذا ، وأنه إذا كان للقومية مفهوم محدد ، يجب أن نلتمسه في الاشتراك اللغوي بين أفراد بيئته من النشأ

فإذا سلمنا بهذا المنطق أمكن أن نتصور أن للقومية على هذا مستويات :  
 أصغرنا الأسرة التي ندرك جميعاً أن اشتراك أفرادها في اللغة يأخذ عادة أتم  
 صورة من صور التماثل في الأصوات والتعابير وفي ألفاظ كثيرة تختص بها الأسرة  
 وحدها . ولا تكاد تُعرف في أسرة أخرى . وإذا تجاوزنا عن الغرائز الفطرية  
 التي تربط بين الأب وأبيه والأم وما تلد ، والتي تصل بين الإخوة والأقارب من أعمام  
 وأخوات وعمات وخالات : وجدنا أن هناك رابطة أخرى خلقها الإنسان أو  
 اصطعها وفوى بها تلك الرابطة الطبيعية العرقية ، وهذه هي اللغة التي يتكلم بها  
 أفراد الأسرة ويتفاهم بها بعضهم مع بعض في صورة هي غاية في المماثلة  
 والوحدة .

وإذا تصورنا مجرد القرض أن أسرة قصت تقاليدها أن الوليد فيها يُربى منذ  
 طفولته بعيداً عن أبويه وأهله وأقاربه في بيئة أجنبية لها لغة أخرى غير لغة أبويه ،  
 وتصورنا مع هذا أن أساء هذه الأسرة قد شامت ظروف خاصة أن تجمع شملهم  
 بعد حين في صعيد واحد . وهم كبار راشدون . فوجدوا أنفسهم ينطقون باللغة  
 مسامة . فهل يمكن مع هذا أن يدعى أن الصلة بينهم تكون كالتى بين أسرة  
 أخرى تكلم أفرادها لغة واحدة ؟ هل يشعرون بذلك الشعور الموحد الذى يحضرهم  
 في شعور وانسداد ويحفل معهم أسرهم مما سكه ؟ هل يمكن أن يتحقق هذا حتى  
 مع معرفة الابن أن أباه فلان ، وأن أمه فلانة ، ومع تعرفه على إخوته وأعمامه  
 وأقاربه . وإحساسه بالصلة الطبيعية العرقية التي تربطهم ؟

من هنا ندرك قدر الاشتراك في اللغة بين أفراد الأسرة ، وأنه دعامة كبرى  
 في هوية الصلة بينهم ، بل ربما يكون أقوى وأمتن في الربط بينهم من تلك  
 الصلة التي أساسها الفطرة والغريزة . وهكذا نجد أن القومية في أصغر صورها ،  
 ولكن في أحكمها وأوثقها من ناحيتها أخرى ، تتمثل في نظام الأسرة .

فإذا صرنا إلى نظام القبيلة تبي لنا أيضاً أن المماثلة في اللهجة وأداء  
 الكلام أقوى رباط بين أفرادها . إذ يجعل لهم كياناً متميزاً ، ويحضرهم إلى  
 صفة بعضهم بعضاً . ويذكرهم دائماً بأنهم يحتفلون عن غيرهم من القبائل ،

وإن اشتركوا معهم في بعض الصفات والعادات . فالشعور الموحد بين أفراد القبيلة صورة أخرى من صور القومية في تاريخ الإنسانية ، تشبه ما بين أفراد الأسرة الواحدة شياً كبيراً ، وإن كانت أوسع دائرة أو نطاقاً .

ثم اتسعت دائرة القومية حين أسس الإنسان المدن والقرى ، وتكونت الدول التي يضم كل منها عدداً من تلك المدن والقرى . وأصبحنا فإذا بذلك الشعور الموحد الذي ندعوه بالقومية يتحقق في القرية كما يتحقق في المدينة ، ولكنه في الأولى أقوى وأوثق . غير أن مبعثه في الحالين الاشتراك في اللغة ، والتشابه الذي يوشك أن يكون تماثلاً في لهجة الكلام ووسائل التعبير .

فالقومية بمعناها الحديث قد عرفت طريقها إلى النظام الاجتماعي للإنسانية في عصور التاريخ . وكان هذا منذ تأسيس المدن والقرى أو الدول . ولكنها لم تتحد الطابع السياسي الذي نألمه الآن إلا فيما بعد ، بل ظلت كامة مترصة في حالات ، نائرة ملتهبة في حالات أخرى . ولكن الناس في العصور التاريخية وتحت ظروف القهر والإدعان لم يعوا بالربط بين قومية الحاكم وقومية المحكومين ، ولم يحدوا في أحيان كثيرة عصاضة في أن تحكمهم قوة أحسية عنهم . لا تشركهم في قبيحتهم أو في شعورهم الموحد طالما حتمت لهم المصير والاستعداد والرجاء . ومن هنا كانت الدول الكبرى والإمبراطوريات العظيمة التي حدثنا عنها التاريخ ، ثم التي أصبحت في حيز كان .

وهكذا نتصور أن الإنسانية قد شهدت في تاريخها أعداداً من القوميات بقدر ما كان لها في كل عصر من لغات مختلفة متباينة ..

ثم كان بعض الديانات السماوية التي دعت إلى العالمية . وربطت بين الإنسان وأخيه الإنسان برباط روحي . كالمنشحة والإسلامية . إذ يدعو الإسلام إلى العالمية ، ولا يكاد يحمل بالقومية معانها السياسية الذي يتطلع إليه كل شعب من الشعوب ، بل ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم أبناء أب واحد هو آدم . وأم واحدة هي حواء ، وأنه لا فصل لأحد على أحد إلا بمقدار حيوجه إلى الخير ، ونشواه وروحانيته ، وتمسكه بما جاء به الكتب السماوية

وشعوره العميق بروبية خالقه فاطر السماوات والأرض . وأخذت انعمانية على يدي الإسلام والمسيحية صورة روحية لم يقنع بها الإنسان في توحيه حياته في الدنيا ، وتدخلت تلك القوى الكامنة التي تفصل بين الجماعات . ونعيم بينهم حصوناً وفلاخاً . والتي كانت على الوحدة الإنسانية مصدر بلاء وشرف في كل العصور ، وتلك هي اللغات المتباينة التي ميزت شعباً من شعب أو قوماً من قوم ، وأصبحت أكثر حافظ على ما نسميه بالقومية . واختلاف اللغات أو بلبله الألسنة ، كما تصورها الديانات السماوية مطهر تقمة من ارب على عدد . أريد به ابتلاء الناس في دنياهم .

ولست ممن يدعو إلى الاستشهاد بالنصوص المقدسة في محال اعم . فالبحت العلمي تطوراته أو زلاته ، ولا يصح لهذا أن ترتبط به العقيدة . فليس يتسم البحت العلمي بالصحة المطلقة ، بل إن نظرياته ونماذجها قد تعرض للتغير والتبدل عصرًا بعد عصر أو جيلًا بعد جيل . فعرض ما عده « بيوت » صحيحاً في وقت ما . برهن « أبشتين » وأمثاله على خطئه . وعرض مدعاه « اس سيامر صاه » سحره أطباؤنا في العصر الحديث . وذلك لأن الحضارات العنصرية مهما سما قدرها لا تعدو أن تكون حيواتاً إنسانية هسي . فحب على قدر ما سمحت به عقولهم ونحارهم . فليس في سمة دورهم وحسب . في حين أن العقيدة عند المؤمنين بها عاطفة روحية سماوية يبرهنها أصحابها عن تلك الحرات التي قد تعرض لمسائل العلم الديوي . وليس دور صحته محل خلاف أو شك عند المؤمنين ، بل توصف دائماً بأنها لا تأتيا الناطل من بين يديها ولا من خلفها . وربطها من أحل هذا بجهود الإنسان . وشخصته في كثير من الأحيان . يهبط بها من عليائها . وقد يجعل تعاقبها عرصة شعير والطلال على توالي العصور .

ومع هذا فليست أدري كيف وحدني أنساو إلى الحديث عن موقف من من اختلاف اللغات البشرية ، وأنا بصدد البحث في دور هذه اللغات في الحياة الاجتماعية للإنسان ؟ ربما لأنني وقد قرأت الكثير عن دور اللغة في تاريخ

البشرية ، أحسست أن انطباعاتي من تلك القراءة تتساق إلى حد كبير مع فهمي للنصوص المقدمة ، أو ما أستوحيه منها حين عرضت تلك النصوص لاختلاف اللغات وتباينها بعد أن كانت لغة واحدة .

فتحدثنا التوراة في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أن الأرض كانت كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . ثم إن الناس قال بعضهم لبعض هلموا بنن لأنفسنا مدينة فيها برج يظاول السماء ، وهلموا نخلع على أنفسنا شعاراً يوحد بيننا ، ويحول دون تبددنا وتشتتنا فوق ظهر البسيطة . فلما رأى الرب ما هموا به ، وتبين لحكمته سبحانه أن وحدة اللغة ستدفعهم إلى الطغيان والجبروت فلا يمتنع عليهم أن يعملوا ما ينوون عمله ، بلبل ألسنتهم فلم يعد يفهم بعضهم بعضاً ، وبدد وحدتهم على وجه الأرض ، فكانت لغات مختلفة لبني الإنسان ، برغم أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، وتلك هي لعنة بابل التي كثيراً ما يشار إليها في كلام المفكرين من علماء أوروبا .

فنصوص التوراة ولا ريب تحمل اختلاف اللغات بين البشر مظهراً من مظاهر اسلاء الرب لعباده في الحياة الدنيا . حين بدأ لحكمته أن توحيدهم في لغة واحدة قد اسعج في تحدى ربه

فوحدة اللغة كانت في بدء الخليقة خيراً ، أو أريد بها أن تكون خيراً للإنسان ولكنه أساء استغلالها ، وتحدى عن طرفها حالفه . فلولا لعنة بابل لكان الناس أمة واحدة أصحاب لسان واحد ، وقوميه واحدة . تتفاهمون بعضهم مع بعض في سهوله ويسر ، ويقضون مصالحهم في الدنيا دون نزاع أو شقاق .

هذا هو ملمع فهمي لموقف التوراة من اختلاف اللغات . فما موقف القرآن الكريم ؟ جاء النص على اختلاف الألسنة مرة واحدة في القرآن الكريم وبين آيات من سورة الروم ، تلك السورة التي تتضمن آياتها صورة رائعة لقصة الحياة البشرية فوق الأرض . فيها سب آيات متواليات تبدأ بالآية التاسعة عشرة وتحكي في إيجاز قصة البشرية منذ الخليقة إلى العث وهي

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته



أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لهوم يسمعون ، ومن آياته بريقكم البرق خوفاً وطمعاً ويترل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إددعائكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ) .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الستة تلخص لنا في إيجاز رائع قصة الحياة البشرية فوق الأرض . وتبدأ كل هذه الآيات بعبارة « ومن آياته » ، أي من علاماته ومن دلائل قدرته وربوبيته وحكمته . لعل الإنسان يتفكر . لعله يسمع ويفهم . لعله يعقل . فكلمة الآية في الأسلوب القرآني تعني العلامة ، وهو المعنى الأساسي في أكثر ما استعملت فيه . وعنه يتفرع معنى المعجزة أو الحكمة أو المشيئة وبحوها .

ثم إن كلمة الآية بمعنى العلامة قد توحى سمع مباشر للإنسان ، مثل « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حيا » . وقد تدل في بعض النصوص القرآنية على الصبر المباشر . وذلك حين يشاء سبحانه أن ينزل الإنسان في دياره ليظهره من شروره وطمغيانه . وأوضح مثل لهذا قوله تعالى في آل فرعون : ( فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات معصلات ) ، فكل هذه اعز أصابتهم وكانت بمثابة آيات بيئات من عند الله .

ولكن كلمة الآية في الأسلوب القرآني ، وفي معظم حالاتها ، لا توحى بأكثر من أنها علامة على قدرة الخالق .

ونتساءل بعد هذا هل كان اختلاف الألسنة والألوان من مظاهر سمع الإنسان فوق الأرض كما يفهم من كلام بعض المفسرين . أو هو ابتلاء من الله لخلقه في الحياة الدنيا ؟

أما من حيث اختلاف الألوان فما نراه الآن في بعض الشعوب من تعصب

الإنسان وكراهيته لأخيه الإنسان بسبب اللون ، وما نسمع عنه من مآسى  
التفرقة العنصرية ، لأكثر دليل على أن اختلاف الألوان مظهر ابتلاء  
للإنسان في الحياة الدنيا .

وكذلك الشأن في اختلاف الألسنة ، حين نتذكر المآسى التي كانت في  
كل عصور التاريخ بسبب اختلاف اللغات ، من حروب وثورات ليس لها  
من سبب حقيقى سوى أن المجتمعات الشرية قد عجزت عن فهم بعضها البعض  
حين افتقدت وسيلة موحدة للتفاهم تنتظمهم جميعاً .

اختلاف الألسنة إذن ككل المصائب التي يبتلى بها الإنسان ، شاءت  
حكيمته تعالى أن تكون فكانت ، ولكن الذى صعبها بعقله ولسانه هو الإنسان ،  
فهو المسئول عنها ، وعليه تحمل شرورها وويلاتها ، وإن اقتضت الحكمة  
الإلهية أن تكون . ومن هنا نرجح القول الذى ينادى به معظم اللغويين من أن  
اللغة اصطلاحية أى من صنع الإنسان ، بدأها ونماها وطورها ، ثم أصبحت  
على الإنسانية مصدر شر كبير

والعالمية التي دعت إليها الديانات السماوية قد حال دون تحقيقها ما صعبه  
الإنسان لنفسه ، وما حمله على نفسه من سائر في اللغات فوق الأرض .

فلما كانت العصور الحديثة تمحصر السائق في اللغة عن تباين فيما يسمى  
بالقومية ، واتخذ أصحاب كل لغة ، قومية خاصة لأنفسهم تميزهم عن غيرهم .  
وفصل بينهم وبين الشعوب الأخرى . وقد تحمّزهم إلى الكراهية والاعتداء على  
الآخرين من إخوانهم في الإنسانية . من أجل ذلك طهر بعض المفكرين  
المصلحين الدين سموا عقولهم على المحلية ، وظهروا بموسمهم من تعصب القومية ،  
وبدأوا يدعون إلى العالمية ، ويذكرون نفعها للإنسانية .

واتجه بعض الماديين بالعالمية في العصر الحديث . لا إلى تلك العالمية  
الروحية التي دعت إليها الديانات ، بل إلى نوع من العالمية المادية الواقعية .

فعالم الاقتصاد « تيسون » دعا إلى نوع من العالمية في صورة مبدأ التجارة

الحرية ، ومن قبله دعت الثورة الفرنسية إلى مبادئها الإنسانية السامية من حرية وإخاء ومساواة . ثم أخيراً جاءت الماركسية تنشد نوعاً جديداً من العالمية على أساس مادي واقتصادي .

وقد شارك معظم الإنجليز في الإيمان بذلك الحلم الذي نادى به عالمهم الاقتصادي « تيسون » في القرن التاسع عشر من إنشاء اتحاد للتجارة بين الشعوب يضمن مصالحها جميعاً . ويقود إلى ما يشبه « برلمان » للبشرية أو إلى اتحاد عالمي . وتحقق حرية التجارة في رأى « تيسون » هذا الأمل ، إذ معها تستطيع كل منطقة أن تنتج خير ما تصلح له ، وأن تركز جهودها لذلك ، ثم يكون التبادل الحر بين هذه المناطق في السلع ومختلف الإنتاج .

ولم يكد يتصف القرن التاسع عشر حتى تبهر حلم « تيسون » ، وأصبح نوعاً من الوهم والخيال . فقد ظهرت القومية الألمانية . وبدأت حياتها بتأسيس نظام للجمارك والتعريف الجمركية التي قصد بها منافسة الضائع البريطانية والحيلولة دون تسربها إلى نطاق القومية الألمانية<sup>(١)</sup> .

أما الدعوة العالمية التي نادى بها « ماركس » فقد ظهرت في روسيا في صورة ما سمي بالكمشورم الذي لم يمت أن حل . ولما يمحى على تأسيسه نصف قرن . فقد بدأت الثورة الروسية على أساس فكرة الوحدة بين أعمال في العالم . واعتقد رعماء هذه الثورة في بادئ الأمر أن الوحدة العالمية لا يمكن أن تتحقق إلا على أساس هذه العقيدة . ولكنا ندأنا الآن نشم في الاشتراكية السوفيتية رائحة القومية الروسية القديمة . ولما يتقضى على ثورة روسيا أكثر من خمسين عاماً . وقد تبدت الروح القومية الروسية في أجلى مظاهرها وعنفوانها في دفاعهم المجيد عن أرضهم في الحرب العالمية الثانية . وأصبحت شيوعية روسيا الآن صورة من صور القومية ، تشبه إلى حد ما ما كانت عليه النزعة السلافية أيام القيصرية . وحتى في أمريكا التي تمت الهجرة إليها من جميع أنحاء العالم على أنها مهد لحربة الإنسان أنساً كانت قوميته ، والتي كرست حكومتها في بادئ الأمر كل

جهودها لقضية إنسانية نبيلة هي أن الناس جميعاً متساوون ، وأن المهاجرين إليها إنما هاجروا لا ليصبحوا أمريكيين . بل لينشدوا الحرية والأمن والرخاء ، أصبحت أمريكا الآن وبعد قرن ونصف قرن من تاريخها ، وقد اصططعت بالصبغة القومية ، وأصبحنا نسمع عن القومية الأمريكية كما نسمع عن القومية الألمانية أو الفرنسية ، وأصبح أولئك المهاجرون الذين وفدوا إليها من بقاع مختلفة وقوميات متباينة وقد صهروا في المجتمع الجديد . واتخذوا لأنفسهم شعار القومية الأمريكية .

وهكذا نرى انتصار القومية في العصر الحديث حتى في أمريكا وروسيا ، مما يؤكد لنا أن الغلبة لا تزال للترعة القومية بين الشعوب . ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن القومية قد بدأت في جهات أخرى تفقد قوتها ، وتتخذ اتجاهها آخر نحو التجمع والتكامل ، ونلاحظ هذا بوضوح في غرب أوروبا مهد القومية الصناعية . فالحروب الأوربية الفظيعة التي قامت في أوروبا ، والتي هي أشبه في روحها بحروب الهمجية القبلية ، قد أثارت النقمة على تلك القومية التي عرفت في غرب أوروبا . وقد انتفش الوهم الذي كان يسود قلوب بعض السياسيين وعقولهم بعد ما لمسوه من رد فعل شيع لتلك القومية عمومهم ومن تناخها المؤسفة . وبدأوا الآن يحاولون تأسيس مجتمع أكبر . فيه يتم سائر عن شعور مجتمع فرنسي ومجتمع إيطالي ومجتمع ألماني ومجتمع هولندي ومجتمع بلجيكي . إلى مجتمع أكبر يضمهم جميعاً ويكفل لهم اللقاء جميعاً . ولكن مثل هذا المجتمع الأوربي الحديث الذي يراد تأسيسه على مظاهر اقتصاديه وسياسيه . لا يزال مجرد احتمال ، ومن العسير التمسؤ عصبيره . ولا تزال للفكرة القومية السيادة والغلبة في العالم .

والقومية سلاح ذو حدين . ساعدت الشعوب على النهوض من ناحية . ولكنها أثارت الشحناء والبغضاء بينها من ناحية أخرى . فالقومية صفات نبيلة لا شك في هذا ، إذ تعلم أصحابها الإثارة والشجاعة والتضحية في سبيل صلاح المجتمع وأمنه ورفائه . ومعها يحس جميع الأفراد شعور واحد . ويعتقدون

بعقلية واحدة فيسود بينهم الوثام ، ويتعاونون معاً على ما فيه خيرهم جميعاً .  
وقد تغنى الشعراء ، وأشاد الخطباء ، وأفاض الكتاب في الحديث عن  
القومية والوطنية حيلة بعد جيل ، حتى أوْشك أن يكون حب الوطن من الإيمان .  
والقومية كما بصورها وسائل الدعاية والإعلام مبعث الكرامة والعزة بشعبها ،  
وهي مصدر الخير والرخاء لأسائها . تكفل لهم السعادة والسلام . وتذود عنهم ،  
وتدفع كيد الكائدين وشر المعتدين . ففي كفها يسعد الناس بإنتاج وفير ،  
ويسر ورخاء . وبأصغهم المشروعات وأعظمها شأناً . وبكل ما تتطلع إليه  
الشعوب من أسباب الحضارة والمدنية وارتفاع مستوى المعيشة .

وقد يكون من تحصيل الحاصل أن نحاول هنا تعداد مآثر القومية ، فلم  
تدع وسائل الإعلام والنشر مجالاً لمزيد من القول في هذا الصدد . فهذه المآثر  
تردد على الأذان في كل يوم وفي كل ساعة ، وتلقن للأبناء في المدارس ، ويدوي  
سها في المحافل والأندية . وقد استغلها القادة والزعماء لجمع الناس حولهم ، وصيان  
تأبيدهم . وصوروها في شعارات براقة جذابة تأسر القلوب والأفئدة . وإن  
كانت في بعض الأحيان تتسم بالعلو والإسراف . وفي أحيان أخرى بالاعتدال  
والأمانة والشرف

فإذا تجاوزنا في حديثنا عن القومية وفصلها على الشعوب ذلك الأدب  
الإنشائي الرائع الذي قيل فيها وصُورت به ، وشئنا أن نلتبس مثلاً بمحددات سبين  
مه مآثر القومية في هضبة الشعوب ، وحدنا في تاريخ الصبر واليابان خير مثل  
يوضح لنا قيمة إيجابية للقومية ، وتتمثل هذه القيمة في تعبئة الجهود وحشد  
لتحقيق أهداف اجتماعية حليلة الشأن . وإذا قارنا بين تاريخ الصبر وتاريخ  
اليابان وحدنا أن كلا منهما في وقت ما قد خضع لضغط التحار الأجانب  
الذين كانوا يحاولون فتح أسواق جديدة لضائع أوروبا . فبينما أغلقت اليابان  
أبوابها أمام العالم الخارجي ، وطلت قرين من القرن السادس عشر تحافظ على  
قوميته ، ونسج سياسة العزلة عن كل تأثير أجنبي ، كانت الصين مرتعاً  
حصناً للاستغلال الأجنبي . وذلك لضعفها السياسي وتحكم الأسر الحاكمة وسوء

سياستها ، مما قتل فيها إلى حين ، الشعور بالقومية وكل أسباب العزة والكرامة ، ولذلك استغل التحار الأجانب بلاد الصين وخيراتها أسوأ استغلال في القرن التاسع عشر .

وكان لهذا الوضع المختلف في الصين واليابان أثره وصداه في النهضة الأخيرة لكل منهما . فحين أحست اليابان في منتصف القرن التاسع عشر أن الانعزال عن العالم الخارجي غير مجد بدأت تأخذ بكل الوسائل الحديثة . ورأت في هذه السياسة الجديدة الطريق الوحيد لمنع تغلغل الأجانب في نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وشرع المصلحون من قادة اليابان وساستها منذ سنة ١٨٧٠ يعملون جاهدين على إصلاح النظام الاقتصادي والسياسي ، ويعيدون تشكيل اليابان على أساس صاعى حديث كالذى شهده في أوروبا . ونجح اليابانيون في نهضتهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لأن فترة الانعزال الطويلة التي مروا بها قبل ذلك جعلتهم يحسون بخصائصهم وبكيانهم وبقوميتهم ، وجعلت منهم شعباً متماسكاً ذا قومية منميرة يسوده السلام . في حين أن الصين كانت حينئذ تشبه مركباً تدفعه العاصفة يمياً مره ويساراً أخرى . ودون أن يكون « شراع بوجهه » أو دفة نهديه . إذ كانت تعاني عُرْفه داخلية وانقساماً على نفسها . وكانت تجارتها واقتصادياتها في أيدي الأجنبيات يحشون بها ويسبب ضرراً عليها . ولم تكن لها جهود قومية يمكن أن تعان ، بل لم يكن هناك شعور بوحدة أو قيادة حكيمة . وطلب هكذا قرناً من الزمان إلى أن كانت ثورتها الشيوعية . ومع كل ما تقدم يشعر كثير من المفكرين في العصر الحديث أن الوجه الآخر للقومية وجه قبيح شنيع يحمل على البأس من مستقبلها . مع ما لها من مظاهر النهضة بين الشعوب فقد نصرت القومية كل الجهود والأوان النشاط في طلب الحرية ، فلا يلتفت إلى صوت مصلح ولا فيلسوف ولا واعظ قبل نيل هذه الحرية كما يعبر برنارد شو <sup>(١)</sup> في بعض أقواله وقد تؤدي القومية والتعصب لها إلى نوع من العدوان الأتاني العشوم على شعوب أخرى . وإلى

الشعور بالتفوق والغطرسة ، والانتقاص من حقوق الآخرين أو هضمها ، لا سيما حين يبالغ فيها ، وتسرف في الدعوة لها وسائل الدعاية والإعلام في الصحف والكتب والإذاعات والمدارس والمحافل والأندية وفي الأغاني والأناشيد . فلم تختلف القومية هتلرية لأهلها إلا الحراب والدمار . وكذلك الشأن في قومية موسوليني . وكان هذا برغم ما بهر العالم من مشروعات قام بها هتلر وموسوليني ، وبرغم الأنظمة الاقتصادية والعمرائية التي أذهلت العالم في أثناء حكمهما . فالمعالة في الدعوة أو الدعاية للقومية الألمانية جعلتها عتاة البالون الذي يظل المرء ينهخ فيه ويسرف في تعنته حتى يسعجر بين أصابعه . ولاشك أن القومية الألمانية قد وصمت أباءها بالغطرسة والكبرياء . وبالشعور بالتفوق والسمو على كل الشعوب . وجرّتهم إلى العدوان الغيظ . ثم قدوت بالعالم كله في أتون الحرب العالمية الثانية التي لم يسلم من ويلاتها وآسيها شعب من الشعوب . ولقد تبين لنا آنفاً أن القوميات في غرب أوروبا قد نشأت على أساس اللغة المشتركة التي وحدت الشعوب في مجتمع يعينه . وجعلت أساءها يشعرون بشعور واحد . ويمكنون بعقلية واحدة . ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعاً . بل لقد ظهر لنا مما سبق أن أس الأساس في تشكيل أي قومية إنما هو اللغة . وحدة المشتركة . وقد رب على هذه الحقيقة شعوب سميعة بعد الحرب العالمية الأولى . فمع شرق أوروبا ترتب على الأخذ بمدأ حق تحرير المصير أن انفصلت أجزاء إمبراطورية النمسا والمجر إلى قوميات محتنة وصعب على الخلقاء وضع حدود جغرافية منميرة بين هذه القوميات ذات اللغات المتباينة . فروماديا لم يمكن تكوينها دون أن يضم أقلية من المجر . وكذلك دخلت أجزاء من ألمانيا في حدود قوميات أخرى . أي أن القوميات الحديثة في بعض مناطق أوروبا كما فررتها معاهده فرساي قد خلقت مشكلة الأقليات وحقوقهم . وعدم إخلاصهم للدولة . أو الشك في ولائهم . وسوء المعاملة التي يلقونها من الأغلبية ، وغير ذلك من مشاكل محدثا عنها آنفاً بالتفصيل في فصل « فش عن اللغة » . ولعل أخطر ما ترتب على شيوع فكرة القومية في العالم الحديث ذلك العدد

الكبير من الدول الصغيرة التي تكونت خلال السنين الأخيرة في جنوب شرق آسيا، والتي تأسست على التقسيمات الإدارية التي قام بها الاستعمار ، ودون أن يكون لها حدود متميزة أو لغة مشتركة ، مما أشعل المذعنات والاضطرابات بين البيئات المتجاورة . ففي « سيلان » مثلاً تلك الحرية التي عاشت رمزاً طويلاً في سلام وهدوء برغم الاستعمار ، نرى أنها لم تكد نستقل حتى بدأ المتكلمون فيها بلغة « التامل » وهم الأقلية يحافون على أنفسهم ويثيرون النزاع والشقاق مع الأغلبية من سكانها الذين ينكلمون اللغة السهبية . ذلك لأن سكان الجزيرة في عهد الاستعمار قد اتجهوا جميعاً بكل قواهم وجهودهم نحو هدف واحد هو طرد المستعمر ، فلما تحقق لهم ذلك بدأت القومية اللعوبة تلعب دوراً خطيراً في حياة السكان بهذه الجزيرة الوادعة .

وكذلك الشأن في غرب أفريقيا إذ قسمت إحتلراً وفرضت تلك المنطقة إلى دول مصنوعة ، لا تقوم على أساس حقيقى من القومية بل وحدة المنسجمة ، وترب على هذا أن أبناء اللغة الواحدة وحدوا بعضاً منهم سموا إلى دولة معينة والبعض الآخر ينتمى إلى دولة أخرى ولم يوحدهم من حدود سوى الأفريقية إلا الرغبة في التخلص من المستعمر . فليس من المستغرب بعد أن تيارات «مكبرى» ويعلم الله وحدد مصير هذه الدول بعد أن سعى تدمراً على الاستعمار .

أى أن أسوأ ما في القومية الحديثة أنها عملية تنب وشتت للشعب . وأنها في أغلب حالاتها تنسم بضيق الأفق والتعصب . وأن مرة في كنفها لا يحس مواطن عليه إلا في حدود دولته . وأصبح حقوق والواجبات لا تكاد تحاوز نطاق الدولة .

ولكننا نعيش الآن في عالم قهر الفضاء وتحرك بأسرع من عيوب . ولا يصح هذا أن نقصر دعاتنا ومسئولياتنا في حدودنا الضيقة . بل إننا نؤدى حتماً إلى الاسحار لكل الدول صغيرها وكبيرها . ولا سبل إلا سحده من مثل هذا المصير إلا بالأخذ بمبدأ العالمية والإيمان به إيماناً قوياً . بل يكون هذا ندعاً .



بل هو في الحقيقة امتداد طبيعي لمبدأ القومية . فقد تبين لنا آنفاً أن القومية في أصغر صورها تمثلت أولاً في الأسرة التي يتكلم أفرادها لساناً واحداً ، ويؤدونه أداءاً متماثلاً تمام المماثلة ، ثم تمثلت في القبيلة ذات اللهجة الموحدة ، ثم كانت القومية بمفهومها الحديث في المدن والقرن وهي امتداد طبيعي للنظام القبلي .

فإذا سلمنا أن المسئولية في نشأة القوميات الحديثة تقع أولاً وبالذات على طاهرة الاشتراك في اللغة . تصورنا كيف أن مجال اللغة يمتد ، ونطاقها يتسع . من الأسرة إلى القبيلة . إلى القرية والمدينة . ثم إلى عدة مدن يطلق عليها اسم الدولة . فإذا امتد نطاق اللغة إلى عدة دول بدأ بهذا ما تتطلع إليه الإنسانية من سيادة العالمية . ونشأت القومية الإنسانية . أي أن ما يسمى بالعالمية ليس في حقيقة أمره إلا نوعاً من القومية قد اتسع نطاقها اتساعاً كبيراً فشمل مناطق متباعدة من العالم . ومن هنا بدأ تفكير بعض المصلحين في اللغة العالمية والدعوة لها . وهذه الدعوة الحديثة نسبياً أخذ بعض رواد الفكر يتنادون بها منذ القرن السابع عشر . ولكن الحماس الكبير لفكرة القومية في حدودها الصيقة قد صدى على فكرة العالمية وأختب الأصب . أن يدعو إليه . وطال معظم الناس بروها حتى الآن نوعاً من الوهم وأحبال .

وحدثنا حقائق التاريخ أن لغات أشبه بالعالمية قد نشأت في بعض العصور وانتظمت معظم مناطق العالم القديم . ولو قدّر لإحداها أن تبقى حتى الآن وأن يمتد نفوذها إلى سائر المناطق ، لكان لنا بها تلك اللغة العالمية التي تطلع إليها هؤلاء المفكرون المصلحون . ويحذر بها أن شير شيء من التفصيل إلى أشهر تلك اللغات العالمية التي عرفها التاريخ .

وقبل أن أعرض لتلك اللغات العالمية في التاريخ وهي التي مهدت السبيل لفكرة العالمية في العصر الحديث . أود أن أشير إلى بعض ما جاء في المحاضرة الرائعة التي ألقاها باللغة الإنجليزية الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين في الأمم المتحدة نيويورك سنة ١٩٦٥ وجعل عنوانها ( التعاون العالمي بسلام ) .

ذلك لأن الدكتور محمد كامل حسين من أبرز رواد الفكر في العصر الحديث الذين سمو بتفكيرهم على المحلية . وآمنوا إيماناً عميقاً بالفطرة الإنسانية وبالسلام العالمي . ورأوا أن العصر الحديث لما نوفر له من إمكانيات مادية وعلمية قادر على تحقيق هذا السلام عن طريق التعاون بين الشعوب . وبدأ محاضراته قائلاً: (بعد التعاون العالمي أعظم ما اهتدى إليه العصر الحديث . لم يكن من الممكن أن تنهض هذه الدعوة لعصر آخر من عصور التاريخ . فلم يكن لدى العالم في أي عصر مضى من المصادر المادية والعلمية ما يكفل تحقيق تلك الفكرة الرائعة . ولم تكن الشعوب في أي وقت مضى أكثر استعداداً من الناحية الخلقية والنفسية لمدة المعونة بعضها إلى بعض ويمثل هذه الضخامة . بعد أن قضت تلك الشعوب فيما مضى قرونًا لا يسيطر عليها إلا الصراع فيما بينها . ناظرًا أحدها إلى الآخر على أنه المنافس البعوض أو العدو المستظر) .

ثم يحدثنا في أسباب بعض مظاهر التعاون العالمي في العصر الحديث فاصراً حديثه على ثلاثة منها هي . أولاً سوء المخططات العظيمة للتوتق . وثانيها تطور التكنولوجيا لم تهم بحاجة إليه . وثالثها العوثة الذي تمد به المناطق ذات الإنتاج لصعوبة

ويشير في منتصف محاضره إلى نقطة ذات أهمية خاصة في النهوض بالثقة لدى بعض الشعوب النامية فيقول إن بعض هذه الشعوب لم تطلع في تطوير الدراسات الإنسانية بها لحد الذي تتميز به ويكون طامعاً لها . في الوقت الذي يرى فيه بعض المؤرخين من أبناء هذه الشعوب برتق هذه الثقافة في أوروبا فيؤخذون به . ويهلون من تلك الثقافة المستوردة . بل منهم من استطاع أن يكتب باللغات الأوربية إنتاجاً أدبياً مرموقاً . ثم ساءل ولكن هل مثل تلك الآداب الأجنبية يمكن أن تساعد على تكوين أدب قومي ؟ وهل الترجمة تحقق هذا ؟ أو هل الأنفع والأصلح أن تترك الشعب وشأنه ليعمل على النهوض ببلده حتى يصح أداة صالحه للتعبير عن الحبيب من المعلومات ويأحي المعرفة ؟

وهنا يعرض لجهود تلك المنظمة الثقافية العالمية «يونسكو» نحو تنمية القيم الجمالية والروحية . والحدّ من الطابع المادى الذى يتميز به العصر الحديث ويرى أن فى التقدم العلمى الضمان الكفيل بأمن الإنسانية ورحاؤها واستقرارها . ويعارض فى قوه وإيمان رأى بعض السياسيين المتشائمين الذين يرون أن التقدم العلمى قد يؤدى إلى القضاء على الإنسانية جمعاء . وذلك حين نتصور أن السلاح النووى الرهيب يقع فى أيدي شعب أحمق فيستخدمه فى دمار العالم . ويعزو هؤلاء السياسيون شرور العالم إلى الغريزة الحيوانية التى فى الإنسان . غير أن الدكتور كامل حسين لما اتسم به من التفاؤل يرى أن الفطرة الإنسانية خير . وأن السر الحقيقى فى شرور العالم هو الانقسام الذى نشهده الآن بين خلق الفرد وخلق الجماعة . فالتناس يحكمهم فى تصرفاتهم وسلوكهم محاميع من الالتزامات . بعضها مستمد من العقائد والديانات أو أقوال الحكماء المصلحين الذين عاشوا عبر التاريخ . والبعض الآخر فرضته المجتمعات لحماية نفسها . أما الأولى فتدعونا إلى السمو بأنفسنا فوق مستوى الغرائز الحيوانية . وأما الأخرى فلا تكاد تعنى بالمستوى الأخلاقى أو بداء الصمير . ولعلنا نلاحظ أنه حين نعاين المجموعة الأولى مع المجموعة الأخرى يؤثر الناس عادةً مثل نحو التزامات المجتمع . ومن هنا نحىء سلوك الجماعات التى لا تهتم إلا بمصالحها . وبؤدى ذلك مع الأسف إلى حدوث تلك الجرائم الجماعية التى قد لا يفكر الفرد فى ارتكابها لو ترك وشأنه غير مقيد بالترامات المجتمع . ليست المشكلة إذن كيف نسمو بالفطرة الإنسانية أو نتحكم فى غرائزنا . ولكنها تحصر فى كيف نطهر نظام سياسى اجتماعى يحول دون الدفاع المجتمعات نحو الثوران أو العصب .

ثم يحدثنا الدكتور كامل حسين عن تلك الحلول السياسية التى تودى بها فى القرون الحديثة أملاً فى القضاء على الحروب . مثل بوارن القموى . والأمن الجماعى . ونزع السلاح . ثم التعايش السلمى . ويرى أنها فشلت جميعاً . وأن الصراع بين الشعوب لا يزال على حدته . فنزع السلاح مثلاً يؤدى إلى

معادلة يعسر حلها هي : إذا كان هناك ثقة بين الشعوب فلا حاجة للتفكير في نزع السلاح ، أما إذا لم تكن هناك ثقة فمن الغباوة التفكير في نزع السلاح .

ليس يجدي إذن العمل على منع الحروب بوسائل سياسية . وحير للإنسانية البحث عن خطة جديدة تهدف إلى تنمية السلام ، لا منع الحروب . فهناك فرق كبير بين أن تقنع بمنع الحروب وبين أن تنمي السلام . ولا سبيل إلى تنمية السلام إلا عن طريق التعاون العالمي بين الشعوب .

ولكن الدكتور كامل حسين قد نحاهل في الدعوة إلى التعاون العالمي . الوسيلة أو الأداة التي تصطنع في كل تعاون فردى أو جماعى وهى اللغة . فكيف يكمل التعاون بين قوم يختلفون لغة ، بعد أن تغلعت اللغة في كل أنشطة المجتمع ، وبعد أن أصبح لها ذلك الدور الهام في الصناعة والمعاملات والسياسة . بل وفي الحروب أيضاً . فإذا كانت هذه هى الحال على المستوى الشعبى فكيف بها على المستوى العالمى ؟ ومن هناك ندر أهمية اللغة العالميه وضرورتها الملحة في أمن العالم ورخائه واستقراره .

## الفصل الثامن

### لغات عالمية في التاريخ



#### اللغة الأكادية

يحدثنا المؤرخون أن شعباً من الجنس الآري عاش في وادي دجلة والفرات في القرن الأربعين قبل الميلاد ، ويدعى أبناء هذا الشعب بالسومريين . ووجد عليه في حدود القرن الثلاثين قبل الميلاد شعب آخر من الجنس السامي ، فكان صراع بينهما انتهى من الناحية اللغوية على الأقل ، بانتصار الشعب السامي الذي عرف في التاريخ بالأكاديين . وسادت اللغة الأكادية السامية في تلك الأحقاب التاريخية . ولكنها حُرحت من ذلك الصراع اللغوي مشحنة بالخراج ، فقد تغيرت بعض ملامحها السامية . كأصوات الحلق . وبعض الصيغ والتراكيب التي تنصرف لغات السامية وحدها . ومع هذا فقد احتفظت بعض الصفات السامية لأصية التي تفتقدتها في كثير من الساميات الأخرى ، كظاهرة الإعراب مثلا

وقامت لهذا الشعب فيما بعد حضارة نعد من أقدم الحضارات الإنسانية . ثم تم تلك الحضارة وازدهرت حتى كان القرن العشرون قبل الميلاد حين تأسست دولة بابل القديمة . واشتهر أمرها في عهد « حمورابي » الذي حلف لنا آثاراً وفوقاً تدل على رقي عملي واجتماعي غير مألوف في تلك العهود السحيقة . ولعل أهم ما ينسب إلى حمورابي تلك المجموعة من القوانين والنظم التي أدهشت الباحثين في العصر الحديث . فقد تضمنت مسائل الزواج والطلاق والميراث ، كما نصبت نظام القصاص في الجرائم . في صورة تشبه إلى حد كبير ما جاء بعد ذلك في بعض أسفار التوراة

وتعرف اللغة الأكادية باسم «البابلية الآشورية» أيضاً ، ذلك لأنها سادت خلال حضارة بابل وأشور ، فقد كانت لغة حمورابي في الدولة البابلية القديمة التي ظل أثرها قروناً عدة حتى كانت الإمبراطورية الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد ، وهي التي أسسها «سرجون» وطلت قائمة قرناً من الزمان ، أنخفضت خلاله شعوباً متعددة في آسيا الصغرى ، بل وصل الأمر بهؤلاء الآشوريين أن قاموا بغزو مصر ، ولكنهم لم يعمروا فيها طويلاً . ثم عاد السلطان إلى «بابل» وأسست الدولة البابلية الحديثة ٦٢٥ ق.م . واستمر سلطانها نحو قرن من الزمان . أنخفضت خلاله كل شعوب آسيا الصغرى ، وقامت بعملية الأسر البابلي المشهور في التاريخ ، حين هاجمت العراقيين وسأقت آلافاً من اليهود أسرى إلى بابل ، فأقاموا هناك ردىحاً من الدهر . وخرت فلسطين وهدم المعبد الكبير في ٥٨٧ ق . م .

أي أن كلا من بابل وأشور قد تناوب السلطان فترة من الزمن ، خلالها لم يتغير غير الحكام وأصحاب السلطة . أما من حيث الثقافة والدين واللغة ، فلم يطرأ عليها أي تغيير . فكانت الإمبراطورية الآشورية تنهت امتداد طبيعي لدولة بابل الحمورابية . كما كانت نسوة النساء حدث مبدداً وتصوراً للإمبراطورية آشور لا عراة يد أن منى معه لأراده باللغة البابلية الآشورية أيضاً . وقد عمرت هذه اللغة نحو ألفين من السنين ، واصططعها خلال هذه الحقبة الطويلة شعوب عدة . فكانت بين الحيثيين والآشوريين والمصريين كتابة اللغة الدبلوماسية . فالرسائل المتبادلة بين هذه الشعوب كانت تكتب بهذه اللغة العريقة . وكان الخطاط في المحاللات الرسمية بهذه اللغة أيضاً . بل إن تعود بابل وأشور قد امتد إلى كل شعوب آسيا الصغرى ، حين عمل حمورابي على توحيد كل شعوب تلك المنطقة في دين واحد ولغة واحدة . فوحدت الآلهة ، وانتشرت الأكادية انتشاراً كبيراً . وحضعت لنفوذها الحيثيون والليديون والميديون والفينيقيون والعبرانيون . وغيرهم من شعوب آسيا الصغرى . فكانت اللغة الأكادية معروفة مدروسة بين كل هذه الشعوب

يصطنعونها مع لغاتهم المحلية . أى أن اللغة الأكادية لم يقتصر شأنها على بيئة الدولتين بابل وأشور ، بل امتد نفوذها في مناطق شاسعة خارج حدود هاتين الدولتين ، وتلك من أهم ما تسهم به اللغة العالمية .

وقد ساعد على انتشار هذه اللغة أن البابليين قد أسسوا قوافل للتجارة في الأنهار وفي الصحراء ، تنقلت في مدن الشعوب الأخرى . واتصلت بأهلها اتصالاً وثيقاً ، وكان من الطبيعي من أجل هذا أن تنشأ بين هؤلاء وهؤلاء أداة للتعامم مشتركة ، حتى يتيسر تبادل المنافع الدنيوية ، واتخذت اللغة الأكادية أداة لهذا التفاهم .

أما حضارة هذا الشعب العريق فلم تكن تعرف عنها شيئاً قبل أوائل هذا القرن . ولما عثر على تلك النقوش المسمارية التي خلدت جزءاً من تاريخهم وثقافتهم ، تيسرت للدارسين عظمته . وقد استطاع طائفة من المستشرقين حل رموز هذه النقوش الكثيرة في صبر وأناة ، وحدثونا عما يشير الإعجاب والدهشة من شأن هؤلاء القوم . فقد نظموا مياه دجلة والفرات ، وبنوا القناطر عليها . وعملوا على ترقية الزراعة في ذلك الوادي الخصيب . وأسسوا انظم الاحتماءة في كمثل صلاح الأسره . ووضعوا القوانين التي تنظم اجتماع والعلاقات بين الناس . بل وبين الشعوب بعضها ببعض . فكانت انتمعون من أهل هذه اللغة وزحل الدين بصفة خاصة ، يعدون أساتدة العالم القديم في القانون الدولي . وبني هؤلاء البابليون المذاني العظيمة والأبراج العالية ليرافقوا فيها أعداءهم . وليرصدوا من فوقها النجوم والكواكب ، فهم المشهورون في التاريخ القديم بعلمهم . تلك . وقد قسموا الشهر القمري إلى أربعة أسابيع . كل أسبوع جعلوه ساعة أيام . وقسموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة . وجعلوا كل ساعة تتكون من ستين دقيقة . وكل دقيقة من ستين ثانية . ذلك لأن البابليين كانوا يعدون إلى الرقم ستين فقط . كما نعد نحن الآن إلى المائة . فهم أول الشعوب في اختراع التقاويم . وتحديد الفصول السوية . ورصد حركات الكواكب والنجوم .

ولما لم تيسر لهم الأحجار التي كانت في مصر اعتمدوا في مبانيهم وآثارهم على الطين المخفف في الشمس ، واستخدموه في مبانيهم وأبراجهم ، بل اتخذوا منه أيضاً ألواحاً لتسجيل تاريخهم . وتخليد أعمالهم الحيدة . فكان خيراً من البردى والرق والورق وغيرها مما عرفته الأمم الأخرى . لأن تلك الألواح الطينية المخففة لم يصبها البلى ، ولم يعد عليها الزمن ، بل ظلت حتى الآن في حالة جيدة ، وظلت نقوشها واضحة . لم تتآكل ولم تطمس معالمها . فكانوا ينقشون على الطين قبل حرقه بقطعة من البوص تشبه التوت أو الإسفين رموزاً تعبر عن كل ما أرادوا تخليده . وتلك هي الكتابة التي عرفت بين النارسين بالكتابة المسارية .

هم إذن ، مما عرف عنهم حتى الآن ، أهل حضارة راقية في الفلك والهندسة والفن . بل والفلسفة والآداب أيضاً . ويتميز أدبهم بأنه ديني تضمن تاريخ الإنسان فوق الأرض . وما أصابه في مختلف الأزمان . فقد وصفوا قصة الخلق أو الكون ، وكيف بدأ الإنسان حياته فوق ظهر البسيطة ، كما وصفوا لنا قصة الطوفان وصفاً يشبه ما جاء بعد ذلك في نصوص التوراة إلى حد كبير .

وكان هؤلاء البابليين مكتبات ومتاحف صمت سجلاتهم وآثارهم . وقد جمع في إحداها أحد ملوك آشور مجموعة كبيرة من الألواح الطينية مسجلة عليها تاريخ قومه وثقافتهم وآدابهم في عاصمته « بيوى » .

ثم لحقت لعنة بابل التي ورد ذكرها في التوراة لغة هؤلاء القوم بعد أن أصبح ملكهم . وبعد أن كانت هربتهم على يد الفرس الذين أسسوا دولتهم في أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وكان الفرس أكثر تسامحاً وأميل إلى حرية الناس في لغاتهم ودياناتهم ، فلم يتعصوا لغة معينة . ولالدين معين بل تركوا الناس أحراراً حين امتد نفوذهم في جميع أنحاء آسيا الصغرى ، ولم يعمل الفرس عن عمد على تغيير ديانة البابليين أو لغتهم . بل لقد اصطلعوا اللغة البابلية في بعض الأحيان حساً إلى حنب مع لغتهم الفارسية القديمة ، ومع لغة أخرى ذاع أمرها وانتشر نفوذها في أواخر الحكم البابلي ، وزاد نموها وسلطانها خلال الحكم الفارسي . وهي اللغة الآرامية التي ستحدث



عنها فيما بعد . أى أن الفرس لتساعدهم كانوا يصطنعون لغات ثلاثاً ، البابلية والفارسية القديمة والآرامية . والآرامية هى اللغة العالمية التى كانت تنافس البابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد آثرها الفرس على البابلية بسهولة هجائها ، ولأن أهلها لم تكن لهم أطماع سياسية فى تلك المنطقة . فقد احترم الفرس الدين البابلى واللغة البابلية لقدمها وعراقها ، ولكنهم آثروا الآرامية عليها . ذلك لأن الفرس قد رأوا أن لغتهم الفارسية القديمة لغة محلية لم تنح لها فرص الديوع والانتشار كاللغتين البابلية والآرامية ، ووجدوا أن فتوحاتهم وانتصاراتهم تتطلب اصطناع لغة عالمية بجانب لغتهم الفارسية ، فأثروا الآرامية ، وساعدوا على استقرارها ، وتمكنها فى ألسنة كثير من شعوب هذه المنطقة الشاسعة . ونجح الفرس فيما لم ينجح فيه أهل بابل من قبل ، إذ استولوا على مصر فى عهد « قمبيز » ، وغزا ملوكهم بعد ذلك مقدونيا فى بلاد اليونان ، وتم لهم بذلك تأسيس إمبراطورية عظيمة ظلت قائمة حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر بفتوحاته ٣٣٣ ق.م . وهكذا انتهى أمر اللغة الأكادية العالمية دون أن تخلف لنا أبناء أو أحفاداً .

## ٢

## اللغة الآرامية

هذه لغة قوم من الساميين وردت إشارات عنهم فى العهد القديم وكتب التاريخ . وقد شغل البابليون عنهم فانتشروا فى بفاع كثيرة من آسيا الصغرى . وأسسوا لهم مدناً مستقلة أشهر أمر بعضها فى سوريا . مثل مملكة آرام دمشق . وآرام صوبا ، وآرام بيت رحوب . وقد استطاع هؤلاء الآراميون أن يؤسسوا لأنفسهم دولة فى شمال سوريا . كما كانت لهم دولة أخرى فى العراق احتفظوا بها رماً أطول ، مما ساعدهم على التدخل فى شئون نابل وأشور ثم الفرس بعدهم . بل ظل لهم نفوذ كبير حتى فى عهود اليونان والرومان . ورغم أن دولتهم فى سوريا

سقطت على أيدي الآشوريين ٧٣٨ ق . م . وتحدثنا كتب التاريخ أنه كان للآراميين حروب أو مناوشات مع الحيثيين . وأنه في عهد الملك داود كانت هناك دويلات آرامية في سوريا وحدود العراق.

ولسنا نعرف الموطن الأصلي للآراميين . بل لا ندري كيف تيسر لهذا الشعب العجيب أن يتغلغل في كل مدن آسيا الصغرى . وأن يكون للغنم كل هذا النفوذ الذي يحدثنا عنه التاريخ . فلم يكن شعاً محارباً عُرف بالغزو والفتوحات . ولم يؤسس لنفسه دولة موحدة كذلك التي كانت لبابل وأشور أو للفرس . بل كان أهله قوماً عمليين . لم يتطلعوا إلى تأسيس إمبراطورية ، ولم يشغلوا أنفسهم بحروب ، بل قنعوا بالتسلل إلى معظم المدن ، وأسسوا لأنفسهم بمهارتهم العملية نفوذاً كبيراً في كل الأنحاء . وهكذا تمت لهم السيطرة أو النفوذ دون أن يريقوا دماء ، فكان عروهم للمدن غزواً سلمياً .

كان هؤلاء الآراميون أهل تجارة . وكان مطهرهم البريء وعزوفهم عن الغزو المسلح وعدم تطلعهم إلى تأسيس دولة كبيرة أو إمبراطورية ، من أكبر العوامل التي جعلت شعوب آسيا الصغرى تطمئن إليهم . وتبيع لهم فرص العمل في صناعاتهم وصناعاتهم . وقد كانوا يبيعون لهم البضائع من بلادهم . ولم يهتموا بها كثيراً . كما كانت كتاباتهم هجائية . اضطعوا فيها رمزاً لكل صوت ليعي . ولم تكن مقطعية كالتي كانت لدى المصريين والعسكاريين . مهم أيوان فيما بعد ، أو كالتي كانت لدى المصريين في عهدهم المناحرة . ولم تكن معقدة كالتي كانت في الكتابة المسمارية ككتابة بابل وأشور . هذا إلى ما عدا الفرس لهذه اللغة وإثارتهم لها . مما زادها انتشاراً في العهد الفارسي .

لم يكن الآراميون أهل أدب حالد ، ولذلك اندثرت كل آدابهم ولم يبق منها ما يتردد على الألسنة إلا كلمات المسيح في الإنجيل ، وهي التي ترجمت بعد ذلك إلى الإغريقية ثم إلى اللغات الحديثة .

ومن طريق النقوش الآرامية والكتابات الآرامية التي عثر عليها في العهد .

الحديثة ، ومعها تلك النصوص الدينية التي نقرأها في الترحوم<sup>(١)</sup> ، استطاع الدارسون من المستشرقين أن يؤلفوا صورة غير متكاملة المعالم للشعب الآرامي واللغة الآرامية . وقد امتدت النقوش الآرامية إلى أبعد من حدود الآراميين رغم ذهاب استقلالهم السياسي . وذلك بفضل بساطة كتابتها . فشملت جميع أنحاء «ميزوبوتاميا» . وأصبحت اللغة الآرامية لغة السياسة والتجارة في كل أنحاء غرب آسيا الصغرى بل وفي مصر . واستحقت بهذا أن تدعى لغة عالمية .

فيحدثنا العهد القديم أن مندوبى الملك «حزقيا» ملك العبرانيين حين كانوا يتحدثون مع العثة الآشورية في أثناء حصار أورشليم ، طلبوا من الآشوريين أن يتكلموا باللغة الآرامية حتى لا يفهم الناس<sup>(٢)</sup> . أى أن أشرف اليهود قد تعلموا الآرامية ليستطيعوا التعامل مع الآشوريين .

وقد عثر في سنة ١٩٤٨ على أوراق من البردى تتضمن رسالة من أمير فينيقي إلى فرعون مصر ترجع إلى ٦٠٥ ق . م . وتوضح هذه الرسالة مقدار شيوع اللغة الآرامية في المكاتبات الدبلوماسية .

وبعد القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد نعت اللغة الآرامية د ه محذوها لغة عمية . وذلك حسب سمع القميس وإيثارهم دمت اللغة على عيرها فأصبحت لآراميه خلال حروب القميين ، لغة الرسمية للعالم السرى الخاص مع القميس فيما بين مصر والعمرات . وحلت الآرامية في تلك المناطق محل العبرية وأشيبينية والساميات الأخرى .

وليس صحيحاً أن اليهود قد حلوا هذه اللغة الآرامية معهم بعد عودتهم من الأسر البابلي . بل الصحيح أن اليهود حين عادوا من المنفى كان معظم الناس قد سوا العبرية لغتهم الأصلية . ولم تكن يبدأ القرن الرابع قبل الميلاد ،

( ١ ) الترحوم كتاب يحوى ترجمته أو تفسيراً لبعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية .  
 صم بوضعه أحد من اليهود قبل ظهور المسيحية ، وبعد أن أصبح جمهور الناس لا يفهمون النصوص العبرية لأصعبه

( ٢ ) سفر اشعيا ١٨ الآية ٢٠ . وكذلك سفر « أشعيا » الإصحاح ٣٠ الآية ١١

حتى كانت العبرية قد اختفت كلغة كلام ، وحلت الآرامية محلها ، واقتصرت  
أمر العبرية على الأحبار ورجال الدين بوصفها لغة كتابة فقط .

وفي العصر الفارسي كانت اللغة الآرامية اللغة الرسمية للمقاطعات التي في  
غرب العراق . إذ نجد أن عملة الحكام وأمراء العشائر في آسيا الصغرى تلك  
التي صنعها مهرة الإغريق . كانت تحمل نقوشاً آرامية بجانب اللغة الإغريقية ،  
وكذلك كان الشأن في أختام هؤلاء الأمراء والحكام . وقد وصلتنا نقوش  
وكتابات آرامية عثر عليها في جزيرة القيلة بأسوان وترجع إلى العصر الفارسي ،  
أي فيما بين القرنين السادس والرابع ق . م . وقد كتبت على أوراق البردي ،  
وتتضمن عقود زواج ومعاملات مالية ، مما يؤكد لنا أنه كان في « أسوان »  
حالية سامية كبيرة من الآراميين والفينيقيين والعبرانيين الذين اصطنعوا اللغة  
الآرامية في تعاملهم ، وأنهم كانوا يؤثرون استعمال تلك اللغة الآرامية السهلة ،  
خشية أن يقعوا في صعوبات الخط الخير وغلطي .

وقد تأثرت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية . مثل بعض أجزاء  
في سفر « دانيال » و « عزرا » كتبت بلغة آرامية شبه شها قوياً لغة تلك النصوص  
التي عثر عليها في أسوان .

وهكذا يرى أن اللغة الآرامية حصلت السامح لتعمرى قد انتشرت  
انتشاراً كبيراً في كل أنحاء آسيا الصغرى وفي مصر .

ولما كان الغزو اليوناني على يد الإسكندر الأكبر ضعف شأن الآرامية قليلاً .  
ولكنها ظلت لغة الخطاب لعامة الناس في كل البقاع . في حين أن الإغريقية  
اصطنعت في مجالات الثقافة والعلم . وبدل على هذا تلك النقوش التدمرية  
والنبطية التي عثر عليها في شمال شبه الجزيرة العربية . وأن الآرامية كانت  
لغة المسيح فقد أملى بها على حواريه تعاليمه . وكتبت بها بعض أسفار  
الإنجيل في أول الأمر ، ثم ترجمت إلى اليونانية بعد ذلك

ولما كان العهد الروماني وانتشرت المسيحية في بلاد الرومان ، ساعد ذلك  
على إنهاص الآرامية من كوتها في عهد اليونان . لأنها لغة المسيح ، ولأنها كانت

منتشرة في نواح متعددة . ولما ظلت الآرامية اللغة الرسمية للكنيسة السوربانية وكنت بها مؤلفات دينية كثيرة ، بل لقد انتشرت الآرامية عن طريق التحار والعبد في بعض نواحي الدولة الرومانية .

ورأى أحرار اليهود قبيل ظهور المسيحية أن الناس لم يعودوا يفهمون النصوص العبرية للتوراة فاضطروا إلى ترجمتها إلى اللغة الآرامية تلك اللغة التي سادت في كل القاع . وعلى ألسنة كل الناس . ومن ترجمة النصوص العبرية وتفسيراتها تكون ما يسمى في الأدب الديني للعبانيين « بالترجوم » و « التلمود » . ولما ظهرت المسيحية كانت اللغة الآرامية قد انشطرت إلى شطرين متميزين إلى حد كبير . أحدهما ما يعرف بين الدارسين بالآرامية الغربية وتمثله النصوص الآرامية في العهد القديم ، ونصوص أوراق البردى التي عثر عليها في أسوان ، كما تمثله أيضاً اللغة التلمرية واللغة النبطية ، وكثير من الكتب الدينية التي كتبها أحرار اليهود في العصور المسيحية ، ومنها ما يسمى بتلمود فلسطين . أما الشطر الآخر فهو ما يعرف بالآرامية الشرقية وهي التي سادت في بلاد العراق ، وسماها أهلها في العصر المسيحي باللغة السوربانية . واتخذت لغة كنيسة « أودس » وهي كانت أدب دينية كثيرة فيما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين . ومن بين نصوصها ما يعرف بالتلمود البابلي

وظلت اللغة الآرامية سائدة في كل تلك القاع حتى جاء الإسلام وحلت العربية محلها . ولا يكاد نجد لها الآن أثراً إلا ما يقال لنا من أن بعض القرى النائية في سوريا لا يزال أهلها يتكلمون باللغة الآرامية أي أن نهاية اللغة الآرامية السامية كانت على يد لغة سامية أخرى هي العربية . وبحقها لغة نابل أيضاً بعد أن طلت قروناً كثيرة محبوبة مأنوسة بين شعوب العالم القديم . يصطعونها في حطابهم . وفي معاملاتهم ومكاتباتهم الرسمية الدبلوماسية . وكانت بحق لغة الشعوب . لغة الناس بكل طبقاتهم . فلم تقتصر أمرها على طقة خاصة أو بيئة محددة . واستحضت من أجل هذا أن تعد لغة عالمية ديمقراطية . فمن أهم سمات لغة العالمية أن تكون لغة الناس بكافة طبقاتهم .

ومع أن اللغة الآرامية قد اندثرت وأخذت العربية مكانها لا أشك لحظة في أن هذه اللغة قد خلفت في لهجات كثير من البلاد العربية آثاراً ، بعضها صوتي وبعضها يرجع إلى صيغ الكلمات وتركيب الجمل ، ولعل بحوث المستقبل تكمل للباحثين والدارسين الكشف عن تلك الآثار ونوصيهم بمعالمها .

## ٣

## اللغة الإغريقية

في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت الثقافة الإغريقية قد بلغت الذروة على يد طائفة من العلماء والفنانيين والعلامة الذين عاشوا في أثينا ، وجعلوا لها المركز المرموق في تاريخ الحضارة الإنسانية . بينهم شعراء عظماء من أصحاب الدرامات الخالدة مثل «أشيلوس» و«سموكليس» و«يوريپيديس» و«أرسوفانيس» . وبينهم أساتذة العالم في الفلسفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعهم . وبينهم نواع في فن نساء والسحب مثل «اكتيفوس» و«فيريديس» وغيرهما . وهكذا حققوا في حياة حضارتهم الإنسانية خير ما تشهده العصور في كل عصور التاريخ . وكنت معاً أريد في ذلك العهد هي اللغة الإغريقية القديمة التي سميت «الأتينية» ، والتي تميزت بحمل أصواتها وانسجام صيغها ودقة تركيبها وتجليد دلالاتها :

ثم كان الغزو التاريخي المشهور على يد الإسكندر الأكبر . الذي برع أن حكمه لم يدم أكثر من ثلاثة عشر عاماً . استطاع أن يقهر كل دول شرق البحر الأبيض . وأن يؤسس إمبراطورية عظيمة شملت مصر وسوريا وبلاد العراق وبلغت حدود الهند . أي أنه استولى على العالم المتحدين القديم في تلك فترة الوحدانية . وكانت سياسة الإسكندر على قصر حكمه تعتمد إلى تأسيس المدن العظيمة في آسيا الصغرى . فكون في أنحاء تلك المنطقة مدائن مزدهرة تدمر بالسكان . وسط شعوب عريقة في حضارتها وثقافتها . عية بحاراتها

وآدابها وعلومها ؛ وكان لهذه الشعوب من المباني العظيمة والأبراج الشاهقة ما ربما تمناه الإغريق في بلادهم . ومن الإنصاف أن تعد هذه الشعوب أساتذة للإغريق في الفلك والهندسة والفن ، بل وفي الفلسفة أيضاً ، ولكن الإغريق امتازوا عنهم بلغة لم يكن لها نظير في تلك الأيام . وبفضل هذه اللغة نشر الإسكندر ثقافة اليونان ، ونظمهم الاجتماعية بين هذه الشعوب العريقة .

غزا الإسكندر آسيا الصغرى فوجد الآشوريين والبابليين في حالة من الضعف العسكري والفساد الاجتماعي ، ما مكّنه من قهرهم . ووجد الفرس يؤسسون دولة قامت على التسامح الديني واللغوي ، لا يدعون إلى دين معين ، ولا إلى لغة واحدة ، يتكون جيشهم من أجناس متعددة ولغات متباينة ، وعقائد متنافرة ، فيسر كل هذا على الإسكندر قهرهم والانتصار عليهم . وشنت جيشهم في أول معركة ، إذ لم يكن بينهم رابطة وثيقة من دين أو لغة أو جنس تلم شتاتهم أو توحد بينهم . على حين أن جيش الإسكندر كان يتكون من جنس واحد ، وثقافة موحدة ، وعقيدة واحدة ، وأخيراً وليس آخراً من لغة واحدة . ولذلك دام أثر هذا الغزو الإسكندري حتى بعد الإسكندر وظل سائداً إلى عصر الرومان . ونشأ بسبب هذا الغزو الإغريقي فيما بعد ما يمكن أن يسمى «الروح الإغريقية» . أو «الطابع الإغريقي» في كل مظاهر الحياة ساد هذا الطابع الإغريقي كل أنحاء المنطقة المعروفة . وأصبح أهلها إغرياً من حيث اللغة والثقافة . وإن لم يكونوا من حيث الجنس أو النسب .

وحكم الدين ورثوا الإسكندر . كل هذه البلاد في شكل دول صغيرة بدأت كأسها مستقلة بعضها عن بعض ، ولكنها اجتمعت في الروح الإغريقية واللغة الإغريقية . وتعاونت على استقرار سلطاتها . ويكفي أن نذكر منها دولة البطالمة التي حكمت مصر ربما طويلاً أسست خلاله مدرسة الإسكندرية المشهورة في العلم والفن والفلسفة . ومكتبتها التي عمت شهرتها الآفاق

فساد الطابع الإغريقي مصر وكل مدن آسيا الصغرى . وولد الناس الإغريق في ألعاسهم وأعيادهم وعاداتهم وملابسهم ونظمهم الديمقراطية في الحكم وساعد على ذلك طائفة من تحار الإغريق . حبوا كل هذه البلاد . واستمروا فيها . ونشروا لغتهم بين الناس . وعملوا على تغيير كثير من مظاهر الحياة

الاجتماعية . فأسست الحمامات الإغريقية ، وشيدت المائى العظيمة . وأقيمت المسارح ، بل أخذ حتى بنظام المجارى الذى عرفه الإغريق فى بلادهم .

ودرعم أن لغة أثينا « الأتيكية » قد خلدت لنا قدراً كبيراً من علم الإغريق وثقافتهم قبل عزو الإسكندر . فإيها بعد اتساع الإمبراطورية الإغريقية كانت أرقى وأسمى من أن تصلح لغة مشتركة لكل هذه الشعوب . فهى حتى فى مهلهما الأصلية ، كانت لغة الحكماء والعلماء والفلاسفة . يصطنعونها فى أرقى الآثار الأدبية والفنية . ويتخذونها الفلاسفة والخطباء أداة لمناقشة المسائل الحديثة فى أرقى الأوساط العلمية . ثم طرأ على هذه اللغة . وفى ألسنة العامة من الناس بعض الصفات الصوتية الجديدة ، والانحرافات فى الصيغ والتراكيب . تلك التى نفر منها حكماء أثينا وتحاشوها ، ولكنها برعم هذا تلورت فيما بعد واقتحمت حصون لغة الإغريق ، وساعدت على نشأة تلك اللغة الإغريقية المشتركة التى عرفت فى التاريخ باسم « الكوينية » .

فاللغة « الكوينية » تتصف بكل صفات اللغة العالمية . ذلك لأنها انتظمت شعوباً كثيرة ، ووحدت بينها مع اختلاف هدد الشعوب فى الجنس والعقيدة . وكانت كذلك لغة ديمقراطية . أى لا س بكفة طفتهم . لا تقتصر شأنها على طئفه خاصة أو بيئة محدودة . كد حردب أو سبط أصواها وصيعها وراكيبها فأصبحت فى متناول الناس جميعاً .

وهكذا تمت للغة الأغريق المشتركة المسماة بالكوينية السيادة فى كل أنحاء العالم القديم ، يصطنعها الناس فى خطاطهم ومعاملاتهم وتبادل المصالح فيما بينهم . واسع صدر الإغريق فى دنياهم الخدمة لذلك الحشد الواعد من الكلمات الإيجابية . فرحبوا بها وصبعوها صبيعتهم الإغريقية ، وأصبحت تكون عنصراً أساسياً من لغتهم المشتركة « الكوينية » . وهذا أنصاً من صفات اللغة العالمية . فاللغة التى تكتفى بعناصرها ، ونعزل عن اللغات الأخرى . أو تتطوى على نفسها . لا يتاح لها أبداً أن تصبح من اللغات اعالمه

أصبحت « الكوينية » إذن لغة شعوب متعددة . وصارت ملكاً للإغريق



وعبر الإغريق ، تجرى على ألسنة الكثيرين ممن لا يتمون إلى الجنس الإغريق . وكان من الطبيعي لذلك أن يصيبها انحرافات أو تغيرات لم تكن في « الأتيكية » ، فانسخت أصواتها وصيغها وتراكيبها بالبساطة والمرونة ، وإن فقدت شيئاً من خصائصها الأصلية . فتغيرت بعض أصوات الإغريق القدماء ولا سيما أصوات اللين أو ال Vowels أما الأصوات الساكنة أو ال Consonants فالتعبير فيها كان في نطاق محدود جداً ، مثل تعطيش الجيم الذي طرأ أخيراً على نطق الإغريق ، ولم يكونوا يعرفونه في الأتيكية . كما طرأ على كلام الإغريق انحرافات في صيغ الأسماء واشتقاقاتها ، انتهت بفقدان المثني ، والصيغة الخاصة برمن المستقبل ، وغير ذلك من ظواهر ساعدت على تبسيط قواعد اللغة ، وجعلها في متناول الناس جميعاً .

وإذا ذكرت اللغة الإغريقية في عصور التاريخ لا ينصرف هذا إلا إلى « الكوينية » اللغة المشتركة ، فهي التي ترجم إليها العهد القديم أيام البطالة ، تلك الترجمة التي عرفت بالترجمة السبعينية ، وهي التي ترجم إليها الإنجيل في أوائل العصر المسيحي عن الأصل الآرامي ، ولا سيما إنجيل لوقا وإنجيل بطرس وكلاهما بعد خبر نموذج لغة « لكوينية » .

فقد ذكرت اللغة الإغريقية في المراجع لا يكاد ينصرف هذا إلى لغة مشهورين من حكماء الإغريق وفلاسفتهم وفنانهم من أمثال أفلاطون أو أرسطو وغيرهما ممن كتبوا « بالأتيكية » وخلدوا آثارهم بها ، بل إن اللغة الإغريقية في التاريخ هي « الكوينية » اللغة المشتركة العالمية الديمقراطية . لغة الخطاب والمعاملات والحجارة كما هي لغة العلم أيضاً .

وحملت « الكوينية » ثقافة الإغريق وعلومهم وشرها في جميع أنحاء الإمبراطورية الإغريقية ، فنظم بها الشعراء ، وتأمل بها الفلاسفة . وكتب بها العلماء والفنانون في مدرسة الإسكندرية وسوريا ، وغيرهما من مناطق هذه الإمبراطورية . وكانت الإسكندرية أول مدينة نستلم قيادة المهضة الإغريقية أيام البطالة . وحافظت على النطق الصحيح للغة « الكوينية » وكان أهلها

الذين هم من أجناس مختلفة ، بين مصريين وسوريين ويهود وأحباش ، يعترفون بهذه اللغة ، فاحتفظوا بها كلغة مشتركة جمعت بينهم عدة قرون . ذلك لأن التعليم في مدارس الإسكندرية كان أساسه لغوياً ، بدأ الطفل بتعلم القراءة والكتابة ، ثم يمر على حفظ كثير من النصوص الأدبية وإنشادها بصوت عال ، رغبة في ذلاقة اللسان وحسن البيان ، فكان الطفل يحاول أداء هذا أداء جيداً مع عناية بحسن النطق وجودته .

بل إن التاريخ يحدثنا عن كثير من القادة والحكام الذين نشأوا بعيداً عن أثينا ، حين وفدوا عليها في شبابه رابعين في إتقان هذه اللغة « الكورية » والسيطرة عليها نطقاً وإنشاداً وأداء . ذلك لأن المركز الاجتماعي للمرء في تلك الأيام كان يقاس بحسن نطقه . وقدرته على الخطابة ، والنفاذ في أسلوب أحاذ حذاب . بل حتى حين تعلم هؤلاء الوافدون على أثينا الفلسفة والجغرافيا والفلك وغيرها . لم يتم لهم ذلك إلا بعد السيطرة على اللغة الإغريقية . كما يحدثنا التاريخ أن بعضاً من قادة الرومان وعظمائهم قد نشأوا من الناحية النحوية في أحضان الثقافة الإغريقية .

تطورت إذن لغة الإغريق إلى ذلك اللغة المشتركة « الكورية » التي سبب أهلها وصنعها ونزاعها وسحب كلماتها شيع من الأنماط الأجنبية . اقترصها الإغريق من اللغات الأخرى ، ولم يحدوا في هذا عصبه ، فقد أصبحت هم بمثابة ثروة لغوية . كما عيت لهم عن طريق الاشتقاق باستحداث ألفاظ كثيرة أحسوا بحاجتهم إليها خلال أطوارهم التاريخية . ويمكن التماس كثير من هذه الكلمات المستحدثة في نصوص الإنجيل بلغة الإغريقية .

وقد قضت اللغة الإغريقية المشتركة على معظم اللغات في مناطق الإمبراطورية الإغريقية ، وحلت محلها . فيما عدا اللغة الآرامية التي تفهمت إلى مملكة « ندمر » والأنطا في شمال شبه الجزيرة . ولكنها ضلت مع هذا على ألسنة الناس في معظم مناطق الإمبراطورية . لأنها كانت لغة مسائه . لم تطمح أهيء إلى سبط

دنيوى ، ولم يعتبرها الإغريق منافسة لعتهم ، فتركوها وشأنها كلغة ثانية لكثير من عامة الناس . وقنعوا بأن نكون لغتهم الإغريقية لغة العلم والحضارة والثقافة ، واللغة الرسمية لإمبراطوريتهم الإغريقية .

وقيل ظهور المسيحية كانت فلسطين من حيث الثقافة إغريقية اللغة . فنصوص الإنجيل التي كتبت أولا بالآرامية ، لم تلبث أن ترجمت إلى الإغريقية . وليس من الإسراف أن نقرر أن المسيحية نمت وانتشرت تعاليمها في أحضان العقلية الإغريقية . فمن الصعب أن نتصور انتشار المسيحية ما لم تكن تعاليمها قد تأثرت بالثقافة الإغريقية والعقلية الإغريقية . ولم يكن من السهل على الرومان قبول المسيحية ، إلا لأنها جاءتهم متأثرة بثقافة أساتذتهم الإغريق ، والفضل في هذا للقديس بطرس ، ومدرسة الإسكندرية ، واللغة « الكوينية » العالمية المشتركة . أى أن الرومان قبلوا المسيحية لأنها جاءتهم عن طريق العقل الإغريقي . ثم لحقت لعنة بابل اللغة الإغريقية أيضاً فتقلص نفوذها منذ القرن السابع الميلادى ، ولم تخلف لها سوى الإغريقية الحديثة التي يقتصر أمرها الآن على بلاد اليونان .



### اللغة اللاتينية

لم تكد تظهر المسيحية في الشرق حتى كان قد تأسست دولة عظيمة ذات تقاليد حربية مشهورة في التاريخ القديم . تلك هي الدولة الرومانية التي اتسعت رقعتها من حول روما شرقاً . وضمت إلى سلطاتها معظم ممتلكات الإمبراطورية الإغريقية في مصر والشام وبعض مدن آسيا الصغرى وامتد نفوذها غرباً فشمّل ما يعرف الآن بهرسا وإسبانيا . بل وإجلترا . أى أن الدولة الرومانية في العصور المسيحية كانت تسيطر على وسط وجنوب أوروبا كما تسيطر على إنجلترا .

ولغة هذه الدولة العظيمة هي التي تعرف بين الدارسين باللغة اللاتينية . ولم تكن اللاتينية في بدء نشأتها سوى إحدى لهجات إيطاليا ، وقد كتبت لها السيادة على اللهجات الأخرى . وأصبحت وحدها في العصر المسيحي تسود كل مناطق هذه الدولة الرومانية .

ولما اتسعت رقعة الدولة الرومانية شرقاً وجدت لغتها اللاتينية هناك منافساً قوياً هو اللغة الإغريقية وتلك هي لغة أساتذة الرومان في العلم والفن . وهادنت اللاتينية الإغريقية في الشرق ، لأن حضارة الرومان وثقافتهم قد أسست على حضارة الإغريق وثقافتهم . فقد قلد علماء الرومان وأدباؤهم وفنانوهم وفلاسفتهم الآثار الخالدة التي خلفها الإغريق ، وحذوا حذوهم وسلكوا مسلكهم . ولذا يقال دائماً لئن عزا الرومان الإغريق بالسيف ، لقد عزا الإغريق الرومان في نفس الوقت بالعلم والثقافة والأدب والفن .

ولم يكن للاتينية في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط ، ولا في مصر الأثر الكبير الذي كان للإغريقية ، ولذا لم تكد تخلف هناك أثراً لغوياً ملحوظاً ، على حين أنها في العرب كان لها آثار خالدة . فقد حلت هناك أحقاداً هي التي نرى الآن بالإيطالية وفرنسية وإسبانية وغيرها

ورب على ساح رقعة الدولة الرومانية شرقاً وغرباً أن انتشرت اللاتينية في الشرق إلى حد ما . وفي العرب إلى حد كبير ، وأصبحت لغة دولة عظيمة نسم شعوباً متباينة . فكان من الطبيعي أن تتطور اللاتينية على ألسنة هذه الشعوب ، وفي بيئاتها الجديدة ، فمالت إلى التيسير في أصواتها وصيغها وبعض تراكيها . كما اقتصرصت من تلك اللغات المعروفة ألفاظاً كثيرة أحسب بالحاجة إليها . وأخيراً وليس آخراً تمت دلالات ألفاظها عن طريق الحجاز فاللاتينية التي كانت لغة قوم من الملاحين المحاربين قد عثرت بعض ألفاظ الملاحة فيها عن كثير من مظاهر الحضارة للدولة الرومانية في أوج عظمتها

لم تألف اللاتينية إذن من أن يحرص من الإغريق أحرف الهجاء . وألفاظهم الخاصة بالصاعات والمهن والصناعات والشعر . بل إن كثيراً من كتاب الرومان

وعلمائهم قد رُبّوا في أحضان أثينا . وليس من المغالاة أن يعدوا إغريقاً أكثر منهم رومانيين .

وقد اعتمدت اللاتينية على الإغريقية في نماذج الفن والأدب والفلسفة . وترتب على هذا أن الآثار التي حلفتها كتاب الرومان قد جاءت بلغة لاتينية أرسقراطية غير مألوفة إلا في الأوساط الثقافية الراقية . وتلك هي اللاتينية الأدبية التي اصطنعها خطباء « السناو » من أمثال « شيشرون » ، ورجال السياسة والقانون . وكتب بها آثار أدبية في أوائل عهد الدولة الرومانية ، وظلت هذه الآثار نماذج تحدى بعد ذلك . ولم تلبث هذه اللغة النموذجية أن انعزلت عن مستوى العامة من الناس . ولا سيما بين الشعوب التي سيطر عليها الرومان فاعتزاز المفكرين والمثقفين من الرومان بهذا المستوى السامي للغة الرومانية أو كما سماها الدارسون اللاتينية الكلاسيكية ، قد أدى في نهاية الأمر إلى تحجرها . فأصبحت شبه لغة مصنوعة . لا تصطبغ في الخطاب أو التعامل ، بل يحتفظ بها لمخالات حدة راقية من التفكير ، فاقصرت على الفلسفة والقانون والآداب التي فوق مستوى جمهور الناس . أما اللغة التي اتحدت للتعامه في المعاملات والسحرة وبين الحدود العارفين الناحين . فكانت نوعاً من اللاتينية المسطحة في أصواتها وصيغها وزركبتها . وهي التي يمكن أن نسمي باللاتينية العامة وهكذا قدر للغة اللاتينية في عهد الدولة الرومانية أن يكون لها مستويان : أحدهما هو المستوى الأصيل الذي يحتفظ بكل أصوات اللاتينية وصيغها الكثيرة المعقدة ونراكبتها الموروثة . والآخر هو المستوى العامي المسطح الذي جرى على كل الألسنة . وفي كل أنحاء الإمبراطورية العظيمة . ومن هذا المستوى العامي انحدرت بعض اللغات الأوروبية الحديثة كالفريسيه والإسبانية . بل والإيطالية .

وقد تمير هذا المستوى العامي بإشتماله على كلمات كثيرة اقتصرصت من الشعوب الأخرى ، وباتجاهه نحو النظام التحليلي ، واستعمال الأدوات والأفعال المساعدة ، بدلا من النظام التركيبي للصيغ ، والتعقيد في اشتقاقاتها . فصادف

ذلك هو في نفوس جمهور الناس الذين نظروا إلى المستوى الآخر على أنه نوع من التفرع والتفصيح .

وقد ساعد على نمو اللاتينية العامة ميل الرومان إلى الامتزاج والاختلاط بالشعوب الأخرى التي كانت تحت سيطرتهم ، وهي الشعوب التي أثرت اللغة السهلة المرنة المبسطة ، وبلغ هذا الامتزاج في أواخر عهد الدولة الرومانية أن يصبح الإمبراطور الروماني من أصل إسباني ، وأن يصبح بعض القواد وأعصاء الساتو من غير الرومانيين .

لذلك لم تكن اللاتينية الكلاسيكية بين الشعوب التي سيطر عليها الرومان مثل « الكوينية » أيام الإغريق أو في مستواها . فلم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق درامات خالدة تمثل في المدن العظيمة أمام حشود حافلة كما كان الشأن أيام الإغريق ، بل حل محل هذه الدرامات استعراضات صامتة لألعاب القوى والرياضة البدنية . ولم تنتشر هذه اللاتينية عن طريق محاضرات ومناقشات فلسفية كتلك التي كانت في عهد الإغريق . فاقصر الأدب اللاتيني الكلاسيكي على الأعياء الأرستقراطيين .

وردت الفجوة بين اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية العامة منذ القرن الثامن الميلادي ، فأدى هذا فيما بعد إلى فقدان الوحدة اللغوية التي تربط بين شعوب هذه الإمبراطورية العظيمة ، مما كان من أقوى الأسباب لاضمحلالها تدريجياً .

ثم كانت القرون الوسطى التي شهدت الفُرقة السياسية بين شعوب أوروبا ، ولكنها شهدت أيضاً ما يشبه الوحدة الدينية حين انتظمت المسيحية معظم أنحاء . وهنا أخذت القيادة الدينية في روما الزمام ، وحاولت جمع شتات هذه الشعوب الأوروبية تحت رايها . ولم تكن نفتقد سوى قيادة دينوية تتمثل في قائد عظيم يؤسس دولة أوروبية عظيمة تضم هذه الشعوب المتفرقة ، وتسترشدهم إلى التعاليم المسيحية ، فكانت دولة « شارلمان » في القرن الثامن الميلادي

وقد رأى « شارلمان » أن خير رباط يمكن أن يوحد بين الشعوب التي حضعت

له هو اللغة ، فعمل جاهداً على نشر اللغة اللاتينية وجعلها لغة الكنيسة ، برغم أنه هو نفسه لم يكن يحسن الكلام بها . فسادت الروح الرومانية والطابع الروماني القديم بين شعوب أوروبا مرة ثانية . ولكن السلطان الإقطاعي كان أقوى من سلطان روما الديني ، فلم يكفد يقضى عدد من السنين بعد « شارلمان » حتى عادت شعوب أوروبا إلى الفرقة . وكان من أقوى العوامل التي ساعدت على هذا فقدان الوحدة اللغوية بينها ، إذ عجزت اللاتينية الكلاسيكية عن توحيد هذه الشعوب لجهل معظم الناس بها ، ونظرهم إليها على أنها فوق مستواهم ، وغريبة عنهم . ذلك لأن اللاتينية العامية كانت قد تملكمت من ألسنتهم ، وأخذت صوراً محلية في بيئات أوروبا المختلفة . فقد بدأت تنشأ في إيطاليا لغة محامية متطورة عن تلك اللاتينية العامية . كما نشأت في فرنسا لغة أخرى محلية متطورة أيضاً عن تلك اللاتينية . وكذلك كان الشأن في إسبانيا . أي أن اللغات المحلية في أوروبا كانت قد بدأت في الظهور ، وبدأ الخلاف بينها واضحاً قوياً . مما كان له الأثر الكبير فيما بعد حين شعرت هذه الشعوب بكبتها ودانيتها . وبدأت تستغل بعضها عن بعض .

ومع هذا طبت لاتينية الكنيسة بصطعها هائلة من التفكير في كتاباتهم الأدبية والفلسفية ، وحيث حتى القرن السادس عشر الميلادي . يتضح هذا من المكاتبات الدينية والدبلوماسية والقانونية ، بل والتجارية التي رويت لنا عن ذلك العهد . ومنذ ذلك القرن أصبح للمعكرين والكتابات لغتان جديهما محلية والأخرى هي لاتينية الكنيسة . وقد اصطبع كثير من هؤلاء كلتا اللغتين في كتاباتهم . غير أنهم في القرن السابع عشر وما بعده قد انصرفوا عن الكتابة باللاتينية . وتعد معاهدة « راستات »<sup>(١)</sup> ١٧١٤ م أولى المعاهدات الأوروبية التي لم تكتب باللاتينية

(١) معاهدة راستات Rastatt هي التي انتهت به حروب نورث هولندية ، بين فرنسا وبرسانيا من جهة واحدة ، وبرسانيا وهولندا من جهة أخرى . وبعد هذه المعاهدة تكتب مع هذه أبرجت Utrecht المشهورة سنة ١٧١٣ م

وهكذا كانت نهاية اللغة اللاتينية التي خلعت أحقاداً تعرف بيتنا الآن بالفرنسية والإسبانية والإيطالية، غير أن هذه الأحقاد من اللغات لم تأخذ صورتها المحلية المستقلة إلا بعد أن أصاب أوروبا من جرائها ويلات ومآسٍ، في شكل حروب دينية، هي في الحقيقة حروب لغوية، أشعلتها النعرة اللغوية بين أصحاب هذه اللغات، أو كما يعبر أحد المعاصرين من الكتاب بقوله: (ولما بزغت اللغات الجديدة من بعض المدن الرئيسية اتخذها الناس في كل بيئة محلية أداة التعبير عن آدابهم، فتكونت القوميات المحلية التي تباينت في تفكيرها ووجهة نظرها. وهكذا كانت الحروب الدينية في حقيقة أمرها حروباً لغوية، لأنها أثارت لتحقيق ما لكل بيئة من حق في التعبير عن أفكار أهلها ومطامحهم بين تلك الطبقات المفكرة التي ولدت حديثاً. فقد عبرت تلك اللغات المحلية عن الفروق التي كانت بين هذه الشعوب. ولأنه لمن أقسى مآسى التاريخ أن تلك الفروق اللغوية قد أيقظت العصبية الحسية، واتخذت من التباين الفكري في نفسية أبناء هذه الشعوب أسباباً للمعارك الدامية التي انتهت بالقضاء على الوحدة الروحية في أوروبا) (١)

ولاتينية الكنيسة هي اللغة العالمية التي عاصرت أمة عالمية أخرى مهضبة وردهرت شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا، وذلك هي لغتنا العربية ومع أن عهد اللاتينية قد انقضى، لا يزال بعض رجال الدين في القاتيكاز يحاولون معها من جديد ولكن هيهات ومن أطرف ما نشر في الصحف منذ ستين ذلك القرار الذي اتخذته المجلس البابوي يجعل اللغة اللاتينية لغة التخاطب الرسمية خلال اجتماعاته وقد علقت الصحيفة على هذا القرار بأن قالت إن الصعوبة الحقيقية التي سنواجه الاجتماع هو إيجاد مضطمة لتسهيل كل كلمة من كلمات المتحدثين الذين يتمون إلى بلاد مختلفة. ومن ثم تتفاوت طريقة نطقهم للغة اللاتينية تفاوتاً كبيراً. فالألماني سيقطع الكلمات اللاتينية بلكنة ألمانية، وكذلك الإسباني والبرتغالي والإنجليزى. وغيرهم من أعضاء



المجلس . وسيتعذر على كاتب الاختزال مهما كانت إجادته للغة اللاتينية فهم كلام كل متحدث ما لم يكن على دراية تامة بلغته الأصلية .

يضاف إلى ذلك أن هناك كلمات لاتينية كثيرة إذا حُرِفت أقل تحريف أصحت كلمات أخرى تعنى أشياء مختلفة تماماً . فمثلاً الكلمة اللاتينية التي تعنى « صادق » أو « أمين » إذا نطقت بلكنة ألمانية تحولت إلى كلمة أخرى معناها « مفترس » أو « متوحش » ، وكذلك فإن الإنسان ينطقون الكلمة اللاتينية التي تعنى « يعيش » نطقاً يحرفها إلى كلمة أخرى معناها « يسكر » أو « يشرب الخمر » . ويقول الأب « ليون ديهون » وهو فرنسي : إن الإنجليز ينطقون اللغة اللاتينية بطريقة غير معقولة ، وإن الألمان ينطقونها بعنف غريب ويفشلون في نطق الجيم المعطشة ، ومن ثم يحار الإنسان عند سماع كل كلمة منهم في الاستدلال إلى الكلمة الحقيقية التي يعنونها . أما أهالي « الحجر » فإن الواحد منهم يبدو حين يتكلم اللاتينية وكأنه « يتغرغر » (١) .

### اللغة العربية

لما جاء الإسلام كانت اللغة العربية مزدهرة مكتملة النمو تستقيم كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وتصطنع في آداب يعتر بها أهلها . وسافسون في إتقانها وإحاديثها . وكان المركز الاجتماعي في هذه البيئة العربية يقاس بشدة المرء على حسن البيان ، سواء كان شاعراً أو خطيباً أو كاتباً . وكان للعرب قبل الإسلام أسواق مشهورة تقام في أشهر مختلفة من العام . لا للبيع والشراء وحسب ، بل أيضاً لعقد المساجلات والمناظرات بين كبار الشعراء ، ومصحاء الخطباء . أولئك الذين كرسوا حياتهم للنهوض بهذه اللغة والسمو بأدائها . وهؤلاء هم الذين تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا سورة من مثله . أي أن تلك الأسواق

كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية ، فيها ينشد الشعراء ما تجود به قرائحهم ، وفيها يبرز الخطباء داعين إلى مذهب سياسي أو ديني بين القبائل المختلفة . وكانت هذه اللغة الأدبية بمثابة لغة مشتركة بين العرب جميعاً ، يتحدثونها أداة التعبير عن آدابهم ، ويعتزون بها كل الاعتزاز . ولذا نزل القرآن الكريم بها ، فلم تكن لغة قريش وحدها أو لغة مكة وحدها ، بل كانت اللغة المشتركة للعرب جميعاً . غير أن نزول القرآن بها قد زادها ازدهاراً فوق ازدهار ، وثبت أركانها ودعائمها .

ثم كانت الفتوح الإسلامية في الأمصار وما وراء الأمصار ، فلم يكدها ينقضي على ظهور الإسلام قرن ونصف من الزمان ، حتى كانت الدولة الإسلامية تضم العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا ، أو كما يعبر أحياناً ، شملت مناطق شاسعة من المحيط إلى خليج العرب . وأقبل الناس في كل هذه المناطق على الدين الحنيف ودخلوا فيه أفواجا ، عن طواعية لا عن كره . ونظروا فإذا اللغة العربية ترتبط بهذا الدين الحنيف ارتباطاً وثيقاً ، فقد جاءت بها المعجزة الكبرى للإسلام وهو القرآن الكريم . فأقبل الناس في الأمصار على اللغة العربية أيضاً . بل لا بد على من يقرر أن إقبالهم على اللغة في بعض هذه المناطق كان أسرع من إقبالهم على الدين . وهكذا أصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية ، تنتظم جهات من بلاد فارس ، وكل العراق ، ومعظم مدن آسيا الصغرى ، كما تنتظم مصر وشمال أفريقيا . كما سادت في بلاد الأندلس عدة قرون . وحرص العلماء والدارسون منذ القرن الثاني الهجري على تقعيد قواعدها وتثبيت دعائمها في الأمصار . فلم يكدها سبى هذا القرن حتى كان لها آثار جليلة في شتى الدراسات الدينية واللغوية .

واصطدمت اللغة العربية بعد الفتح باللغات التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة . فقصت بعد صراع طويل على الإعرافية العالمية في كل بلاد الشام والعراق . وحرحت من هذا الصراع سبله لم يكدها تتأثر بشيء من خصائص هذه اللغة الإعرافية . اللهم إلا عدداً محدوداً من الكلمات الإعرافية التي

اقترضتها لغتها للتعبير عما لم يكن في بيئتهم العربية ، ولا سيما حين زاد الاهتمام بالترجمة عن الإغريقية في القرنين الثالث والرابع من الهجرة ، فاستمدت العربية بعض المصطلحات العلمية في الفلسفة والطب ، وغيرها من مجالات العلم الإغريقي .

تقهقرت إذن الإغريقية أمام العربية دون أن تخلف أثراً صوتياً في نطق الناس ، ودون أن تترك شوائب في صيغ العربية أو راكمها على ألسنة المتكلمين . ولا عرو والإغريقية تنسحب إلى فصيلة أخرى . ولا تكاد تشترك مع العربية في طواهر لغوية واضحة .

اصطدمت العربية أيضاً بلغة عالمية أخرى كانت على ألسنة الناس في العراق والشام . بل وفي بعض جهات مصر أيضاً . وهي اللغة الآرامية ، تلك اللغة التي تمكنت من ألسنة الكثيرين في هذه المناطق ، وعاشت مع الإغريقية قروناً في تعايش سلمى . غير أن الآرامية كانت من اللغات السامية شقيقات اللغة العربية . وكانت من أحل هذا تشترك مع العربية في طواهر لغوية كثيرة . ولا شك لحظة في أن الآرامية حين حلت مكانها لعربية قد تركت في لهجات حطاب وعلى ألسنة الناس من هذه المناطق أثراً بعضاً يصل بناطق وأصوات اللغة ، وبعضها يتصل بالصيغ والتراكيب ، وواحب الباحثين والمدارسين توصيح هذه الآثار ، وتفصيل معالمها في بحوث المستقبل .

ذلك لأن الصراع اللغوى حين ينتهى بتغلب لغة على أخرى تختلف نتائجه حين يكون اللغتان من فصيلة واحدة عن نتائجه حين يكونان من فصيلتين مختلفتين .

أما اللغة الرومانية أو اللاتينية فلم يكن لها وقت اتساع الفتح الإسلامية قدم ثابتة في الشام أو مصر . بل كانت لغة الحاكم الرومانى ومن حوله ، وسرعان ما تقهقرت أمام العربية دون صراع لغوى أو شبه صراع .

ولما دخلت العربية مصر وبدأت تنتشر في ربوعها كان معظم المصريين

يتكلمون القبطية التي هي من فصيلة أخرى غير فصيلة العربية . ولذلك يفتقد الدارسون تلك الآثار اللغوية التي يمكن أن تكون قد خلقتها القبطية في ألسنة المصريين . ويبدو أن انتشار العربية بين المصريين كان أسرع من انتشار الإسلام بينهم . فلم يكده يتفصى عدة قرون على حكم العرب لمصر حتى اندثرت القبطية أو انعزلت في الأديرة والكنائس وبين رجال الدين كلفة ثانية لهم مع العربية ، على حين أن كثيرين من المصريين قد ظلوا يديون بالمسيحية حتى الآن .

وكذلك الشأن حين اصطدمت العربية بالبربرية في شمال أفريقيا ، تفهقرت البربرية أمام العربية ، وانعزلت في بعض مناطق الصحراء ، ولم تكده تترك البربرية في ألسنة المتكلمين بالعربية في هذه المناطق إلا آثاراً ضئيلة يدركها الدارسون للغتين . أما موقف الفارسية من العربية في بلاد فارس فكان عكس ذلك ، إذ أقبل الفرس على الإسلام أكثر وأسرع مما أقبلوا على العربية ، ولذلك ظلت الفارسية سائدة في الجهات النائية من بلاد الفرس ، بل كانت سائدة أيضاً في بعض مناطق الدولة العربية كلفة ثانية للعلم والحصارة . مما ساعد على نشأة الشعورية فيما بعد (١)

وبرغم أن اللغة الأدبية لمشركة في شبه الجزيرة قبل الإسلام قد عاش معها جنباً إلى جنب بعض اللهجات المحلية للقبائل المختلفة . فإن اسراع رفعة الدولة العربية في الأمصار وحرص العلماء في العصر الإسلامي على تنقية طواهر اللغة قد حمل رواة اللغة في أول الأمر على تحاشي ما ينصل باللهجات القبائل والاقتصار في تعبيدهم للقواعد على الصحيح المروى منصوص اللغة الأدبية . ولكهم فيما بعد ولسوء الحظ قد خلطوا طواهر اللهجات بطواهر اللغة الأدبية ، مما أدى إلى بلبلة بعض القواعد واضطرابها في آثار المتأخرين من العلماء .

ولما استقر أمر الدولة العربية في عهد بني أمية . وفي قرن ونصف من حكم الدولة العباسية . شهدنا للغة العربية آداباً راقية سامية تمثلت فيما يروى عن

فحول الشعراء واحصاء والكتابات ، وكان بجانب هذه الآداب آثار علمية  
حليلة في التفسير وحديث ونحوه واللغة والتاريخ وغيرها .

ثم بدأت الدولة العربية تنتشر إلى دويلات مستقل بعضها عن بعض :  
منها ما كان في فارس . ومنها ما كان بالشام ، ومنها ما كان مصر ، ولكنها  
جميعاً كانت تدعى - نولاً - لمملكة العباسي في بغداد ، أي أن الصلة الروحية  
ظلت تربط بين هذه الدويلات الإسلامية .

وهنا نتساءل هل كان الإسلام وحده سبباً في الربط بين هذه الدويلات ؟  
يبدو لي أن ارتباط الإسلام باللغة العربية ذلك الارتباط الوثيق الذي يتمثل  
في القرآن الكريم ولأحاديث النبوية قد جعل اللغة العربية مكانة تسمو على  
غيرها من اللغات حتى عرفها التاريخ . ذلك لأن من تمسك بالدين الحنيف  
تمسك أيضاً بلغته . يعرضها في العبادة كما يصطنعها في المعاملات ، فأبقت  
هذه الدويلات على لغة العرب واعتبرت بها . بل وتنافس ولاتها في العمل  
على ترقية آدابها ونحوها . فوحده اللغة بين هذه الدويلات تعد عاملاً قوياً  
في الربط بينها لا تنفك عن الوحدة الدينية . فقد حدثنا التاريخ القديم والحديث  
عن دول تحب لغة العرب ، وحسب لغة العرب ، وكان بينها من يرجع وتنافس ويعزول  
بسبب الاختلاف في لغة

طلب إدارتها لغة عربية في نهضتها الأدبية حتى بعد استقلال تلك الدويلات  
الإسلامية . وقد كان العرب الرابع الهجري شهدنا شعراء وكاباً الآداب العربية  
لا يقلون قدراً عن كثير في القرن الأول أو الثاني من الهجرة . إن لم يتفوقوا  
عليهم

واتسمت العربية منذ تلك النهضة الأدبية سمات اللغة العالمية ، فهي  
لغة ديمقراطية لا تحصى كبير خطاب والصغير خطاب آخر . ولا تخلط بين  
صغير المهرود وصغير حبيب . فيقول سبحانه وتعالى « أنا ربكم الأعلى » ويقول  
الرسول « إنما أنا بشر منكم » ويقول له الناس « ما أنت إلا بشر مثلنا » .

إلى غير ذلك بمن أساليب أصيلة في العربية سوت بين الناس في الخطاب والغيبة والتكلم .

ومن سمات العالمية فيها كذلك سعة انتشارها واصطناع شعوب متعددة لها ، منذ أن استقرت الدولة العربية في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من الهجرة . فقد مر حيثذ على انتشار العربية في أقطار عدة وشعوب مختلفة زمن كاف لصبح تلك الشعوب بالصبغة العربية ، فأخذت بالطابع العربي ديناً ولغة وثقافة وحضارة . وقد صهرت كل تلك الشعوب التي كانت في آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا في البوتقة العربية ، وتألف منها في نهاية الأمر شعب عربي واحد ، يدين بدين واحد . وبصطع لغة واحدة . هذا إلى أن العربية دخلت أيضاً مناطق باقية مع الدين الإسلامي ، وأصبحت هناك لغة الثقافة الدينية ، كما هو الشأن في بعض جهات الهند ، وفي باكستان وأفغانستان والملايو وأندونيسيا . وغيرها من دول الشرق التي انتشر فيها الإسلام وانتشرت بانتشاره اللغة العربية . بدخلت العربية كذلك جهات من أفريقيا اعتنقت الإسلام وأصبحت الآن تعرف الدول الإسلامية في وسط أفريقيا وشرقيها وغربيها وقد اجهت هذه الدول إسلامية صوب العروبة تشتمل منها الثقافة المادية والحضارة العربية . مثل موريتانيا وبيجيريا والصحراء . وهكذا يرى أن العروبة قد ذاعت في مناطق متباعدة الأطراف ، وأصبحت بين أوسع اللغات انتشاراً في العالم . ويعدّها المحدثون من اللغويين ثلاثة لغات العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها .

أما السمة الثالثة لعالمية العروبة فهي أنها وهي في أوج نهضتها قد رحبت بكثير من الألفاظ التي اقتصرتها من اللغات الأخرى . وامتلأتها في المصطلحات العلمية ولغة الكلام ، ولكنهم لم تسمح لها إلا في النادر باقتحام حصون الأدب العربي .

وصمدت العربية في كل تاريخها فلم يقصها ما أصاب اللاتينية من تمثنت إلى لغات مستعملة . غير أن بعض المتشائمين من الدارسين يحاولون عقد مقارنه

بين ما أصاب اللاتينية على مر الأجيال من تشتها إلى عدة لغات استقل بعضها عن بعض ، وبين ما يمكن أن يصيب العربية من استقلال لهجات الكلام في البيئات العربية واحتمال تطورها إلى لغات مستقلة أيضاً . وقد فزع كثير منهم لمثل هذا الخطر فرعاً شديداً ، وحق لهم أن يفزعوا . ولكنهم نسوا أن ظروف اللاتينية تختلف عن ظروف العربية . فليست اللاتينية باللغة الأصيلة للمسيحية ، ولا ترتبط بها ذلك الرباط المقدس الذي يلاحظه بين الإسلام والعربية . فلن تتطور لهجات الكلام في اللاد العربية إلى أسوأ مما وصات إليه في القرن التاسع عشر وما قبله . فقد كانت هجات الكلام خلال عدة قرون في شبه عزلة بعضها عن بعض ، تتباين في نطق عدد من أصوات اللغة ، وتتباين في بعض صيغ اللغة وأبنيئها ، كما تتباين في مجموعة كبيرة من الألفاظ والأساليب ، مما جعل التفاهم بين أهل هذه اللهجات عسيراً ، إلا حين يلجأون إلى العربية الكلاسيكية التي أحس تعلمها طوائف من المثقفين في كل العصور . ويعرى الفضل في هذا إلى ارتباط هذه اللغة الكلاسيكية بالدين الإسلامي ذلك الارتباط الوثيق .

فالمقاربة المصنعة من تاريخ اللغة العربية ، ولغة الألسنة ربما وصوصح أن عرب الثامن الميلادي قد شهد لبعض عالدين معاصرين شوا العربية في الشرق أيام الرشيد والمأمون ، ولاتينية الكنيية في العرب أيام شارلمان . وقريباً كذلك أن العربية كانت حينئذ في دروة محددا تصطمع في إنتاج الآداب الخالدة وتتحد أداة التعبير في المحالات الدينية والعلمية . ويقبل على تعلمها وإتقانها أساء الدولة العربية العظيمة في جمع مساطعها . وكذلك كان الشأن في الغرب بالنسبة للاتينية الكنيية التي حاول شارلمان أن يجعل مهارة راطاً وثيقاً لكل شعوب أوروبا التي خضعت لسلطانه في الوسط والجنوب والغرب . بل وفي بريطانيا . وساعده على هذا الباب في روما وقساوسه الذين كان يحيمهم في مثل هذه المناطق المترامية الأطراف .

وبرغم هذا لم يجد ينقصى عدة عرون ، أو لم يجد نحىء القرن السادس عشر

الميلادى حتى شهدنا فى أوربا لغات محلية مستقلة منها الإيطالية والفرنسية والإسبانية وغيرها . وظهر لهذه اللغات رواد من الأدباء الكبار الذين عملوا جاهدين على تثبيت دعائم هذه اللغات المحلية ، ولم يشجع سلطان الكنيسة المسيحية فى الحدا من تلك الممرقة اللغوية .

أما فى الشرق فع ما أصاب الدولة العربية من مأس واضح خلال مياسى خلال هذه القرون طلت اللغة العربية صامدة تقويها الروح الإسلامية وتشد أزرها . غير أن لهجات الكلام فى المناطق العربية قد أحدثت أشكالاً محلة ، واختلفت فى نطق بعض أصوات اللغة وتشكيل صيغها وأماليها ودلالات كثير من الألفاظ ، ولكنها لم تصل أبداً إلى ما يشبه اللغات المستقلة ، وإن كان البون بين لغة الكتابة ولغة الخطاب فى هذه المناطق المحلية قد زاد واتسع بسبب الجهل الذى خيم على الناس فى معظم الأنحاء .

وطلت الحال هكذا حتى كان القرن العشرون ، وقوى الشعور بالقومية العربية ، وكانت البقطة العربية التى اتجهت نحو تدعيم القومية العربية . ووجدت أن أقوى رباط يوثق بين العرب ويجمع شياهم هو اللغة أو الوحدة اللغة .



## الفصل التاسع

### لغات عالمية في العصر الحديث

#### ١

#### اللغة الفرنسية

جاءت النهضة الأوربية فنبهت الأذهان وأدققت العقول من سباتها الطويل خلال القرون الوسطى . وقبض للعالم الأوربي طائفة من المفكرين والمصلحين الذين حملوا لواء هذه النهضة . منهم الفلاسفة أصحاب النظريات الفلسفية الحديثة التي لم تكن تخطر للعقل الإنساني من قبل . ومنهم الأدباء الذين أنتجوا آداباً سامية خالدة في صورة مقطوعات شعرية . وقصص ومسرحيات ، ومنهم الفنانون الذين أبدعوا في تصوير الطبيعة . وحلّوها للناس رسومات وتماثيل تعدّ من أروع ما في التراث الإنساني . ومنهم العلماء في الفلك والطبيعة والجغرافيا . ومنهم المستكشفون الذين حابوا بحار والمحيطات ومسحوا عدو الناس عن عوالم جديدة كانت مجهولة

وبدأت آثار هؤلاء المفكرين والمصلحين تدبّر طريقها وتبدأ بين جمهور الناس . منهم من سكرها أشد الإتيكار . ومنهم من أسس لها ويطعن إليها . ولم يكده ينقضي قرن أو قرنان من الزمن على مولد تلك النهضة الأوربية حتى شهدنا نتائجها في كل أنحاء أوربا : نور بعد ظلام . وبقطة بعد سبات . وعقول تنفتح . ونقل على تلك الحياة الجديدة في نهم

وطر الناس في كل بيته من . ثبات أوربا وإذا لكل بيته كيان مستقل ، وإذا الوحدة الأوربية التي سعى لها « شارلمان » من قبل قد تبددت ، وتكون على أنقاضها دويلات بعضها في نطاق كبير . وأخرى في نطاق صغير . وأقل أهل كل دويلة بعضهم على بعض عمدين معاً على تأمين حدود هذه الدويلة .

وعلى استقرار الحياة فيها وازدهارها ورواج أسواقها .  
 تمّ كل هذا في القرن السادس عشر الميلادي ورغم ما كان بين أهل أوروبا  
 من وحدة في الدين المسيحي . وبرغم ما كان بينهم من تشابه في ألوان الوحوش  
 والعيون والشعر والملامح . لم يشفع كل هذا في الإبقاء على تلك الوحدة الأوروبية ،  
 لأن عاملاً جديداً ذا سلطان قوى قد ولد مع مولد النهضة . هو اللغات  
 المحلية .

أحسّ جمهور الناس خلال القرن السادس عشر الميلادي وفي كل بيئة  
 من بيئات أوروبا أن لهم لساناً متميزاً ، وأنهم يتفاهمون فيما بينهم بأصوات تختلف  
 اختلافاً بيناً عن تلك التي في البيئات الأخرى ، وأن المرء في بيئة من تلك  
 البيئات حين يصادف آخر من بيئة أخرى لا يستطيع التفاهم معه . ولا يرى  
 في أصوات أخيه الإنسان إلا نوعاً من الرطانة والعجمة التي تأبأها أذنه وينفر  
 منها ذوقه ، فكان التباعد والفرقة بين أهل هذه اللويحات الناشئة .

وهنا ولدت القومية في أوروبا . حين أحس أهل كل بيئة كياناً مستقلاً  
 متميزاً . وكان مولد القومية مرهوناً بمولد اللغات المحلية . فأسر الخفقي في شأه  
 القوميّات في أوروبا هو شأه تلك اللغات الأوروبية الحديثة في مصطنعها المختلفة

وإذا قصرنا النظر على لغات الحديث في حوض أوروبا رأينا أن أشهرها هي  
 الإيطالية والفرنسية والإسبانية . وكلها مما انحدر عن لاتينية الكسرة التي  
 سادت في المرون الوسطى . أي أن هذه اللاتينية قد تطورت على ألسنة الناس  
 خلال عدة قرون . ودون شعور منهم بهذا التطور حتى انتهت في آخر الأمر  
 إلى تلك الصور المتباينة التي نألقها الآن ويدعوها باللغات الإيطالية والفرنسية  
 والإسبانية .

وتطور اللغة في بيئتها الأصلية . حتى وإن لم تتدخل عوامل خارجية ،  
 أمر مسلم به من علماء اللغات ذلك لأن عملية الكلام ككل عملية عضوية لا  
 يمكن أن تزدى في كل مرة بصورة واحدة ، فلا ينطق المرء بكلامه في الظروف  
 المختلفة بنفس الصورة . ولا ينطق الناس بكلامهم في التحاطب والتفاهم بعضهم

مع بعض بنفس الصورة ، بل تلحظ الأذن المدربة ، وتسجل آلات التسجيل ورقاً صوتية لا يكاد يدركها إلا الخبير المتخصص ، ويتجاهل الناس في خطابهم العام مثل هذه الفروق لصعابها أو تعاقبها . فإذا انتقلت اللغة إلى الجيل الناشئ وقلدها أبناؤه زادت تلك الفروق ، حتى إذا مرت عدة أجيال تبلورت وأخذت تتميز بصفات لم تكن في لغة الأجداد . وتبدأ تلك الانحرافات في أصوات اللغة ، ثم في دلالات ألفاظها وبنية كلماتها ، وأخيراً قد تطرأ على تراكيب جملها ونظام أساليبها .

ويربط من مثل هذا التطور التدريجي أو يحول دونه ، أن يسود أهل اللغة نوع من التعصب للفهم أو التطلع لتراث قديم لم يعتز به كل الاعتزاز ويحذرون فيه المثل الأعلى والقدوة الحسنة . كذلك مما يبطئ من هذا التطور أو يحول دونه ، أن ترتبط اللغة بدين أو عقيدة ارتباطاً وثيقاً يشعر المرء معه أن أى تغيير في اللغة سيؤدى حتماً إلى تغيير وانحراف في تلك العقيدة .

وأخيراً وليس آخراً مما يبطئ من هذا التطور أو يحول دونه ، أن تسود الكتابة من أهل هذه اللغة ، وأن يصح للكلمة صورتان إحداهما مسطوقة والأخرى مكسرة . فتحدث الصورة المكتوبة من تطور لكسده أو تعديها على مر الأجيال . لأن الكتابة بمثابة سلسلة تمسك طواهر اللغة ويعمل على استمرارها . فالكثرة عملية بطيئة التطور أو التعبر ، وقد تمرّ قرون وقرون وحتى على حالها كما سجلها أسلافنا القدماء .

ولم ينوفر للاتينية الكنيسة التي سادت في القرون الوسطى إلا قدر ضئيل من تلك العوامل التي تمنع من التطور اللغوي أو تحول دونه . فبرغم الوحدة الدينية لم ترتبط المسيحية باللاتينية ارتباطاً وثيقاً ، لأن اللغة الأصلية للمسيحية هي الآرامية أو الإغريقية . أما التراث القديم الذي تطلع إليه أهل أوربا ووجدوا فيه مثلهم العليا فلم يكن باللاتينية ، وإنما كان بالإغريقية . ثم بعد هذا وهو هذا ، لم تكن الكتابة من الشيوع بين الناس بحيث يحد من التطور اللغوي أو تحول دونه .

لهذا كله تطورت اللاتينية في بيئتها الأصلية «روما» وما حولها ، ونشأ عن هذا التطور ما يسمى الآن باللغة الإيطالية الحديثة التي تعدّ الوريث الشرعي للغة اللاتينية القديمة .

وحين نتساءل لماذا اتخذ تطور اللاتينية صوراً مختلفة في المناطق الأخرى ، لا نكاد نجد تفسيراً لهذا إلا حين نأخذ في الاعتبار الصراع اللغوي الذي كان بين اللاتينية واللغات التي سادت في تلك المناطق قبل دخول اللاتينية .

دخلت اللاتينية بلاد «الغال» أو ما يسمى بفرنسا الحديثة فوجدت أهلها يتكلمون باللغة «الكلتية» ودخلت في إسبانيا فوجدت أهلها يتكلمون «بالقوطية» و«الكلتية» أيضاً مع لغات أخرى . فكان الصراع اللغوي الذي انتهى بتغلب اللاتينية ، وحلها محل هذه اللغات في الديئات الجديدة . غير أن اللاتينية قد خرجت من هذا الصراع مثخنة بالجراح ، أي متأثرة ببعض خصائص هذه اللغات المهزومة من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب ودلالات الألفاظ . ويقول المؤرخون من اللغويين إن اللاتينية قد دخلت إسبانيا بعد هزيمة قرطاجنة ، وقبل أن يصيب هذه اللاتينية أي تطور في بيئتها الأصلية . ويعطون بهذا قرب الكثير من صيغ الإسبانية إلى اللاتينية الكلاسيكية . الأمر الذي ينمّده في الفرنسية الحديثة وسواء كان هذا هو السر الحقيقي . أم أن الصراع اللغوي بين اللاتينية واللغات التي كانت سائدة في إسبانيا لم يكن من القوة بحيث يترك أثراً كثيرة في اللغة الغالزية ، سواء كان هذا أو ذاك فالذي يجمع عليه علماء المقارنات اللغوية أن لغة إسبانيا الحديثة أقرب إلى اللاتينية من اللغة الفرنسية .

لهذا لا يدهش اللغويون حين يرون الآن صوراً مختلفة للاتينية القديمة في البلاد المعروفة ببلاد إيطاليا وفرنسا وإسبانيا .

اجتمعت إذن عوامل التطور والتغير على لغات جنوب أوروبا في القرون التي سبقت عصر النهضة الأوروبية ، وعملت على تغييرها تغييراً طويلاً تدريجياً فلما كان القرن السادس عشر الميلادي ، كان قد اكتمل الكيان الخاص

لكل لغة من هذه اللغات الجديدة ، وشعر الناس باستقلال لغاتهم دون أن يفتنوا إلى الصلة التي كانت بين هذه اللغات ، وإلى أنها تنحدر من أصل واحد ، بل لم يكد يفتن اللغويون إلى مثل هذه الصلة إلا فيما بعد .

فلما كان القرن السابع عشر الميلادي بلغت اللغة الفرنسية الحديثة ذروة مجدها . وتعدّ الفترة التي بدأت بحكم لويس الرابع عشر وخلفائه الفترة الرئيسية لسلطان فرنسا في أوروبا . فقد فشلت إيطاليا حينئذ في تأسيس وحدة إيطالية ، بل فشلت حتى في الاحتفاظ باستقلالها السياسي ، واضمحلت إسبانيا بسبب الفساد في نظام الحكم . وهزمت ألمانيا في حرب الثلاثين عاماً ، وانصرفت إنجلترا إلى الخلافات الاجتماعية والمدنية أيام حكم أسرة اسنيورت . ترك كل هذا ميدان الحياة ممهداً معتمداً لسيادة فرنسا ، لا في النواحي السياسية فحسب بل في النواحي الاجتماعية واللغوية أيضاً . وهكذا قلدر اللغة الفرنسية أن تصبح اللغة العالمية الأولى في ذلك الحين . وقد أعيدت اللغة الفرنسية حينئذ لتكون أداة التعبير لإعداداً تتسم بحسن التدبير والتفكير ، فساعد هذا على قبولها في أنحاء متفرقة من العالم الأوربي . وكان لجهود عظماء المثقفين والكتاب من الفرنسيين أثر كبير في هذا الشروع . بل ومعهم جمهور كبير من مخدع متحف تحسّس دعوته يدعو على نهوضها .

ولم يكد ينصف القرن السابع عشر الميلادي حتى شهدنا طائفة من عاقرة الأدباء أمثال « كورنى » - « راسين » - « موليير » « ولافونتس » « وبسكال » وغيرهم وغيرهم .

وقد سيطرت لغة المكر أيام لويس العظم . على محالات الفكر والمثقفين في كل أوروبا . وصارت اللغة الفرنسية بين أهل الفكر والعلم في أوروبا أداة للتعبير الواضح المنطقي . فقد سعى هؤلاء الكتاب الفرنسيون حاهدين لجعل اللغة الفرنسية لغة منطقية مسطرة منطقية كي تصح بين اللغات ، اللغة النموذجية التي تصلح وسيلة لنقل الفكر الحديث .

ولقد أطلت الثقافة الفرنسية خلال القرن الثامن عشر كله بلاط الحكام وصالحوات الأمراء في العالم المنمدين . وسُطر إلى اللغة الفرنسية على أنها اللغة

الأولى للثقافة والفكر ، ففي روسيا ، وبولاندا ، وبروسيا ، كانت هذه اللغة بمثابة نورٍ بدد الظلمة والجهل والطغيان الذي كان سائداً هناك . كانت هذه اللغة تسمع في مسارح أوروبا أكثر مما كانت تسمع اللغات المحلية ، وكانت الأرستقراطية الروسية تصطنعها لغة للحديث والخطاب بين أبنائهم .

ولما كان القرن التاسع عشر كانت معظم دول أوروبا تدين للغة الفرنسية والفكر الفرنسي بالولاء ، وتعدّ الفرنسيين أساتذتهم في كل المجالات الثقافية . فأتخذت اللغة الفرنسية أداة التعبير في المكاتبات الدبلوماسية . وسجلت بها المعاهدات الدولية ، وتعدّ معاهدة «راستات» ١٧١٤ م أول معاهدة أوروبية تكسب باللغة الفرنسية بدلاً من اللاتينية التي كانت تصطنع في كل المعاهدات الدولية قبل ذلك .

ومنذ ذلك الحين حتى أيامنا الحاضرة ظلت اللغة الفرنسية اللغة العالمية الأولى في المسائل الدبلوماسية ، بل وفي القصص والمسرحيات والفلسفة في معظم أنحاء العالم المتمددين . فأقبل عليها الناس في كل البيئات ، وألف بها كثير من علماء تلك الدول الأوروبية . يذكر منهم الفيلسوف الألماني «لبنتر» وأرباصي المملوكي الهولندي «هسجر» .

وساعدت غزوات نابليون وفتوحاته على نشر الفرنسية واستقرارها في بقاع كثيرة من أوروبا ، ولا سيما عن طريق تلك القوانين والرسائل الجديدة التي أحدثت بها هذه البقاع . والتي تصطنع بالصيغة الفرنسية . وتنسم بالطابع الفرنسي .

ولما استقطعت بلاد البلقان وأخذت دوله تطالب بحريتها ، ونشر مطاهر الحصار والمدنية فيها ، كانت اللغة الفرنسية والعقل الفرنسي الوسط الذي عن طريقه انتقلت إلى هذه الدول روح الحرية وطابع الحصار الحديثة . فالأوربي الحق هو الذي كان يستطيع الكلام بالفرنسية ويستطيع الكتابة والقراءة بها . وأصبحت السيطرة على هذه اللغة أكبر دليل على الانتماء إلى العالم المنحصر .

فقد ترتب عليها أسلوب جديد في الحياة يتسم بالتهذيب والرفعة والكمال .  
غير أن الثورة الفرنسية قد أدت إلى أن يسيطر على المجتمع الفرنسي طائفة  
كبيرة ممن كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا من الناس ، أولئك  
الذين لم تنح لهم فرص الثقافة اللغوية فتكوت لهم عادات لغوية دون المستوى  
المألوف بين المثقفين والمفكرين . فقضت الثورة على جماعة المحافظين الذين  
تعلموا وأتقنوا اللغة نطقاً وكتابة وقراءة ، وكان كلامهم يماثل تمام المماثلة  
لغة الكتابة في الصحف والكتب والأدب ، برغم ما بذلته الأكاديمية الفرنسية التي  
أسست في منتصف القرن السابع عشر من جهود في المحافظة على الأساليب الكلاسيكية .  
وترتب على ظهور هذه الطبقات الجديدة أن أصبحت لغة التخاطب  
الفرنسية عرضة لانحرافات وتغيرات على ألسنة المتكلمين . وأوضح مظاهر هذه  
الانحرافات ما أصاب الكلمات من اختزال أو سقوط بعض أصواتها في أثناء  
النطق ، ولا سيما في المقاطع غير المنبورة من هذه الكلمات

وزادت تلك الانحرافات مع الأيام ، فرأينا اللغة الفرنسية في القرن العشرين  
تتخذ صورتين : صورة للغة التخاطب وأخرى للغة الكتابة . مما جعل عالماً  
كبيراً مثل فـدريـس بقول<sup>(١)</sup> (إن اليد من لغة الكتابة ولغة الخطاب لدى  
الفرنسيين يتسع مع توالي الأيام ، فأصبحت تحتمل في تركيب حُمل وضمم  
كما تخلفان في المفردات وبنيتها ، غير أن الخلاف في المفردات أوضح وأظهر .  
ويكتب الفرنسيون الآن لغة شبه مبنية ترجع إلى زمن الأدباء والكتاب في القرن  
السابع عشر ، ويتخاطبون بعضهم مع بعض في لغة مختلفة عن تلك التي يكتبون  
بها . وإن المرء العادي ليردد كثيراً في أن يستعمل معظم ألفاظ الكتابة في أثناء  
حديثه . فإذا خاطب الناس بمثل ما يكتب في الصحف والأدب وصفوه بالتكلف  
والتعمر . ويقل هذا الصنف من المتكلمين في البيئة الفرنسية كل يوم وقد  
طلت الطبقات العليا من المجتمع تحافظ على تقاليد اللغة الكلاسيكية مستعينة  
في هذا باللغة المكتوبة . على حين أن الطبقات الدنيا وحدها هي التي عملت

على بعث الحياة في العناصر التعبيرية للغة . وقد انزوت الآن لغة هذه الطبقة المحافظة وتركت الميدان للغة جمهور الناس من الطبقة الأخرى . وبأسف المتزمتون لمثل هذه الحال ويدعون لغة الخطاب باللهجة العامية ، ولكن دون جدوى ، فقد أصبحت الصحف اليومية تلك التي تحرر على عجل وبوساطة جماعة من أنصاف المثقفين تصطنع هذه العامية في تحريرها يوماً بعد يوم ، وتتخذ من الأساليب والتعابير العامية معظم مادة التحرير . فلم تعد لغة الكتابة لغة سليقة للناس . بل أصبحت تكتسب بالقراءة والاطلاع ، واتسع البرزخ بينها بين لهجات الخطاب والحديث العام ، وأصبحت السيطرة على تلك اللغة الكلاسيكية تتطلب جهوداً شاقة ومراناً طويلاً للوصول إليها .

ومن اليسير على الدارسين الآن أن يتنبأوا بأن مصير اللغة الفرنسية الأدبية سيكون في المستقبل كصير اللاتينية في الماضي ، أي أنها ستصبح لغة خالية من الحياة قد تمجرت أساليبها وكلماتها ولم تعد صالحة لأي تطور .

هذا هو الوصف الرائع الذي نقرؤه لأحد اللغويين المحدثين من الفرنسيين . ونُضيف إليه أن كل الدلائل في الوقت الحالى تدل على أن المستقبل للغة المنظومة بعد . نشأ الإذاعة في كل أنحاء العالم ولا عيب فيها في معظم نواحي الثقافة والإعلام وإذا كان محافظون مسكوب بأهداف اللغة الأدبية قد خُيِّل إليهم خلال القرن التاسع عشر أن نشر الكتابة ومحو الأمية بين الناس سيعيدهم إلى تلك اللغة الأدبية . فلا محلّ الآن لمثل هذا الخيال بعد شيوع الإذاعة ومنافسة الكلمة المنطوقة للكلمة المكتوبة . هذا إلى أن الكثرة الغالبة ممن اقتصر تعلمهم للقراءة والكتابة على سنّ الإلزام قد نسوا أو كادوا يسون ما تعلموا . أو على الأقل لم يتفهموا بهذه الوسيلة في مستقبل حياتهم الانتماع الكافي حتى يمكن أن نتصور أن الكتابة والقراءة ستحافظ على الأساليب اللغوية الكلاسيكية .

فالعصر الحالى عصر الديمقراطية ، عصر الشعوب والجماهير ، يتجه نحو لغة الكلام التي يفهمها الجميع ويتدونها الجميع ، ولا مكاد المرء العادى مع ظروف الحياة الحديثة ، يجد من الوقت ما يسمح بإتقان تلك اللغة



المنعقة ، أو التريث في اختيار الأساليب . فالتعليم آلى ، وكل مظاهر الحياة الآن تسم بالسرعة ، ولا غرابة أن تصبح الفرنسية في المستقبل أقرب إلى لهجة الخطاب الحالية ، وأبعد عن لغة « كرنبي » و « راسين » و « فولتير » وغيرهم ممن وضعوا أسس اللغة الفرنسية الكلاسيكية .

فاللغة الفرنسية التي سادت في كل الأوساط الثقافية بأوروبا في أواخر القرن التاسع عشر والتي يتكلم بها ما يقرب من ثلث سكان « كندا » وكل سكان الهند الصينية ، وبلاد متعددة في أفريقيا ، والتي اصطنعت في كل المعاهدات الدولية والمراسلات الدبلوماسية قد استعصت عن جدارة أن تعدّ حيثند اللغة العالمية الأولى ، وأهلها لهذا اللقب اتجاهاها نحو لهجة الخطاب التي يألّفها جمهور الناس ، ويقبلون عليها كل الإقبال ، لأنها تعبّر بصدق عن أحاسيسهم وعواطفهم وآمالهم ، ولأنها أقرب إلى نفوسهم وقلوبهم .

غير أن هذه الفرنسية العالمية قد وجدت منذ أوائل القرن العشرين منافساً قوياً لها في الميدان العالمي وهو اللغة الإنجليزية التي اشتركت مع الفرنسية لأول مرة في معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى .

## ٢

## اللغة الإنجليزية

لا يتردد أحد الآن في أن يعد اللغة الإنجليزية اللغة العالمية الأولى . فهي اللغة الأم لعشرات من ملايين البشر ، وهي اللغة الثانية لملايين آخرين في العالم . وليس من المغالاة أن تقرر أن عدد المتكلمين بهذه اللغة في العالم الآن يجاوز مجموع المتكلمين بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية ، هذا برغم أن انتشارها خارج حدود الجزر البريطانية لم يبدأ إلا سنة ١٦٢٠ حين هاجر جماعة من الإنجليز المعامرين إلى أمريكا الجديدة واستقروا في « فرجينيا » .

وحين نحاول تلخيص التاريخ اللغوي في الجزر البريطانية نجد أنه :

القرون المسيحية الأولى كان يتكلم هذه الجزر اللغة « الكلتية » ، وكان لها ثلاثة فروع متميزة : أحدها في إسكتلندا والثاني في ويلز والثالث في أيرلندا ، ولا تزال بقايا هذه الفروع سائدة حتى الآن في هذه المناطق بوصفها لغة ثانية لكل منها .

ثم غزا الرومان هذه الجزر البريطانية ، واستقرت حامياتهم هناك عدة قرون ، ثم تركوها في أوائل القرن الخامس الميلادي دون أن يختلفوا في لغاتها أثراً يذكر ، واقتصرت آثارهم هناك على طرق رومانية وحسور وحصون وبعض القوانين التي نشروها في تلك البلاد .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من الميلاد غزا هذه الجزر جماعات من الجنس الجرمانى يسمون بالإنجليز السكسون ، وفدوا من غرب أوروبا وأسسوا دولتهم شرق الجزر البريطانية وفي الشمال منها . شهدت هذه الجزر للمرة الأولى صراعاً لغوياً بين لغة الغزاة الجرمانية وبين اللغة الكلتية التي كانت سائدة هناك . وانحصرت اللغة الغالزية أو بعبارة أدق تفهقرت اللغة الكلتية أمامها ، واتخذت لها ملجأ في شمال إسكتلندا وفي ويلز من أقصى الغرب . و أيرلندا كذلك . ولا تزال لهاياها هناك حتى الآن

هذا هو البدء حقيقى لتدرج اللغة الإنجليزية إلى صورتها الحديثة  
ومر بها مراحل متعددة حتى صارت على الصورة المألوفة لنا الآن .

ومنذ القرن الثامن الميلادي شهدت الجزر البريطانية غزوات سريعة قام بها قوم من المحاربين المممج الذين وفدوا من شمال الدنيمرك ومن بلاد السويد والنرويج وعرفوا في التاريخ باسم « فيكنج » . ولم يكن لهم هدف من تلك الغزوات سوى السلب والنهب والعودة إلى بلادهم في أغلب الأحوال . ولما كانت لغتهم تنمى إلى المجموعة الجرمانية ، أى مثل لغة الإنجليز السكسون . لم يحدث خلال تلك الغزوات ما يشبه الصراع اللغوى ، وإنما كان بمثابة تبادل في العناصر اللغوية ، فأخذ هؤلاء من هؤلاء ، ومنح هؤلاء هؤلاء كلمات وعناصر لغوية أخرى يشير إليها الدارسون المخصصون بالتفصيل

ثم كان العام ١٠٦٦ م حين غزا جماعة من هؤلاء « الفيكينج » عرفوا في

التاريخ بالنورمانديين ، لأنهم جاءوا من مقاطعة « نورمانديا » في أقصى الغرب من فرنسا ، وبعد أن أقاموا هناك قرناً من الزمان وأصبحت لغتهم اللغة الفرنسية وهذا شهدنا صراعاً حقيقياً بين لغة الإنجليز السكسون وبين اللغة الفرنسية التي جاء بها هؤلاء النورمانديون ، واستمر هذا الصراع زهاء قرنين انتصرت بعدهما الإنجليزية . وكانت غزوات النورمانديين آخر الغزوات التي وفدت على الجزر البريطانية . فلما تخلصت الإنجليزية من سلطان الفرنسية عليها ، بدأت نموها المستقل وقد تأثرت بكل ما وفد عليها من غزاة قبل ذلك .

وبحدثنا مؤرخو اللغات عن أثر الغزو النورماندي فيقولون إن الإنجليزية قد فقدت بسبب هذا الغزو وما نشأ عنه من صراع لغوي ، نحو ثلثي الكلمات التي كانت تحرى على ألسنة الإنجليز السكسونيين ، بل لم تعد الإنجليزية خلال هذا الصراع لغة الأدب والثقافة . وإن ظلت لغة الكتابة في مدارس بعض المناطق . وقد أصبحت الفرنسية لغة الطبقة العليا والحكام في الجزر البريطانية ، عر أن بعضاً منهم أخذوا يصطنعون الإنجليزية أيضاً ، وصفها لغة ثانية كلما صطروا إلى التعامل مع الطبقات الأخرى

هكذا لم يحس غير رمس قليل على الغزو النورماندي حتى أصبح معظم كلمات لمهم واحرف فرنسية . وأصبحت الكلمات الخاصة بموعيد ، الطعام وأصنافه فرنسية . وأصبحت معظم المدارس في أيدي من يعلمون بالفرنسية بل لقد ترتب على الغزو النورماندي تغييرات في سية اللغة وتراكيبها

ومع كل هذا لم يكبد يبدأ العام ١٣٦٢ م حتى كانت اللغة الإنجليزية قد حرحت من هذه المحنة . وأصبح لها كيان حديد مستقل ، فاعترف بها أولاً في المحاكم ، ثم بعد قليل أصبحت اللغة الرسمية في البرلمان . وأخذت الإنجليزية منذ ذلك الحين تعتمد في آدابها على ترجمة الآثار الأدبية من اللغات الأخرى ، ولا سيما الفرنسية . وترتب على هذا أن دخلت مئات من الكلمات الفرنسية اللغة الإنجليزية . وأن صُغت بالصيغة الإنجليزية . وهذا تصور أن الإنجليزية قد أصبحت كلماتها مرشحاً من كلمات حصها من الأصل الجرمانى والعصر

الآخر من الأصل اللاتيني ، وتلك هي اللغة التي وجدها الشاعر الإنجليزي المشهور « تشوسر » والتي كتب بها آثاره ، والتي كتب بها بعد ذلك بقليل « وكليف » آثاره الدينية الروحية التي مهدت للنهضة الدينية في عهد الإصلاح بإنجلترا . ولم يكد ينهى القرن الخامس عشر الميلادي حتى كانت الإنجليزية قد أصبحت مرة أخرى لغة الثقافة والأدب .

مهد « وكليف » لحركة الإصلاح الديني التي سادت إنجلترا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . ولم تكن حركة الإصلاح في حقيقة أمرها إلا حركة لغوية تدعو إلى أن يتعبد الناس بلغتهم المحلية أي الإنجليزية ، وأن يعظم القسس والرهبان في الكنائس والمعابد بهذه اللغة التي يفهمها الجميع ويعتز بها الجميع . لم تكن حركة الإصلاح إلا صراعاً بين لغة الكنيسة أي اللاتينية ، وبين لغة الشعب أي الإنجليزية . فكلما حاول بعض المصلحين ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية صودرت الترجمة ، فزاد الناس تعلقاً بها وإقبالاً عليها . فقد أحست الطبقة الوسطى والطبقة الددا بكيانهم اللغوي واستمسكوا بلغتهم الإنجليزية التي عبرت في صدق وأمانة عن أحاسيسهم وعواطفهم وآمالهم ، والتي اصطنعوها في الآداب والتعامل ، فأصبحت الصورة الحقيقية لعقوبهم وتفكيرهم .

وقد تُرجم العهد القديم عدة ترجمات في النصف الأول من القرن السادس عشر ، ثم كان ذلك المؤتمر الذي عقد في « هامبتون كورت » وانتهى بوضع تلك النسخة المحققة المعتمدة من الكتاب المقدس سنة ١٦١١ م ، التي لا تزال تقرأ ويتعبد بألفاظها حتى الآن . وضعت هذه النسخة المعتمدة في وقت كانت الإنجليزية فيه قد بلغت ذروة مجدها البياني ، فقد ألف فيه شكريير آثاره الخالدة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الكتاب المقدس في لغته الجديدة محل الإحلال والتفديس من الناس جميعاً ، يقرأه الغني والفقير صابحاً ومساءً ، في القصور والمارل والأكواخ ، في السهول وفي البحال ، في السمن وفوق متن البحار .

وفي أمكنة العبادة على اختلاف أنواعها . وشرع الدارسون في تفهم كل سطر من سطره ، وكل كلمة من كلماته ، يتناولونها بالتفسير والشرح ، ويجدون فيها المنهل العذب والاطمئنان الروحي على اختلاف مذاهبهم . كان الكتاب المقدس بالنسبة للناس بمثابة مدرسة يستمدون منها معرفتهم ، ويشع بورد على عقولهم . فلم ينل منه مر الأيام والعصور ، ولم يتطرق إلى أساليبه إحد أو نسيان . بل ظلت كلماته على كل لسان ، وقد نقشت في الصدور والأذهان . هو الكتاب الذي صان الإنجليزية على مر الأجيال ، ليس به كلمة لا يعرف معناها الإنجليزي المثقف سوى يضع كلمات من أصل عبرى . وكل أساليبه تعد في الذروة من البيان الإنجليزي . هو النموذج الأدبي الذي يتطلع إليه المتكلمون باللغة الإنجليزية ، وسيظل الناس في إنجلترا وأمريكا واسر . وكندا يصطنعون لغة واحدة . ظلما ثابروا على قراءته والاستماع لنصوصه . وفي مثل هذا ضمان لاستمرار الوحدة اللغوية بين هذه الشعوب .

وهكذا يرى أن نصوص النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الإنجيل ، فأصبحوا يمتطرون إليها كأئمة هي من أروحي الإلهي

ومع استمرار لغة الإنجيلية وازدهارها خلال القرنين السابع عشر . ح . الصراع الداخلي في الجزر البريطانية دون انتشارها خارج حدود هذه الجزر . علم يكر يشعر بتأجيلها الأدبي أو الثقافي من أهل أوروبا إلا القليلون ممن أتبعهم هم الرحلة إلى هذه البلاد ، فقد ظل الإنجليز يجاهدون خلال هذا القرن لتحديث سلطان الشعب ضد الملكية التي آمنت حينئذ بمبدأ التفويض الإلهي . وتحدى ممثلو الشعب سلطة الملائكة ، فكان صراع وقاتل بين أنصار الملائكة وأعضاء البرلمان الذين عملوا جاهدتين على الحد من طغيان الملكية . وانتهى القرن السابع عشر بانتصار الشعب ، وبدأت الطبقة الوسطى والدنيا تشعر كيانها وتساهم في الحياة الثقافية والأدبية بجهود موفقة .

فلما كان القرن الثامن عشر بدأت أوروبا تحس بالأدب الإنجليزي

فترجمت بعض آثاره إلى لغات أوروبا ، وبدأت الإنجليزية تتطلع إلى أن تتبوأ مقعداً عالمياً بين اللغات .

شهد القرن الثامن عشر نهضة كبرى بين الطبقة الوسطى من الإنجليز فنشأ بينهم أدباء من الشعراء والكتاب والفلاسفة ، وأصبح أباؤها يرون أن السيطرة على اللغة حق لم جميعاً . وكان أول من عرفهم أوروبا من كتاب الإنجليز « بوب » ، « أديسون » ، « استيل » ، « دفو » ، « سويت » وغيرهم ممن ترجمت آثارهم إلى اللغة الفرنسية . وتلاهذه الحركة الأدبية ظهور قصة « روبنسن كروزو » التي ترجمت سنة ١٧١٩ إلى الفرنسية والهولندية والألمانية وغيرها . ثم استمر الإنتاج الأدبي للغة الإنجليزية يتدفق على ربوع أوروبا ، ويقبل عليه الدارسون هناك في شغف ، ولكن العجيب أن آثار « شكسبير » لم تسرع انتباه الأدباء في أوروبا إلا في أواخر ذلك القرن ، فقد بدأت حينئذ ترجمة آثاره إلى لغات أوروبا ، لغة بعد أخرى . ومن العسير أن ندرك السر في أن أدباء أوروبا قد أحسوا بالآثار الأدبية لأدباء من أمثال « تومسن » ، « ينج » ، قبل أن يحسوا بآثار « شكسبير » بسحو نصف قرن من الزمان . ولعل من أنجح أدباء الإنجليز لدى القارئ الأوربي « سكوت » - ( برون ) .

فلما كان القرن التاسع عشر كادت اللغة الإنجليزية قد أصبحت من أعظم اللغات الأدبية . وقد استطاع كتاب القصة في هذا القرن أن ينقلوا إلى الميدان الأوربي صورة مشرقة عن الحياة الإنجليزية ، وأن يجذبوا القارئ الأوربي الذي أقبل على آثارهم في شغف وشوق . ولا سيما آثار « ديكنز » .

وساعدت النهضة السياسية الاجتماعية في الحرر البريطانية بعد ذلك على أن تتجه كل أوروبا نحوها ، نستمد منها نموذج الحياة الحرة النبيلة ، وتتطلع إلى نظام من الحكم كالذي ساد إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فقد كان القرن التاسع عشر عهد ثورات واضطرابات في معظم أنحاء أوروبا وعهد استعمار واطمئنان في إنجلترا . فأقلت شعوب أوروبا على آداب الإنجليز وثقافتهم وافترضت مئات من كلماتهم ، ولا سيما في المجال

السياسي والاقتصادي والاجتماعي والرياضي . فلما كانت الحرب العالمية الأولى  
نظر جنود الحلفاء إلى جنود الإنجليز فرأوهم مثلاً أعلى في الأناقة ورغد العيش .  
فلم تكف تيقظي الحرب بالهدنة حتى أخذ بعض قادة هذه الشعوب الأوروبية  
يمسود قلوبهم بمثل الرخاء الذي شهدوه لدى الإنجليز . فكانت تلك الحركات  
الفاشية التي بليت بها أوروبا بعد الحرب ، والتي دفعت بالإنسانية إلى الحرب  
العالمية الثانية .

ولا تزال اللغة الإنجليزية في الوقت الحاضر اللغة العالمية الأولى . فقد  
انتشرت في نفاع متاعلة من الكرة الأرضية ، وبين شعوب متعددة من  
شعوب العالم ، طوراً تصطنع كلغة الأم ، وأخرى كلغة ثانية بين هذه  
الشعوب ، بل لا تكاد تخلو مدينة في العالم من قوم يحسنون الكلام بالإنجليزية .  
هذا إلى أنها تتسم بالمرونة والسهولة فلا تأتي الاقتراض من كلمات اللغات  
الأخرى كلما أعوزها هذا ، وقد أصبح الآن نصف كلماتها من أصول أجنبية ،  
وكثير من أبنائها ترجع إلى مصادر غير إنجليزية . وقد أقيمت على كل هذه  
العناصر دون أن يشعر أهلها بغضاظة . أو مركب نقص ، فيصنعونها وصنعها  
صنعها . وأصبح يكون جزءاً أساسياً فيها .

وهي فوق هذا لغة ديمقراطية لا تميز بين صنف وآخر من الناس .  
تكتب بأساليب قريبة الشبه جداً من لهجات الخطاب والحديث . فهي للناس  
كافة مصطنعوها في الكتائب والخطاب ، ويأثرون آدابها . ويحدون المتعة  
والثقافة في كل آثارها . من أجل هذا كله استحدثت عن حداثة أن تعد لغة  
عالمية . وأن تصطنع في المعاهدات الدولية . فشارك العربيه في معاهدة  
فرساي سنة ١٩١٨ ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الإنجليزية  
لغة المعاهدات الدولية . ولما أحس أهلها خلال الحرب العالمية الثانية بهذه  
المكانة لتعهم عملوا جاهدين على الاستمساك بها . ووضع بعض علماءهم من  
لغويين مشروعاً مبسطاً لنوع من اللغة الإنجليزية سموه الإنجليزية الأساسية  
Basic English رغبة في تيسير تعلمها ، وزيادة نشرها في العالم .

## الفصل العاشر

### لغة واحدة للعالم

هل كُتب على الإنسان أن يظل فوق سطح البسيطة أسير تلك اللغات التي تنوعت وتباينت حتى أصبح عددها في حدود ثلاثة آلاف من الألسنة ، تفرق بين الجنس البشرى ، وتقيم بين الإنسان وأخيه الإنسان حصوناً لم تستطع حتى المدنية الحديثة ، مع ما لها من إمكانيات ضخمة ، اقتحامها أو التغلب على مناعتها ؟ !

دعنا نبدأ بالتساؤل : هل يرغب الناس الآن في لغة عالمية واحدة أو موحدة؟ لقد برهن الاستفتاء الذي قامت به مؤسسة « حالوب »<sup>(١)</sup> على أن ٨٠ ٪ ممن أدلوا بأرائهم قد تحمسوا لفكرة اللغة العالمية ولم يقتصر هذا على أمريكا ، بل بدت هذه الرغبة واضحة حلية في مناطق أخرى من العالم وظهر الاستثناء مهدد السنة الكبيرة برغم انشغال الناس بنظرة « خربة المنحة » واهتمامهم في شؤونهم الخاصة . ذلك لأنهم رأوا أن الفكرة تكمل لأبنائهم وأحفادهم مستقبلاً سعيداً ، وهو ما يتطلع إليه كل ما وأحسوا أن اللغات في تشتتها الحالي تفهم حواجر وحوائل بين الناس ، وتحول دون تعارفهم وهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، ودون تعاونهم في صورة أكمل على حل مشاكل الحياة الدنيا فوق الأرض التي ورثها سبحانه لبني الإنسان ، وجعلها لهم مستقراً وموطناً . إذ يتسارع العالم في الوقت الحالي نحو ٢٧٩٦ لغة . أضخمها من حيث عدد المتكلمين بها اللغة الصينية ، إذ بها وحدها يتكلم ما يجاور ٦٠٠ مليون نسمة . ولكن العبرة بسعة انتشار اللغة في مناطق متسعة . لا بكثرة المتكلمين بها فالإنجليزية الآن تعد أوسع اللغات انتشاراً في العالم . برغم أن المتكلمين بها



لا يكادون يجاوزون ٢٨٠ مليوناً . وتعد اللغة العربية من حيث سعة انتشارها اللغة الثالثة ، فلا تسبقها في هذا سوى الإنجليزية والفرنسية ، إذ تسود العربية في شمال أفريقيا وفي السعودية واليمن وسوريا والأردن ولبنان والعراق ، فوق مالها من نفوذ في العالم الإسلامي ، أي أنها تؤثر في ثقافة ما يقرب من ٣٠٠ مليون من سكان العالم .

فإذا اقتصرنا على عدد المتكلمين بكل لغة أصبح ترتيب أشهر اللغات في العالم على النحو التالي : الصينية ثم الإنجليزية ثم الهندستانية ( بقسميها الهندية والأردية ) ثم الروسية ثم الإسبانية ثم الألمانية ثم اليابانية ثم لغة الملايو ، ثم الفرنسية ثم البرتغالية ثم الإيطالية ثم العربية<sup>(١)</sup> .

والمسافر في أوروبا وحدها قد لا تسعفه إحدى هذه اللغات المشهورة ويحد أنه من الضروري لتحقيق أهدافه من السفر ، أو حتى لمجرد الاستمتاع برحلة سياحية أن يكون على معرفة بلغات أخرى متعددة . وقد تصادفه متاعب وصعوبات وظروف من سوء التفاهم تسبب له الحرج أو الغنت ولمشقة ، كالذي حدث لي في أثناء سفري إلى ألمانيا أيام هتلر . فقد كتب أطلب العلم في إنجلترا وخطر لي أن أقوم برحلة سياحية في ألمانيا . وكان على أن أعرف في حدود أدب عما معي من نفوذ أحسنه ، إذ أردت السماح لي . حروح في ثانية . وفي القطار وبعد منتصف الليل وأنا في شبه عفوة من النوم . صعد إلى القطار الحرس الهتلري على حدود ألمانيا ، وسألني بالألمانية التي لم يكن لي علم بها عدة أسئلة حرت معها الجواب ، ولم تسعني معرفتي بالإنجليزية ولا الفرنسية ، وترتب على هذا أن شك الحرس في أمري . ولم يستثنني حينئذ إلا صديق مصري كان ينتظرنى في محطة برلين .

فإذا كان السفر إلى مناطق أخرى من العالم كان الحرج أشد ، والمضايقات لا حصر لها . بل قد يؤدي الجهل باللغة إلى مصير أشع ، كتلك الحادثة

(١) وضع ترتيب اللغة العربية هنا على أساس إحصاءات السكك . حدود عام ١٩٥٠ ، ومن المؤكد أنها الآن تسبق هذا الترتيب

التي عُرِفَت بعد الحرب العالمية الأولى عن جماعة من الجنود الأمريكيين رفعوا أيديهم مسلمين للألمان ، ولا صاح فيهم الألمان بالألمانية بأمرهم بشيء معين لم يفهم الجنود الأمريكيين ، وقساءلوا فيما بينهم عما يريد الألمان ، ثم كانت الكارثة حين قال أحد الأمريكيين لعلهم يريدون منا أن نلقى نسدساتنا ولم نكد أيديهم تتحرك صوب مسدساتهم حتى أرداهم الألمان صرعى سوء التفاهم والجهل باللغة . وقد تكرر أمثال هذه المأساة في أثناء الحرب . بل في السلم أيضاً .

وليست تقتصر أمثال هذه الحوادث على الجهل باللغة . بل مجرد الضعف فيها ، وسوء فهم أساليبها قد يؤدي إلى ما هو أشنع ، كذلك الكارثة التي وقعت لإحدى الطائرات منذ شهور وحدثنا عنها الصحف فيما يلي :

#### كارثة الطائرة الأفغانية (يناير ١٩٦٩) سببها سوء فهم الطيار :

لندن في ٦ - وكالات الأنباء - قال المحققون في كارثة طائرة « البويج » الأفغانية التي تحطمت أمس حربي لندن . وقتل في الحادث ٥٠ راكباً ، إنه يبدو أن قائد الطائرة . وهو أفغاني ، أساء فهم التعليمات التي صدرت إليه بشأن الرؤية

وقال المحققون إنه قرر الهبوط في مطار حاتويك . على الرغم من أن الدرج أبلغه أن مدى الرؤية لا يزيد على مائة متر

وأدرك السياسيون والمؤتمرون في المناسبات الدولية ضرورة اصطناع لغة واحدة تكتب بهاصوص المعاهدات بعد الحروب . ويتم عن طريقها التفاوض في الشؤون الدولية . فاصطنعت اللاتينية أولاً حتى القرن الثامن عشر ، ثم الفرنسية التي عرفت خلال القرن التاسع عشر بأنها وحدها لغة السياسة والمعاهدات . ثم اشتركت معها الإنجليزية ولأول مرة في معاهدة فرساي .

وبعد أدت اللغات العالمية في التاريخ دورها الهام كما أشرنا آنفاً . وكانت بمثابة وسائل تجميع للناس ، ينتظم كل منها مناطق متعددة فترة من الزمن ، ثم

كان من شأنها ما قد عرفت . ولم تقتصر المحاولات على تلك اللغات التي أشرنا إليها ، بل تمت أيضاً شأفة تلك اللغة التي عرفت خلال القرون الوسطى باسم *Lingua-Franca* . وأصبح هذا الاسم مصطلحاً لكل لغة تسود في مناطق كثيرة ، ويتكلم بها عدة شعوب متجاورة . وقد نشأ هذا المصطلح بعد أن جاء العرب إلى حوض البحر الأبيض ووجدوا هناك لغات مختلفة منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية واليونانية . فتصنبت الحال حيث لا لغة عامة تشمل كل هذه المناطق ، وهي التي سماها العرب لغة الترنجة . وقد استعملت هذه اللغة في التجارة ، والفهم في المسائل العامة . وأسست قواعدها وأصولها على اللغة الإيطالية السليبية المباشرة لللاتينية . وتحدث أغلب كلماتها من العربية . وقد ظلت هذه اللغة تستعمل حتى القرون السابعة عشرة . بل كان لها بعض الآداب الجيدة . وأشار إليها موليير في رواياته . ولما بقيت آثار هذه اللغة في مالطا ، حتى الآن <sup>(١)</sup> .

وهكذا نرى أن شعوب الحاجة إلى لغة عالمية له حضوره التاريخي ، وأن الحاجة إلى هذه لغة قد بدت للناس دوماً مصحية ضرورة ملحة ، ولكنها الآن وفي العصر الحديث أصبحت أشد إلحاحاً . بل هي في نظر بعض المتكلمين واجب . هي لئلا يولد الواحد لإيجاد لغة من كثير من الناس ولغات هي : منع حروب الأمم ، وعلى لأجل حد من نطاقها وتقتصرها على تلك التي كانت إلى شبه ما كان من التماثل في قديم الزمان . فتلك هي القوميات التي نشأت في العصر الحديث ولم يكن هناك من حقيق لنشأتها سوى خلاف اللغة ، لا تلت في كثير من حالات أن تثير التعرة بين أبنائها . ولا يحرمهم إلى الاعتداء الأمان على حيزها . وتصور لأبنائها أنهم أرقى من غيرهم . وأحق بخيرات الدنيا وأرق من سواهم . ومن هنا قد تبدأ المناقشة بعيدة عن كل أمانة وشرف وتنحصر في التهميات أضاف من الأطماع وأبعد من الضوح ، ثم نكون المآسى والكوارث ويفر أصحاب هذه الرأي أنه لو لم يكن للغة العالمية من منع سوى منع

الحروب أو الحد منها لكنى بهذا غرضاً نبيلاً ، وهدفاً سامياً لحياة الناس في العالم .  
أما في أوقات السلم فللغة العالمية أفضال أخرى على المجتمع الإنساني ، إذ  
يصبح السهر معها إلى البلدان الأخرى عملية ممتعة حقاً ، حتى مع بقاء نظام  
الدول واختصاص كل منها بمنطقة محددة . فستلاشي فيها طاهرة الأقليات  
أو تنمحي نهائياً بمشاكلها ومآسيها التي أشرنا إلى طرف منها من قبل .

أما من حيث التجارة الدولية فسيصبح أمرها أيسر وأسرع ، وتقل فيها  
المنازعات وأسباب الخلاف التي تثير كثيراً من القضايا القانونية حول مدلول  
كلمة في لغة ، ومدلول ما يناظرها في لغة أخرى <sup>(١)</sup> ، كذلك القضية التي  
أقامها أحد المصريين في لندن ضد أعضاء اللجنة التنفيذية للنادي المصري ،  
لأنهم قرروا إحالته إلى مجلس تأديب ، لتطاوله على نظم النادي وأعضائه ،  
وعلى حسب ما تنص لائحته . وقد فسر هذا العضو كلمة « تأديبي » على أنها  
تناظر الكلمة الإنجليزية Punitive ، وأنها تتضمن قذفاً وتشهيراً أضرب بمركبه  
الاجتماعي ، ويعمله كتاجر اشتهر بالأمانة وحسن السمعة . وفسرها من ناحية  
أخرى الذين تولوا الدفاع عن النادي ، بأن الكلمة « تأديبي » لا تعدو أن  
تكون مرادفة للكلمة الإنجليزية Disciplinary ، وأنها لا تتضمن تشهيراً  
ولا قذفاً وحار القصاص الإنجليزى في هذا ، بخلاف فترة من الزمن ، ثم  
انتهت القضية بالمصالحة ، دون أن يهتدى المتخصصون إلى التفسير الصحيح  
الأمين لتلك الكلمة .

ومع اللغة العالمية سنتخلص من مشاكل الترجمة ، وما تثيره في كثير من  
الأحوال من سوء التفاهم والشقاق ، ولا سيما في المجالات الدولية ، ونتخلص كذلك  
من تلك الجهود التي تبذل في الترجمة ، والنتقات الباهظة التي تفوق عليها .  
ففي منظمة الأمم المتحدة جهاز ضخم للترجمة يتكون من مئات المترجمين ،  
وأدوات واتصالات كهربائية معقدة للإرسال والاستقبال ، يقوم على صيانتها  
عدد من المهندسين المهرة الذين يمكن الانتماع بهم في وجوه أخرى . ومع

( ١ ) انظر دلالة الألفاظ ص ١١٤ .

مهارة المترجمين في هذه المنظمة ودقهم لم يخل الأمر من أخطاء أو انحرافات في التعبيرات لا يمكن معها أن يتم التفاهم بين المؤتمرين. وقد عرضنا لمشاكل الترجمة بالتفصيل في مكان آخر ، وكان مما قلناه في هذا الصدد أن بعض الباحثين قد عرضوا للترجمة وقصورها في تصور كل ما يتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وجمال في اللفظ . وقد حس القارئون بعملية الترجمة في كل العصور بتلك الصعوبات التي كانت تصادفهم . ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة بل ظلوا يتابعون جهودهم جيلا بعد جيل . وتصرأ بعد دهر ، فيوفقون حياء ، ويحققون أحيانا . ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة في اتصال بعضهم ببعض ، وفي تبادل الثقافة كما تتبادل السلع . وقد تبين للمفكرين في تلك الأمم أن تبادل الثقافة يحول دونه حصون مبيعة فصلت بين بني الإنسان ، وتلك هي التي نسميها سمات فأداة التفكير تختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تتسع مسافة الخلاف حتى ليحيل إلينا أن الاتصال عسير أو مستحيل ، وقد تقرب فيراها الباحث هيبه يسيرة

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون نمر قليل من الناس في كل أمة وفي كل عصر . وهم الذين شرعوا في الشعوب . ووصفوا الإنسان أحبه الإنسان . رغبة في تبادل المساع ومعرفة . عسى أن يتكون من الناس جميعا مجتمع إنساني يسوده التعاون والتفاهم .

ولسنا في الحديث عن مشاكل الترجمة بمرص صعب المترجم في أي من اللغتين ، إذ لا يستحق المترجم هذا للث إلا حين يسيطر عليهما كتابة وفراة . وبرغم هذا فالترجمة مشاكل وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإحلاصه في عمله . ومن تلك الصعوبات ما يسمى بهندسة الحملة والنظام الذي تجري عليه الحمل في ترتيب كلماتها . وقد يضطر المترجم إلى التقديم أو التأخير ، وإلى عملية تنظيمية خاصة . حتى تبدو ترجمته على النهج المألوف في اللغة المترجم إليها .

ومن صعوبات الترجمة ومشاكلها تلك الصفة التي تنصل بحمال الألفاظ

وموسيقاها . ولكن لعل أعضل المشكلات في الترجمة تلك التي تتصل بدلالة الكلمات وظلال المعاني فيها . ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها في كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التي يمر بها الناس ، وترتبط في أذهانهم بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً ، فتطال الدلالة بالتحارب الخاصة في كل بيئة . فإذا تغربت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئة أخرى أى إلى لغة أخرى ، تطلبت جهداً كبيراً للظفر بما يناظرها أو يواظفها ، لتؤدي في ذهن السامع الجديد في البيئة الجديدة ما تؤديه من دلالة في بيئتها الأصلية .

ولذلك يرى جمهور كبير من المفكرين أن ترجمة النصوص أو نقلها من بيئتها أشبه بنقل الزهرة من منبتها ، قد يعرضها للجفاف ونضب العير<sup>(١)</sup> .

ويكفي أن نتصور هنا ما عليه الحال في منظمة الأمم المتحدة ، فمرم الإمكانات الضخمة والجهود الفنية التي تبذل ، ومهارة القائمين بترجمة المناقشات ودقهم ، نلاحظ أن المستمع حين يجهل لغة الخطيب يصيبه نوع من القنور . ولا يتابع الكلام بنفس الحماس الذي يشعر به العارف بهذه اللغة ، فكان المستمع حينئذ يتلقى معلومات احترقت وفقدت حلتها كما يعثر الصحافيون ، ليس يسمعها من فم المتكلم مباشرة . ومن يشركه في عطفه وحمسه . وهذا لا يكون الاستعانة تامة بين المتكلم والسماع . ولا يكون بينهما مشاركة وحدانية مباشرة . بل من أعضاء المنظمة من قد ينصرف عن شهود الجلسة قانعاً بقراءة النص فيما بعد ، ومنهم من قد تأخذ منه من اليوم . ولا يتصور مثل هذا القنور وقلة الاهتمام فيما لو كانت لغة الكلام موحدة ، يسمعها الجميع يفهمون معانيها فهماً دقيقاً دون واسطة من سماعات ترفع الآذان ، وتصيب الرؤوس بالصداع . فمع اللغة الموحدة يقدر المؤتمرون الدعاية في لحظاتها وليس بعد هوات أوانها ، ويحسون بشعور المتكلم وأحاسيسه ، وهذا فقط يمكن أن يحقق الاجتماع أهدافه في سرعة ومشاركة وحدانية كاملة .

أما متاعب الاختلاف في اللغة في حاء أفعرة فحدث عنها ولا حرج

فكثير من الأسر التي هاجرت من أوروبا إلى أمريكا قد صادفت عتاً كبيراً ، ومشقة ظلت تلازمها خلال جيل أو جيلين ، قبل أن يسيطر الأبناء أو الأحفاد على لغة البيئة الجديدة . فهم في بادئ الأمر في شبه عربة عن الناس . لا تقصى حوائجهم في سهولة ، ولا يتيسر لهم الاندماج في مجتمع في يسر ، ويلتزمهم الشعور بأنهم أغراب أو أجناب زمناً طويلاً . فلا يكونون يستمتعون بوسائل الترفيه في البيئة الجديدة من سينمات ومسارح وإذاعات وبرامج تليفزيونية ، وقد يتعرضون لأحداث من الغش والنصب والخداع في تعاملهم مع بعض الناس ، كما قد تصادفهم أمثلة من السخرية والهرس همكس حاولوا النطق فتعثرت ألسنتهم بلغة البيئة الجديدة .

وفي حالات كثيرة قنع الكبار من أفراد هذه الأسر المهاجرة بحياة العزلة لأنفسهم ، ووجهوا كل جهودهم لتربية أبنائهم أو أحمدهم تربية تساعد على الاندماج والاختلاط لينشأوا كأطفال الآخرين . ولا نصيبهم عقدة اللغة .

على أن بعض هؤلاء الأبناء حين أرسلوا إلى المدارس الأمريكية . ووجد بعض مظاهر اللكنة الأحسية في نطقهم وعلى ألسنتهم صورا على ألسنتهم . وأحسوا بالمرارة والحسرة . وكان لهذا أثر سيئ في كثير منهم . فاستكسبت السياسة التي ألهمها معصم الأسر المهاجرة هي سياسة كسر ألسنتهم . وعزل أبنائهم عنهم كلما أمكن ذلك ، وتشجيعهم وحشهم على الاندماج مع أطفال البيئة الجديدة ، حتى يمكن التغلب على رث عندهم الكنود . عقدة اختلاف اللغة ، وحتى يكفلوا لهم مستقبلاً سعيداً . وجيدة رعدة في هذه البيئة

أما ما يصادفه السائح بسبب اختلاف اللغة فردا كعب أمره هيباً . ولكنه على كل حال من الأمور التي تصرف الكثيرين عن سفر . وتحرم من يقدم عليه من الاستمتاع الكامل برحلته ، بل قد تفرس تكرار التجربة مرة ثانية . فأى متعة يصادفها العالم حين يستمع إلى إذاعة وحدة ذات لغة موحدة ؟ وأي وحدة في الفكر والشعور تسود العالم حين يحدس من أنفسهم في كل بقاع الأرض ينطقون بكلام موحد ، ويتفاهمون لغة واحدة ؟

في الحق أن حاجة العالم إلى لغة واحدة قد أصبحت في العصر الحديث ضرورة ملحة ، بل واجباً تفرضه الطبيعة الإنسانية ، ولا يكاد يختلف في نفع هذا وجدواه أحد ، سواء من أولئك الذين يرون إمكان الوصول إلى هذه اللغة ، أو أولئك الذين يتشككون في إمكان وجودها .

فليس من الإسراف أو المغالاة أن تقرر أنه لو اهتدى العالم إلى تلك اللغة التي تنتظم الناس جميعاً فوق سطح الأرض فقد اهتدى إلى السلام والأمن والرخاء في كل مكان . ولا يكاد يشك في هذا أحد ، وإنما الذي ينصبّ عليه شك بعض المفكرين وريهم هو ، هل يمكن هذا ؟

لكل ما تقدم أخلفت الدعوة إلى اللغة العالمية أولى خطواتها الجدية منذ القرن السابع عشر ، وبدأ حينئذ النقاش والجدل بين المقتنعين بالفكرة وإمكان تحقيقها ، والمتشككين في إمكانها الآخرين بالدعوة لها . وحجة أولئك الذين رأوا استحالة الوصول إلى لغة عالمية تكاد تنحصر في أساسها على التجارب التاريخية مع تلك اللغات التي كانت في يوم من الأيام أشبه باللغة العالمية ، يُتكلم بها في مناطق متباعدة كثيرة ، ثم كان أن أصابها الانحلال إلى لهجات ، ثم تطورت اللهجات إلى لغات مستقلة ، كاللاتينية التي كانت في عهد الرومان سود معظم مناطق العالم ، ثم انحلت وتشعبت إلى لهجات أصبحت الآن ما يعرف باللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والرومانية . ومن هذه اللغات ما اندثر ولم يعد له وجود إلا في نقوش فوق أحجار ، أو كتابات فوق الصحائف كالأكدية والآرامية ، ومنها ما انكمش نطاقها ، وتطورت أصواتها وصيغها ، وأصبحت تقتصر على دولة صغيرة في العصر الحديث كالإعريفية

فلجنة بابل في رأيهم تلازم اللغات في تاريخها ، فلا تكاد اللغة تتوحد ويتسع نطاقها ، حتى تنفتت وتشعب إلى لهجات ، منها ما يندثر فلا يترك أثراً ، ومنها ما يتطور إلى لغة مستقلة جديدة لا يكاد يعرف أبناؤها أصل لغتهم ولا ما سمي إليه ، أو تنحدر عنه ، من لغات العالم القديم

ولكن المؤيدين للمحمسين للفكرة لا يتصورون أن ما حدث في العصور



السابقة يتحتم أن يحدث مثله في العصر الحديث الذي يتسم بسهولة الاتصال وسرعته بين الدول . فلدينا الآن من وسائل الاتصال السلكي واللاسلكي ما لو قد سمع بمثله أجدادنا القدماء لعدوه نوعاً من الهذيان والوهم ، ولآمنوا بأن القائل به قد أصابه مس من الجن أو دخل عقله . إذ نسمع الآن الإذاعات من جميع أنحاء العالم واضحة جلية مدوية ، وتنتقل بين الدول المتباعدة أفواج من الطائرات في سرعة الصوت أو أسرع . فلم يعد مكان في العالم بمعزل عن سائر العالم ، ولم تعد الجبال ولا الأنهار ، بل ولا الصحراوات والبحار بعازل منيع يحمي قوماً من قوم ، أو شعباً من شعب . ولم يعد في الإمكان أن تنعزل أمة عن أمة تجاورها ، أو تبتعد عنها ، فهناك شبكة معقدة محكمة تصل بين الشعوب في التبادل التجاري والثقافي ، ولا يستطيع شعب أن يعيش على ما كان يسمى بالافتقار الذاتي في كل شئونه . ويكفي أن نتذكر ما يسود العالم الآن من اتفاقيات دولية تنظم البريد ووسائل المواصلات الأخرى بين الدول ، وتنظم التعامل التجاري والتبادل الثقافي وحقوق الشعوب وواجباتها بعضها نحو بعض وغير ذلك من مسائل القانون الدولي الذي التزمت بنصوصه الشعوب والأمم ، أو على الأقل أخذت على نفسها هذا العهد

وإذ كان عصبه الأمم قد فشل في تحقيق معظم أهدافها من قبل . وإذا كانت منظمة الأمم المتحدة تتعثر الآن في بعض الحالات ، ولا تقدر على حل كل المشاكل . فليس يستلزم ذلك أن نياس من مستقبل الإنسانية ، بل يجدر بنا أن نتفاعل وأن نعد أمثال هذه المنظمات بمثابة علامات على الطريق للوحدة الإنسانية في المستقبل . فهي ومعها منظمة اليونسكو ومحكمة العدل الدولية معقد آمال الإنسانية ، وآيات لبزوع فجر السلام في العالم ، ولتوحد الناس جميعاً وتعاونهم على ما فيه الاستقرار والأمن والرخاء لكل البشرية .

فلستمع إلى أحد المتعائلين من اللغويين المحدثين يناقش فكرة اللغة العالمية ويقرر أننا الآن في بداية تحقيق ذلك الحلم القديم ، حلم لغة واحدة

يستطيع كل الناس أن يتخاطبوا بها<sup>(١)</sup>، وهو «لويس» في كتابه «اللغة في المجتمع». فيرى «لويس» [أنه برغم الفشل الذي منيت به المحاولات التي تمت في القرون الثلاثة الماضية لإنشاء لغة عالمية ونشرها بين الناس، وبرغم ما نلاحظه الآن من خفوت الأمل في مستقبل هذه اللغة، يجب ألا ننسى أن لدينا الآن من الوسائل المادية وآلات الاتصال ما يمكن معها أن تنشأ لغة عالمية وأن تبقى، وأنها الآن نحس أكثر من ذي قبل بحاجة ملحة إلى إيجاد تلك اللغة]. ومع أن «لويس» يشير إلى أنه من المحتمل أن تصبح الإنجليزية هي اللغة العالمية التي نتطلع إليها، يختتم كلامه بقوله: (وفي هذه اللحظة قد يكون من الغباوة أن نحاول التنبؤ بأن لغة ما ستكون هي اللغة العالمية في المستقبل... ولكن لا شك في أن اللغة العالمية في طريقها إلى الوجود).

ومن حدث الكتب التي عالجت فكرة اللغة العالمية ما ألفه «ماريوي» تحت عنوان «لغة واحدة للعالم»، وكيف تتحقق. وفيه يحدثنا المؤلف في إسهام وتفصيل عن تاريخ نشأة هذه الفكرة ومراحل تطورها، والمحاولات التي تمت بهذا الصدد خلال القرون الثلاثة الماضية، وما يرجى لها في المستقبل.

ويرى «ماريوي» أن الدعوة إلى لغة عالمية بدأت في القرن السابع عشر حتى تسى حمادة من المفكرين الفلاسفة الذين لمسوا انحصور في اللغات القومية المحلية. ومن أسبقهم في الدعوة إلى خلق لغة منطقية لا شواد فيها «ديسكارتس» الذي مع بشرح فكرته وتبیینها تاركاً التنفيذ لبعض معاصريه وكان أسرعهم إلى العمل على تحقيقها «أورفهارت» العالم الإسكتلندي في مقال عدوانه «مقدمة للغة العالمية»، وصف فيه طواهر هذه اللغة التي تطامع إياها المفكرون في عصره، وحدد معالمها وسماتها. ثم زاد «ديجارنو» في سمية الفكرة وتجليتها سنة ١٦٦١ م.

وفي الحق أن معظم مفكرى القرن السابع عشر لم يكونوا يطمعون في أكثر من الاهتمام إلى لغة نموذجية سموها باللغة الفلسفية أو المنطقية. ولم يوجهوا

(١) Language in Society, by M. M. Lewis

عنايتهم إلى اللغة العالمية بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل كل الذى عثوا به هو خلق لغة للفكر تسامر حدود المنطق العقلى ، وتعين الفلاسفة فى تفكيرهم وتأملاتهم . ولم يتطلعوإلى أبعاد من هذا . فلم يدر بخلدنهم السعى إلى إنشاء لغة عالمية تستخدم فى الكلام ، وتصبح وسيلة للتفاهم بين عامة الناس . فيما عدا « كومنيوس » الذى ربما يعدّ أول من فكر فى تلك اللغة الكلامية التخاطبية التى تيسر الاتصال بين الناس فى شئونهم العامة .

ويبدو أن مفكرى القرن السابع عشر قد ضاقوا باللغات التى سادت على الألسنة فى عهدهم ، وتبين لهم بعد كثير من طواهرها عن المنطق العقلى ، فليس بين الألفاظ ودلالاتها صلة طبيعية أو داتية ، وإنما هى صلة تحكيمية أو عرفية . وكذلك الشأن فى الظواهر النحوية التى تختلف باختلاف اللغات ولا تكاد تمت إلى المنطق العقلى بصلة وثيقة . ففكرة « الكم » أو ما يسمى فى اللغات بالإفراد والتثنية والجمع ، تبدو لنا فى معظم اللغات ذات اتجاهات مختلفة ، وتتخذ طرائق شتى فى تصوير « الكم » أو التعبير عنه . فبعض اللغات تعبر عن فكرة الكم بصيغ ثلاث : إحداهما للمفرد وأخرى للتثنية وثالثة للجمع ، ومن اللغات ما يجعل صيغة للمفرد . وأخرى للمثنى وثالثة لمثلث الذى يعبر عن ثلاثة أفراد ، وأخرى صيغة رابعة للجمع الذى هو فى هذه اللغات ما زاد على ثلاثة ، بل إن بعض الألفاظ التى تعامل معاملة المفرد فى لغة ما قد تعامل نظائرها فى لغة أخرى معاملة الجمع . وكلنا نذكر أمثال الكلمات الإنجليزية الآتية

Scissors, Moustaches, Trousers Shoes

الجمع فى حين أن نظائرها العربية تعامل معاملة المفرد

أما من حيث « الجنس » أو ما يسمى بالتذكير والتأنث . فحين نستعرض اللغات لتبين مسلكها فى هذا ، نرى أنها طرائق شتى ، وأنها فى هذه الظاهرة لا تكاد تسير وفق منهج عقلى أو منطقي . فبما لا يخطر إلى تأنيث حقيقي ، ومنها ما يؤثر البصر إلى الجماد وإخى دون اعتبار لمؤنث أو مذكر . ومنها ما نتحدث للأسماء أنواعا ثلاثة . إحداهما للمذكر وأخرى للمؤنث وثالثة لما يسمى

بالمحايد . أما اللغات السامية ومنها العربية فقد قنعت في تصنيف الأسماء بما هو مذكر وما هو مؤنث ، وإن كان التذكير أو التأنيث في كثير من الأحوال أمراً مجازياً .

كذلك تتباين اللغات في أساليب التعبير عن النفي ، وفي الفكرة الزمنية ومدى صلتها بالصيغ ، إلى غير ذلك من ظواهر يعيا بحفظها أو تذكرها اللارسون في العصر الحديث<sup>(١)</sup> .

بل إن اللغة الواحدة لا تخلو من الشذوذ في بعض صيغها وتعابيرها ، ففي الإنجليزية مثلاً كلمات لا تجمع ، وأخرى لها جمع خاص يخالف المؤلف المعهود في الكثرة الغالبة من الأسماء . وفي العربية صيغ وتعابير لا تجرى على القاعدة العامة ، ويعدها اللغويون من الشواذ ، وإن حوت على ألسنة العرب القدماء .

وأما من حيث دلالة الألفاظ فقد تبين للمفكرين والفلاسفة منذ عهد طويل أنها في أحيان كثيرة قاصرة في التعبير عن كل ما يدور بخلدكم في دقة وإحكام وتمسوا لو اتخذوا رموزاً أخرى أدق تعبيراً وأحكم تصويراً<sup>(٢)</sup> .

تلك هي بعض الصعوبات أو المتناقضات التي نلاحظها في كل اللغات ، والتي حسب مفكرى القرن التاسع عشر إلى تسعين في إضاءة منطقية نموذجية ثم استمرت الدعوة إلى خلق لغة عالمية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكثرت المحاولات وتعددت حتى أصبحت في حدود ٣٢١ لغة اقترحتها أصحابها أو مبتدعوها لتكون تلك اللغة العالمية التي تتطاع إليها الإنسانية . غير أن معظم هذه المحاولات قد وئدت في مهدها . فلم يكدر يتجاوز عدد الذي تعلموها أصابع اليدين عدداً ، وانتشرت بذهاب الداعين لها . ولم تحالف لنا إلا سلسلة من الفشل السريع بعثت اليأس إلى قلوب كثير من المستنيرين في هذين القرنين . ولعل شيوع القوميات الحديثة وتكونها على أساس اللغة كان من العوامل

(١) انظر للمؤلف كتابه من أسرار الله ص ١١٦ - ١٨١

(٢) انظر للمؤلف كتابه دلالة الألفاظ

الى صرفت الناس عن فكرة اللغة العالمية أو زهدتهم فيها .

وحين نتبع المحاولات التي تمت لخلق اللغة العالمية نرى أنها نوعان :

( ١ ) أولهما البحث عن لغة مصنوعة منطقية خالية من الشواذ وتلك هي التي تطلع إليها معظم مفكرى القرن السابع عشر ، وظلت بعد ذلك حتى القرن العشرين تجد من يدعو إليها وتشق طريقها على استحياء ، ودون أن تصادف قبولا أو اقتناعاً في وسط من الأوساط . ومعظم أصحاب هذا الرأي من الفلاسفة الذين كثر عددهم في القرن السابع عشر . ولعل أقدم محاولة لهذه اللغة المنطقية المصنوعة تلك التي قام بها « جان فرنسوا سودر » سنة ١٨١٧ وسماها باللغة الموسيقية العالمية وأسسها على النوتة الموسيقية ، وأحدث محاولة من هذا النوع تلك التي حاولها اللغوى الأمريكى « راسل سوما » سنة ١٩٥٧ إذ اخترع لغة سماها بالعالمية تتألف من ألف كلمة ، ولا تمت هذه اللغة في جنورها وأصولها لأى من اللغات المعروفة في العالم . فهي محايدة إلى أبعد حدود المحايدة ، وتتكون الكلمة فيها من مقطعين اثنين ، وتخلو من أداة للتعريف ، ومن صيغ للجمع بل تخلو من كل طرق الاشتقاق والتصريف ، مما تبدو معه في صبرة هي غاية في التبسيط والسهولة

( ب ) وثانيهما اصطناع لغة فيها بعض عناصر من اللغات الحية مثل « الفولابيك » التي معناها « كلام العالم » والتي اخترعها أحد رجال الدين في « بارقاريا » وهو « مارتن شلير » سنة ١٨٧٩ ، وقد تحمس لها بعض الدارسين حينئذ ، ولكن لم يكد يمحى على إنشائها ثمانى سنوات حتى هجرها أنصارها ، والتفوا حول لغة أخرى هي « الاسبرانتو » التي ائتمت ولا شك بأنها أكثر اطراداً ومرونة من « الفولابيك » . وقد استمد مخترع « الفولابيك » حلفور الكلمات من الإنجليزية واللاتينية في معظم الحالات ، وتأثرت قواعدها وتراكيبها بلغة المخترع نفسه ، أى الألمانية .

ومن أشهر المحاولات التي من هذا النوع « الاسبرانتو » التي اعتمدت في تشكيلها على لغات أربع هي اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد وضعها

لغوى بولندي سنة ١٨٨٧ . وفي دعوته لها أخذ يتلمس طريقه على حذر ، فتذكر تحت اسم «الدكتور اسبرانتو» أى الدكتور المتفائل ، حتى أقبل الكثيرون عليها ، وتكون لها أنصار ، وحينئذ كشف عن اسمه الحقيقي وهو «لازاروس زيمهوف» . وتعدّ الاسبرانتو أشهر اللغات العالمية المصروعة ، فقد اتخذت أداة التفاهم في عدة مؤتمرات ، وشجعت عصبة الأمم على دراستها في المدارس والمعاهد في توصية لها سنة ١٩٢١ ، ولكنها لم تقف موقفاً حاسماً في هذا الشأن ، بل كانت توصيتها مع شيء من التردد . أما اليوسكو تلك المنظمة الثقافية العالمية ، فقد دعت إلى دراسة الاسبرانتو وشجعت عليهما في قوة ولجان منذ سنة ١٩٥٥ .

وأهم صفات هذه اللغة الاطراد ، فلكل وحدة نطقية «فونيم» رمز كتابي متميز ، أى أنها تكتب كما تنطق ، وليست كبعض اللغات الحية التي بعدت فيها الرابطة بين المنطوق والمكتوب ، وأعيا إملاؤها كثيراً من الدارسين . إذ تكتب الكلمة برموز لا تكاد تنطق على الطلق بها ، مما جعل المحدثين من اللغويين يقررون أن الكتابة بوجه عام تصوير قاصر للغات ، ويدعون إلى العمل على إصلاحها . ولدت هذه لغة «لاسرانتو» موضعاً محدداً سر وهو يقع دائماً على المقطع الذى قبل لأحبر من كل كلمة . وأدب العلم يف في هذه اللغة هي دائماً La أى الأداة الفرنسية للمؤنثة ، فنطقها واضح . واستعملت في كل حالات الأسماء ، أى مع المذكر والمؤنث ومع المفرد والجمع وخصصت هذه اللغة علامات تنهى بها الكلمات وتدل كل علامة منها على الوظيفة النحوية للكلمة . فعلاقة الاسمية هي O وكل اسم مفرد يجب أن ينهى بها ، أما في حالة الجمع فالاسم ينهى بالعلامة J التي يطق بها ياء أى مثل Y وتنهى الصفة بالعلامة A وينهى الظرف adverb بالعلامة E . وينهى المصدر بالعلامة I ، وعلامة المفعولية هي N في آخر الكلمة . أما الأفعال فينهى المعبر منها عن الزمن الحاضر بالعلامة as ، وينهى الفعل الماضي بالعلامة is ، والمستقبل بالعلامة os ، وفعل الأمر ينهى بالعلامة u .. إلخ ويقال إن

عدد المتكلمين هذه اللغة في العالم يبلغ الآن بضعة ملايين . ويؤكد لنا المتحمسون لهذه اللغة أنها تصلح لترجمة الآداب سواء منها الأدب الكلاسيكي أو الأدب الشعبي ، وأن التخاطب بها ميسر حتى على متوسطى الذكاء والفهم . فهي إذن تحقق الوظيفتين الأساسيتين لكل لغة ناجحة : الوظيفة التعاملية أى استخدام اللغة أداة للتفاهم ، والتعامل بين أفراد المجتمع ، والوظيفة التنفيسية وهى استخدام اللغة لمجرد التنفيس عما تجيش به الصدور وما يدور في خلد كل منا من أفكار وتأملات لا يُهدف بها إلى إرسال أو استقبال . وهذا هو ما اشترطه « لويس » لنجاح اللغة العالمية إذ يعبر عن ذلك بقوله : (وقد تعلمنا من اهتمام اللغويين الدائم بمشكلة اللغة العالمية ، ومن دراستنا في عمومها دراسة أدق أن اللغة العالمية حتى في بدايتها لا يتوقع لها النجاح إلا إذا كانت لها طاقة تنفيسية بالنسبة لمتكلميها . ويجب في اللغة العالمية إذا أريد أن تكون لغة كاملة — أن تؤدي الوظائف التي تؤديها أية لغة للمجتمع الذي يستعملها ، أى أن اللغة العالمية يجب أن تستطيع تحقيق الحاجات التعاملية والتنفيسية للإنسانية . باعتبارها مجتمعاً عالمياً . وليس ثمة أمل في نجاح أى مشروع للغة العالمية إلا إذا كان يُعنى بالإحساس والإرادة كما يعنى بالفكر والعمل عند هؤلاء الذين يصطنعونها) <sup>(١)</sup>

ويبرهن أنصار الاسبرانتو على سهولة لغتهم ودقة نظامها ويسر النطق بأصواتها وتطابق الكتابة مع النطق فيها ، بوضع نماذج من هذه اللغة يمكن للأوروبي أن يقرأها دون جهد أو مشقة ، وأن يفهمها فور قراءتها . مثلاً :

Homo رجل ، Bona = جيد ، Bone = بخودة ، Esti = وجود ، Estu = كنى ،  
Bonaj homoj = رجال طيبون .

ولا بأس من أن نقبس هنا تلك القطعة التي أوردها « ماريوي » في كتابه <sup>(٢)</sup> للاستدلال بها على صحة ما يسمه أنصار هذه اللغة للغتهم من

(١) اللغة في المجتمع تأليف لويس وترجمه الدكتور عام حسان ص ٨٩

(٢) The story of language, by Mario Per p. 442

## سهولة في قراءتها وفهمها على الأوروبيين :

La inteligenta Persono lernas la interlingvon Esperanto rapide kaj facile. Esperanto estas la moderna, kultura lingvo Por la internacia mondo. simpla, fleksebla, praktika solvo de la problemo de universala interkompreno, Esperanto meritas vian seriozan konsideron. Lenu la interlingvon Esperanto.

ويمكن أن تترجم هذه القطعة إلى العربية على النحو الآتي :

الشخص الذكي يتعلم اللغة العالمية اسبرانتو بسرعة وسهولة اسبرانتو هي اللغة الثقافية الحديثة لجميع العالم . فيها الحل البسيط المرن والعمل لمشكلة الاختلاط العالمي ، والاسبرانتو تستحق كثيراً من التقدير الجدي . تعلم الاسبرانتو اللغة العالمية .

• • •

وقد اعترف بالاسبرانتو في المحالات الدولية ، فهي مع اللاتينية اللغة الوحيدة التي بمقتضى اتفاقيات عالمية يجب قبولها في الرسائل التلغرافية في كل العالم ، وهي أيضاً تستخدم لدى الجمعيات الدوائية للأطباء والمدرسين والمحامين والعلماء والموسيقيين وجامعي لطواع والنفود وقد أصدرت بعض الشركات الكبيرة ، كتالوجات بالاسبرانتو للإعلان عن سلعها في التجارة الأجنبية . بل إن بعض المحطات الإذاعية في العالم تخصص برامج يُتحدث فيها بهذه اللغة . هذا إلى أن بعض الجمعيات السياحية تصدر نشرات إعلانية بالاسبرانتو ، وفي العالم الآن نحو مائة صحيفة ومجلة تنشر بهذه اللغة وقد أعلنت الجمعية البريطانية للتقدم العلمي سنة ١٩٢١م أن الاسبرانتو خير لغة للأغراض العالمية ، فهي في هذا المجال خير من كل اللغات ، ما اندثر منها ، وما لا يزال حياً .

ومع كل ما تقدم لم تستطع الاسبرانتو منافسة أقل اللغات الطبيعية انتشاراً ، وتبين حتى لأنصارها أنه قد يكون من اليسير أن يتحدث بها الروسي مع الأمريكي في أمور السياحة والطعام والشراب والملابس ، فإذا تطرقا إلى الحديث



في مسائل الدين أو العلم أو الفلسفة لم تكف تلك اللغة تحقق الهدف من الحديث .  
والغريب أنه في حياة واضع لغة الاسبرانتو قام جماعة من أنصارها بإدخال  
عدة تحسينات عليها جعلتها في رأيهم أكثر دقة وإحكاماً ، وكانت بهذا ،  
المحاولة الثالثة للغات المصنوعة ، وتلك هي التي سميت « إيدو » Ido ،  
وتم ذلك سنة ١٩٠٧ . ويرمز الحرفان الأولان من الاسم Ido إلى كلمتين  
إنجليزييتين هما International delegation أي البعثة العالمية (١) .  
أما الحرف الأخير من Ido فهو علامة الاسم على حسب النظام الموضوع  
في الاسبرانتو كما أشرنا آنفاً .

غير أن هذه التعديلات التي أدخلها هؤلاء العلماء على الاسبرانتو ، والتي  
على أساسها أنشأوا ما سموه Ido ، لم يقتنع بها معظم أنصار الاسبرانتو ،  
ولم يرحبوا بها ، وعزّ عليهم أن ينظر إلى كل تلك النصوص التي طُبعت ونشرت  
بالاسبرانتو على أنها أصبحت متخلفة أو غير صالحة للدراسة . وهكذا ظلت  
الشهرة للاسبرانتو في صورتها الأولى . وليست للغة Ido التي يُفترض أنها  
تتضمن تحسينات كثيرة . وأصبحت الاسبرانتو الآن اللغة الأولى بين اللغات  
المصنوعة في العالم ، فقد أثبت صلاحيتها في عدة اجتماعات دولية .

وقد كثرت محاولات وتعددت لخلق تلك اللغة العالمية المصنوعة في القرن  
العشرين ، ومن أشهرها ما ابتدعه « جيسپ بيانو » Guiseppe Peano  
اللغوي الإيطالي ، وسماه Latino sine flexione سنة ١٩٠٣ ، وما قام به  
« أوتوجسر سن » Novial سنة ١٩٢٨ . وما تمّ على يدى Hogben  
وسماه Interglossa سنة ١٩٤٣ .

وأهم ما يوجه من نقد لمثل هذه اللغات المصنوعة حجج ثلاث هي :

- ١ - أنها مصنوعة وليست طبيعية .
- ٢ - أنها غير محايدة إذ تعتمد على القليل من لغات العالم وتهمل سائر  
اللغات الأخرى .

٣ - أنها حتى مع اصطناع الشعوب لها ستؤدي على ألسنة كل شعب في صورة خاصة ، وسينطق بها كل شعب على حسب ما تعود في نطق لغته المحلية من حيث طبيعة الأصوات ومواضع النبر ونعمة الكلام ، فلا تلبث بعد زمن قليل أن تتشعب إلى لغات جديدة مختلفة .

ويجدر بنا أن نناقش هذه النقاط الثلاث في حدود وفي حيدة واعتدال :

فأما النقد الأول فلا يعدّ في الحقيقة وصمة ، وإلاّ كان من الواجب علينا أن نهمل كل الوسائل الحديثة بحجة أنها غير طبيعية أو ليست مما وهبته الطبيعة لنا . فالسيارة مثلاً وهي ولا شك شيء مصنوع يجب أن نتركها كوسيلة للركوب من أجل الحصان بوصفه الوسيلة الطبيعية لذلك . فليست المستحدثات في الدنيا إلا تعبيراً عن ذكاء الإنسان وثقافته ، وانتصاراً على الطبيعة ذاتها لا عيب إذن في أن تكون اللغة مصنوعة .

وأما مسألة الحياد فع أنها قد تولد الحساسية بين الشعوب ، هي في الحقيقة حجة أسرف في تصويرها أولئك المعارضون للغة المصنوعة . فإذا يجدي أن نحير من لغة « النانتو » مثلاً عدة كلمات نفحصها في تلك اللغة المصنوعة ، وما أهمية هذا في الحفاظ على سمع شعوب من الشعوب بل إن الأحد من كل لعاب العالم بسبب معييه سينج لنا في نهاية الأمر مريحاً عجيباً لا استجم في عاصره ، ولذلك اقتصر أصحاب اللغات المصنوعة على الأخذ من أشهر اللغات الحية وأكثرها تحضراً . وقد أدت العناية ببدء الحياد وشدة الحرص عليه إلى ذلك الاقتراح المصحح الذي نادى به « دكتور » ليون فرست « بأن يستمد أحرومية اللغة العالمية من عشر لغات هي الإنجليزية . الصينية العربية . الروسية الهندوستانية . المنغارية . الأندونيسية . الإسانية . السواحيلية . الهوسية .

وأما النقد الثالث وهو احتمال تشعب هذه اللغة المصنوعة إلى لهجات ثم إلى لغات مستقلة ، فقد بناه أصحابه على الأمثلة التاريخية التي منها تشعب اللاتينية إلى عدة لغات مستقلة في العصر الحديث . وقد أشرنا آنفاً إلى وهن هذه الحجة وضعفها إزاء ما نراه الآن من سهولة الاتصال بين الشعوب بل

وضروته الملحة ، وما نتوقه في المستقبل من زيادة مطردة في هذا الاتصال ، بحيث لا نتصور في مستقبل الإنسانية انعزال شعب عن المحيط الدولي ، ولا حتى ما يشبه الانعزال . فالعالم في كل شئونه صائر إلى نوع من الوحدة في كل مظاهر الحياة ، ومن بينها في أغلب الظن اللغة ، وستصبح لغة بابل حيثث مجرد أسطورة .

وقد اشتد الجدل والنقاش حول الصورة التي يمكن أن تكون عليها اللغة العالمية ، وليس حول ضرورة الملحة في وجودها . فالكثرة الغالبة من المفكرين والمصلحين مقتنعون كل الاقتناع بضرورة هذه اللغة ونفعها للإنسانية ، ولكنهم يختلفون في كيفية تكوينها وفي معالمها وسياتها . ومن هنا بدت في هذا الصدد عدة اقتراحات أشهرها :

١ - اقتراح يتنادى بأن اللغة العالمية يجدر بنا أن نستمع عناصرها من أشهر اللغات الحية ، وأن نصنعها من تلك العناصر في حيدة ، ودون ميل خاص إلى أي منها . وبحيث نسم بالسهولة في نطق أصواتها والاطراد في قواعدها وبراكيبها . وليس من الضرورة أن يطابق المنطق العقلي العام بقدر ما هو من ضرورة الملحة أن تكون ميسرة نطقاً وأداءً وتعبيراً على جمهور الناس . وتلك هي اللعبة المصنوعة التي أشرنا إلى أمثله منها .

٢ - اختيار إحدى لغات العالم وفرصها على المتكلمين بوصفها لغة عالمية ، ودون تغيير في صفاتها أو خصائصها غير أن أصحاب هذا الاقتراح قد اختلفوا فيما بينهم حول أي اللغات تختار . وهل تختار من اللغات القديمة أو الحديثة ؟ وظهر بينهم من يريدون اختيار اللغة الإغريقية ، ومن يؤثرون اللاتينية ، ومن يفضلون الفرنسية ، وأخيراً وليس آخراً من يميلون إلى اختيار الإنجليزية . ويبدو أن الإنجليزية هنا تظفر بأغلبية كبيرة دليلها ما حدث في مؤتمر « بندويج » ، حين أرغمت الصين الشعبية على اصطلاح الإنجليزية في النقاش بين المؤتمرين وفي صوغ قرارات المؤتمر .

٣ - اختيار إحدى اللغات الحية المشهورة بعد إحراء تعديلات فيها لتصبح

ملائمة بقدر الإمكان للناس جميعاً . غير أن هذا الاقتراح لم يظفر بمحاولة في تنفيذه إلا على يدى العالمين اللغويين المشهورين «رتشارد» و«أوجدن» سنة ١٩٣٠ في مشروع سمياء بالإنجليزية الأساسية Basic English . فقد اختصرت الكلمات الإنجليزية إلى نحو ٨٥٠ كلمة جعلت أساس كل تعبير بهذه اللغة . واعتمد في اختيار هذه الكلمات على كثرة شيوعها . وقد كان هدف «رتشارد» و«أوجدن» من مشروعهما أن ييسرا تعلم الإنجليزية على الأجانب ، وأن يكون هذا المشروع بمثابة نواة اللغة العالمية . وقد اهتم «تشرشل» بهذا المشروع في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وشجع عليه . غير أن الشك في نجاح هذه الفكرة أخذ يخامر الأذهان بعد أن حاول بعض الدارسين صياغة إحدى خطب «تشرشل» في صورة تلك اللغة التي تسمى بالإنجليزية الأساسية ، وفشلت التجربة فشلاً دريباً<sup>(١)</sup>

ولشهرة هذا المشروع وطرافته يجدر بنا أن نشير إلى بعض معالمه ومميزاته ، ثم إلى ما وجه إليه من نقد في المحال العالمي

فاحتصار كلمات اللغة الإنجليزية إلى ٨٥٠ كلمة يجعل من التيسر على المرء أن يسيطر عليها خلال ثلاثة أشهر . هذا إذ وقع تعلم ثنتي عشرة كلمة في اليوم . ويؤكد لنا المؤلفان أن أهم ما يساعد على نجاح هذا المشروع كلمة عالمية ، على الأقل في التخاطب والتعبيرات العامة ، ما تنقسم به الإنجليزية نفسها من صفات أوضحها . بساطة قواعدها أو أجرومينها ، ونحاوها من اللواحق التي تعسر عن الحالات الإعرابية . وأنها أوسع اللغات انتشاراً في العالم .

وعدد الأفعال التي وقع عليها الاختيار لا يتجاوز ثمانية عشر فعلاً هي .

Come, get, give, go, keep, let, make, put, seem, take, be, do, have, say, see, send, may, will.

ومن هذه الأفعال مع بعض الأدوات أو الأسماء يمكن تكوين مئات من

التعابير التي تغنى عن مئات من الكلمات الإنجليزية . فمثلاً : keep up قد تغنى عن sustain ، go through تغنى عن penetrate .

واختار المؤلفان مع هذه الأفعال ٤٠٠ اسم من الأسماء العامة مثل Government Machine كما اختارا ٢٠٠ من الأسماء ذات الدلالة المحسوسة مثل : Apple, Horse ، و ١٥٠ وصفاً مثل : full, important

وحين نتساءل عن رأى الإنجليز أنفسهم في هذه اللغة نجد أن معظمهم لا يتحمسون لها ، لأنها تتطلب منهم أن ينسوا ما تعلموه منذ الطفولة من مئات الكلمات التي بذلوا في تحصيلها جهوداً كبيرة ، وأن يهملوا ذلك التراث الضخم من الألفاظ التي جرت على الألسنة عبر القرون .

وفي الحق أن النفع الذي يرجى من وراء هذا المشروع لا يساوى ما سيصيب اللغة الإنجليزية الأصلية من تشويه ، ومن اضطراب في التفكير ، وفي الكلام ، بين أبنائها . بل سيصبح من المحتم على الإنجليزى نفسه أن يتعلم هذه اللغة كما يتعلم لغة أجنبية . وأن يصادف في هذا من العنت والمشقة ما لا مسوغ له .

أما من حيث ما يدعيه أنصار هذا المشروع من أنه أمكن في سهولة وسرعة ترجمة كثير من أجزاء العهد القديم إلى هذه اللغة ، فيجب أن يذكر أن اللغة الإنجليزية قد نمت نمواً كبيراً في أساليبها وتعابيرها منذ عهد الملك جيمس ، بدليل تلك المحاولة الفاشلة حين حاول بعض الدارسين أن يترجموا إلى هذه اللغة خطبة « تشرشل » التي ططن فيها بأهمية هذا المشروع .

وأما موقف الأحزاب من هذا المشروع فيمكن أن نذكر هنا أن معظم ممثلي الحكومات في الأمم المتحدة قد أعلنوا رفضهم له حين اقترح عليهم ليكون بمثابة لغة عالمية . وعارضه أيضاً الكتاب الأجانب في الأمم الأخرى ، وأخذت معارضتهم له إحدى صورتين . صورة حديثة حين وصفه بعض منهم بأنه دعوة إلى التمييز العنصرى وإلى الإمبريالية ، وصورة أخرى ساذجة حين وصفه البعض الآخر بأنه لا يعدو أن يكون حركة أريد بها إفساد لغة من أهم لغات

العالم ، وخلق سوق سوداء في « الأفعال » و « الصفات » ! !  
ومع هذا فقد حاول بعض اللغويين في البيئات الأخرى تقليد هذا المشروع  
في لغاتها ولم تلبث أن سمعنا عن « الإسمائية الأساسية » ، « الروسية الأساسية »  
بل والصينية الأساسية . . فإذا كانت اللغة الإنجليزية قد فشلت في مثل هذا  
المشروع ، فأولى بفشل أكبر تلك اللغات ذات القواعد المعقدة والأصوات الصعبة  
والتي ألفاظها ليست كمعظم الألفاظ الإنجليزية ذات طابع عالمي في أصولها  
ومجالات استعمالها .

٤ - اختيار لغتين أو أكثر ، وتقسيم الدنيا إلى مناطق ، في كل منطقة  
تستعمل اللغة المختارة لها بوصفها لغة مشتركة تنظم كل أنشطتها ، ويتكلم بها  
جميع الناس فيها . وقد دعا « ستالين » لذلك غير أن هذا الاقتراح لا يكاد  
يحقق وحدة الإنسانية ، ولا يبدو أن يكون الوضع القائم الآن في العالم .  
هذا إلى أنه يفرض على غير أصحاب هذه اللغات اختباره عبثاً ثقيلاً ، ويجعلهم  
في وضع أدنى . وقد نصيبهم من أجل ذلك عقدة النقص اللغوي التي أشرنا  
أنفاً إلى أنها كثيراً ما تثير الشعوبية والانفصالية

ومع كل هذا نعلم من أمثلة المثل في تحقيق لغة عالمية أي تنطلق إليها  
إسمائية حد أن هناك عناصر هامية وردد مع رموز شبيهة وأثرهما في تصوير  
اجتماع الإنساني وهما .

١ - اطراد السهولة في اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وحثية الزيادة  
المستمدة في هذا الاتصال على مرور الأيام .

٢ - شعور الناس في جميع بقاع الأرض بحاجتهم الماسة إلى وسيلة موحدة  
للتصالح . وسواء تم هذا عن طريق لغة مصنوعة أو لغة صيدية ، قديمة أو حديثة  
لا يهم . وإنما المهم وجود هذه اللغة والاتفاق عليها بين الناس جميعاً ،  
كلاماً ونطقاً ، بل كتابة وحطاً أيضاً .

العالم إذن في مستقبله في أشد الحاجة إلى لغة عالمية موحدة الأصوات موحدة  
الألفاظ موحدة التركيب والأساليب . وأخيراً موحدة الرموز الخطية

على أننا لا نحفل كثيراً بوحدة الخط أو الرموز الكتابية في العالم ، وتنبت دائماً فيما نعالجه من بحوث باندثار هذه الكتابة الهجائية في مستقبل الأيام ليحل محلها التسجيل الصوتي ، أو الكتابة التي تقرأ بالأذن لا بالعين .. فند ما يقرب من ثلاثين قرناً استقرت الكتابة الهجائية على الوضوح المألوف لنا الآن وهو تخصيص رمز كتابي لكل صوت من أصوات اللغة . ولم يكدها بصيها خلال كل هذا الزمن الطويل تطور يذكر ، في حين أن نطق الألفاظ قد ناله تغير بعيد المدى ، مما أدى إلى تلك الحال التي شهدناها الآن في كثير من اللغات الحديثة حين نجد رموزاً تكتب ولا تنطق ، وأصواتاً تنطق ولا تكتب :

وفي العلم الآن أنواع خمسة أساسية للرموز الكتابية . لا تزال تصطنع في بعض اللغات فتزيد الفُرقة بين الشعوب :

١ - الرموز اللاتينية وهي التي تكتب بها معظم لغات أوروبا مع لغات أخرى في العالم . وأمرها معروف لنا .

٢ - الرموز السيريلية « وهي التي وضعها اثنان من كبار رجال الدين في القرن التاسع الميلادي بالقسطنطينية وهما « سيريل » و « مشوداس » بسبب عدد ذلك في أبواب مذهبهما . وقد سجدت هذه الرموز من كتبه الإغريقية القديمة مع بعض التعديل والتحويل لتناسب أصوات اللغات السلافية وتشيع الآن هذه الكتابة بين معظم الشعوب السلافية التي تعتنق المسيحية الشرقية مثل روسيا . أوكرانيا . الصرب . بلغاريا . في حين أن بولندا وتشيكوسلوفاكيا وكرواتيا تستخدم الرموز اللاتينية رغم أن سكانها من « السلافيين » . وترتب على هذا أن اللغة السائدة في يوغوسلافيا وهي « الصربية » - الكرواتية « التي تعد في الحقيقة لغة واحدة . تكتب في هذه الدولة بطريقتين . اللاتينية والسيريلية . وتذكرنا هذه الحال في « بلجراد » أسماء الشوارع التي تكتب بهاتين الصريقتين . وكذلك الإعلانات العامة . بل حتى بعض الصحف القومية

٣ - الرموز العرسة التي تستخدم الآن في كل البلاد العربية وجهات

أخرى من العالم مثل لغة « الهوسه » في غرب أفريقيا ، والسواحيلي في شرقها ، كما تستخدم في جاوة والملايو وإيران وباكستان وبعض جهات الفيليبين .. إلخ .  
 ٤ - الرموز الصينية التي تستخدم في جمهورية الصين وفي اليابان وكوريا وجهات أخرى من آسيا .

٥ - الرموز الديفانا حارية Devanagari وهي الرموز التي كانت اللغة السنسكريتية تكتب بها . وطلت تستخدم حتى الآن في اللغة الهندستانية الحديثة . ومعنى الاسم « ديفانا جارية » : المنسوب إلى مدينة الآلهة <sup>(١)</sup>

ويصف اللغويون المحدثون هذه الكتابة المحيائية بأنها صورة قاصرة في تصوير اللغات كما ينطق بها أنساؤها . وقد دعت هذه الحال بعض المصلحين في كثير من الأمم إلى التفكير في إصلاح الهجاء أو الإملاء غير أن كل تلك الحركات الإصلاحية لم تؤت ثمارها وباعت بالفشل . فقد أشفق حتى هؤلاء المصلحون من إعادة طبع تلك الآلاف من المجلدات التي هي تراث كل لغة بالإملاء الجديد كذلك خشي أصحاب الدعوة إلى إصلاح الهجاء في اللغات الأوروبية . بصعوبة خاصة . من ابتعاد الألفاظ التي ننسى إلى أصل واحد بعضها عن عصر . فنسبى ذلك الأصل . وحصل المرسوم في التعرف على ويبدو أن من الأسباب التي باعدت بين كسب الألفاظ وبطونها في معظم اللغات الأوروبية الحديثة أن هذه اللغات قد اتخذت الرموز اللاتينية . وطقها على كلماتها ، فلم يصلح لها صلاحيتها للغة اللاتينية

وهكذا يرى أن الكنانة المحيائية في العالم كانت ومازالت وسيلة ناقصة لدرمر إلى الألفاظ كما تنطق . وأنها حذت فلم تتطور منذ قرون كثيرة . ولم تعد صالحة لحل كل المشاكل اللغوية بعد أن قطعت الإنسانية ذلك الشوط البعيد من الحضارة . فهي وإن خدمت الفكر الإنساني في العصور الماضية . وهي وإن كانت في بدء نشأتها قد نسبت إلى الآلهة ونظر إليها نظرة تقديس ، قد أصبحت الآن لا تلائم عصر الذرة والمد ياع .



لذلك نتنبأ بمستقبل فيه تُسجل اللغات تسجيلاً صوتياً يقرأ بالأذن لا بالعين. وإذا كان المثل الصيني القديم يقول : « إن الحبر مهما كان شاحاً فهو خير من أقوى ذاكرة » . فذلك لأنه لم تكن هناك وسيلة أخرى لحفظ التراث الفكري ربما طويلاً . ولأن الاعتماد على العين في القراءة قد أضعف الذاكرة السمعية ، فلم تعد لها تلك القوة التي رويت لنا عن العرب القدماء أيام الأمية في شبه الجزيرة .

وليست الكتابة الهجائية في حقيقة أمرها سوى رمز لما هو نفسه رمز .. فمن نكتب رموزاً لتوضيح رموز أخرى هي الأصوات التي نسمعها في أثناء النطق. وأصوات اللغة ليست إلا رموزاً لما يبدو في الأذهان من الدلالات والمعاني التي هي الهدف الحقيقي من كل كلام . فلماذا نتخذ وسيلة إلى وسيلة أخرى إذا كان من الممكن تسجيل تلك الأصوات كما تنطق فوق الأشرطة والأسطوانات ؟

فالكتابة الهجائية بعد اختراع « الراديو » وانتشار الإذاعة والتليفزيون الناطق بدأت تتفقد كثيراً من أهميتها وأصبحنا الآن نتساءل بمستقل للغة وه يعود بسمع سبطه . وفي غرب الأدب حتى يكون أكثر حسية وإرهاقاً . فميريس لتروفي أصويه مهما لطعت . ونسب من الكلام ما نأه الأدب . وما سوي السمع . وتصير اللغة إلى الموسيقى أو ما يشبه الغناء . وجيشد يسود أدب الأدب . تلك الآداة الطبيعية التي نشأت اللغات معها . وعتت واردة في طلالها آلافاً من السنين في قديم الزمان . فمصر الثقافة اللغوية العالمية مرهون كله بالإذاعة وانتشارها . والتسجيل الصوتي وشيوعه .

وفي الحديث عن اللغة العالمية نعترض الباحثين مشكلة الكبار من أبناء الشعوب أولئك الذين استقروا على لغة معينة لا يتقنون غيرها . ولا يفوقون على تعلم لغة أخرى

عبر أنا ونحن نصدد مشروع عالمي بهدف إن سعادة الإنسانية كلها في مستقبل . وبكامل لكل الأحوال انقادمة وثاماً وسلاماً وأماً ورجاء . حب ألا

نشغل أنفسنا بجيل واحد من الناس . فليكن هذا الجيل هو الضحية أو القربان الذي تقدمه الإنسانية لسعادة الأحماد ، وسيادة السلام والاطمئنان بينهم . وهكذا يرى أن الدعوة إلى لغة عالمية قد مرت في مراحل متعددة ، وقُدمت بصدها مقترحات متنوعة . لعل أكثرها قبولاً لدى الدارسين ما ينادى به معظم الباحثين من اختيار لغة عالمية يتعلمها الناس جميعاً منذ طفولتهم مع لغاتهم المحلية . أى أن يصبح المرء ثنائى اللغة له لغته التى لقنها منذ ولادته وبين أهله وذويه . ومعها حنناً إلى حب لغة أخرى عامة يبدأ تعلمها في دور رياض الأطفال والمدارس الابتدائية ، ويسيطر عليها مع الزمن ، حتى إذا شب وأصبح بحاجة إلى التفاهم مع أبناء بيئة أخرى وجد السبيل ممهداً والاتصال يسيراً .

وتجمع تحاب المربين من المحدثين على أن تدرب الطفل على لغتين أمر ممكن . بل هي يسيرة حتى مع متوسطى الذكاء من الأطفال . وكل الذى تحتاج إليه الشعوب لتحقيق هذا صدق العربيه من حاب الهيئات الحكامه ومن بينهم مقاليد الأمور في الدول المختلفة<sup>(١)</sup>

ويجب لصالح بحج الممكرة العالميه في لعه أن تبدأ الدعوة حاب الشعوب لا على أساس عه نعيمه . بل على أساس الافصح . شكره واحسن لها فإذا تم الاقتناع بها وتحملت كل الشعوب لها . أمكن بعد ذلك التفكير في اللغة التى يقع عليها الاختار

فالاقترحات مع تعددها مدروسه دراسة وافيه ، ولا نطلب مزيداً من البحث . وليس على الشعوب إلا اجتماع كلمتهم على تلك اللغة التى يختاروها . ثم تقرر الحكومات تعليمها على الجيل الناشئ من رعاياها على النحو الذى شهده الآر في نحو الأمية أو قل . مع عريجه أمصى وجهد أكبر وثقة بالمستقبل .

إد سم الاتفدق بين ادور مصروف الطر عن طصها اسيسيه ولاقتصاده

أمكن أن تؤلف اللجان ذات الصبغة العالمية ، وأن يوكل إليها اختيار تلك اللغة المنشودة . وتنظيم الخطة التي تكفل تحقيق ذلك الهدف الإنساني النبيل .

ويشهد العالم الحديث وسائل للاتصال بين الشعوب لم يكن يحلم بها من قبل حتى أكثر الناس تماؤلاً في مستقبل الإنسانية . فلم تعد البحار أو الجبال أو الصحارى تحول بين الشعوب . ولم يعد من الممكن لأحد هذه الشعوب أن يعزل عن العالم . أو أن يعيش على الاكتفاء الذاتي . فحتمية الاتصال من أوضح مظاهر العصر الحديث . ولدينا الآن من الطائرات ما يفوق سرعة الصوت . بل لدينا الإذاعة والتليفزيون وسفن الفضاء وغيرها من وسائل جعلت قول . « الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » أمراً قريب الاحتمال غير بعيد المنال .

وتحاول الشعوب الآن جاهدة زيادة الصلة بينها . ونجحت حتى الآن في لغة الموسيقى ورموزها العالمية . فأصبح الموسيقيون في العالم الآن يفهم بعضهم بعضاً في سهولة ويسر . كما نجحت في كثير من مصطلحات العلوم ورموزها ولا سيما في الكيمياء والرياضة . ثم أخيراً تلك المنظمات العالمية كالبيونسكو ومصلحة الأمم المتحدة

ومع كل هذا لا يزال لا نحس منصوراً . والتعاميم عبرة دم سبب ، عبور الإنسان فوق الأرض من وسيلة يتخاطب بها الناس . ويعبرون بها لا عن أفكارهم وآرائهم وحسب . بل عن أحاسيسهم وعواطفهم أيضاً . وتلك هي اللغة العائدة التي تتطلع إليها الإنسانية

ولا صبح أن يساق مع بعض المتشائمين من المفكرين الذين يؤكدون لنا استحالة وجود هذه اللغة ، ويدرون في أمثلة التاريخ ما يؤيد رأيهم . وأن لغة نابل ستظل تلاحق الإنسان في حياته الدنيا إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات . في رأيهم أن اللغة دورة حتمية تتلخص في أن لهجات اللغة يشأ بينها صراع ثم لا تلبث أن تتعلب إحداها وأن تتكون على أساسها لغة مشتركة تضم شعوباً متعددة . ثم بصيب الهرم أو الشبحونة هذه اللغة المشتركة

بعد حين ، فتندثر أو تنحل إلى لهجات متباينة وتعود مسرتها الأولى .

اللغات إذن في رأيهم تتنازعها الوحدة ثم الفرقة أو الاندثار . ولن يكتب لإحداها الخلود . ولن تنتظم إحداها كل مناطق الأرض . وكل شعوب الأرض ، سواء منها اللغة الطبيعية أو اللغة المصنوعة .

ونحن مع هذا نشعر بميل إلى رأى المتعائلين من المفكرين . وهم كثيرون منهم اللغوي ومنهم الفيلسوف ومنهم المصلح الاجتماعي . ويؤمن هؤلاء المتفائلون إيماناً عميقاً بأن مصير العالم إلى الوحدة اللغوية . وأن كل الدلائل في العصر الحديث تشير إلى هذا . أما ما يتحدث عنه المتشائمون من انحلال اللغة إلى لهجات فيما مضى من عصور التاريخ ، فإنما كان ذلك بسبب انزوال البيئات بعضها عن بعض ، وتلك حال لا يتصور تكرارها في العصر الحديث . فشكة الاتصال بين شعوب العالم الآن محكمة الحلقات وثيقة العرى ، ولن يشهد عالم المستقبل ما كان يسمى في الماضي بالبيئة المعزلة . إذ تلح الحاجة إلى مزيد من توثيق الصلات بين نبي الإنسان يوماً بعد يوم . وكل الذي يتطله تحقيق ذلك الحلم السعيد المتمثل في لغة عالمية . هو صدق العزيمة من حجاب الحاكمين في كل شعب

وإذا اتفقت كلمتهم في مظهر الأمم المتحدة مثلاً . وخلصت نواياهم . وأمسوا أن كثيراً من شرور الدنيا ومآسها مبعثه الحقيقي فقدان الوسيلة المشتركة للفهم بين الناس جميعاً . أمكن تحقيق ما تصبو إليه الإنسانية

وأياً كانت تلك اللغة العالمية التي ستستقر عليها إرادة الشعوب . صعبة أو سهلة . طبيعية أو مصنوعة ، واسعة الانتشا الآن أو صعبة ، فكل هذه تفاصيل يمكن أن تدرس وأن تكون محل البحث بين ملوكي الشعوب في هذه المنظمة . والأمر الحاسم في هذا هو أن يحس حكام الشعوب إحساساً صادقاً أن في اللغة العالمية خير البشرية وسعادتها ورخاءها

ومع هذا فليس الأمل في تحقيق ذلك الحلم السعيد مفصلاً عليه إذا لم تنفق

الشعوب على أمر معين ، أو لم يهتدوا بإرادتهم إلى تلك اللغة المنشودة ، فسيكفل التاريخ تحقيق ذلك ، وإن كان في شكل أبطأ ، وفي زمن أطول

ويتنأ بعض المحدثين من اللغويين بأن الصراع القائم الآن بين الكتلتين الشرقية والغربية سيستهي حتماً إلى انتصار إحدهما . وستعرض الكتلة المتحصرة لغتها على العالم لتصبح اللغة العالمية للناس جميعاً <sup>(١)</sup>

ولكننا في تفاؤلنا لا نذهب إلى مثل هذا الرأي ، ولا تقتنع به . بل نتخذ من التطور التاريخي للإنسانية . نبراساً يهدينا إلى مستقبلها أو نستشف منه مصيرها .

ومنى سلمنا بأن النظام القبلي في تاريخ البشرية لم يكن إلا امتداداً لنظام الأسرة ، وأن نشأة الدول لم تقم إلا على أساس ذلك النظام القبلي ، فليس من الشطط في التفكير أو الإسراف في التفاؤل أن تصور أن الدائرة تتسع مع الزمن . وأن نظاماً عالمياً يقوم على أساس المدن والقرى ، ويكون امتداداً للدول ونظمها الحاضرة .

فإذا تحقق هذا وأصبح للعالم نظام سياسي واجتماعي موحد . نشأت تلك لغة عالمية من حيث مدى ولا مدى . وبعد لإسائه أقصى ما ننسوا إليه

• • •



## الفهرس

صفحة

٥

المقدمة

المفصل الأول اللغة ٣٨ ١١ . . . . .

١ أوضح تعريف للغة

٢ المفردات الأربعة في كيان اللغة

أولاً نظام اللغة - فكل لغة نظام وقواعد نحصص لها - حتى  
في أكثر اللغات نداعة هل القدر المشترك بين نظم  
اللغات مصدره العطرة الإنسانية ؟ أمثلة من وجوه  
الشبه بين اللغات في العلم

ثانياً عرقية اللغة ، وأدلة المحدثين على عرقية الظواهر في كل  
لغة فأصل العرف في اللغة وعمق حدوده - واكتسابه  
ما شبه القدامسة الفرق بين العرف في اللغة والعرف  
في بعض المظاهر الاجتماعية الأخرى

ثالثاً الأصوات - عرض سريع لدور الأصوات في اللغة  
الإنسانية

رابعاً المجتمع الإنساني - لا وجود للغة إلا في مجتمع إنسان  
هل كان لطفل قصة حتى من نطق لغة إنسانه ؟  
وهل يمكن أن نشأ للطفل الذي تربيه القردة والعراة  
لغة ؟ وهل لأنواع الحيوان لغة كاللغة الإنسان ؟ دور  
المجتمع الحديث في الثورة اللغوية الحديثة

المفصل الثاني القومية ٨٧ ٣٩

١ - صعوبة تعريف القومية

٢ موقف القدماء من فكرة القومية

٣ أطوار المجتمع الإنساني نظام الأسرة ثم النظام القبلي ثم نظام  
الدولة

- ٤ - التشخيص الصحيح للقومية يتم في ضوء التاريخ الحديث .
- ٥ - ظهور القوميات الحديثة في غرب أوروبا أولاً . وعوامل نشأتها .
- ٦ - انتشار تيار القومية في سائر أوروبا وموقف الدول الكبرى منها
- ٧ - نسرت فكره القومية إلى أفريقيا ، واستقلال عدد كبير من دولا
- ٨ - القومية في آسيا .
- ٩ - مقارنة بين الظروف التي نشأت فيها القوميات في أوروبا ، وتلك التي نشأت فيها في أفريقيا وآسيا

### الفصل الثالث : اللغة والقومية ٨٨ - ١١٢

- ١ - موقف بعض السباسبين الساعرين من القومية
- ٢ - اختلاف الباحثين في أمر الدعامة الأساسية للقومية ، هل هي مشيئة المعيشة المشتركة ؟ هل هي المصالح الاقتصادية المشتركة ؟ هل هي اللغة ؟
- ٣ - فكرة الأخماس الشريفة . إلى أي مدى تسهم في شخص القومية ؟
- ٤ - الدين أو لعمريته وصلتهما بالقومية
- ٥ - الثقافة ومدى أثرها في تشكيل القومية
- ٦ - لغة أو أساس ؟ كل قومية لغة ، لغة أو أساس ؟ دورها في القومية
- ٧ - اللغة المشتركة تعبر آخر ما يسمى بالقومية . للدراسة الأساسية ودورها الوثيق بين اللغة والقومية
- ٨ - شخص حجاج الدين يسوقون « منطقاً » و « سر » كأمثلة يرضون على وهي الرابطة بين اللغة والقومية

### الفصل الرابع . فنش عن اللغة ١١٣ - ١٤٧

- ١ - أمثلة حية لمشاكل الحدود بين اللغات . ودور اللغة في هذه المشاكل .
- ٢ - مشاكل مصدورها اختلاف اللغة . في أحد ( ) مولانا « بهار » بين اللغة الأوردية واللغة الهندية (ب) مطالعة « السبع » ولانته بسود فيها تعبير « استعانة »



( > ) صراح الدموي في منطقة « مدراس » بين الغنر  
« الهندسانية » و « النامل »

٢ مشاكل اللغة في أفريقيا وعرض . وكذا

٤ أشهر المشاكل بين دول أوربا . ودور اللغة فيها

الأكراس والاورين . منطقة السار . في لوكسمبورج . على  
حدود ألمانيا . في بلجيكا . في أيرلندا . في فنلندا . في بولندا  
في تشيكوسلوفاكيا . في النمسا . في النرويج . في النرويج . إلخ

المجلد الخامس أشهر لغات القومية الحديثة . ١٤٨ - ١٧٠

أولاً في أوربا

١ من مجموعة الجرمانية : الدنماركية . السويدية  
النرويجية . الألمانية . الهولندية

٢ مجموعة اللطيفية : السلطانية . اللاتفية  
المسلوفاكية . الصربية الكرواتية . اللغارية  
التشيكوسلوفاكية . البولندية . الروسية القسسية .  
الأوكرانية

٣ من مجموعة اللغات الرومانية : الرومانية . الإيطالية .  
الرومنية . القطلونية . الإسبانية . البرتغالية

٤ النرويجية الحديثة

٥ اللغة الألبانية

٦ « النيبه » لغة هند

٧ النمساوية

ثانياً في آسيا

الهندسانية . السهالية . البنغالية . المهاراتية . السحانية .  
الفارسية . الكردية . الناشتو . الأرمينية . التركية . التاميلية .  
الكمبارية . التلوجو . لغة الملايو . الصينية . التبتية . التبتية .  
البنغالية الكورية

ثالثاً في أفريقيا

الأمهرية . الصومالية . المجموعة السودانية . مجموعة البانتو .

## الفصل السادس القومية العربية

- ١ . مقوماتها في رأي بعض المدارس ومناقشة هذا
- ٢ . مدى صلتها بالإسلام
- ٣ - القومية العربية قبل الإسلام وتمثلها في اللغة
- ٤ . القومية العربية في عصر الأمويين وتمثلها في اللغة واداء
- ٥ . انتشار الإسلام في فارس
- ٦ . صراع العرب مع الفارسية
- ٧ . الشعوبية صراع يعنى
- ٨ . أطوار تاريخية للعروبة . أحداث بار الأديب من شبه الجزيرة إلى البصرة والكوفة ثم إلى بغداد . ثم إلى الشام . ثم إلى مصر
- ٩ . استقرار القومية العربية في الأمصار واستمرار اللغة العربية فيها
- ١٠ . القومية العربية في العصر الحديث ودور اللغة فيها

## الفصل السابع العالمية واللغة

- ١ . فشل المجتمع الإنساني في تحقيق السلام خلال العصور التاريخية
- ٢ . هل مثل الأسره قومه ص د ١ . هل مثل لفسله قومه أكبر ١
- ٣ . دور اللغة في التاريخ في أفراد الأسره وأفراد القومه
- ٤ . نظام الدولة الحديثة امتداد للنظام القبلي
- ٥ . دعوة الإسلام والمسححة إلى العالم بروحه ومفهدها من اختلاف اللغات
- ٦ . نوادر المنكره العالميه في العصر الحديث
- ٧ . القومه سلاح ذو حدين . ١ أثرها ومثالبها
- ٨ . هل تنصر العالمية على القومه في مستقبل ٢ . وهل تصبح العالمية امتداداً لقومه الدولة كما أصبحت الدولة امتداداً للقبيلة ٣

## الفصل الثامن : لغات عالمية في التاريخ .

## ١ - اللغة الأكادية :

- ( أ ) صراعها مع اللغة السومرية - ونتيجة هذا الصراع .
- ( ب ) لغة الحضارة في عهد « حمورابي » ، ولغة البابليين والأشوريين .
- ( ج ) انتشارها بين عدة شعوب في آسيا الصغرى .
- ( د ) اصطلاح الدولة الفارسية لهذه اللغة .

## ٢ - اللغة الآرامية :

- ( أ ) انتشار الآراميين في مناطق آسيا الصغرى .
- ( ب ) أوضح صفات الشعب الآرامي المسألة والعزوف عن الغزوات والحروب ، وإيثارهم للتجارة والتعايش السلمي مع الشعوب الأخرى .
- ( ج ) أسباب انتشار هذه اللغة : مساندة أهلها : وسهولة أصواتها وتراكيبها وهجائها : وتشجيع الفرس لها .
- ( د ) روايات عن استعمالها بوصفها لغة عالمية .
- ( هـ ) ما خلفته من نقوش وكتابات في مناطق متباعدة .
- ( و ) هل تركت الآرامية أثراً في اللهجات العربية الحديثة ؟

## ٣ - اللغة الإغريقية :

- ( أ ) « الأتيكية » لغة الفنون والآداب والفلسفة في عصور الازدهار للثقافة الإغريقية .
- ( ب ) الإمبراطورية الإغريقية واتساع رقعتها بعد الإسكندر .
- ( ج ) نشأة اللغة « الكوينية » كلغة مشتركة للإمبراطورية . وما اتسم به هذه اللغة : وأشهر ما كتب بها .
- ( د ) كيف أصبحت لغة عالمية : والصفات التي أهلها لهذا .

## ٤ - اللغة اللاتينية :

- ( أ ) لغة الإمبراطورية الرومانية . سعة انتشارها في الشرق والغرب .

صفحة

- ( ب ) اللاتينية الكلاسيكية ، واللاتينية العامية .  
 ( ج ) اللاتينية المسيحية في القرون الوسطى ، وتطورها في  
 عصر النهضة إلى لغات أوربية حديثة . موقف  
 المثقفين في أوروبا من اللاتينية في العصر الحديث .  
 هـ - اللغة العربية :

- ( أ ) ازدهارها قبل الإسلام .  
 ( ب ) انتشارها مع الفتوحات الإسلامية . ثم استقرارها في  
 مناطق متباعدة من المحيط إلى الخليج .  
 ( ج ) تغلبها على اللغات في العراق والشام ومصر وبلاد المغرب .  
 ( د ) سمات العالمية في اللغة العربية .  
 ( هـ ) هل يمكن أن تتشعب العربية إلى لغات مستقلة  
 كما حدث لللاتينية ؟

٢٩٧-٢٨٣

### الفصل التاسع : لغات عالمية في العصر الحديث

#### ١ - اللغة الفرنسية :

- ( أ ) عصر النهضة الأوربية .  
 ( ب ) نشأة اللغات الخمسة في أوروبا ومعها القوميات الحديثة .  
 ( ج ) تدهور شأن لاتينية الكنيسة وحمول اللغات المحلية  
 محلها .  
 ( د ) بلغت الفرنسية ذروة مجدها في القرن التاسع عشر .  
 ومظاهر عظمها حينئذ .  
 ( هـ ) الفرنسية لغة عالمية تستخدم منذ القرن الثامن عشر في  
 المعاهدات الدولية .  
 ( و ) سعة انتشارها في مناطق متباعدة من العالم - وإصطناعها  
 في كل الطبقات .

#### ٢ - اللغة الإنجليزية :

- ( أ ) صراعها التاريخي مع - الكلتية - ثم مع « الفرنسية » .  
 ( ب ) الإنجليزية تستكمل كيانها المستقل في القرن الرابع  
 عشر .

- ( ح ) حركة الإصلاح الديني ، وأثرها في اللغة الإنجليزية .
- ( د ) اهتمام العالم الأوربي بآداب الإنجليزية منذ القرن الثامن عشر .
- ( هـ ) مشاركة الإنجليزية في المعاهدات الدولية منذ معاهدة فرساي .
- ( و ) الإنجليزية لغة عالمية ، والصفات التي أهلها لهذا .

### الفصل العاشر : لغة واحدة للعالم . . . . . ٣٢٧-٢٩٨

- ( أ ) استفتاء جالوب بهذا الصدد .
- ( ب ) آلاف من اللغات المختلفة تنظم العالم ، وتسبب مشاكل ومتاعب للإنسانية لا حصر لها .
- ( ج ) مزايا الوحدة اللغوية في العالم .
- ( د ) بدء التفكير في اللغة العالمية واختلاف المفكرين في هذا الصدد .
- ( هـ ) الجهود التي بذلت في وضع لغة عالمية : « الفولابيك » ، « الاسبرانتو » ، « الإيدو » . . إلخ .
- ( و ) أشهر الاقتراحات في وضع اللغة العالمية . والصورة التي تكون عليها .
- ( ز ) الإنجليزية الأساسية Basic English ، وما وجه إليها من نقد .
- ( ح ) كيف تكتب اللغة العالمية ؟
- ( ط ) هل يتحقق وجود لغة عالمية تنظم العالم كله في المستقبل ؟

\_\_\_\_\_

;

.

;

\_\_\_\_\_